والتشيع

السيرة النبوية

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

بنو إسماعيل ﷺ

عبد الحميد جوده السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَم اللهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(قرآن كريم سورة البقرة : ١٣٩ ، ١٤٠)

وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم ، الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم ، وهذه أسماء بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم : بنايوت (نابت) بكر إسماعيل وقيدار ، وإذبئيل ، وميسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، وبطور ، ونافيش ، وقدمة . هؤلاء هم بنو إسماعيل ، وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم » .

(التوراة ــ تكوين ٣٥ ، ٣)

قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط .

١

أنفاس الدين تتردد فى جنبات مكة ، وقلب الإيمان يخفق فى أول بيت وضع للناس ، والفيض الروحى يومض فى قلوب المؤمنين فيرفع أحلامهم إلى ما وراء الطبيعة ، إلى هدف علوى تشتاق الأفئدة إليه وتقصر عن أن تبلغ مداه وإن جدت فى الطلب ، وإن اجتهدت فى العمل .

قيثارة الإيمان تعزف ألحانا تسمو بالمؤمنين إلى رحاب السماء فتبث فى نفوسهم قوة تدفعهم إلى العمل فى سبيل الله ، وتجعلهم يسيرون فى تناسق فى اتجاه واحد ، فإلههم واحد وقبلتهم واحدة وغايتهم واحدة هى إعادة كلمة الله .

كانوا يعيشون لله وفى الله وبالله ، اشتعلت الشعلة المقدسة فيهم وأنار النور ــ الذى أنزله الله من السماء ــ طريقهم ، فإذا بالمجتمع الصغير الذى تكون حول بئر زمزم قد انصهر فى مجتمع واحد متناسق ، أفكاره واحدة وعقيدته واحدة ، اتحدت كلمته واتفقت نظرته واطمأن إلى أن المجتمع لله والأرض لله ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

وانحدرت الشمس لتغرب خلف جبال مكة فخرج الناس من خيامهم التى انتشرت على سفوح الجبال ، وراحوا يهبطون إلى الوادى المقدس ليطوفوا بالبيت العتيق .

وخرج نابت بن إسماعيل من خيمته وكان شيخا جليلا ، ولى أمر البيت بعد أبيه إسماعيل ؛ إنه من الصفوة خلاصة حضارتين عظيمتين ، حضارة بابل

ومصر ، فقد كان جده خليل الرحمن من أور وجدته هاجر من مصر ، وكان أول وريث للنفحة الروحية التى بثها فى مكة جده وأبوه .

تعلم أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده ، فكان يبارك قوافل التجارة الغادية إلى مكة والخارجة منها ، وفى نفس الوقت يغذى الوجدان الروحى النابض فى قلوب المؤمنين ، ويقيم حضارة المجتمع الجديد على تقوى من الله وأساس من الدين .

جاب إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها يدعو الناس إلى عبادة الله فى بابل وسورية وفلسطين ومصر وبلاد الحجاز ، وخرج إسماعيل لدعوة اليمن إلى الله الواحد القهار ، كانت دعوة إلى أخوة عالمية وإلى إقامة نظام عالمى تسوده شريعة الله ، فورث نابت الفكرة ولم يتعصب للقومية الجديدة التى كانت تتبلور حول زمزم والبيت المحرم ، بل كان يجوب الآفاق ويبعث قوافل المؤمنين إلى الأرضين دون أن يعترف بحواجز ولا حدود ، فالأرض كلها لله .

كان نابت من الطبقة الممتازة القادرة على حمل الرفاق إلى طريق الدنيا والدين ، إلى عز الحياة ونعيم الآخرة ، وكان صوته يفعل فى الجماهير فعل السحر ، كان يوقظ الهمم ويبعث الأمل ، فهو منذ أن ولدته أمه معقد الرجاء ، وقد نزل فى سويداء قلوب المؤمنين .

ونظر نابت حوله فرأى غنمه وغنم قومه قد غطت سفوح الجبال ، فلم تتهلل بالفرح نفسه ، ولم يسل لعاب طمعه ؛ فقد تحرر من عصبية القومية الاقتصادية يوم غرس فى نفسه أن المال مال الله ، والعاقبة للمتقين .

رأى الكعبة غارقة فى النور وإن كانت الشمس قد غابت أو أوشكت أن تغيب . كان الكون كله خاشعا فى محراب الله ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، وعباد الرحمن يشكرونه وعلى ربهم يتوكلون . والجبال تؤوب مع الساجدين ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه .

وأحس نابت رحابة فى نفسه ورقة فى وجدانه وأن روحه قد هامت لتتصل بروح الوجود ، وأنها سبحت فى بحور النشوة التى غمرت السموات والأرض ، وأن مشاعره كلها قد خرت ساجدة لله رب العالمين .

وألقى ببصره إلى بئر زمزم فإذا بالناس قد ازدحموا عندها : الرعاة قد وردوها ليسقوا غنمهم وإبلهم وماشيتهم ، والنسوة ينتظرن ليملأن جرارهن ، وإذا به يشرد ويتذكر هاجر جدته من كانت تملك البئر المباركة التى بدأت تتكون حولها أمة مؤمنة على نور من ربها وعلى صراط مستقيم .

نبض الوادى القفر بالحياة ، وخفقت فى ربوعه أرواح نفوس مؤمنة عرفت طريق الله ، وقام فى وسطه بيت مطهر تهفو إليه قلوب المسلمين ليكون منارة للعالمين ، فإن كان الله قد أمر خليله أن يحمل هاجر وإسماعيل إلى هذا الوادى فقد كان ذلك لنبأ عظيم ، لأمر جليل . وما الله يريد ظلما للعباد .

وانحدر نابت إلى الوادى وهو يبتهل إلى الله .

— ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

وحانت منه التفاتة إلى شمال مكة فألفى خيام جرهم قد غطت سفوح الجبال بعد أن كانت خيامها قليلة متناثرة على عهد هاجر وإسماعيل . أصبحت جرهم قبيلة قوية وكان سيدها مضاض بن عمرو الجرهمى رجلا قوى الشكيمة له مكانته فى قومه لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والتفت إلى الجنوب فإذا بخيام قطوراء انتشرت كقطع الليل تغطى الأرض ، كانت قطوراء قبيلة من العماليق ، وكان سيدها السميدع قد استأذن هاجر أن تنزل قبيلته حيث نزلت فأذنت له ، على أن تقر بأن زمزم لها ولأبنائها من بعدها .

كانت البئر لهاجر ولكنها لم تكن ملكية خاصة ، فقد سمت عن أن تكون ملكية خاصة ، إنها للجميع يردها من يشاء لا يصد عنها إنسان . كل ما كان

لهاجر ولأبنائها من بعدها أن يصونوا حرية الشاربين وأن يكون لهم شرف سقاية حجيج بيت الله .

وراح نابت يهبط فى الجبل وقد ولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وانطلق ابنه يشجب فى أثره وأطبق شفتيه احتراما لصمت الشيخ الجليل وما يدور فى رأسه من أفكار .

كان نابت مشغول البال بمضاض بن عمرو وبالسميدع وبأطماعهما التى تطل برأسها بين الحين والحين ، إنه يطمع فى أن يؤلف بين قلوب الجراهمة وقلوب قطوراء ، بل يطمع فى أخوة الجنس البشرى بينما كانت أطماع الآخرين أن تنصب كل قبيلة نفسها سيدة على القبائل الأخرى .

إنه يخاف على قومه شر الانقسامات الداخلية لأنه على ثقة أن الشقاق هو السوس الذى ينخر فى عظام قومه ، وما كان يخاف عليهم أن يغزوهم قوم آخرون بل كان يخشى أن يكون بأسهم بينهم شديدا .

فإذا كان اليوم سيد قومه ، له ولاية البيت وسقاية الحجيج ، يدين له بالزعامة والولاء جرهم وقطوراء ، ترى أيدين عمرو والسميدع بالولاء لإخوانه وأبنائه من بعده ؟

إن عمرا صاحب أطماع ، ويزيد من خطره أن إسماعيل وبنيه تزوجوا نساء من جرهم ، فأصبح عمرو وقبيلته أخوال بنى إسماعيل وهذا شرف يطال به على قطوراء والعماليق ، ولكن السميدع رجل حرب بأسه شديد وسلطانه مبين ، بعد أن دانت للعماليق الشام ومصر .

إن دعوة إبراهيم لا يزال وهجها شديدا فى قلوب من نزلوا حول زمزم ، أيستطيع نور الإيمان أن يبهر وساوس الشيطان فى نفس عمرو وفى نفس السميدع ، أم تنتصر شهوات الدنيا وتقوم بينهما حرب ؟

وأفزع ذلك الخاطر الشيخ وزلزل كيانه ، أيكون فى الحرم ــ الذى يلوذ

به الخائف ويأمن فيه الطير — قتال ؟ أتسفك الدماء فى البيت الذى أقيم ليكون منارة للسلام ؟ أتنتهك حرمة البيت وفيه أحفاد الخليل ؟ جزع لذلك الوسواس فراح يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

والتفت الشيخ خلفه — وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا — فوقعت عيناه على ابنه يشجب ، فمد إليه يده وجذبه فى رفق وضمه إليه فى حنان ليقضى على القلق الموار فى جوفه ، وعلى الخوف من ذلك المجهول الذى استبد به .

ووقعت عيناه على منازل إخوته أسباط إسماعيل الصابر الأمين . إنهم أحد عشر زعيما ذوو قوة ومنعة ، تعلقت قلوبهم بالبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا كما تعلق به فؤاده ، فإن كانت أيامه على الأرض قد دنت فسيصون إخوته وبنوه حرمة البيت وسيظل مشرفا ما دامت السموات والأرض .

واستلم الحجر الأسود ، وراح يطوف بالبيت سبعا ، ويبتهل إلى الله ويدعو من أعماقه أن يصون بيته.وترقرقت العبرات فى مآقيه ، وكان كلما طاف بحجر إسماعيل حيث قبر هاجر وقبر أبيه ، يشرق بالدموع إذ كان مشفقا من فتنة تكون بعده .

وأتم طوافه وإذا بصوت يدوى فى أعماقه : إن للبيت ربا يحميه ، فاستشعر كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره وعاد لنفسه صفاؤها ورحابتها ، فذهب يصلى فى مقام إبراهيم وباب الكعبة أمامه وزمزم خلفه ، وقد عبق ما بين السماء والأرض بأريج أطيب من المسك لم يمتلئ به أنفه بل انتشت به روحه . وزاد فى طمأنينة فؤاده أن أحس كأن نورا انسكب فى وجدانه أنار بصيرته ، فقد كان على هدى من ربه .

جلس نابت فى الحرم وقد تهلل وجهه بالرضا ، وجلس يشجب إلى جواره ، وما إن رأى مضاض بن عمرو الجرهمى الشيخ الوقور حتى خف إليه

وجلس عنده يلقى السمع إل عذب حديثه . وسرعان ما هرع إليه السميدع بقلب سليم .

وجاء من كان فى الحرم من بنى إسماعيل إلى حيث جلس أمير القوم وشيخ الإسماعيليين وسلموا عليه فى توقير ، ثم جلسوا جميعا يصغون ، وإذا بصوت الزعيم يحلق بالمريدين فى فيض من الروح ويسمو بهم إلى هدف بعيد ، فنامت الأحقاد ودالت الدنيا إلى حين .

ودار الحديث عن القافلة التى تجهزت وتنتظر أن يأذن لها لتنطلق إلى مصر فإذا بأشواقه تتحرك ، فقد أقعدته السن عن أن يخرج مع الخارجين . إنه ضرب فى الشمال والجنوب والشرق والغرب وهبط إلى مصر ، فإذا كان قد استقر بجوار البيت فقد كانت الأرض كلها وطنه وقد مكنه دينه من أن يقضى على العصبية القومية السياسية ؛ فلم يعد يفضل أرضا على أرض أو شعبا على شعب .

وحانت منه التفاتة فرأى أخاه قيدار وابنه نبت يتحدثان مع كتّاب جلسوا عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، يكتبون الكتب ويبرمون العقود ويوثقون المواثيق ويشهدون رب البيت على ما اشترطوا من شروط ويسألونه أن ينزل غضبه على من خان أو ظلم ، فراح ينظر إلى أخيه وابن أخيه برهة وشع من عينه الحب العميق ، ثم عاد ليخوض مع من التفوا حوله فيما كان بينهم من الحديث .

وأقبل قيدار على الملأ مهيبا فخما عليه جلال لكأنما بعث إبراهيم خليل الرحمن من جديد ، كان أقرب آل إبراهيم شبها بجده العظيم ، فإن كانت ولاية البيت لنابت بكر إسماعيل فما كان سيل الضيفان لينقطع عن خيام قيدار السود .

كان قيدار ثانى أبناء إسماعيل وكان قريبا من قلوب إخوته وقلوب المؤمنين

لورعه وتقواه ، وما كان ابنه يشجب يفارقه فقد كان ينهل من بحر علمه ، وفسح الحاضرون مكانا للقادم الكريم ليجلس إلى جوار أخيه ، فانسل النبت ليجلس إلى جوار يشجب ابن عمه .

ودار الحديث وكان نابت بين لحظة وأخرى يلتفت إلى قيدار فيجده مشغولا عن عذب الكلام بأفكاره ، فمال عليه وقال فى رقة :

ــ ما الذى يشغل بالك يا أخى ؟

فانتبه قيدار من شروده وقال :

ــ الكتابة العربية .. إنها صعبة .. إن أبى رحمه الله يوم وضعها وضعها موصولة على لفظها ومنطقها .

ــ وما تريد أن تفعل بها ؟

ــ أريد أن أيسرها بأن أفرق بين ألفاظها .

ــ افعل بارك الله فيك .

تعلمت هاجر ــ أيام أن كانت أميرة فى مصر ــ الكتابة الهيروغليفية على أيدى كهنة منف ، وقد علمت إسماعيل صبيا تلك الكتابة عند بئر زمزم بعد أن أسكنها إبراهيم بوادى مكة ، فلما شب إسماعيل طوّر تلك الكتابة ووضع القلم العربى موصولا على لفظه ومنطقه ، وقد عزم قيدار على أن يفرق بين الألفاظ تيسيرا للكتابة ليخطو القلم العربى خطوة فى سبيل تطوره .

وقام نابت وقيدار فقام عمرو بن مضاض والسميدع ومن كان حاضرا من جرهم وقطوراء وبنى إسماعيل ، وانطلقوا إلى حيث كانت القافلة قد تجهزت للرحيل .

كانت القافلة تحمل البخور والطيب والفضة ، وشباب الإسماعيلــيين يتأهبون للانطلاق إلى وادى النيل ، فدنا نابت من شيخ القافلة وكان من بنى إسماعيل وقال له :

ــ هل جاءت الهدايا التى ستحملها إلى أبناء عمنا ؟

ــ نعم .

ــ وهدايا أختنا ؟

ــ إنها فى راحلتى .

كان المدينيون أبناء ابن عمه مدين ، وكان الأدوميون أبناء أختهم محلة ، وقد ولدتهم من ابن عمه العيص ، وسمى العيص آدم لأدمته فصار بنوه الأدوميين .

كان نابت على صلة طيبة بأبناء أعمامه جميعا ، وكان يرى فيهم ورثة النفحة الروحية الذين سينتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبنوا حضارة متألقة على تقوى من الله . فإن كانوا اليوم جماعات متفرقة إلا أنهم متناسقون لا بد أن يندمجوا يوما فى مجتمع واحد قوى ما دام إلٰههم واحدا وغايتهم واحدة ، وسيأتى اليوم الذى يسودون فيه بدينهم على كل الشعوب ويجعلون العالم أمة واحدة مؤمنة برب العالمين .

يا طالما زار عمه مدين وأخته محلة بنت إسماعيل ، وخرج إلى حبرون ليعزى فى موت عمه إسحاق ، وزار قبر الخليل ، واجتمع بابن عمه يعقوب وبنيه بعد أن عاد من حاران يحمل أهل بيته ، ويا طالما حاول أن يشد الأواصر بين بنى إسماعيل وبنى إسحاق ، فإن لم ينجح فى أن يحقق حلمه الجميل فى روح دين إبراهيم فقد كان على ثقة من أن ذلك الأمل سيتحقق فى يوم من الأيام .

كان قلبه عامرا بطاقة زوحية رفعته فوق شهوات النفس وعرض الدنيا وزينة الحياة ، فحسب أن قلوب بنى إسماعيل وبنى إسحاق تطهرت من حب المادة ما داموا قد ورثوا دين إبراهيم ، وأنهم سائرون على الطريق .

وتلفت حوله فإذا به محاط ببنى إسماعيل وأخوالهم من جرهم وبرجال من قطوراء ، رآهم فى تلك اللحظة كأنهم على قلب رجل واحد فأشرق وجهه

بالرضا وأشار للقافلة أن تنطلق وهو يقول :

— سيروا باسم الله وعلى بركة الله .

وفصلت العير وانسابت قافلة الإسماعيليين فى محراب الكون فى رعاية الله بعد أن ألقوا نظرة وداع على البيت المحرم ، ووقف نابت يرقب القافلة وقد راودته أشواقه وحملته إلى حبرون ، وإذا بهمس يسرى فى وجدانه : « يعقوب ! إنك مبارك ، إنك من الصالحين . ترى كيف حالك يا يعقوب ؟ » .

٢

وقف يعقوب يصلى فى المحراب فى خيمة الرب التى أقامها جده الخليل فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وكان قلبه خاشعا لذكر الله . ولما أتم الصلاة راح يسأل الله أن يأتيه فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ذهب إبراهيم الخليل و لم يترك فى حبرون إلا خيمة تقام فيها الشعائر ، فلم يأمره الله أن يقيم بيته فى حبرون ، بل بوأ له مكان بيته هناك فى مكة ، وأمره أن يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وعهد إليهما أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأمر إبرهيم أن يؤذن فى الناس بالحج يأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، وقد فرض الله على الناس حجه و لم يفرض عليهم أن يشدوا الرحال إلى حبرون ، ولا جرم أن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقدر الله أن يكون لبنى إسماعيل شرف ولاية بيته وخدمة حجيجه ،

وجعل الله لكل أمة منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلـٰههم إلـٰه واحد ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

وأوحى الله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ما أوحى وفضلهم على العالمين ، فإن كان الله قد أكرمهم فبما قدمت أيديهم فقد عنت وجوههم للحى القيوم وأسلموا لله رب العالمين ، وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

لا يفضل الله ذرية على ذرية ، ولا شعبا على شعب ، ولا أمة على أمة بل يصطفى من عباده المؤمنين ، كذلك يجزى المحسنين إنه كان خبيرا بصيرا .

وخرج يعقوب من الخيمة يتلفت حوله فألفى الوجود ساجدا فى معبد الرب ، يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد ، ولكن الكنعانيين قلوبهم غلف وفى آذانهم وقر ، عميت بصائرهم وقست أكبادهم ، وألهتهم التجارة والبيع عن ذكر الله فصارت غاية حياتهم جمع الأموال وإشباع الشهوات وجنى اللذات من كل محرم .

نهى جده خليل الرحمن ابنه إسحاق عن أن يتزوج فيهم ، وبعث اليعازر الدمشقى خازن بيت ماله إلى حاران ليخطب له رفقة ابنة عمه ناحور ، وأرسله أبوه إسحاق إلى بيت خاله لابان ليتخذ له زوجة من بنات خاله لتكون له ذرية طيبة لا يجرى فى عروقها دنس الكنعانيين .

وسرح خياله يسترجع ما فات فرأى نفسه شابا يافعا يدخل حاران ، ورأى راحيل عند البئر فخفق بحبها قلبه ، فانطلق إلى خاله يخطب إليه ابنته فقال له :

— هل من مال أزوجك عليه ؟

ـــ لا ، إلا أنى أخدمك أجيرا ، تستوفى بذلك صداق ابنتك .

ـــ إن صداقها أن تخدمنى سبع حجج .

ـــ فزوجنى راحيل وهى شرطى ولها أخدمك .

ـــ ذلك بينى وبينك .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لخاله سبع سنين ، فلما أصبح وجد أن خاله زوجه ابنته الكبرى ليا وكان شرطه أن يزوجه راحيل .

وجاء خاله مغاضبا وهو فى نادى قومه وقال له :

ـــ غررت بى وخدعتنى واستحللت عملى سبع سنين ، ودلست علىّ غير امرأتى .

ـــ يا بن أختى أردت أن تدخل على خالك العار والسُّبة وهوَ خالك ووالدك ، ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى ؟ فهلم فاخدمنى سبع حجج أخرى فأزوجك أختها .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لخاله سبعا ، ولدت له فيها ليا أربعة : روبيل ويهوذا وشمعان ولاوى . ورأى ليلة تحقيق حلمه ، تلك الليلة المرتقبة التى دفع فيها خاله إليه راحيل ، كانت أسعد ليالى حياته .

وتأخر الولد على راحيل الحبيبة فوهبت له جاريتها بلها ، ووهبت له ليا جاريتها زلفة منافسة لراحيل فى جاريتها ، وترعرعت أسرته ودب الشقاق بينه وبين خاله وكان لا بد من الرحيل .

ورأى يعقوب وجه راحيل وقد تهلل بالفرح يوم ولدت له بعد اليأس يوسف ، ورآها وهو باسر حزين تجود بأنفاسها فى الطريق بعد أن ولدت له بنيامين . كانت راحيل أثيرة عنده ، وكان يوسف أقرب بنيها شبها بها فكان أحب أبنائه الاثنى عشر إلى قلبه .

وغام وجه يعقوب بسحابة من الحزن لما تذكر ذلك اليوم المشئوم الذى

خرجت فيه ابنته دينة من ليا تنظر نبات الأرض ، لقد رآها شكيم ابن سيد القوم وشغف بها حبا فاغتصبها بسلطان أبيه .

واتخذ شكيم دينه بنت إسرائيل زوجة ، إلا أن ذلك الزواج لم يمح ما لحق إسرائيل وبنيه من عار ، غضب وغضبوا ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا وهم قلة لا عصبية لهم ، إنهم غرباء فى فلسطين .

إسرائيل ! إنه ليذكر ذلك اليوم الذى سمى فيه إسرائيل ، كان فى طريقه إلى حاران إلى بيت خاله لابان قبل أن يلتمس من خاله أن يزوجه راحيل ، إنه نام فى الطريق فرأى فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى باب من أبواب السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه . ولقد أوحى إليه فى تلك الليلة أوامر السماء .

وسمع يعقوب حركة بالقرب منه فرفع رأسه ونظر ، ثم ما لبث أن هتف فى حب وحنان :

— يوسف .

وارتمى يوسف فى أحضان أبيه وراح إسرائيل يرنو إلى وجه ابنه ، فرأى كأنما قسم الحسن كله بينه وبين أمه راحيل ، وتذكر ذلك اليوم الذى قال فيه يوسف لإخوته رأيت فيما يرى النائم أننا نحزم حزما فى الحقل ، وإذا بحزمتى قد قامت واحتاطت حزمكم ، وإذا بحزمكم جميعا قد سجدت لحزمتى . ورن فى أذنيه أصوات أبنائه تقول ليوسف : لعلك تملك علينا ملكا أو تتسلط علينا .

كانت فى نبرات أبنائه الأحد عشر كراهية ليوسف ، بدت البغضاء من أفواههم فأشفق الأب على ابنه الأثير من عداوة إخوته ، فضم يوسف واحتواه فى أحضانه كأنما يحميه من خطر يوشك أن ينقض عليه .

ورفع يوسف رأسه ونظر إلى وجه أبيه ثم قال :

— يا أبت ! إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى

ساجدين .

قال :

ــ يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم .

واجتمع أبناء يعقوب يتشاورون قالوا :

ــ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين.اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين .

قال يهوذا ، من سيصبح أبا لليهود :

ــ لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين .

وراحوا إلى أبيهم يستبقون ، فألفوه يسامر يوسف الحبيب ، قالوا :

ــ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون .

قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة ، إنا إذا لخاسرون .

وخرج يوسف مع إخوته ــ يتهلل بالفرح ــ ليرتعوا ويلعبوا ، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وراح أحد إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه .. لا يرى منهم رحيما ، ضربوه حتى كادوا يقتلونه فراح يصيح ويقول :

ــ يا أبتاه يا يعقوب ! لم تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء .

فتقدم يهوذا وقال :

ــ أليس قد أعطيتمونى موثقا ألا تقتلوه ؟

فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه ، فأخذوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفيرها ، فربطوا يديه ونزعوا القميص عنه فقال :

ــ يا إخوتاه ؟ ردوا علىّ قميصى أتوارى به فى الجب .

ــ ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك .

ودلوه فى البئر وألقوه فى مائها ، وراح يوسف يقاوم الغرق حتى بلغ صخرة فآوى إليها وأوحى الله إليه :

ــ لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . .

وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا :

ــ يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .

وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال :

ــ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وانطلقت قافلة المدينيين فى الصحراء وعلى مقربة من البئر حطت رحالها ، وأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فتعلق يوسف بالدلو ، فلما رآه الرجل اعتراه دهش لكأنما رأى آدم يوم خلقه الله بيده وصوره ونفخ فيه من روحه ، كان حسنه كضوء النهار ، أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر واسع العينين أقنى الأنف بخده الأيمن خال أسود ، توج ــ على حداثة سنه ــ بتاج الوقار ، فلما وجده الرجل قال :

ــ يا بشرى ! هذا غلام .

وأخذ الرجل يوسف وعاد به إلى راحلته ، ولما استأنفت قافلة المدينيين رحلتها انطلق يوسف معها . وبينما هو فى الطريق إذ وقعت عيناه على قبر أمه فلم يتمالك ورمى نفسه من على الناقة إلى القبر وراح يروى الثرى بعبراته ويقول :

ـــ أمى راحيل ! انظرى يا أماه ماذا فعلوا بحبيبك ؟ ماذا لقيت يا أماه من بعدك ؟ نزعوا يا أماه عنى قميصى وفى غيابت الجب ألقونى . لم يرحمونى يا أماه وباعونى بيع العبيد ، إنى أسير يا أماه راحيل . إنى أسير .. أسير .

وجاء الرجل وانتزعه من فوق قبر أمه وهو يبكى ويصيح :

ـــ أمى .. راحيل .. أمى .. أصبحت عبدا يا أماه .. عبدا .. عبدا .

وجاءت قافلة بنى إسماعيل ، إنها اجتازت جلعاد والتقت بقافلة المدينيين فى أرض شكيم . وعرض أبناء مدين بن إبراهيم الخليل على أبناء إسماعيل بن إبراهيم أن يشتروا الغلام فشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين .

وانطلقت قافلة الإسماعيليين إلى مصر وقد حملوا يوسف ، وما دار بخلد أحد منهم أن ذلك الذى شروه ابن عمهم يعقوب ، ومن أين لهم أن يعلموا وقد كان يتحدث العبرية لغة الكنعانيين !

كان نابت بن إسماعيل يرى فى المديبين وأبناء إسحاق وأبناء إسماعيل ورثة النفحة الروحية الذين سينتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبنوا حضارة عالمية على أساس من الدين ، وكان أمله فى المستقبل عظيما ، فهم وإن كانوا جماعات متفرقة إلا أنهم متناسقون ما أيسر أن يندمجوا فى مجتمع واحد قوى يدعو إلى الله وحده . كان ذلك حلم الشيخ العربى زعيم الإسماعيليين ، ولكن الأحداث كانت تباعد بين تلك الجماعات .

كانت لغة الإسماعيليين والمدينيين وبنى إسحاق واحدة ، كانوا يتكلمون

العربية وكانوا مسلمين . إلا أن بنى إسرائيل أخذوا عن الكنعانيين اللغة العبرية وهى وإن كانت فرعا من العربية إلا أنها كانت بداية الفرقة والاختلاف .

اجتازت قافلة بنى إسماعيل الحدود وانسابت فى أرض جوشن ومرت بمعابد « باسنت » إلـٰهة اللذة والمرح ، ورأى الرجال العاهرات المقدسات فغضوا من أبصارهم فقد رفعهم دينهم عن أن يترددوا فى الخطيئة استجابة لرغبات الأجساد .

ودخل يوسف مصر عبدا يتمزق من الحزن كما خرجت هاجر منها أمة تتمزق من الحزن ، وتلك إرادة الله ، والله فعال لما يريد ..

وبلغت القافلة أواريس ودخلها يوسف أسيرا ذليلا كما دخلتها سارة من قبل ، وراح يقلب وجهه فى القصور والمسلات ومعابد « ست » إلـٰه القوم وقد طاف بذهنه ما سمعه عن قدوم جده الخليل إلى هذه الأرض ، ترى إن قال للقوم إنه حفيد ذلك الرجل المبارك — الذى خرجوا معه فراسخ تعظيما له وإجلالا — أيصدقونه ؟

وآثر أن يصمت ، فمن يصدق أن حفيد خليل الرحمن يباع فى الأسواق بيع العبيد ؟

واغتسل يوسف وألبسوه ثيابا جديدة وساقوه إلى السوق ، فإذا بوجهه يتلألأ نورا وإذا بكل من فى السوق يأتون يتنافسون على شرائه ، حتى قطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها جاء يبتاع من بهر حسنه ضوء النهار .

وترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى قال قطفير :

— أدفع وزنه مسكا وورقا وحريرا .

وابتاعه قطفير وفرح بنو إسماعيل بثمنه ، كانوا فى حاجة إلى الورق ليدفعوه إلى قيدار ليعلم أبناءهم فيه الكتابة .

وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته :

— أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

٣

خرج الرعاة فى عماية الصبح من دور نابت وقيدار وإذبئيل وإخوتهم أبناء إسماعيل ، تلك الدور التى بدأت تنتشر على سفوح الجبال المحيطة بالحرم ، وانحدروا إلى الوادى المقدس وقد امتلأت نفوسهم بالضياء المتألق من وراء الأفق ، فإن تكن شمس النهار لم تسطع بعد فقد نفذ شعاع الله المضىء إلى نفس المؤمنين .

انحدار الرعاة إلى بطن الوادى المقدس سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، قد امتلأت نفوسهم بنشوة الروح ورأت عيونهم فى الكون جمالا لا يحسه إلا من أحسوا بخفقات روح الوجود بين جنوبهم ، فقالوا بأفئدتهم وألسنتهم :

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار .

وراحوا يطوفون بالبيت سبعا ، وأقبل من شمال مكة أهل جرهم ، وتدفق من جنوبها أهل قطوراء فامتلأ الحرم بالطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأقبلت قافلة من اليمن وعادت قافلة من الشام فخف الرجال إلى الكعبة ليطوفوا بها ويسبحوا لرب العرش العظيم .

ألف الله بين قلوب المؤمنين فقويت الروابط الاجتماعية بين من أقاموا حول البئر ومن جاءوا ليطوفوا بالحرم ، وبدأ ميلاد حضارة بالوادى القفر الذى أسكن إبراهيم به هاجر وإسماعيل وجرهم وقطوراء ، وبين رجال القوافل الغادين الرائحين بين الشمال والجنوب ، وقد اعتصموا جميعا بحبل الله فاتحدوا بعد أن كانوا متفرقين .

وأقبل من الشمال مضاض بن عمرو وحوله شيوخ جرهم وشبابها ، وورد من الجنوب السميدع ورجال قطوراء ، والتقى أهل جرهم وأهل قطوراء عند الحجر الأسود فتبادلوا التحية ، ثم راحوا يطوفون بالبيت وقد اختلط بعضهم ببعض ، وارتفعت الأصوات بالابتهالات إلى الله الواحد القهار ، وقد نامت الأحقاد واختفت البغضاء وعمرت القلوب بنور الإيمان .

وجلس الرجال إلى الرجال ينظرون فى أمر دنياهم بعد أن غسلت الصلوات أفئدتهم من أدران الغش والطمع والنفاق ، فإذا بالغايات الاجتماعية الطيبة تتحقق فى سماحة ويسر بعد أن ولجوا الحياة من أطيب أبوابها .

وخرجت جحافل الغنم من دور بنى إسماعيل وخيامهم فى طريقها إلى شعاب مكة لترعى وفى أثرها الرعاة والعبيد وصبيان القبائل ، فبدا كأن سفوح الجبال قد حجبت بصوف أبيض وأحمر وأسود ، وثار النقع وارتفعت سحب التراب تغطى الوادى كأنما ألقى عليه وشاح من رماد .

كان الرعاة بسطاء حفاة الأقدام فقراء ، بيد أن الدين الذى غرس فى وجدانهم بدل طرائق نظرتهم إلى الكون والحياة ، أمدهم بعلم جعلهم يتطلعون إلى أن يكونوا رعاة شعوب لا رعاة أغنام .

وخرج قيدار من داره بعد أن صار شيخا يتوكأ على ذراع ابنه النبت وعصاه ، كان يستشعر الوهن يسرى فى أعضائه إلا أن ذهنه كان نشيطا مشغولا بالخط العربى الذى وضعه أبوه إسماعيل موصولا ، وهو يريد أن يفرق بينه لييسره على الكنعانيين وغيرهم على السواء .

كان يمضى الهزيع الأول من الليل فى الصلاة وتلاوة ما تيسر من صحف إبراهيم ، وكان يستيقظ قبل دلوك الشمس يسبح لله ويدعوه بقلب سليم أن يلحقه بالصالحين إنه من عباد الله المؤمنين .

إنه على الرغم من شيخوخته لم يتنسك و لم يعتزل مجتمعه و لم يقرر أن يمضى

ما بقى من عمره فى صومعة يعبد ربه ، فقد لقن فيما لقن أن العمل عبادة ، وأن أسمى ما يرتقى بالروح هو مكابدة الحياة ، فملأت فكرة تيسير الكتابة العربية كل جوانحه وأضحت شغله الشاغل مع عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار ، فقد كان حب الله وخير مجتمعه يمتزجان فى نفسه امتزاجا يخدم الحياة ويفتح أبواب السعادة .

وفى لحظة من لحظات إشراق روحه وصفاء نفسه أنارت الفكرة وجدانه كأنها إلهام ألقى فى قلبه أو نور أضيئت به ظلمات نفسه ، فتهلل الشيخ بالفرح ودب فى الجسم الفانى نشاط عجيب .

وانطلق قيدار وابنه النبت إلى حيث كان صبيان الإسماعيليين يتعلمون القراءة والكتابة ، كانوا يكتبون فى ورق البردى الذى جلبته قوافل التجارة من مصر ، يكتبون كما علم إسماعيل أبناءه الكتابة ، فراح قيدار يعلمهم كيف يفرقون بين الألفاظ كما هداه الله . وسر الصبيان بذلك التبسيط وعكفوا على كتابة صحف جدهم خليل الرحمن متهللين مستبشرين .

وبرع يعرب بن يشجب بن نابت فى الكتابة الجديدة ، وما كان يعرب صبيا من الصبيان الذين يجتمعون خلف بئر زمزم فحسب ، يقرءون صحف إبراهيم ويكتبون فى ورق البردى وعظم أكتاف البعير ، بل كان مع ذلك شابا من أنبه شباب الإسماعيليين استهزته طريقة قيدار فى الكتابة ، فهجر نادى قومه وأقبل على الشيخ يتعلم القلم الجديد ، فقد كان على ثقة من أن ذلك القلم هو حجر الزاوية الذى ستقوم عليه حضارة آل إبراهيم .

وشرد ذهن الشيخ قيدار وهو جالس بين الصبيان خلف بئر زمزم ، فترقرق الرضا فى وجهه ، وشاع فى عينيه سرور عميق ، فقد تذكر أيام أن كان صبيا يجلس فى هذا المكان إلى جوار أخويه نابت وإذبئيل أمام جدتهم هاجر تعلمهم كيف يكتبون حينا وتقص عليهم تاريخ مصر والمصريين حينا ، كانت

هاجر خيرا وبركة على هذا الوادى وكانت خيرا وبركة على آل إبراهيم .

وضج المكان بالابتهال وأوبت جبال مكة بدعاء المؤمنين ، فالتفت قيدار إلى الكعبة فإذا بالناس يموج بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب وهم يطوفون حول البيت ، كانوا لأول مرة فى تاريخ البشرية تجارا رهبانا تحكمهم شريعة الله وقانون الطبيعة ، فالله يشرق فى نفوسهم وعجلة الوجود تدور ، ولم تكن تدور فى فراغ إلى الأبد بل كانت تدور إلى غاية ، إلى إرضاء الله ، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

أدرك هؤلاء البسطاء حقيقة نفوسهم ، عرفوا طريق السعادة ، سرى قانون الله وقانون الطبيعة فى نفوسهم جنبا إلى جنب ، الوجود كله يدور بإرادة الله ، وهذه الإرادة لم تسلب الناس حق التصرف والاختيار بل تركت للناس أن يعملوا وأن يختاروا ، ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

* * *

وجاء يشجب بن نابت إلى عمه يسعى يبدو فى وجهه الأسى ، وقال فى صوت متهدج :

ـــ إن أبى يموت .

وقبل أن يتم مقاله طفرت الدموع من عينيه ، واستشعر قيدار حزنا يشتعل فى كيانه وهما ثقيلا ينزل به وزلزل زلزالا شديدا ، لكأنما قد نعى إليه نفسه . إنه لم يفارق أخاه منذ تفتحت عيناه على الحياة ، فطالما لعب ورتع هو ونابت فى بطاح مكة ، وطالما خرجا معا فى قوافل الإسماعيليين إلى الشام ومصر واليمن ، كان كل منهما درعا للآخر ، سلاحا لأخيه ، وإذا بنابت يجود بأنفاسه ويتركه وحيدا وإن كانت قبيلته قد صارت فى عدد النجوم .

صارت ولاية البيت لنابت بعد موت أبيه إسماعيل ، فإن ذهب نابت فمن

الذى يقوم بولاية البيت ؟ إن نابت كان روحا يسرى فى مكة ، كان المحور الذى تدور حوله حياتها ، وها هو ذا نابت يوشك أن يغادر الدنيا فمن لمكة من بعده ؟

وأفاق من ذلك الضعف الذى طاف به ، إن روح الله تخفق فى صدور المؤمنين وفيض النور الإلـٰهى الذى سكبه الدين فى صدورهم لن يغيض ، فالقلوب كلها مفعمة بحب الله ، وإن ذلك الحب لم يكن صلاة فى معبد الكون فحسب بل تحول مع ذلك إلى أفعال اشترك فيها الجسد مع الروح : دعاء إلى الله وطواف حول بيته المعظم وسعى بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفة ، ودعاء لله مخلصين له الدين . إنه الاتصال بروح الوجود كله .

وانطلق قيدار إلى دار أخيه وراح فكره يعمل ، إنه كان يعاون أخاه ويرحب بضيف الله ، ولكنه كبر وصار فى الغابرين فلا يستطيع أن ينهض بخدمة الحجيج بعد نابت ، ولا أن ييسر سبل الراحة لزوار بيت الله ، فولاية البيت فى حاجة إلى رجل مسموع الكلمة مرهوب الجانب قوى الشكيمة تتدفق فيه الحياة .

وراح قيدار يقلب الفكر ويزن رجال بنى إسماعيل ، إن إخوته : إذبئيل وميسام ومشماع ودومة ومسا وحيدار وتيما قعدت بهم السن وأمسوا شيوخا فانين ، وإن هى إلا سنون قليلة ثم يلحقون بأبويهم الكريمين وجدهم الخليل .

وطاف بذهنه رجال الطبقة الثانية من بنى إسماعيل : يشجب بن نابت والنبت بن قيدار ، وسرعان ما همس فى جوفه هامس : أيقوم بولاية البيت يشجب أو النبت وفى القوم مضاض بن عمرو والسميدع ؟! إن مضاض سيد جرهم وخال بنى إسماعيل ، والسميدع سيد قطوراء وهم من العماليق الذين دانت لهم مصر وسورية وفلسطين .

وسار قيدار يتوكأ على عصاه ويستند على ذراع النبت بين الحين والحين ، وسار خلفهما يشجب بن نابت ويعرب بن قيدار والوجوه باسرة والعيون دامعة ونار الحزن تشوى القلوب .

ودخل قيدار على أخيه وكان مسجى فى فراشه وحوله شيوخ بنى إسماعيل فأحس غصة فى حلقه ، فقد استولى عليه إحساس بأنه يفقد بفقد نابت أمه وأباه ، وأنه وهو شيخ كبير يذوق مرارة اليتم لأول مرة .

وراح قيدار يقلب وجهه الواله الحزين فى وجوه إخوته ، لقد وعد الله خليله أن يهب إسماعيل اثنى عشر رئيسا وقد صدق الله وعده ، فها هم أولاء بنو إسماعيل الاثنى عشر وقد صار كل منهم رئيس قبيلة ، وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا .

كان شيخ الإسماعيليين يموت وقد مات من قبله إسماعيل صادق الوعد فدمعت العيون ولكن القلوب كانت تسبح لله العظيم ، أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون .

وأشار نابت لإخوته وأبنائه أن يدنوا منه ، فلما اقتربوا قال فى صوت خافت :

ــ ما تعبدون من بعدى ؟

ــ نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل .

فهمس فى جهد :

ــ استعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

وشخص ببصره إلى السماء ودعا بدعوة جده العظيم :

ــ رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام .

٤

انطلقت زليخا امرأة العزيز فى ردهات القصر تتلفت ، فخف إليها أحد الخصيان وقال دون أن يرفع وجهه إليها :

ــ ماذا تريد مولاتى ؟

فقالت فى لهفة :

ــ أين يوسف ؟

ــ خرج يا مولاتى إلى السوق .

كانت زليخا امرأة إطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها ومذ جاءها ذات يوم ومعه يوسف بعد أن اشتراه وقال لها : « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » وهى لا تطيق فراق الفتى الجميل فقد صار كل حياتها .

وجاء يوسف يسعى يتألق وجهه نورا عليه مهابة ووقار ، فلما وقعت عينا زليخا عليه هدأت نفسها وقالت له :

ــ أين كنت ؟

ــ فى السوق وقد اشتريت هذا .

وقدم إليها جعرانا فرعونيا فتناولته وقالت :

ــ إنه جعل مقدس يوضع فوق قلب الميت .

ــ وماذا كتب عليه ؟

فراحت تقرأ :

ــ يا قلبى لا تقم شاهدا على .

ــ ومتى يقوم قلبه شاهدا عليه ؟

ـــ عندما يحاكم بعد الموت أمام محكمة أزريس إلٰه الموتى .

وأخذت يوسف إلى جناحها وتناولت صفحة من صفحات البردى كانت فيها مناظر المحاكمة ومتن إعلان براءة المتوفى ، فلما رآها يوسف قال :

ـــ إنها تباع لكل الناس .

فابتسمت زليخا وقالت :

ـــ أى مذنب مهما عظمت ذنوبه يستطيع أن يشترى ورقة ويكتب فيها اسمه فيصبح مطهرا من الذنوب !

كانت نظرات زليخا إلى يوسف مزيجا من الحب والاشتهاء ، فكان يوسف يتحاشى أن ينظر فى عينيها فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

ـــ أهذا دين يؤمن به قوم يعتقدون أنهم وحدهم الناس ؟.

ودنت زليخا منه ولفت ذراعها من ورائه وبسطت صفحة البردى وقالت :

ـــ هذه صورة لمحكمة أزريس وقد نصب الميزان فى الوسط ، يدير الإلٰه أونوبيس ـــ وله رأس كرأس ابن آوى ـــ حركته من اليمين ، ومن خلفه الإلٰه تحوت إلٰه الحكمة ـــ وله رأس كرأس أبيس ـــ ووظيفته تسجيل حكم المحكمة ، وهذه التى فى أقصى اليمين هى « الملتهمة » وشكلها مفترس ، فهى تنتظر التهام الروح إذا ما صدر الحكم بإدانتها ، وهذا الواقف إلى يسار الميزان « القدر » ، وهاتان الواقفتان خلفه إلٰهتا الولادة ، وهذا الداخل فى خشوع من أسفل اليسار المتوفى ، يحدق بنظره إلى قلبه وقد وضع فى كفة الميزان اليسرى ، ووضعت الريشة فى الكفة اليمنى .

ـــ وما هذه الريشة ؟

ـــ رمز الحق ، رمز العدالة .

ـــ وما هذه الكتابة فوق الميزان ؟

ـــ إنها صلوات يرجو فيها الميت قلبه ألا يخونه .

وراحت زليخا تقرأ :

يا قلبي يا من أتيت من أمي .

يا قلبي الخاص بكياني .

لا تقفن شاهدا علي .

ولا تعارضني في محكمة العدل .

ولا تكونن حربا عليّ أمام رب الموازين .

ولا تقولن عليّ زورا في حضرة الإلـٰه .

وبسطت زليخا بردية أخرى وقالت :

ـــ انظر يا يوسف .

ـــ وما هذه ؟

ـــ صورة المتوفى يقاد بعد تبرئته أمام أزريس . أثبتت محاكمة الميزان براءته من كل ذنب عظيم . ها هو ذا المتوفى يقوده حور بن أزريس إلى حضرة أبيه الإلـٰه الأعظم . .

ـــ ولماذا يرتدي أزريس رداء أخضر ويجلس في جوسق أخضر ؟

ـــ لأنه إلـٰه الخضرة .

ـــ إنه في شكل مومياء .

ـــ لأنه مات ثم قام بعد موته يحاسب الأموات .

فقال وهو شارد :

ـــ مثل بعل .

ـــ بعل ؟ إلـٰه البابليين ؟

ـــ هم يعبدون بعلا في بابل ، وفي سورية يعتقدون أنه أخذ أسيرا يوم كان ملكا على الأرض فساقوه إلى قاعة المحكمة ، وبعد أن حاكموه ضربوه ثم

انطلقوا به إلى الجبل ، وكان يحاكم معه ثلاثة من المجرمين فأطلق سراح مجرم وأخذ معه مجرمان ، وقد جردوه من ملابسه يوم قتلوه فتهدمت المدينة حزنا عليه ، وانكفأت امرأة على قبره تبكيه ، وإذا به ينهض من بين الأموات ويعود إلى الحياة ، وسرعان ما اختفى ليصعد إلى السماء ليصبح إلـٰها يدين البشر ، إنها أساطير الأولين .

وعادت زليخا تتحدث عن محكمة أزريس وهى سعيدة ما دام يوسف إلى جوارها يناجيها وتناجيه ، فحبه يتغلغل فى سويداء قلبها .

قالت :

ـــ إن المتوفى بعد أن يؤكد أنه لم يقتل ولم يسرق ولم يزن ولم يطفف فى الميزان ولم يعب فى الذات الملكية ولم يسب الإلـٰه ، يخاطب آلـٰهة المحكمة الاثنين والأربعين قائلا :

ـــ سلام عليكم يأيها الآلهة .

إنى أعرفكم وأعرف أسماءكم .

لا تبلغوا عنى شرا لذلك الإلـٰه الذى تتبعونه .

قولوا عنى الصدق أمام الرب المهيمن .

انظروا إنى آت إليكم بلا خطيئة وبلا شر وبلا ذنب .

إنى أعيش على الحق وأتغذى من عدالة قلبى .

وأحس يوسف بزليخا تضمه إليها فهب واقفا وهو يقول :

ـــ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إلـٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب

المستكبرين .

وبلغ يوسف أشده فتأهب لينطلق مع العزيز إلى مدينة بيت البقرة ، وكانت واحة فى الصحراء الغربية تمرح حولها الغزلان والطيور فكان عظماء الدولة يقصدونها للصيد والتسلية .

وخرج العزيز فى مهابته فخف العظماء يسعون إليه عند باب قصره منحنين ، الرجال الأول والرفقاء ورؤساء الأسرار ومستشارو القرارات السرية الخاصة بالمحكمة ومستشارو الأوامر الملكية ومستشارو السماء ، فقد كان العزيز رئيس العظماء وكبير القضاة من يشرف على خزائن الأرض ومخازن الغلال ، وكانت كلمة من فمه الكريم تسعد الطامعين فى الألقاب الطنانة التى كلف بها المصريون .

وركب العزيز مركبة فخمة تليق بمقامه فى البلاد وركب يوسف معه ، وركب المركبات الأخرى قواد الجيش وحكام الأقاليم ، وانساب الركب فى الدلتا يقطع الأراضى التى تتخللها أفرع النيل كالشرايين ، وراح يوسف يرقب فى اهتمام القناطر والسدود والأعمال الهندسية العظيمة التى تنظم إيراد النيل وتتحكم فى مياهه .

بهرته هندسة الرى أكثر مما بهرته الأهرام وأبو الهول والمعابد والمسلات والقصور . واستمروا فى رحلتهم حتى بلغوا الفيوم فراح يوسف يقلب النظر فيها، فإذا بها مفايض للماء انتشرت عليها الطيور المائية ونبتت هنا وهناك الحشائش البرية، وسرعان ما تذكر المشروعات الهندسية التى مر بها على النيل.

وبلغ الركب مدينة بيت البقرة فى الصحراء فأقيمت حفلات الصيد للعزيز والذين معه ، وراح يوسف يفكر فى الفيوم ومستنقعاتها وفى طريقة إصلاحها لتكون مديرية جديدة تجود على البلاد بالخير العميم .

ومرت الأيام والأسابيع ثم عاد ركب العزيز إلى أواريس ، فهرع العظماء

والرفقاء والرؤساء والمستشارون لاستقبال رئيس العظماء وكبير القضاة ومن جعله الملك على خزائن الأرض . وبعد أن قضى الاستقبال الرسمى انطلق العزيز ويوسف إلى القصر .

كانت زليخا ترقب هذه العودة فى شوق عظيم ، أحست لوعة لفراق يوسف فقد شغفت به حبا و لم تعد تطيق أن يبعد عنها ، لم يفارقها طيفه آناء الليل وأطراف النهار فى اليقظة وفى المنام حتى باتت تخشى أن يفطن العزيز إلى خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ودخل العزيز عليها فقامت إليه ترحب به وتبالغ فى ترحيبها لتخفى ذلك الاضطراب الذى اعتراها لما علمت أن القصر احتوى يوسف الحبيب . ليتها تستطيع أن تترك العزيز وتطير بجناحى الحب إلى الفتى الوسيم الذى أسر فؤادها .

وفى الصباح خرج العزيز يصرف أمور الدولة قبل أن يذهب للقاء الملك الريان بن الوليد . وسرعان ما أرسلت امرأته إلى يوسف تطلب إليه أن يوافيها فى جناحها .

وجاء يوسف وقد أشرق كضوء النهار فأحست زليخا قلبها يدق فى حنان ، ورغبة عارمة فى أن تحتويه بين ذراعيها لتطفئ لهيب الشوق وحنينها إلى العناق .

رحبت به وأجلسته إلى جوارها وسألته أن يقص عليها ما فعله فى رحلته ، فراح يوسف يقص عليها ما رآه وهى تصغى إليه كأنما تستمع إلى موسيقى عذبة تنسكب فى وجدانها ، أو أجمل أهازيج الوجود تداعب روحها ، وراحت تتفرس فى وجهه ، إنه أجمل من إشراقة الصباح وإن كل خلجة من خلجاتها تهفو إليه ، وإنها تكابد شوقا طاغيا لا يقاوم طغيانه بشر .

وارتفعت يدها وهى مأخوذة وراحت تمررها على شعره وتقول فى وجد :

— يا يوسف ! ما أحسن شعرك !

— هو أول ما ينتثر من جسدى .

ونظرت فى عينيه نظرة طويلة ثم قالت :

— يا يوسف ! ما أحسن عينيك !

فأطرق وقال :

— هما أول ما يسيل إلى الأرض من جسدى .

— يا يوسف ! ما أجمل وجهك !

— هو للتراب يأكله .

ومالت نحوه لتضع شفتيها على شفتيه فإذا به يلوى عنقه عنها ويهب منتفضا من الرهبة ثم يسرع خارجا من غرفتها لا يلوى على شىء .

وجن الليل وزليخا تغدو وتروح فى مخدعها وقد استبدت بها رغبتها وعصفت بها عواطفها ، حتى همت بأن تنطلق إليه تروى ذلك الظمأ الذى استبدت بها حرقته لولا أن جاء العزيز يلتمس عندها الراحة والحنان .

وخر يوسف ساجدا لله وقد شرق بدموعه يعوذ به من همزات الشياطين . كان يخشى أن يضعف وأن تنهار عزيمته فيتردى فى الضلالة بعد أن هداه ربه إلى صراط مستقيم ، واستمر يدعو الله حتى غشيه النعاس وراح فى سبات عميق .

وعاد يوسف إلى جناح زليخا فى القصر فأقبلت عليه تحدثه بلواعج نفسها تتغزل فى حسنه وتناجيه وتحاول بعذب حديثها أن تستولى على حواسه وتغريه . فأطلقت لشهوات الجسد عنانها ، وعربدت النشوة فى جنبات نفسها فدنت منه وراودته عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت :

— هيت لك .

فأشاح بوجهه عن الفتنة الطاغية وقال :

— معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون .

ولفت ذراعيها حوله وقربت وجهها من وجهه واختلطت أنفاسها الحارة بأنفاسه فإذا بغشاوة تنسدل على بصره وبصيرته ، فلم يعد يحس إلا الجسد الذى التصق بجسده ، ولقد همت به وهم بها لولا أن انجابت الغشاوة عن وجدانه وأضاءت جوانب نفسه بنور ربه فرأى بشاعة ما كان مقدما عليه . كان كالطير يحلق فى أجواز الفضاء وإذا به يهوى إلى قرار سحيق ، لن يقدر أن يحلق بعد أن هوى أبدا ، وخيل إليه أن صوت يعقوب يدوى فى جنبات الغرفة يتلو ما قاله إبليس لربه : « قال رب بما أغويتنى لأزينــن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين » .

وارتعد يوسف بعد أن رأى برهان ربه واستدار ليفر من الغرفة فجرت خلفه ، واستبقا الباب وأرادت أن تجذبه ليعود إلى ما تريد فأمسكت به وقدت قميصه من دبر ، فلم يتمهل يوسف بل فتح الباب لينجو بدينه ويهاجر إلى ربه .

وألفيا سيدها لدى الباب وكان مقبلا مع ابن عم لها ، فلما رأت نفسها فى موطن الريبة قالت :

ــ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟

فراح يوسف يحاول أن يستر جسده وقال :

ــ هى راودتنى عن نفسى .

وراح العزيز يقلب وجهه فيهما وهو حائر لا يدرى أيهما الصادق ، فقال ابن عمها :

ــ إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين .

وتقدم العزيز يفحص ويتأمل فلما رأى قميصه قد من دبر قال :

— إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم .

والتفت إلى يوسف وزليخا وقال :

— يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

وأمسك يوسف لسانه لم يذكر لأحد ما كان من امرأة العزيز ، إلا أن الخبر طار إلى البيوت وسرى بين الناس ، وقال نسوة فى المدينة :

— امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين .

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا لتقطع به ما قدمت لهن من فاكهة ، ثم ذهبت إلى حيث أمرت يوسف أن ينتظر وقالت له :

— اخرج عليهن .

وخرج يوسف على النسوة فلما رأينه أكبرنه ففغرن أفواههن دهشة ، رأين حسنا تهفو إليه نفوسهن ، وقطعن أيديهن بالسكاكين وهن ذاهلات عن الفاكهة وقلن :

— حاش لله ما هذا بشر ، إن هذا إلا ملك كريم .

ولما رأت زليخا الرغبة الجامحة فى عيون النسوة ، قالت :

— فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين .

قال :

— رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من

بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ، جاءت زليخا إلى العزيز تقول :

— إن يوسف لم يمسك لسانه ، إنه لم يعرض عن ذكر ما كان كما أمرته فلم يعد لى مقام هنا ، إنى راحلة .

كانت زليخا لا تطيق أن تلتقي عيناها بعينى من أذل كبرياءها ، كانت سيدته قبل أن تراوده عن نفسه فأصبحت ذليلة أسيرة بعد أن كشفت عن نفسها أمام الملأ وأمام نسوة المدينة ، نظرات الاحتقار التى يصوبها إليها يوسف أقسى من وقع السياط على جسدها ، إعراضه عنها ينكأ كل يوم جرح قلبها ، فأرادت أن تفر من واقعها الأليم فأخذت توسوس للعزيز حتى أصدر أمره أن يقبض على يوسف وأن يلقى به فى السجن سبع سنين .

٥

ولى مضاض بن عمرو الجرهمي البيت بعد نابت ، وكان فى عزة وكثرة وثروة بعد أن ضم بنى إسماعيل إليه فضم الشرف إلى كثرة الجراهمة الذين غصت بهم الجبال فى شمال مكة .

وكانت أمواله كثيرة ، عبيد وخيل وإبل وماشية ترعى بمكة وما حولها من وادى مر إلى عرفة على طريق الطائف ، وكانت تجارته تجوب الشام والعراق ومصر واليمن .

ولم تكن ولايته للبيت أمرا سهلا فقد وليه بعد إسماعيل ونابت ، اللذان أحبهما الناس ودانوا لهما بالطاعة ، فكان المجتمع الجديد الذى تكون حول البئر وخفقت فى جنباته ملة إبراهيم الخليل .

لقد كان إسماعيل أسعد حظا من كل من جاء بعده ، كان هو المحور الذى جمع حوله أهل مكة فكون منهم مجتمعا جديدا يسرى فيه حب الله وتظله روح

الدين ، فكان مجتمع الرضا والسعادة والصفاء ، ولم يكن لذلك المجتمع الناشئ تقاليد موروثة تثير الأحقاد وتنشب من أجلها المعارك بين القديم والحديث ، ولم يحدث فى هذا المجتمع ذلك الصراع الذى يكون عادة بين أنصار الماضى المتعصبين له وجنود الحاضر المتطلعين إلى السيطرة والاستبداد .

وكانت ولاية نابت للبيت امتدادا لحكم إسماعيل ، كانت عهد مصالحة بين المادة والروح فلم تطغ الدنيا على الدين وإن انتصرت الحياة على المادة فى ذلك المجتمع الجديد .

كان الإنسان منذ أن وجد على الأرض فى شوق إلى أن تمتد أطرافه وأن ينفسح مجال بصره وأن تتسع آفاق صوته وأن تشف روحه لتتصل بالوجود من حوله ، فاخترع السيف ليكون امتدادا لذراعه ، ونفخ فى النفير ليرسل صوته إلى آماد بعيدة ، وكان كل ذلك أمرا محدودا ، ما الروح فقد اتسعت حتى حوت الكون وما فوق الكون . وقد استطاع إسماعيل أن يستغل رحابة الروح فى رفاهية قومه وقيادتهم إلى طريق السعادة ، وقد نجح نابت فى أن يسلك الطريق نفسه ، فهل يستطيع مضاض أن يحافظ على وحدة المجتمع وأن ينهض به ليصعد ويصعد معه فى معارج رقيه ؟

صار الناس يحنون إلى الماضى بعد موت نابت وكانوا لا يفتئون يتذكرون أيام إسماعيل وابنه نابت ، وكان ذلك الحنين يشل القائد الجديد عن الإبداع ويعوق تجاوب القوم مع من أصبح زعيمهم .

ولم يكن الأمر فى مكة لمضاض وحده فإن كان قد ولى البيت فقد كان السميدع ينافسه ، بقى مضاض فى شمال الوادى المقدس وما جاز ، وبقى السميدع وقبيلته قطوراء فى الجنوب وقد ورمت أنوفهم لخروج ولاية البيت عن سلطانهم ، وسكتوا على مضض إلا أنهم كانوا يتحينون الفرص ويترقبون صروف الزمان ، فولاية البيت شرف تشرئب إليه الأعناق وتتيه به الأقوام .

وراح مضاض يحصل الأعشار من التجار الذين وفدوا إلى مكة من شمالها ، ليصرف منها على عمارة بيت الله وعلى ضيف الله وعلى سقاية الحجيج ورفادتهم ، وأخذ السميدع يحصل ممن وفدوا إليها من جنوبها ، فلئن حاز مضاض شرف ولاية البيت فلن يقر السميدع وقومه له بامتلاك مكة كلها ، فإن كان له سلطان على الشمال فللسميدع سلطان على الجنوب يفرض عليه ما يشاء .

وبينا الناس يتسامرون حول الكعبة قال رجل من قطوراء :

ــ من ذا مضاض الذى صارت إليه ولاية البيت بعد إسماعيل ونابت سبط إبراهيم الخليل ؟!

فقال رجل من جرهم :

ــ إنه ابن جرهم بن قحطان ، إنه ابن السيادة والشرف .

ــ ومن هو قحطان ؟

ــ هو ابن عبد الله أخى هود عليه السلام ، إنه طاهر من طاهر .

فقال نصير السميدع :

ــ وأين الثرى من الثريا ، إن السميدع بن عمليق بن لاود بن سام بن نوح عليه السلام . أصله فى السماء .

ورأى جرهمى آخر أن يشترك فى التنابذ بالألقاب فاشترك فى الحوار ، قال :

ــ كان فى سفينة نوح ثمانون إنسانا وكان فيهم جرهم ، إنه من ولد نوح ذرية بعضها من بعض .

واشتد الجدل بين الجانبين كل يحاول أن يعبد أصله إلى الدوحة الزكية ، إلى نوح عليه السلام ، بينا لاذ الإسماعيليون بالصمت فقد علمهم الخليل أن البشرية جميعا من آدم وآدم من تراب .

ونهض الجراهمة وراحوا يطوفون بالبيت قبل أن يعودوا إلى دورهم ، فارتفعت أصواتهم بالابتهال إلى الله ثم راحوا يؤكدون أنهم قلادة المؤمنين :

لاهـم إن جـرهما عبـادكا الناس طرف وهـم قـلادكا

وانفض السمار واجتمع شيوخ جرهم يفكرون فى ذلك الحوار الذى اشتعل بين جرهم وقطوراء ، قالوا إن مضاض بن عمرو من نسل نوح فقالت قطوراء إن السميدع من نسل نوح ، لقد تساوى الرجلان واستويا على فرسى رهان . لم يعد لأحدهما فضل على صاحبه فإن أرادت جرهم أن تمكن لمضاض فى مكة فلا بد أن تجد ما يرجح كفته على كفة منافسه .

وعصر شيوخ جرهم أذهانهم وقلبوا الرأى فلم يجدوا أشرف من نوح ينسبونه إليه ، وصاح صائح فى يأس :

ـــ لم يبق إلا أن ننسبه إلى الملائكة .

وأضاء ذلك القول رأس أحدهم فقال فى حماس :

ـــ هذا هو الرأى .

واتجهت الأبصار تتفرس فيه ، أهازل هو أم جاد، فقال الرجل :

ـــ سأرفع نسب مضاض بن عمرو إلى الملائكة .

وارتفعت الأصوات :

ـــ كيف ؟

ـــ نقول إن جرهما ابن ملك من الملائكة وأن ذلك الملك أذنب ذنبا عظيما فهوى من عليائه.ونزعت منه روحانية الملائكة وصار كأبناء آدم ، ألقيت فيه الشهوة فتزوج امرأة من العماليق فولدت له جرهما .

ـــ وإذا سألونا ما اسم ذلك الملك ؟

ـــ فليكن عرعرا .

وكان شيخ يخشى أن يفتح القوم باب الأساطير فيفسد الدين فقال :

ــ ومتى هبطت الملائكة إلى الأرض ؟ هذا هراء .

ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وأعرضوا عنه ، واندسوا بين الناس يوهمونهم أنه إذا أذنب واحد من الملائكة هوى من عليائه وأن أباهم الأعلى كان ملكا فأذنب فهبط مكة وتزوج امرأة من العماليق فولدت جرهما . وانتشرت الأسطورة فى سرعة الريح ، وفتح شيوخ جرهم أول باب من أبواب الفسوق بعد الإيمان .

وحنق السميدع واستبد به الغضب بعد أن انتسبت جرهم إلى الملائكة ، قالت جرهم إن مضاض بن عمرو من نسل نوح فقال أنصاره إن السميدع من نسل نوح ، واليوم يزعم الجرهميون أن جدهم من الملائكة وأنهم من نسل السماء فماذا يستطيع أنصاره أن يقولوا بعد هذا ؟ إن ادعوا ما زعمت جرهم وقالوا إنهم أيضا من نسل الملائكة فسيتخذهم الناس هزوا .

و لم يخطر على بالهم أن يدعوا أنهم أبناء الله ولو فعلوا لضرب الناس رقابهم بسيوفهم ، فقد قام دينهم على أن الله واحد لا إلـٰه غيره لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد .

انتصر مضاض بن عمرو فى حرب الدعاية ، رفعته الأسطورة إلى مرتبة سامية تؤهله لولاية البيت ، فإن كان إسماعيل قد ولى البيت فقد كان بكر إبراهيم الخليل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وإن كان نابت قد وليه من بعده فقد كان وارث النفحة الروحية التى قام على صخرتها مجتمع مكة ، وها هو ذا مضاض يرتفع بأصله إلى السماء . وضاق السميدع بذلك الزعم ووطد النفس على أن يتمرد على هذا السلطان .

وراح السميدع وقطوراء يدحضون دعوة جرهم فى النوادى والمجتمعات ويحاولون ما وسعتهم الحجة أن يسفهوا ذلك القول ، إلا أن الناس فتنوا به .

وظهر للسميدع ألا جدوى من المحاجة ، ففزع إلى السيف . فخرج على

قومه وصاح صيحة الحرب فهبت قطوراء تتأهب للقتال ، فأخرجوا الجياد والرماح ، وخرج السميدع بقطوراء على ظهور الخيل الجياد فسمى المكان أجياد .

وتأهب مضاض فى جباله وخرج فى كتيبة عدتها الرماح والدرق والسيوف ، وقعقع قعقعة تتجاوب فى أرجاء مكة فسميت تلك الجبال قعيقعان .

والتقى الجمعان ودارت رحى معركة رهيبة سالت فيها الدماء فى مكة أم القرى التى حرم الله فيها القتال ، ورأى مضاض أن يضع حدا للمجزرة فتقدم الصفوف ونادى :

— يا سميدع ! أنا الملك مضاض بن عمرو فابرز لى ، فمن أظفره الله كان الملك له .

وخرج السميدع من صفوف قطوراء ومشى إليه مضاض وكأنه ليث كشر عن أنيابه ، كان كل منهما على ظهر جواده يدور حول غريمه مرهف الحواس كاتم الأنفاس يلتمس غفلة من صاحبه ليطعنه طعنة قاضية تضع أوزار هذه الحرب .

كانا صقرين يقظين وفهدين خفيفين ، وشد السميدع على مضاض شدة منكرة كادت تطير لها أفئدة جرهم ، وارتفعت أصوات قطوراء بالتهليل الزاخر بالفرح والأمل ، بيد أن مضاض بن عمرو اتقى الضربة وفى مثل البرق الخاطف سدد ضربة قاتلة إلى قلب السميدع .

وسقط السميدع عن ظهر جواده ، وقبل أن يمس الأرض عاجله مضاض بضربة كالشهاب ، وحملت جرهم على قطوراء حملة رجل واحد ودار القتال وسرعان ما انهزمت قطوراء . كانت تحارب بلا أمل فقد قتل قائدها ومن أرادت أن تكون له الزعامة فى البيت .

وولت قطوراء الأدبار وجرهم فى أثرها تضرب الرقاب ، وانفضحت قطوراء فسمى المكان فاضح .

وعاد مضاض إلى جبال قعيقعان مرفوع الرأس يقول :

ونحن قتلنا سيد الحى عنوة — فأصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبغى أن يكون سواؤنا — بها ملكا حتى أتانا السميدع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا — وعالج منا غصة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته — ندافع عنه من أتانا وندفع
ومن كان يبغى أن يلى : ذاك عزنا — ولم يك حى قبلنا ثم يمنع
وكنا ملوكا فى الدهور التى مضت — ورثنا ملوكا لا ترام فتوضع

وراحت جرهم تطوف بالحرم وتقول :

لاهم إن جرهما عبادكا — القوم طرف وهم قلادكا

وانطلقوا إلى خزائن البيت — وكانت بئرا فى بطنه — وراحوا يلقون فيها الهدايا ، ألقى مضاض الذهب وألقت نسوة جرهم الحلى والمتاع ، وارتفعت الابتهالات حتى رجعت صداها جبال مكة .

كان بنو إسماعيل قد اعتزلوا الفتنة فلما انتهت الحرب مشوا بالصلح بين جرهم وقطوراء ، فسارت جرهم وقطوراء حتى نزلوا شعبا بأعلى مكة واصطلحوا هناك وأسلموا الأمر إلى مضاض ، فنحر للناس وطبخ لهم وأطعمهم فسمى ذلك الشعب المطابخ .

وانتهى أول بغى كان فى مكة .

٦

كان يوسف فى سجنه غريبا وحيدا بلا جنس ولا وطن ، بيد أنه كان يسبح لمن أشرق الفؤاد بنوره فإذا به يستشعر رحابة فى وجدانه وسعت الكون كله وسمت روحه لتتصل بروح الوجود ، وإذا به يأنس بربه ويحس تعاطفا مع كل ما حوله ، وإذا بالدنيا كلها وطنه ، وإذا بقلبه يتفتح للبشرية جميعا ويعطف حتى على هؤلاء الذين ظلموه .

كان سعيدا وإن كان يعيش بين جدران أربعة ، فروحه حرة لم ترزح تحت وطأة الدنس ، إنه فر من سجن الخطيئة إلى رحابة النفس المطمئنة ، خرج من ظلمات أحاسيسه الهابطة إلى فيض النور الإلٰهى .

وراحت زهرة نفسه تتفتح فإذا بروحه قد شفت لتتلقى الحكمة التى تسكب فى ضميره ، وإذا بنور ربه يشيع فى جنباته فيملؤه طمأنينة ورضا ، وإذا بالفتى اليافع الجميل صاحب إرادة ونية وعزم وقصد .

كانت إرادته أن يتقى الله حق تقاته ، ونيته أن يخلص لله ، وعزم على أن يظل معتصما بحبل الله ، وقصد أن يهب نفسه لعبادته ويسير فى سبيله ، فجزاه الجزاء الأوفى وآتاه من علمه ، والله بكل شىء عليم .

كان يتعبد لله ويدعو من فى السجن إلى عبادته وحده ، ولم تكن كل ساعات ليله ونهاره عبادة وتسبيحا واستغفارا بل كان يفكر فى الفيوم وفى مفايض الماء تنتشر فى أرضها وفى طريقة تجفيف تلك المفايض وتنظيم ريها ، فلو نجح لأسدى إلى مصر خدمة جليلة ، فسيضيف إلى أرضها الخصبة مساحات

واسعة تزيد فى رخائها وتسعد أهلها .

وأدخل معه الريان ملك الهكسوس صاحب طعامه وصاحب شرابه بعد أن اتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسا له السم فى الطعام ، فراح يدعوهما إلى الله ويذهب عنهما حزنهما ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما ، كان كالنبراس فى الليلة الظلماء .

وجاء صاحب شراب الملك فى الصباح وقال له :

— إنى أرانى أعصر خمرا .

وقال الآخر :

— إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .

قال :

— لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

كره يوسف أن يعبر لهما عما سألاه فقد فطن إلى أن مكروها يصيب أحدهما ، فعدل عن التأويل وقال :

— يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فقال صاحب شراب الملك :

— نبئنا بتأويل ما رأينا .

ـــ يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان .

وقال للذى ظن أنه ناج منهما :

ـــ اذكرنى عند ربك .

إنه فى لحظة من لحظات ضعفه ابتغى الفرج من عند غير الله ، أراد أن يذكره صاحب شراب الملك لمولاه إذا ما كتبت له النجاة . ومرت أيام وأفرج الريان عن صاحب شرابه ، وصلب صاحب طعامه فقد ثبت أنه هو الذى دس له السم فى الطعام .

وراح صاحب الشراب يسقى الملك خمرا ونسى أن يذكر له أن فى السجن مظلوما حبس ظلما ، فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ، لأن الشيطان أنساه ذكر ربه لما سأل صاحب شراب الملك أن يذكره عند الملك .

وقام الملك من نومه مفزوعا وقال :

ـــ إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون .

قال الكهنة والعرافون والمنجمون :

ـــ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وقال صاحب شراب الملك الذى نجا منهما وادكر بعد أمة :

ـــ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .

وانطلق إلى السجن حتى إذا التقى بيوسف قال :

ـــ يوسف أيها الصديق ! أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يا بسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يهتدون .

قال :

ـــ تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما

تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .

وعاد صاحب شراب الملك بتأويل الرؤيا ، فلما قصها على الملأ من الكهنة والعرافين والمنجمين لزموا الصمت المبين ، وقال الملك فى إعجاب :

— ائتونى به .

وعاد صاحب شراب الملك إلى السجن وهو يتهلل بالفرح ، فربه قد أمر بإطلاق يوسف من سجنه ، وما إن رأى يوسف حتى قال والبشر يترقرق فى وجهه :

— أمر ربى بإطلاق سراحك ، إنه يريدك .

وأبى يوسف أن يغادر السجن ، لقد سجن بهتانا وزورا ولن يغادر سجنه قبل أن تعلن على الملأ براءته فقال لصاحبه :

— ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم .

وبعث الملك إلى امرأة العزيز وإلى النسوة اللاتى أعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقال :

— ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟

كان ضمير زليخا وضمائر النسوة قد عذبتهن طوال السنين التى قضاها يوسف فى سجنه ظلما فقلن :

— حاش لله ما علمنا عليه من سوء .

قالت امرأة العزيز :

— الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم .

وقال الملك :

ـــ ائتونى به أستخلصه لنفسى .

وجاء يوسف ولم ينس ما شغل به سبع سنين ، إنه فكر فى الفيوم ودبر وأمكنه بالوحى والحكمة والهندسة أن يصل إلى خير السبل لتنظيم ريها .

وعمل ودبر وإذا بالمفايض تخرج ثمرات مختلفا ألوانها تسر الناظرين .

وكلمه الملك وقال له :

ـــ إنك اليوم لدينا مكين أمين .

قال :

ـــ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم .

وأصبح يوسف على خزائن الريان بن الوليد وصار القاضى الذى يحكم بين الناس بالعدل . ومات العزيز فورث يوسف منصبه وقصره وتزوج امرأته .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ولم تؤثر نعومة الحياة ولا إقبال الدنيا فى خلق يوسف فقد زاد تواضعا لله وراح يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فآمن بالله قوم كثير ، فقد كان يوسف أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

وكان كلما كلم الريان بن الوليد يزين له الإسلام ويدعوه إليه ويحببه فيه؛ فكان الريان يلقى إليه سمعه وينشرح صدره لحديثه : واستمر الحوار بينهما موصولا حتى أسلم الريان وجهه لله رب العالمين .

عرفت مصر التوحيد أيام إدريس قبل أن يوحد مينا الوجهين البحرى والقبلى فى أمة واحدة ، وقبل أن يكون رع ملكا على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ليكون إلـٰه الشمس يعبر السموات فى مركبته الإلـٰهية من

الشرق إلى الغرب .

وعرفت مصر التوحيد أيام أن جاء إليها إبراهيم الخليل ينقذ سارة من الأسر ، فقد ناقش مستشارى أسرار السماء وكهنة أواريس ومنف فى أمر الدين ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وها هو ذا يوسف ينشر بين الناس فى الدلتا أن لا إلٰه إلا الله ، وأن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون .

واقتحمت دعوته دور الكهنة فى طيبة ومنزل وحى الإلٰه آمون فى سيوة ففتحت أمامهم آفاقا جديدة ، جعلتهم يعيدون النظر فى أمور دينهم وتعدد آلهتهم ، وراح قول يوسف : « يا صاحبى السجن ! أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يقرع أذهان الكهنة الصادقين الذين يبغون وجه الحقيقة ، ويزعزع إيمانهم فى رع وبتاح وأزريس وإيزيس ، بل وفى آمون حامى حمى طيبة والمحافظ على استقلال الجنوب من غارات الهكسوس !

وولدت زليخا له أفرايم وميشا ، ومضت السنون السبع المخصبة والمصريون يزرعون دأبا ، فما حصدوا ذروه فى سنبله ، ودخلت السنون المجدبة وقحط الناس ، وأصاب آل يعقوب فى حبرون المجاعة فبعث يعقوب بنيه إلى مصر وأمسك أخا يوسف بنيامين ليكون بقربه ، فما كان يطيق فراقه بعد أن فقد يوسف الحبيب .

وانطلقوا إلى مصر مع المنطلقين ، فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون ، فالتفت إلى رجاله وأمر بأن يوقر لكل رجل من إخوته بعيره ، فقال

له إخوته :

ــ لنا أخ بقى إلى جوار أبينا وهو شيخ كبير .

كانوا يطمعون فى حمل بعير لبنيامين ، فقال لهم يوسف لما جهزوهم بجهازهم :

ــ ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون .

قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون .

وقال لفتيانه :

ــ اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون .

وذهب فتيان يوسف إلى رحال إخوته ودسوا فيها ثمن ما اشتروا من طعام . كان يوسف يرجو أن يرجعوا إذا ما وجدوا أنهم لم يدفعوا ثمن ما أخذوه ، فقد كان لا يزال يثق فى ضمائرهم بعد ما فعلوه معه يوم ألقوه فى البئر لتلتقطه بعض السيارة .

فلما رجعوا إلى أبيهم شكوا إليه أنهم لم يحصلوا على نصيب بنيامين ، وقالوا :

ــ يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون .

قال :

ــ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وجدوا ثمن ما أخذوه فى رحالهم ، فلم يفكروا فى العودة كما كان يرجو يوسف بل قالوا :

ــ يا أبانا ما نبغى ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد

كيل بعير ، ذلك كيل يسير .

رأوا أن الثمن الذى رد إليهم يفوق كثيرا كيل البعير ، لم تعد المسألة مسألة ضمير وحقوق بل أصبحت موازنة بين كيل البعير وقيمته وبين الثمن الذى وجدوه فى رحالهم ، ولم يقبل يعقوب ما رأوه بل أمر برجوعهم إلى مصر ليسددوا ثمن ما أخذوا ، ودارت المشاورة بينه وبينهم حول بنيامين قال :

— لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم .

إنه لم يقبل منهم عذرا أن يعودوا من غير بنيامين إلا أن يهلكوا جميعا ، فأقسموا على ذلك ، فلما آتوه موثقهم قال :

— الله على ما نقول وكيل .

وتحركت أبوة يعقوب فقد كان يحبهم من سويداء قلبه وكان يخشى أن يصيبهم مكروه ، فقال :

— يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون .

ولما دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولما دخلوا على يوسف التفتوا إلى بنيامين وقالوا :

— هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به .

— قد أحسنتم وأصبتم وستجدون جزاء ذلك عندى .

ونظر إلى إخوته الأحد عشر وقال :

— إنى أراكم رجالا وقد أردت أن أكرمكم .

فدعا صاحب ضيافته فقال :

— انزل كل رجلين على حدة ، ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما .

ثم نظر إلى بنيامين وقال :

— إنى أرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس معه ثان ، فسأضمه إلىّ فيكون منزله معى .

وأنزل أخاه معه فأواه إليه ، فلما خلا به قال :

— إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

فلما جهزهم بجهازهم جعل الإناء الذى كان يشرب فيه الملك فى رحل أخيه ، فلما ارتحلوا أذن مؤذن :

— أيتها العير إنكم لسارقون .

قالوا وأقبلوا عليهم :

— ماذا تفقدون ؟

قالوا :

— نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم .

قالوا :

— تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، فلو كنا سارقين ما رددنا ثمن الطعام الذى وجدناه فى رحالنا .

قالوا :

— فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟

قالوا :

— جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين .

فبدأ يوسف بأوعيتهم قبل وعاء أخيه .

لم يكن حكم الريان ملك مصر وقضائه أن يُسترق السارق بما سرق ، وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا بعلة كادها الله له فاعتل بها .

قالوا :

ـــ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

والتفتوا إلى بنيامين وقالوا :

ـــ يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء ، متى أخذت هذا الصواع ؟

فأسرها يوسف فى نفسه و لم يبدها لهم . قال دون أن تتحرك شفتاه :

أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون :

قالوا :

ـــ يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين .

قال :

ـــ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون .

وظلوا يسألونه أن يطلق بنيامين ويأخذ بعضهم مكانه وهو يأبى أن يأخذ بريئا بسقيم ، فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم شمعون :

ـــ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون .

وعادوا إلى حبرون وقالوا لأبيهم ما قال شمعون ، فقال يعقوب :

ـــ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم .

وتولى عنهم وقال :

— يا أسفى على يوسف .

وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا :

— تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين .

قال :

— إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وذهبوا إلى مصر يحملون الصنوبر ليقايضوا ببضاعتهم ما عند يوسف من طعام ، فلما دخلوا عليه قالوا :

— يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين .

قال :

— هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟

قالوا :

— أإنك لأنت يوسف ؟!

قال :

— أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا :

— تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين .

قال :

— لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا

بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصير وأتونى بأهلكم أجمعين .

قال يهوذا الذى سيصبح الجد الأعلى لليهود :

ــ أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب ، وأنا أذهب اليوم بالقميص فأخبره بأنه حى فأقر عينه كما أحزنته .

وفصلت العير وانطلقت من أواريس إلى حبرون ، وقبل أن يصل البشير إلى يعقوب قال أبوهم :

ــ إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون .

قالوا :

ــ تالله إنك لفى ضلالك القديم .

فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال :

ــ ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟

قالوا :

ــ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .

قال :

ــ سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم .

وخرج يعقوب فى سبعين راكبا من أهله وساروا إلى مصر . وقبل أن يدخلوها خرج يوسف ليلقاهم وارتمى فى حضن أبيه وامتزجت دموعه بدموعه .

وآوى إليه أبويه وقال :

ــ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

وبلغوا مصر وذهبوا إلى قصر يوسف ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال :

ـــ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .

رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .

٧

عادت قوافل بنى إسماعيل إلى مكة تحمل خيرات مصر والشام ، فأسرع الناس إلى العائدين يطفئون نيران الشوق ويسألون عن أخبار الرحلة ، وانطلق رجال القوافل إلى الحرم ليطوفوا به قبل أن يعودوا إلى دورهم وليشكروا الله على ما آتاهم من فضله إن الله سميع عليم .

كان بنو إسماعيل يعيشون أتقياء إلى جوار بيت الله . كانوا يحسنون التوكل على الله فيما لم ينالوا ، ويحسنون الرضا عما قد نالوا ، ويحسنون الصبر عما قد فات . وكانوا يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، فقد لقنوا أن الكسب عبادة وأن العمل عبادة ، فكان العمل والتوكل على الله يسيران جنبا إلى جنب فى مجتمع مكة الجديد يتناسقان ولا يتنافسان ، ويدفعان بالشعب الجديد ليكون بمثابة الرأس لما يحيط به من شعوب .

كانوا يعملون ويجوبون الآفاق فى طلب الرزق ، وكانوا فى ذات الوقت يؤمنون بأن الله هو الرزاق ، فهو الذى يرزق الجنين فى بطن أمه والدود فى جوف الحجر والطير فى السماء ، فلم يعانوا من الخوف والقلق واللهفة على أرزاقهم و لم يحسدوا أحدا على ما آتاه الله من فضله . فنعموا بالسعادة وراحة البال .

وجرت الأموال فى أيدى بنى إسماعيل فلم يفرحوا بما آتاهم الله من فضله ، فقد كانوا فى قرارة نفوسهم يؤمنون بأن المال ليس غاية بل هو وسيلة ليخدموا به ربهم ومجتمعهم الذى ضاقت به رحاب مكة ، وصار فى حاجة إلى بذل

الكثير .

زهدوا الدنيا فتركوها من قلوبهم ، ولكنهم لم يلبسوا مسوح الكهنة ويعتزلوا الحياة بل كانوا يخوضون غمارها وهم على ثقة من أنهم سيؤجرون على كفاحهم وعلى مكابدة حياتهم .

كان الكنز الروحى الذى عمرت به قلوب بنى إسماعيل نبراسا لهم ، فلم يفتنهم عن حقيقة واقعهم ، ولم يتملكهم الغرور فيعبدوا ذواتهم الفانية باعتبار أن ذلك السمو الروحى الذى بلغوه بعملهم وكدهم امتياز خلعه الله عليهم ، بل كانوا موقنين من أن عهد الله لا يناله الظالمون .

وجلس يعرب بن يشجب بن نابت فى حجر إسماعيل يرنو إلى الكعبة ويسبح لله ، وكان الرضا يتألق فى وجهه والصفاء يترقرق فى عينيه ، فقد تعشق النور الإلٰهى فانعكس على محياه ، وتعلق قلبه بالحقيقة المطلقة الخالدة فشرح الله صدره ، إنه عليم بذات الصدور .

كان يعرب قد خلف الشباب وراءه وصار شيخا كبيرا من شيوخ بنى إسماعيل ، تعلم على عمه قيدار الكتابة بالطريقة الجديدة التى وضعها عمه ، طريقة الفصل بين الألفاظ بعد ما ورثوها عن جدهم إسماعيل موصولة الكلمات .

كان يعرب يمضى أغلب وقته فى الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة يكتب العقود والمواثيق ، ويعلم صبيان الإسماعيليين الكتابة الجديدة التى كانت تتطور على مر الأيام ، وكان يخرج مع القوافل ويسير فى الأرض وينظر كيف كانت عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين .

وراودته فكرة الخروج إلى العراق مع الخارجين ، كان فى شوق لأن يرى أور مدينة جده إبراهيم فما أكثر ما سمع عما كان بين جده وقومه وما كان منه

يوم أن حطم الأصنام فى معبد نانا إلـٰهة القمر ، وجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون .

واستولت الفكرة على الشيخ الكبير حتى إذا تجهزت القافلة الخارجة إلى بابل خرج معها وهو قرير العين ، وكان من قبل قد طهر نفسه ، كان قد سما فى عبادته فإذا سأل الله لا يسأله شيئا لذاته بل كان يفر منه إليه ويعوذ به منه ، يفر من مقته إلى رحاب رحمته ويعوذ بمغفرته من غضبه والله غفور رحيم .

وانسابت القافلة فى محراب الكون فإذا بيعرب يحس تعاطفا مع كل ما حوله ، كان شروق الشمس يجعله يتهلل بالفرح وكان غروبها يحرك كل جوارحه بالتسبيح لرب الناس ملك الناس . وكان ضوء القمر ينير قلبه فيعقل أسرار الوجود ، وكان النور الصافى الذى يكسو الصحراء يقوى الإيمان فى فؤاده فيخفق بين جوانحه بالتقديس لبديع السموات والأرض .

وبلغت القافلة أور فراح يعرب يمد بصره إلى البحر وإلى أبراج المعابد ويملأ رئتيه بهوائها وهو سعيد ، كان يشم عبير الماضى التليد ، عبير جده الخليل وهو يسرى كالروح فى أور الكلدانيين ، ونزل يعرب عن صهوة جواده وهو يتلفت فإذا بالخيل تضرب بحوافرها أرض أور ، وفى مثل لمح البصر طافت بقلبه فكرة : إن جده إبراهيم لم ير هذه الجياد وهى صاعدة هابطة من بلده إلى بابل وإلى بلاد ما بين النهرين تحمل البضائع وأثقال الناس إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

لم يكن إسماعيل قد ذللت له الخيل العراب بعد ، و لم يكن أحد من البشر قد اعتلاها قبله ، و لم يكن العرب قد اتخذوا من إسماعيل قدوة وعملوا على استئناس الخيل . جاء الحصان إلى هذه البلاد مع من وردوها من العرب وقد أطلق عليه البابليون فى أول الأمر : الحمار القادم من البدو .

ونظر ناحية النهر فإذا بسفن كبيرة لا يقل بحارتها عن تسعين رجلا تتهادى

بما حملت من القمح والزيتون والأخشاب والبخور ، وحانت منه التفاتة فإذا بأناس قد تجمعوا عند النهر وقد قبضوا على امرأة طأطأت رأسها فى ذل وتسليم ، فذهب ينظر ما يكون .

وهم الرجال بإلقاء المرأة فى النهر فقال يعرب لرجل وقف إلى جواره :

ـــ ماذا تفعلون ؟

ـــ نحكم الإلـٰه .

ـــ فى ماذا ؟

ـــ فى هذه المرأة التى زنت .

ـــ إنها ستغرق إن كانت تجهل العوم .

ـــ إن كانت بريئة فسينقذها الإلـٰه مردوخ ، هذه شريعة حمورابى شريعة السماء .

ولم ينتظر ليرى إن كان إلـٰههم سينقذها أو سيتخلى عنها ، كانوا يسمون ذلك العبث التحكيم الإلـٰهى ويؤكدون أن إلـٰههم شرع هذا الجزاء يوم أوحى إلى حمورابى بقانونه .

وسار فى طرقات أور وهو شارد اللب حتى إذا ما وصل إلى معبد عشتار رأى العاهرات المقدسات يمارسن الزنا إرضاء لعشتار ، فعجب فى نفسه كيف يلقى بالزانية فى الماء أو فى النار لتنقذها الآلهة إن كانت بريئة بينا الزنا يمارس باسم الدين على مرأى من رجال القانون والكهان !

ودخل إلى معبد عشتار إلـٰهة الجمال والحب واللذة ، وإلـٰهة الحرب ، وإلـٰهة الأمومة الرحيمة ، والعنصر الخلاق فى كل مكان .

واشتد عجبه إذ كيف تجمع إلـٰهة كل هذه الصفات ؟ كيف تجمع بين العهر والأمومة الطاهرة ؟ كيف تصور عارية تقدم ثدييها للرضاع ، وتصور ملتحية تجمع بين صفات الذكران والإناث ؟ ثم يخاطبها عبادها بعد ذلك :

بيأيتها العذراء المقدسة ويا أيتها الأم العذراء .

ورأى رجلا يصلى لها فى حرارة فدنا منه وألقى إليه سمعه ، فإذا بالرجل يسبح بحمدها تسبيحا أذهل يعرب وعقد لسانه من الدهشة :

ــ أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا عشتار ، يا ملكة المدائن كلها ويا هادية كل الرجال .

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا بنة سين العظيم .

ألا ما أعظم قدرتك وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين !

أنت تحكمين وحكمك عدل .

وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .

وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .

أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ؟ وأين البقعة التى لا تعرف فيها أوامرك ؟

إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة .

إنك تنظرين إلى المظلومين وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين .

إلى متى يا ملكة السماء والأرض إلى متى ؟

إلى متى تتمهلين يا راعية الرجال الشاحبى الوجوه ؟

إلى متى أيتها الملكة التى لا تكل قدماها والتى تسرع ركبتاها ؟

إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية .

يا عظيمة يا من تهابك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك .

يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجمل سناك !

يا نور السماء البراق يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم .

يا إلٰهة الرجال ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول .
حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ويقوم المرضى ويمشون ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك .
إلى متى أيتها السيدة ينتصر علىّ عدوى ؟
فأمرى فمتى أمرت ارتد الإلٰه الغضوب .
إن عشتار عظيمة ، عشتار ملكة ! سيدتى جليلة القدر ، سيدتى ملكة ، ابنة سين القوية ، ليس لها مثيل .

وانسل يعرب من معبد عشتار وراح يرقى فى مرتفعات أور فقد كان فى طريقه إلى معبد نانا إلٰه القمر ، وانساب فى الحرم المقدس ثم دخل المعبد فإذا بأصنام الآلهة فى كوات وإذا بكبيرهم مردوخ فى وسطها ، وراح يراقب الرجال الساجدين والكهنة وهم يطلقون البخور ، ويصغى إلى المغنيات اللاتى كن ينشدن للآلهة فأحس رغبة فى أن يحطم الأصنام كما فعل جده العظيم ، وأن يصيح فى القوم كما صاح : « إنى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » . كان مؤمنا عميق الإيمان ولكنه لم يكن يملك الشجاعة التى يضعها الله فى قلوب المرسلين .

وغادر يعرب أور وخرج مع القافلة المنطلقة إلى بابل ، وكانت القافلة تسير على شاطئ النهر فى الحقول وكانت الثيران تجر المحاريث والفلاحون يزرعون ويحصدون ومياه النهر تقطع الشاطئ بمناجلها البيض ، وسرت القافلة فى معبد الله ليالى وأياما حتى لاح برج بابل للعيون ، وسرعان ما انسابت القافلة من باب عشتار إلى بابل العظيمة ، جنة العرب .

وذهب يعرب إلى السوق وكان الرجال سود الشعر سمر البشرة ملتحين ، يضعون على رءوسهم شعرا مستعارا أو يضفرون شعرهم فى ضفائر تنوس على أكتافهم .

كانوا يرتدون مآزر من الكتان فوقها عباءات ، وكانت أثوابهم ملونة بالأزرق فوق الأحمر أو الأحمر فوق الأزرق على هيئة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . وقد أخذت هذه الثياب الملونة عيون التجار القادمين من جزيرة العرب فقد كانوا يعرفون الصبغة الفرعونية التى كانت تصبغ بها الثياب فى أرض كنعان ، أما هذه الألوان فقد كانت شيئا جديدا .

واندس التجار العرب يبيعون ويشترون ، وراح يعرب ينظر ويسمع ، سمع كثيرا عن عشتار ومردوخ وآلهة البابليين وعن قانون حمورابى ، عرف عشتار أنها على الدوام فى غواية وحب ، أحبت ذات يوم أسدا فأغوته ثم قتلته ، وشغفت بتموز حبا حتى إذا ما قتل هبطت خلفه إلى العالم السفلى إلى الأرض التى لا رجعة منها . وعلى الرغم من الأساطير التى نسجت حول آلهتهم فقد كان يعجب من بعض الملامح التى كانت فى دين القوم ودين التوحيد .

ولم يطل عجبه فقد اهتدى إلى أنها بقايا دين نوح ، إنهم يتحدثون عن الطوفان ويذكرون تفاصيله بيد أنهم قالوا : إن كل من نجا منه أضحى خالدا لا يعرف الموت ، وإن شماش إلـٰه الشمس كان أحد هؤلاء الناجين .

وكان فى شوق إلى قراءة قانون حمورابى ذلك القانون الذى سرى سريان الأنفاس فى أرض بابل . إنهم يقدسونه تقديس المؤمنين لصحف إبراهيم . فانطلق إلى أسطوانة من الحجر على أحد أوجهها حمورابى وهو يتلقى القوانين من شماش إلـٰه الشمس . إنها شرائع منزلة من السماء .

وراح يعرب يقرأ كيف أن الآلهة نادت حمورابى لكى ينشر العدالة فى العالم ويقضى على الأشرار والآثمين ، ويمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء ، وينشر النور فى الأرض ويرعى مصالح الخلق .

واستمر يعرب فى قراءة القانون حتى أتى عليه وقرأ فى ختامه :

« إن الشرائع العادلة التى رفع منارها الملك الحكيم حمورابى ، التى أقام بها

فى الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة ... أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، فى قلبى حملت أهل الأرض سومر وأكد ... وبحكمتى قيدتهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة .. فليأت أى إنسان مظلوم له قضية أمام صورتى أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذى على أثرى ، وليلق باله إلى كلماتى الخطيرة ! ولعل أثرى هذا يكون هاديا له فى قضيته ، ولعله يريح قلبه فينادى : « حقا إن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه ، لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة .

ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل ، يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على أثرى » .

ووقف يعرب أمام الأثر التذكارى يفكر وهو يعجب : من أين جاءت إلى حمورابى كل هذه الحكم ؟ أيكون ما بين شريعة حمورابى وشريعة السماء من تشابه هو بقايا شريعة نوح ؟ و لم يطل عجبه فالشرائع السماوية كلها واحدة منذ آدم حتى إبراهيم ، وأن تلك الشرائع لم تذهب عن الأرض بل حملت بأساطير الشعوب ، إنها مصدر كل ما فى القوانين الأرضية من رحمة وعدل .

وكان يعرب ممن درسوا الخط العربى الجديد على يد عمه قيدار فكان مهتما بالقلم البابلى ، إنه قلم مسمارى ، فالتجار ورجال الدولة ورجال الدين يكتبون بقلم مدبب على ألواح من الطين ثم يتركونها تجف أو يجففونها بالنار . لم يعرفوا ورق البردى و لم يستخدموه فى الكتابة كما عرفه المصريون وعرفه المجتمع الذى نشأ حول بئر زمزم بفضل جدتهم العظيمة هاجر المصرية .

وملأ أذنيه وقع حوافر الخيل فى طرقات بابل فإذا بقوافل الجياد تنطلق إلى أسواق جنة العرب، فشرد ذهنه وراح يفكر فى الخير العميم الذى جنته بابل من استئناس إسماعيل للخيل، صارت مركز تجارة العالم وتكدست الثروات بها .

وتلفت يعرب حوله فرأى كل شيء ينطق بالبذخ ، ولم يحسد بابل على غناها بل رثى لها ، فاشتغال الكهنة بالتجارة ومغالاة التجار فى الربا وانتشار الجشع فى قلوب أبنائها ، كل ذلك ينذر بقرب الكارثة . أصبح من المستحيل التوفيق فى مجتمعها بين التقوى والشره الذى جعل فوائد القروض عشرين فى المائة ، وفوائد البضائع ثلاثة وثلاثين فى المائة .

كانت بابل دولة قوية على رأسها حكومة قوية تسندها ثروة تجارية ضخمة ، إلا أن عين يعرب كانت ترى السوس ينخر فى أعمدة هذه الدولة ، كان الترف هو الخنجر الذى سوف تنتحر به الأمة التى تتألق كالتاج فوق شعوب العرب .

وعادت قافلة بنى إسماعيل إلى مكة تحمل الأقمشة التى طرزت بمهارة والثياب التى صبغت بالأزرق فوق الأحمر أو الأحمر فوق الأزرق . وما إن لاحت أرباض أم القرى حتى طفرت الدموع إلى مآقى الشيخ يعرب ولم يملك نفسه حتى نشج بالنحيب .

وخف رجال القافلة إلى الكعبة يطوفون بها ، وخر يعرب ساجدا لله رب العالمين .

٨

أو لم يوسف الصديق ليعقوب وإخوته وليمة فخمة تليق بعزيز مصر رئيس وزرائها وقاضى قضاتها ومن جعله الريان على خزائنها ، دعا إليها الرجال الأول فى دولة الهكسوس والعظماء والرفقاء ورؤساء الأسرار ومستشارى الأوامر الملكية ورجال الجيش ومستشارى أسرار السماء ، فغص قصره بالقضاة ورجال القصر الملكى وكهنة المعابد ووجهاء من آمنوا بدين التوحيد الذى كان يدعو إليه يوسف بالحكمة والموعظة الحسنة .

وراح يعقوب وبنوه يتحدثون إلى القوم فى ود وقد فتحوا لهم قلوبهم ، وساد جو الحفل المحبة حتى إذا ما دعوا إلى الطعام وجدوا أن يوسف فرق بين أبيه وإخوته وبين المصريين وجعل لكل من الفريقين طعاما ، وحمد يعقوب ليوسف ما فعل فقد كره يعقوب أن يأكل من طعام لم يذكر اسم الله عليه .

وراح يعقوب وبنوه يأكلون مطمئنين ، ولم تدم الراحة التى فاضت فى صدورهم طويلا فقد علموا أن المصريين هم الذين أبوا أن يأكلوا معهم على مائدة واحدة ، فهم يعتبرونهم نجسا ويرون أن سكاكينهم وقدورهم وسفافيدهم نجس حتى إنها تنجس الضحية الطاهرة إذا ذبحت بها أو وضعت فيها .

وبذرت فى صدر يعقوب بذرة الخوف من المستقبل ، أسكنهم الريان بن الوليد أرض جوشن الطيبة فى شرق الدلتا ترويها قناة خرجت من النيل لتصب فى البحر الأحمر وراحت غنمهم وإبلهم وسائر مواشيهم ترعى فى الأرض الخصبة دون منازع ، ولكن كراهية القوم لمقدمهم بدت من أفواههم وأفعالهم

وما تخفى صدورهم أكثر .

وراح يعقوب يفكر فى مصير أبنائه الذين هبطوا مصر ، كانوا فى حبرون غير مستقرين يخافون أن يتخطفهم الكنعانيون ، وقد جاءوا إلى مصر ليعيشوا فى حماية يوسف فماذا يكون مصيرهم إذا ذهب يوسف ؟

إنهم فى أرض جوشن ينعمون بالسلام ولكنه ليس سلاما دائما ، فمن حولهم أناس لا يأكلون معهم فى جفان واحدة إذ يرون أنهم نجس ، لهم حضارتهم ولكن لهم معتقداتهم ولهم ضلالتهم أيضا ، فإما أن ينسى بنو إسرائيل ربهم ويندمجوا فى القوم ويؤمنوا بما آمنوا به ويعودوا للضلالة بعد الهدى ، وإما أن يثور المصريون عليهم فيبيدوهم أو يخرجوهم من ديارهم .

وفكر يعقوب فى بنى إسماعيل وكانوا أسعد حالا منه ومن بنيه ، أقامهم الله فى مجتمع جديد لم تكن له سابقة فشبوا أحرارا من شوائب حضارات من قبلهم فلا خوف عليهم من أساطير من سبقوهم ولا من معتقداتهم ، قد كفلوا مصائرهم وأسلموا وجوههم لربهم .

ألا ما أكثر الآلهة والأساطير فى أرض النيل ؟ إيزيس حملت من أزريس بعد مقتله ، نفخ فيها من روحه ثم صعدوا جميعا إلى السماء ليكونوا آلهة للمصريين ، البقرة حتحور أرضعت الطفل حور بن أزريس من إيزيس فصارت حتحور البقرة المقدسة وفاضت بركتها على إناث البقر فلم يعد المصريون يأكلون لحم إناث البقر تكريما لها واعترافا بجميلها ، وصارت حتحور رمزا لإيزيس .

إيزيس أحب الآلهة إلى قلوب المصريين قهرت الموت بالحب ، وأكدت للناس الذين يؤمنون بالبعث بعد الموت أن ذلك لهو اليقين ، فقد جمعت أشلاء زوجها أزريس بعد أن قطعه أخوه ست إرْبا إرْبا ، ونجحت فى أن تجعل أزريس يقوم من الأموات وأن يبعث حيا مرة أخرى .

وصارت إيزيس أم الإلـٰه ، وراح المؤمنون بها يصلون لتمثالها وهى ترضع ابنها حور ، وصار أزريس رمزا للخصب ما دام قادرا على أن يضع فى بطن إيزيس ابنه بعد أن قتله أخوه ست الشرير !

رع إلـٰه الشمس يقطع المستنقعات السماوية كل يوم فى سفينته الإلـٰهية من الشرق إلى الغرب ، وبتاح الإلـٰه الذى خلق الكون أدار البيضة التى نشأ منها العالم على عجلة الفخار .

وأصغى يعقوب وبنوه إلى تمجيدات رع :

ــ الصلاة لك يا رع عند الشروق ويا أتوم عند الغروب.إنك تشرق وتشرق وتسطع متوجا كملك الآلهة ، أنت رب السماء ورب الأرض الذى خلق الكائنات العليا والسفلى .

أيها الإلـٰه الأوحد الذى كان منذ البدء ، الذى أنشأ العالم وخلق البشر ، والذى أنشأ ماء السماء وخلق النيل . والذى أنشأ ما فيه .

وعجب يعقوب وبنوه من المصريين وآلهتهم ، فما أكثر ما غادر المصريون بلادهم ورأوا الشمس تبزغ من خلف أبراج بابل تنشر ضياءها على أرض شنعار كما رأوها تبزغ من خلف مسلات منف وطيبة وتنشر ضياءها على وادى النيل ، وعلى الرغم من ذلك ظل إلـٰههم فرعونا محليا يحكم أرض الفراعين ، و لم يعرفوا ذلك الإلـٰه الذى يسيطر على العالمين .

قالوا إن رع خلق العالم وخلق البشر وأنه رب السماء ورب الأرض ، بيد أن عالمهم كان الدلتا ومجرى النيل ، وكانت سماؤهم سماء مصر وأرضهم أرض مصر ، وكان الفرعون الإلـٰه يصون مصر وحدودها ويسهر على أمنها وأمن أبنائها وما كان له سلطان خلف الحدود .

وطمع يعقوب في أن يأتى نصر الله ويدخل المصريون فى دين الله ويؤمنوا بأن الله واحد لا إلـٰه إلا هو فى السماء والأرض . وأن يكون بنوه نبراس الهدى

الذى يهدى إلى دين الحق ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء .

واستقر يعقوب وبنوه فى جوشن بالقرب من منديس مدينة باسنت إلـٰهة المرح واللذة ، وأعرض بنو يعقوب عن عبادة الإلـٰهة ذات رأس القطـة ومجونها ، بيد أن الهكسوس اشتركوا فى عيد باسنت وشربوا وعربـدوا ورقصوا وغرقوا فى الشهوات حتى آذانهم ، فعادت المخاوف إلى قلب يعقوب فقد رأى فيما فعلوا الخنجر المصوب إلى قلب حكمهم ، ذلك الخنجر الذى سوف ينتحرون به قبل أن يهب المصريون لطردهم من بلادهم .

الحضارة كالحياة كلاهما فى صراع دائم مـع الموت ، كان الهكسوس يصارعون الفناء وإن أسرفوا فى الترف والفسق ، وكان يعقوب يصارع سكرات الموت وقد التف حوله بنوه روبيل وشمعان ولاوى ويهوذا وإخوتهم ، وجاء يوسف يعود أباه فاكتمل عقد الأسباط فصاروا اثنى عشر رجلا يرنون إلى أبيهم الشيخ الكبير فى حب وإشفاق .

وأشار يعقوب إلى يوسف أن اقترب ، فدنا يوسف من أبيه فقال له يعقوب :

ــ إذا مت فادفنى إلى جوار جدى وأبى .

وسرى صوت إبراهيم فى أذنى يعقوب كأنما كان آتيا من مكان سحيق ، ورآه بخياله الكليل يوم أوصى إسماعيل وإسحق ويعقوب :

ــ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

كان يعقوب يموت مسلما كما أوصاه الخليل ، كان يموت على ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، وكان الأسباط مسلمين لم يكونوا هودا ، فيهودا الذى سيصبح جدا لليهود ينظر مع إخوته إلى أبيه وفى العيون دموع وفى القلوب حزن عميق .

وراح يعقوب ينظر بعينين واهنتين إلى بنيه ، حتى إذا ما حضر يعقوب الموت قال لبنيه :

ــ ما تعبدون من بعدى ؟

قالوا :

ــ نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـٰها واحدا ونحن له مسلمون .

وفاضت روح يعقوب فانهمرت الدموع من العيون ، فقد مات إسرائيل وإن كانت وصيته ترن فى آذانهم وتنسكب فى وجدانهم وتنفعل بها نفوسهم فتتحرك ألسنتهم :

ــ آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وحمل جسد يعقوب الطاهر ليحنط . فقد أوصى ابنه يوسف عزيز مصر أن يدفن هناك فى حبرون إلى جوار جده الخليل وأبيه إسحاق وراح الحناطون يستخدمون التوابل والمر وسائر أنواع الطيب إلا البخور ، حتى إذا انتهوا من عملهم غطوا الجثة بالنطرون أربعين يوما ثم غسلوها وأخذوا يلفون الجسم كله بشرائط من الكتان الشفاف مغطاة بالصمغ . وبذلك تم تجهيز الجثة لتنقل إلى الخليل .

واستأذن يوسف الصديق الريان بن الوليد فى أن يخرج ليدفن نبى الله يعقوب فى الخليل فأذن له ، فخرج يوسف وإخوته يحملون جثمان أبيهم . وراح المصريون يبكون الشيخ المبارك ، وانطلق أكابر المصريين وشيوخهم مع يوسف إلى فلسطين .

واعترض الكنعانيون الجنازة وقاوموا دفن يعقوب فى أرضهم ولكن الجنود المصريين الذين كانوا مع يوسف شقوا طريق الجنازة بأسيافهم حتى

انتهوا إلى قبر الخليل .

ودفن يعقوب إلى جوار إبراهيم وإسحاق ، وعاد يوسف وإخوته إلى مصر ليمضوا أيامهم على الأرض ، وما إن دخل يوسف محرابه حتى راح يدعو الله :

ــ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .

٩

كان خلفاء إسماعيل يعيشون فى تناسق فى مجتمعهم الذى كان ينمو على مر الأيام ، فلم يدع بنو إسماعيل أنهم ورثة النفحة الروحية وحدهم ، ولم يحاولوا أن يغتصبوا الحق الإلـٰهى ، ولم يبلغ بهم الزور أن يدعوا أنهم وحدهم الناس وأن يعبدوا ذواتهم من دون الله ، بل كانوا فى قرارة نفوسهم يؤمنون أن لا فضل لهم على من سواهم إلا بالتقوى ، وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

وكانت ولاية البيت لجرهم ، كانوا حكام مكة يحكمون بما أنزل الله ، ولم يكونوا كهنة لهم نفوذ دينى يمكنهم من استغلال الناس باسم الله بل كانوا جميعا يعملون لإرضاء الله وإدراك غاية روحية مشتركة .

وكانت قطوراء قد سكنت إلى الدعة بعدما كان بينها وبين جرهم من قتال فى سبيل ولاية الحرم ، فقد أشبع دين إبراهيم الجوع الروحى فى نفوس المؤمنين وألف بين قلوبهم ، فقضى على روح التعصب ونشر فى المجتمع الجديد روح التسامح والمحبة .

وكانت قلوب بنى إسماعيل تخفق بحب مصر ، فقد كانت جدتهم هاجر أميرة فى مصر قبل أن تقع أسيرة فى أيدى العماليق وتهدى إلى جدهم الخليل . وكان رواد الإسماعيليين فى غدو ورواح بين مكة ووادى النيل يحملون البخور للمعابد المصرية ، فما كانوا قد تردوا فى هوة التعصب فيحتقروا ديانات المصريين ، بل كانوا يدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكانوا

يؤمنون بأن اضطهاد دين لدين يناقض عقيدتهم السمحة التى تدعو إلى أخوة البشر جميعا ، وإلى الله رب العالمين ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وكانوا على صلة طيبة ببنى إسرائيل الذين نزلوا بأرض جوشن من دلتا النيل ، كانوا جميعا مسلمين فهم حفدة الخليل ، وكانوا على ملة إبراهيم . ولم يكن بنو إسرائيل قد انحرفوا عن طبيعتهم البشرية وعبدوا ذواتهم وزعموا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أميون من الأمم التى كتب عليها أن تتخبط فى الظلمات إلى يوم الدين .

كان بنو إسماعيل وبنو إسرائيل على دين واحد ، وكانوا حديثى عهد بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط فأسلموا وجوههم لله رب العالمين ، وتعاونوا فى مصر على البر والإحسان ولم يتعانوا على الإثم والعدوان .

ورأى بنو إسماعيل العمال المصريين يعملون فى مناجم سيناء ، فى الأرض التى كانت مركزا لعبادة الإلٰه « سين » إلٰه القمر فنسبت إليه ، فعرف بنو إسماعيل شيئا عن التعدين .

ورأوا فى مدن مصر الصناع يعيشون عيشة تدعو إلى الأسى ، يقاسون من سخرية قومهم حتى إن شعراءهم كانوا يتغنون بتحقيرهم قائلين :

— لم أر أبدا الحداد يوفد كسفير .
لا ولا صانع الذهب يؤدى رسالة .
ولكنى رأيت الحداد فى عمله .
بجانب بؤرة موقدة .
لقد كانت أصابعه مثل جلد التمساح .
وكان أنتن من بيض السمك .

ورأوا العمال العراة يقتلعون من المستنقعات قصب البردى من سيقانه ويربطونه حزما ينقلونها إلى المخازن ، ورأوا القوارب تصنع منه وينسج الحصير وتفتل الحبال وتهيأ النعال .

ورأوا كيفية إعداد البردى للكتابة ، بأن تقطع سيقانه طولا إلى شرائح رقيقة وتوضع عليها عرضا طبقة ثانية من الشرائح ، ثم تطرق الأوراق المؤلفة من ذلك بشدة وتجفف وتلصق جنبا إلى جنب .

ورأوا كيف ينسج المصريون الكتان الأبيض ناعما رقيقا كأنه الحرير فى طراوته ونعومته . وكانت صناعة الملابس من عمل النساء ، فإن إيزيس وأختها نفتيس غزلتا ونسجتا وبيضتا ملابس أخيهما أزريس إمام الشهداء وزوجهما العزيز .

ورأوا دبغ الجلود وقطعها بالسكاكين ذات النصل الهلالى ، ورأوا زخرفتها وتلوينها بالأحمر والأخضر لتزيين عربات أكابر القوم ووجهاء البلاد .

ورأوا النجارين يصنعون الأثاث ويشقون الخشب بالمناشير ويزخرفون ما يصنعون بالأزاميل ، وكانوا يعجبون بتأليف المصريين ألواحا كبيرة من ألواح صغيرة تلصق جنبا إلى جنب بأوتاد صغيرة من الخشب .

ورأوا كيف يصنع المصريون الورق المقوى فيضعون قطع الكتان بعضها فوق بعض ثم يلصقونها معا بمادة لاصقة ، ثم يغشونها بطبقة من الجص .

ورأوا صناعة الفخار وعجلة الفخارى ، وعرفوا أن أساطيرهم تقول : إن الخالق خنوم معبود الفنيين صاغ عليها أوائل البشر فى بداية الخليقة . ورأوا صناعة القاشانى والزجاج وإذابة المعادن .

أما الصياغة فقد كان بنو إسماعيل يفهمون أسرارها ، كانوا يتاجرون فى الذهب والفضة بين مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين .

عرف بنو إسماعيل بعض أسرار الصناعة ولكنهم لم ينقلوا إلى بلادهم شيئا

منها ، فقد كانوا يشاهدون ما يقاسيه الصناع فى مصر من البؤس والشقاء لقلة الأجور ، على الرغم من التحف النادرة التى كانت تخرج من بين أيديهم الفنية الخلاقة ، فأبوا أن ينقلوا تلك الصناعات إلى مكة حتى لا تتكون طبقة محزونة تقاسى وحدها وطأة الظلم الاجتماعى .

ورأى بنو إسماعيل فنون المصريين من نقش وحفر وصنع تماثيل وإقامة أعمدة على شكل البردى ، وعرفوا ذلك الإبداع الذى أطلق عليه المصريون « الغسق المقدس » وأعجبوا بالتناسق الفنى الذى يحتم عليهم إذا صوروا شخصا متجها إلى اليمين أن تكون الذراع اليسرى والساق اليسرى هما الممتدتان إلى الأمام حتى لا يتقاطع جسم الإنسان فتصبح أعضاؤه فى شكل غير واضح أو قبيح .

وعلم بنو إسماعيل الشىء الكثير عن دقائق الفن المصرى ولكنهم لم يحاولوا تقليده ، فقد كانوا يعتقدون أن الفنون من عمل النساء كحياكة الملابس وتطريزها .

وظلت صلة بنى إسماعيل بمصر وثيقة ما دام العماليق على عرش البلاد وما دامت عبادة الله فى بنى إسرائيل . وقد أغلق الجنوب أبوابه فى وجه كل ما يأتى من الشمال الذى سقط فى أيدى « الحقا وخاسوت » حكام البلاد الأجنبية ، بيد أن موجة التوحيد راحت تقرع أبواب طيبة الموحدة وتتسلل إلى معابد آمون .

راح كهنة آمون يدمجون الآلهة فى إلٰه واحد ليقفوا فى وجه دعوة التوحيد التى بذرت فى أرض الشمال ، فصار رع إلٰه الشمس وحور بن أزريس وخنوم إلٰه الفنيين وآمون إلٰه طيبة إلٰها واحدا هو الإلٰه آمون ، ولم يجعلوه إلٰها للشمس ولا للحكمة بل جعلوه الباطن ورمزوا إليه بالهواء .

وأقيمت الصلوات لآمون فى طيبة كنز مصر الذى لا ينضب معينه ،

وراح الكهنة والناس يتلون فى إيمان عميق :

من خلق كل ما هو موجود ،
ومن عينيه نشأ الإنسان ،
ومن فمه الآلهة .
من فطر الأعشاب للماشية ،
وأشجار الفاكهة للإنسان .
من يمنح الحياة للفرخ فى البيضة .
وللطيور فى السماء .
من يمنح الحياة للفرخ فى البيضة .
ويحفظ ابن الدودة حيا .
من خلق ما يعيش به البعوض ،
والديدان ، وكذلك البراغيث .
من خلق ما تحتاج إليه الفيران فى جحورها .
ومن يحفظ الطيور على سائر الأشجار .

وقوى الإحساس الدينى فى نفوس أهل طيبة ، بينا وهن وراح يلفظ أنفاسه فى صدور العماليق ، وكان مترفوهم يعيثون فى الأرض فسادا .

وقد توقف القادة عن القيادة وعن أن يكونوا أسوة حسنة ، وأرادوا أن يحافظوا على كيانهم فلجئوا إلى العسف فوسعت الهوة بينهم وبين سواد الناس ، وبدا أن حضارة الهكسوس بدأت تتحلل .

وترنح الهكسوس قبل أن تهب طيبة للكفاح ، كان سوس الفساد قد نخر فى عظام مملكتهم وكانت الخناجر المسمومة تصوب إليها من أبنائها .

كانت دولة العماليق تنتحر قبل أن يشهر فى وجهها سيف أو يشن عليها الهجوم فرسان آمون .

انتفى التناسق بين مجتمع أورايس فكان ملوك العماليق وحاشيتهم ومن لف لفهم فى جانب، وكان سواد الشعب فى جانب، وانعدم التجانس بين الفريقين فتزعزعت حضارة العرب الذين جاءوا من تهامة من أساسها .

وهب أحمس فى طيبة يؤجج نار الحماسة فى صدور المصريين ويؤكد لهم أن آمون لم يدنس بعار الهزيمة وأنه قادر على نصرهم ، وقاد أحمس جنوده وانطلق لقتال الهكسوس .

كان المصريون يقاتلون فى سبيل تحرير وطنهم وإعلاء كلمة إلـٰههم آمون ، وكان الهكسوس يقاتلون دفاعا عن أرواحهم وقد دبت روح الهزيمة فيهم قبل أن يلتقى الجمعان .

كانت قلوب المصريين عامرة بالإيمان بينا كانت قلوب الهكسوس هواء ، فما لبث أن انهزم الهكسوس وولوا الأدبار وأحمس فى أثرهم حتى طردهم خارج الحدود .

وتربع أحمس على عرش مصر ورفع آمون على عرش الآلهة ليكون رب الأرباب ، وراح بنو إسماعيل يوجهون تجارتهم وجهة أخرى غير مصر وإن كانوا يرصدون الأحداث ليصلوا ما انقطع بينهم وبين أحب بلاد الله إلى قلوبهم بعد واديهم المقدس .

وعاد بعض من كان من العماليق بمصر إلى تهامة بعد أن طردهم أحمس من البلاد فضاقت مكة بمن فيها ، وصار على الأقوياء من أبنائها أن يضربوا فى الأرض ويبتغوا من فضل الله . وبقى بنو إسرائيل فى مصر يسومهم آل فرعون سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

١٠

كان مجتمع مكة الذى تكون حول البئر جديدا لم تصبه الأسقام المدمرة التى تتعرض لها الأمم ، أسقام طول العمر والملل والجمود . بل كان مجتمعا ينبض حيوية وتسرى فيه نفحة روحية تجدد شبابه على الدوام .

أدرك ذلك المجتمع الكنز الروحى وتاه به فخرا ، وجلبت التجارة إلى مكة الذهب والفضة فنعم شعب مكة بكنوز الأرض وكنوز السماء . وطمع بنو إسماعيل فى أن يكون الحرم مركز الإشعاع الروحى الذى يفيض منه الإيمان بالله وحده على العالمين ، وباتوا يرقبونه الفرصة لنشر دين الله .

وضاقت مكة بمن فيها بعد أن عاد بعض الهكسوس الذين كانوا فى مصر إلى تهامة وبعد أن تكاثر الناس ، فكان على الأقوياء من أبنائها أن يغادروها وأن يتركوها للخائفين واللائذين بالحرم والشيوخ الذين يتمنون الموت فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وكان بنو إسماعيل من الأقوياء فقد جابوا الآفاق وانطلقوا إلى بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر ، فكانت بابل ودمشق وأواريس ومنف ومكة أرض الله ، لم يتعصبوا إلى وثن السيادة القومية وإن كانت قلوبهم تهوى إلى الوادى المقدس .

لم ترتجف قلوبهم خوفا من الاغتراب عن الأوطان فقد كانوا يؤمنون أنهم أينما ساروا فهم مع الله فى دنيا الله وفى محراب الله ، فإن كانوا يحبون مكة وتعلقت أفئدتهم بحرمها بالبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، فقد كانوا قادرين على أن يعودوا إليه كلما هزتهم الأشواق أو هوت إليه أفئدتهم .

أصبح نابت بن إسماعيل قبيلة ، وأضحى قيدار قبيلة . وأمسى إذبئيل قبيلة ، وبات كل من مسا ودوما وميسام ويطور وباقى أبناء إسماعيل الاثنى عشر قبائل قوية تتأهب للخروج من مكة إلى محراب الله ، إن الأرض يرثها عباده الصالحون .

وكان لكل قبيلة زعيم مطاع ما دام يحكم فيهم بما أنزل الله ، وكان هؤلاء الزعماء أناسا يبذلون ذوب نفوسهم لإسعاد شعوبهم الصغيرة فلم يتحول أحد منهم إلى رب من الأرباب ولم يصبح شيخ من شيوخهم نصف إلٰه .

وجاءت قبيلة نابت تطوف بالبيت طواف الوداع قبل أن ترحل إلى المجهول إلى حيث ينزلها الله ، ففاضت عيون الرجال والنساء بالعبرات ، وتحركت شفاههم بالتسبيح لله بينا كانت جوارحهم وقلوبهم ساجدة فى معبد الكون ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا .

وراحوا يشكرون الله على ما رزقهم وعلى أن وقاهم نكسة كتلك النكسة التى أصاب بها بنى إسرائيل فى مصر ، فقد فقدوا حريتهم وصاروا عبيدا أرقاء يعبدون ما يعبد المصريون من دون الله ويقاسون أسوأ صنوف العذاب .

وحانت ساعة الرحيل فخفقت القلوب فى الصدور ، كان حبهم للحرم شديدا وكان أقسى ما يوجع أفئدتهم تصورهم مفارقته وعدم الطواف به كلما خرجوا من مكة أو عادوا إليها ، فعلا النحب والنشيج ، وأخذوا حجارة من البيت تذكرهم بحرمهم المقدس وبأحب بقعة من بقاع الأرض إلى نفوسهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وذهبوا إلى قبر نابت إلى جدهم الأعلى الذى كان أول من ولى البيت بعد أبيه إسماعيل ، وألقوا عليه نظرة وداع ثم داروا على أعقابهم ليخرجوا من مكة مرتع الصبا وأرض الذكريات .

ووضعوا الحجارة التى أخذوها من البيت الحرام فى رحالهم وأحاطوها

بتقديس الوثنيين لأصنام آلهتهم ، ثم انطلقوا بخيامهم وإبلهم ومواشيهم تحدوهم الآمال إلى الأرض الجديدة وقد وطدوا أنفسهم على أن يخوضوا أقسى غمار المعارك إذا تحرش أحد بهم أو اضطرهم إلى القتال .

أغرى انتصار أحمس على الهكسوس المصريين على أن يتحولوا من الدفاع عن النفس إلى الغزو بحجة تأمين حدودهم ، فراح خلفاء أحمس يحاربون فى سورية حربا لا هوادة فيها لتوسيع رقعة الإمبراطورية المصرية .

واضطربت المنطقة وانتشرت الحروب وكثرت الاعتداءات ، وكانت قبيلة نابت على يقين من أنها قد تمتشق الحسام لتقرير مصيرها . كان بنو نابت رسل سلام وكانوا فى نفس الوقت فرسان قتال ، لم يكونوا فلاسفة ولا رجال أحلام بل كانوا رجال واقع يؤمنون بدور الحروب فى إيقاظ الشعوب من سباتها ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

ونزلوا حول البحر الميت ، ولم يرتح أهل المنطقة لنزولهم فقد كانت مواشى رواد الإسماعيليين وإبلهم وأغنامهم كقطع الليل نزلت على المراعى كالجراد المنتشر ، فخاف الناس من هذه المزاحمة على مراعيهم وخشوا القوة النازلة بأرضهم .

فنشب قتال بين بنى إسماعيل وبينهم كتب فيه النصر للمؤمنين ، واستقرت قبيلة نابت حول البحر الميت يستخرجون الأسفلت من سواحله الشرقية وترعى مواشيهم فى مروجه الخضر ، ولم يكن ذلك كل ما يطمع فيه بنو نابت بل كان خطوة على الطريق .

وجرت الحياة فى مكة كما كانت تجرى قبل خروج قبيلة نابت ، كانت القوافل فى غدو ورواح والطواف حول بيت الله لا ينقطع فى الليل أو فى النهار ، فقد كان البيت قبلة المؤمنين وكان الأمل ومحط الرجاء ، فلم يجسد

المجتمع المكى السيادة السياسية فى إنسان بشرى و لم يعرف الابن الملكى للإلـه ، فما كان فى مكة ابن لرع أو ابن لمردوخ أو ابن لبعل بل كانوا جميعا عباد الـرحمن وكان الملك لله لا فضل لحاكم على محكـوم ولا لغنـى على فـقير إلا بالتقوى ، وكان التقديس للبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

نجت مكة من الكابوس الطبقي ومن عبء طائفة الكهنة الذين لا هم لهم إلا أن يخدعوا الشعوب لتمتلئ خزائنهم بالذهب والفضة وتروى شهواتهم باسم الإلـه ! ونجت من أن يرعى ملك طموح قطيعهم البشرى للحرب واقتناص الصيد البشرى فى سبيل مجده ورفع شأنه وتخليد اسمه ، وخلت من الكبرياء الذى يسبق تردى الأمم فى هوة الدمار فقد أسلم أهل مكة وجوههم لله .

وتأهبت قبيلة قيدار للرحيل والتفسح فى الأرض فجاء الرجال والنساء إلى الحرم وفى حناجرهم غصص وفى عيونهم دموع ، وطافوا بالبيت وارتفعت الأصوات بالتهليل والدعاء لرب السموات والأرض ، وقبل أن يغادروا أول بيت وضع للناس أخذوا منه حجارة لتذكرهم به إذا ما هوت نفوسهم إليه .

وألقت قبيلة قيدار نظرة على البيت ثم انطلقت قافلتهم فى معبد الله حتى نزلت على طريق القوافل ، فقد كان بنو إسماعيل يعيشون على التجارة ويغذون أرواحهم بمناجاة الله فقد لقنوا أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده .

وراح الرجال يبرمون العقود ويعلمون الصبيان الكتابة فكانت أصوات الصبية فى الخيام تتجاوب فى الفضاء : أبجد هوز حطى كلمن ، وكانت الكتابة عندهم كالماء لا غنى لهم عنها فقد كانت عصب التجارة ، و لم يستغل بنو إسماعيل معرفتهم الكتابة لاستغلال الناس أو لتأييد سلطان جائر كما كان يفعل الكتبة المصريون ، فالطبقة المثقفة المصرية كانت القوة التى تساند العرش وتنظم الأناشيد فى تمجيد الملك الإلـه وتسن القوانين التى تثقل بها كاهل الفلاحين ، وكانت تقبض الثمن إعفاء من المشاركة فى فلاحة الأرض ، بينا

استغل كتبة الإسماعيليين معرفة الكتابة فى تنشيط التجارة لرفاهية أقوامهم وفى نسخ صحف إبراهيم لتعريف الناس بأمور دينهم ، فكانوا سببا من أسباب التناسق بين قانون الطبيعة وشريعة الله . بين العمل والعبادة ، بين خدمة الدنيا والدين .

وجاءت قبيلة دومة تطوف بالبيت الحرام طواف الوداع قبل أن تغادر الوادى المقدس ، وحملت فيما حملت حجارة من البيت المحرم ووضعتها فى الرحال فى تقديس وخشوع ، فقد كانت حجارة من البيت الذى دعا جدهم الخليل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليه .

وخرجت القبيلة بخيامها وإبلها وجيادها ومواشيها وانطلقت إلى الشمال لتنزل على طريق التجارة ، وقد حطت رحالها إلى جوار قبيلة قيدار وعرف مكان نزولها بدومة الجندل .

وتتابعت هجرات قبائل بنى إسماعيل فخرجت قبيلة مسا من الحرم ونزلت فى شرق مؤاب على مقربة من فلسطين فى الشمال الغربى من قبيلة نابت ، ونزلت تيماء فى العلا ، ونزلت إذبئيل على مقربة من غزة وإلى جنوب غربها ، ونزلت قبيلة يطور فى سيناء أرض عبادة الإلـٰه سين وعرف مكان نزولها بالطور .

وحفت قبائل بنى إسماعيل بطريق القوافل المنطلق من مكة إلى غزة ثم وادى النيل وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، وإن وضعوا الحجارة التى أخذوها من الحرم فى أماكن أمينة لتصبح أماكن مقدسة على مر السنين .

وأحب بنو إسماعيل أراضيهم الجديدة وبقيت قلوبهم متعلقة بالحرم ، فكان ولاؤهم مقسما بين المجتمع الجديد ومكة ، وكانوا يحسبون أن ارتباط أفئدتهم بمكة كفيل بجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم وشد أزرهم ليكونوا مراكز للإشعاع الروحى فى المنطقة بعد تلك النكسة الرهيبة التى أصابت بنى إسرائيل

فى مصر ، وما دار بخلدهم أن خروجهم فى قبائل متفرقة دون أن يندمجوا ويتحدوا سيعطل سير التاريخ .

كان السبيل الطبيعى أن يمتزجوا فى بوتقة واحدة وأن ينصهروا لتخرج منهم خير أمة أخرجت للناس ، ولكن خروجهم فى قبائل متفرقة فوت عليهم فرصة التوحيد الاختيارى لأنفسهم بأنفسهم ، وربط أجزائهم بعضها ببعض بروابط دولية عالمية .

كانوا يؤمنون بأن الله رب العالمين ، وكانوا فى قرارة نفوسهم يحسون بالأخوة البشرية . فلم يفرق بينهم تعصب ولم يحتقروا ديانات الشعوب التى تربطهم وإياها صلات تجارية وثيقة ، بل كانوا يدعون الله أن يهديهم سواء السبيل ، فهم وإن كانوا ورثة الحضارات ، إلا أن السياسة قد وزعتهم طوائف بعدما خرجوا من مكة وبقيت أفئدتهم جميعا مشدودة برباط المحبة إلى مكة ، إلى حرم الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

١١

انحسر ماء الفيضان عن وادى النيل فراح الفلاحون فى الشمال والجنوب يبذرون الحب ويطلقون الخنازير لتدفن الحب فى الأرض بأرجلها ، وهم يغنون ويرتلون الصلوات لآمون العظيم ، بعد أن صار رب الأرباب وإلـه الآلهة لما انتصر أحمس ببركته على الهكسوس .

وراح بنو إسرائيل يعملون فى مزارع تحتمس الأول وفى إعادة بناء المعابد والقصور التى خربها العرب الفاتحون قبل أن يسمنوا ويترفوا ويجنحوا إلى الدعة والفسوق ، فقد ضربت الذلة على بنى إسرائيل وأصبحوا عبيدا للمصريين .

نسى بنو إسرائيل ربهم فأنساهم أنفسهم ، اصطبغوا بالصبغة الفرعونية وعبدوا آمون والعجل أبيس وسجدوا للأفعى وقالوا : إنها رمز الذكورة المخصبة وممثلة الدهاء والحكمة والخلود ، وأشركوا بالله بعد أن هداهم إلى التوحيد ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا .

وجاء أوان الحصاد فأطلق الفلاحون القردة المدربة لجنى الثمار ، وأطلق فرعون عبيده من بنى إسرائيل لجمع المحاصيل ونقلها إلى مخازنه على ظهورهم ، فقد مسهم فيما أفاضوا فيه عذاب أليم .

كانت الدواب تملأ حظائر فرعون ولكنه لم يأمر باستخدامها فى نقل غلات أراضيه ، بل استخدم بنى إسرائيل تعذيبا لهم ، وكان يقلقه أنهم على الرغم من الاضطهاد والضنك الذى كانوا يعيشون فيه يتناسلون ويتكاثرون .

إنهم غرباء عن البلاد جاءوا فى أعقاب العرب الذين وثبوا على الحكم فى

مصر وتغلغلوا فى ربوعها واستولوا على منابع الثروات فيها ، أصبح كثير من الأراضى ملكا لهم والصناعات تحت سيطرتهم وتسربت الأموال من جيوب الشعب إلى خزائنهم .

لقد أوجس خلفاء أحمس خيفة منهم بعد أن خرج الهكسوس من مصر ، فضموا أراضيهم إلى أراضيهم وأموالهم إلى خزائنهم وجعلوا عبيدا لهم وصنفوهم فى أعمالهم . وعلى الرغم من ذلك كان تحتمس الأول يخشى أن يثوروا يوما منتهزين فرصة انشغاله فى حروبه مع السوريين ولو فعلوا لضربوه ضربة فى الصميم ، لذلك كان يضع يده القوية على رءوسهم حتى لا يرفعوها يوما ليوقى نفسه ومملكته ثورة العبيد .

وعاد تحتمس الأول من سورية يحمل الغنائم ويسوق الأسرى فخرج الشعب يستقبل الفاتح المظفر بالأغانى والأهازيج ودخل منف دخول الظافرين ، وهرع لاستقباله أبناؤه تحتمس الثانى وتحتمس الثالث والأميرة حتشبسوت فضمهم جميعا إلى صدره ، ثم أقبل على الأميرة يحدثها فى ود كبير فقد كانت الفطنة والنجابة والحكمة تتراقص على طرف لسانها . فقد كانت أحب أبنائه إليه وإن كانت امرأة . وتأهب لزيارة إلـٰهة آمون الذى أيده بنصره أعدائه ، فتأهبت العاصمة لاستقبال ابنها البطل ، وراح كهنة آمون يطهرون المعبد للحدث العظيم .

واستقبل كبير الكهنة فرعون العظيم وقاده إلى قدس الأقداس حيث خرا معا ساجدين لآمون ، وتكدست القرابين على مذبح الإلـٰه وارتفعت الصلوات وعبقت طيبة كلها برائحة البخور .

وجاء رئيس كهنة وحى الإلـٰه آمون من سيوة ودخل مع الملك فى غرفة خاصة ، وراح رئيس كهنة وحى آمون يهمس فى أذن تحتمس الأول بما أوحى إليه الإلـٰه ! إنه يأمر ابنه الإلـٰهى أن يذبح الذكور من بنى إسرائيل حتى يأمن

الفتنة ، وتكون كلمة آمون هى العليا ويستتب الأمر لتحتمس ولأبنائه من بعده .

وعاد تحتمس الأول إلى قصر منف فرحبت به أحموس أم حتشبسوت وبالغت فى الترحيب فإذا بالفكرة التى طالما خامرته تستولى على كل تفكيره ، فدنا من أحموس فى حب وقال :

ـــ سأوصى بأن ترفع حتشبسوت إلى العرش وأن تشارك أخاها فى الحكم .

وذهب إلى قاعة عرشه فكتب أن ترث حتشبسوت الملك مع أخيها ، وكتب أمرا يقضى بقتل كل ذكر يولد فى بنى إسرائيل .

وهرع عمران إلى أهله وهو مفزوع فألفاهم يصلون ، إنهم أهل بيت من المسلمين فقد كانوا على ملة آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لم يعبدوا آمون ولا العجل ولا آلهة المصريين ، واستمر ينظر إلى زوجه وإلى ابنته وإلى ابنه الصغير هارون فى قلق ، حتى إذا ما أتموا صلاتهم انتبذ بزوجه مكانا قصيا وقال لها همسا :

ـــ أمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل .

ونزل بالزوجة هم ثقيل فهى تعمل فى قصر الأميرة حتشبسوت مع العاملين فيه من عبيد بنى إسرائيل ، وإن أمر إخفاء ما فى بطنها لشىء عسير ، فركبها القلق وباتت تخشى أن تضع ولدا فيذبحه المصريون ، فاحترزت وأخذت تخفى أمارات الحمل وأسلمت أمرها لله لعل الله يجعل لها مخرجا إن الله على كل شىء قدير .

وجاءها المخاض فنزل بها أمن عجيب ، وامتلأت جنبات القصر بأريج أطيب من المسك وأزكى من عطر البخور ، وفى يسر وضعت وليدها دون أن تلتمس أحدا لمعاونتها أو يستقبل الوليد الكريم دنياه بالصياح كما يفعل سائر

الولدان ، وأقبلت المرأة على وليدها وأحست أن جوانحها تشرق بالنور كلما امتدت إليه عيناها ، وأجج ذلك الحب الخطر الذى يتربص به فراحت تضمه إلى صدرها وتمطره بقبلات نابعة من قلب يخفق بالحنان الغامر والحب الكبير .

كانت المرأة وابنتها الكبرى تتناوبان رعايته ، إن ذهبت الأم إلى عملها بقصر حتشبسوت بقيت الابنة إلى جوار أخيها الحبيب ، وإن انطلقت الابنة إلى جناح سيدتها بقيت الأم مع ابنها وهى تترقب فى خوف شديد ، فحياته رهن بصياحه بالبكاء يقتحم رجال فرعون على أثره مخدعها لينزعوه من بين أحضانها ويذبحوه !

ورفعت عينيها إلى السماء فى سكون الليل تلتمس من الله عونه ، فأوحى إليها :

أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

ومرت ثلاثة أشهر وهى تفكر فى ذلك الوحى وتسأل نفسها كيف إذا خفت عليه ألقيه فى اليم ؟! إنه سيغرق ! إنه سيموت ! وظلت ترعاه وخوفها يتزايد ، حتى تأكد عندها أنها لن تستطيع أن تخفيه عن العيون المتربصة ببنى إسرائيل ، وبدأت تطمئن إلى ما أوحى إليها فجاءت بسفط من البردى ووضعت ابنها فيه ثم ألقت به فى النهر . وما حمله التيار وبعد عنها حتى همت بالعدو خلفه والبحث عنه لولا أن ربط الله على قلبها وألهمها الصبر والامتثال لأمره لتكون من المؤمنين .

وقالت لأخته :

— قصيه .

فسارت أخته على الشاطئ تتبع أثره لتعلم خبره وهى ترمقه من طرف عينيها وتتظاهر أنها غافلة عنه حتى لا ينكشف أمرها ، فبصرت به عن جنب

وهم لا يشعرون .

وحمله التيار إلى جناح حتشبسوت وقد خرجت مع جواريها يغتسلن فى النيل ، فلمحن بين الأشجار سفطا به غلام صغير ، فهرعت إحداهن إليه وانتشلته فارتفع بكاء الطفل فسمعته حتشبسوت فقالت :

ــ هذا بكاء طفل صغير .

وجاءت الجارية إليها وهى تحمله وتقول :

ــ هذا طفل ألقى به أهله فى النيل .

نظرت حتشبسوت إليه فبهرها جماله وألقى الله فى قلبها حبه فضمته إليها وقبلته فى حنان شديد . كانت زوجة تحتمس الثانى وكانت على وشك أن تعتلى العرش معه بعد أن أوصى أبوهما لهما بالملك معا ، وكان أبوهما تحتمس الأول على فراش الموت يلفظ النفس الأخير .

ودخلت حتشبسوت قصرها وهى تحمله وتلصقه بفؤادها فقد تحركت فيها أمومتها ، فلما رأت أخته ذلك اكتنفتها راحة ونزل بقلبها اطمئنان ودنت ترصد ما يكون .

وأقبل تحتمس الثانى الفرعون الجديد ، فلما رأى الطفل قال :

ــ ما هذا ؟

ــ طفل التقطناه من اليم .

ــ إنه ابن من أبناء العبريين ، اقتلوه .

ــ ارحمه يا مولاى إنه طفل صغير .

ــ اقتلوه .

ــ قرة عين لى ولك . لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وظلت تدافع عن الطفل البرىء وتلتمس من زوجها وأخيها أن يبقيه ، واستوهبته إياه فوهبه لها فهى زوجه وشريكته فى ملكه وقرة عين أبيه .

فرحت حتشبسوت بالطفل الذى استحيته وحملته وضمته إليها وتحركت فيها إحساسات الأم الرءوم ، وبكى الطفل فالتمست له المراضع . وراح النساء يتوافدن على حتشبسوت لإرضاع الطفل الوليد ولكن الطفل يأبى ويستمر فى بكائه وامتناعه عن أن يلتقم ثدى إحداهن فقد حرم الله عليه المراضع من قبل ، إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون .

وحارت حتشبسوت فى أمره ، فدنت أخته منها وكانت تعمل فى قصرها وقالت :

ــ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟

فنظرت حتشبسوت إليها وقد شاع فى وجهها أمل :

ــ أتعرفين أهل هذا الغلام ؟

ــ لا أعرفهم ولكن أعرف امرأة صالحة فلعله يأخذ ثديها ؛

ــ اذهبى وأتى بها .

وذهبت أخته تحث الخطا يتهلل وجهها بالفرح ، حتى إذا بلغت غرفتها فى القصر صاحت بأمها :

ــ أبشرى جاءك الفرج ، إنهم يلتمسونك لترضعيه .

وانطلقت الأم يلفها اضطراب ، ولكنه اضطراب لذيذ فيه لهفة وفيه رجاء ، ودخلت على وليدها وكادت فرحتها تفضح خبيئة نفسها وكادت تهمس فى وجد وهى تضمه إلى الصدر الملهوف : ولدى ، ابنى الحبيب . وكادت تصرح به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين .

وناولته ثديها فالتقمه ، فأشرق وجه حتشبسوت بالفرح ونزل بقلب أمه سكينة ، رده الله إليها كى تقر عينها ولا تحزن وأطرقت برأسها شكرا لله فقد رده إليها ليكون من المرسلين .

وجلست حتشبسوت ترنو إلى الطفل الذى تعلق به فؤادها والذى فجر فى

نفسها ينابيع الحنان والرأفة فشاعت فى نفسها نشوة ، وأرادت أن تدعوه باسمه بيد أنها لم تعرف بماذا تدعوه ، أتدعوه أحمس ؟ إنه اسم عزيز على المصريين فقد سميت أمها أحموسى من شدة تعلقهم به ، ورن اسم أمها فى أذنيها رنينا موسيقيا تشع منه ظلال من القداسة ، ولكن قفزت إلى ذهنها فكرة : إنها وجدته بين الماء (مو) والشجر (شا) فلماذا لا تدعوه « موشا » ، واستراحت للفكرة فراحت تناديه : موشى .

أطلق على موسى اسم فرعونى وما كان مصريا ، بل كان ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب ، وما كان يهوديا فلم ينحدر من نسل يهوذا بن يعقوب جد اليهود الأعلى ، وما كان بنو إسرائيل قد انقسموا بعد إلى شيع وما كانوا قد اقترفوا بعد جريمة عبادة أنفسهم وإن كانوا قد أشركوا بالله ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما .

وترعرع موسى فى القصر وقد صار الملك لتحتمس الثانى ولزوجه حتشبسوت ، وكانت حتشبسوت تمقت الحروب وتحب السلام فراحت تعمل على نشر المحبة وإسعاد الناس .

وشب موسى فى القصر وشب معه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه ، كان أخو الملك والملكة ولكن حتشبسوت لم تكن تحبه ، فقد كان على الرغم من ضآلة جسمه يتحدث عن الغزو وقتل الناس وتوسيع رقعة الإمبراطورية .

وراح موسى يركب مراكب فرعون ويلبس ما يلبس فرعون ، وكان الخدم يدعونه « الأمير » و« موسى بن فرعون » . ولكن موسى كان يعرف أهله وأنه من بنى إسرائيل ، وكانت أسعد أويقات صباه تلك السويعات التى يمضيها مع أمه وأخته وأخيه هارون .

ولما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما ، كان يرى كل من فى القصر

يسجدون لآمون ويقدمون له القرابين ، ولكن الله كرم وجهه فلم يسجد لإلـه من آلهة المصريين ، وكان يحز فى نفسه أن قومه الذين اهتدوا إلى رب السموات والأرض ارتدوا إلى عبادة العجل والثور والتيس والأفعى .

وفى ذات يوم أقبل إلى القصر ، ولما لم يجد فرعون سأل عنه فقيل له : إنه خرج إلى منف ، فركب موسى فى أثره ودخل منف مخزن غلال آلهة المصريين والعرش العظيم وكان النهار قد انتصف فأغلقت الأسواق من شدة الحر ، فبينما هو يمشى فى ناحية من المدينة إذ رأى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من قصر فرعون ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال :

ـــ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .

وأحس حزنا عميقا فلم يكن يريد قتل الرجل ، وملأه الندم فرفع وجهه إلى السماء وقال :

ـــ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى .

فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال :

ـــ رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين .

فأصبح فى المدينة خائفا يترقب يخشى أن يكون فرعون وملؤه قد علموا أن هذا القتيل إنما قتله موسى فى نصرة رحل مں بنى إسرائيل ، فلو علموا ذلك لشكوا فى أنه منهم ولتعذر عليه أن يبقى فى القصر ليعمل على ما فيه مصلحة بنى إسرائيل .

وفيما هو منطلق يتلفت رأى ذلك الإسرائيلى الذى نصره بالأمس يقاتل رحلا آخر من المصريين ، فلما رأى موسى استصرخه :

ـــ موسى ، انصرنى يا موسى .

فبان فى وجه موسى الغضب وقال للإسرائيلى :

ـــ إنك لغوى مبين .

وأقبل نحوهما فلما لمح الإسرائيلى الشر فى عينى موسى فرق منه وفر من وجهه وهو يقول :

ـــ أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين .

سمع المصرى ما قاله الإسرائيلى فذهب إلى القصر وأفشى أن موسى هو الذى قتل الرجل ، وكان خباز الملك وبلغ النبأ مسامع تحتمس الثانى وحتشبسوت فدافعت عنه حتشبسوت دون جدوى ، وأعرض عنها فرعون وصاح :

ـــ خذوه واقتلوه بجنايته .

وكان أحد أنصار موسى عند فرعون لما أصدر أوامره بقتله ، فخرج يغذ السير ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال :

ـــ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين .

فوقف موسى يتلفت فى حيرة لا يدرى إلى أين يذهب ، إنه لو بقى فى مصر لقبض عليه فرعون ونفذ فيه القتل ، فليس أمامه إلا الخروج فانطلق هاربا لا يلوى على شىء .

سار موسى فى حلكة الليل وفى رابعة النهار يضرب فى الصحراء فى الطريق الذى تسلكه البعثات المصرية التى تبحث عن المعادن فى سيناء ، يجوع فلا يجد إلا ورق الشجر ويظمأ فلا يطفئ ظمأه إلا ما يصادف من ماء الآبار ، ولما توجه تلقاء مدين قال :

ـــ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل .

١٢

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده فى قبائلهم التى أخذت تنتشر فى الأرض بين حدود مصر ودمشق وبابل على طريق القوافل وفى الوادى المقدس ، وكانت مكة قبلتهم ومهوى أفئدتهم ، وكان من خرجوا منها يعودون إليها ليستنشقوا عبير الماضى التليد وليغذوا أرواحهم بالنور الذى ينسكب فى وجدانهم فيشدهم إلى السماء ويجعل لحياتهم معنى أسمى من تحصيل الرزق والانغماس فى الشهوات .

كانوا على دين الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، لم يغيروا و لم يبدلوا بل أسلموا لله رب العالمين . لم يفسد دينهم و لم يتأثروا بدين من حولهم ، ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا .

وكان أول من غير دين إبراهيم من أبنائه بنو إسرائيل فقد نزلوا بأرض مصر يدعون إلى الله الواحد القهار ، وما إن دالت دولة الهكسوس حتى صاروا عبيدا للمصريين يسجدون لآلهتهم ويعبدون آمون والعجل وسائر ما يعبد المصريون من حيوانات وطيور .

وغير أهل مدين دين إبراهيم فجلبوا أصنام الأمم وعبدوها ، وكانوا أهل تجارة فكانوا يطففون الكيل والميزان ويقطعون الطريق ، فبعث الله إلى مدين أخاهم شعيبا قال :

ـــ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض

بعد إصلاحها ذلك خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين .

قالوا :

ــ يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد .

قال :

ــ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

قالوا :

ــ يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .

قال :

ــ يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ؟ واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب .

قال الملأ الذين استكبروا من قومه :

ــ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .

قال :

ــ أوَ لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ

نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

واستمر شعيب يدعو قومه :

— يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .

* * *

بلغ موسى مدين وقد نال منه التعب والجوع . ورأى شجرة فوقف تحتها يستظل بها ويستريح ، ومد بصره فإذا جماعة من الرعاة يسقون فذهب ليرد الماء فوجد من دونهم امرأتين تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم القوم ، فاقترب موسى منهما وقال :

— ما خطبكما ؟

قالتا :

— لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير .

نظر موسى فوجد الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتقدم فرفع تلك الصخرة وحده وكان لا يرفعها إلا عشرة رجال ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ورد الحجر كما كان . وتولى موسى إلى ظل الشجرة وبطنه لاصق بظهره من الجوع وقال :

— رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير .

وعادت الفتاتان إلى أبيهما فلما رآهما قال لهما :

— ما بالكما قد عدتما اليوم سريعا ؟

قالتا :

— عاونا رجل كريم على سقى غنمنا .

وقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

— يلوح عليه يا أبى أنه جائع مكدود .

فأمرها أبوها أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءت تمشى على استحياء حتى إذا بلغته وهو فى ظل الشجرة قالت له :

ــ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

فقام معها وقال لها :

ــ امضى .

فمشت أمامه فضربتها الرياح فبدت مفاتن جسمها ، فحول موسى عنها بصره وقال لها :

ــ امشى خلفي ودلينى على الطريق إن أخطأت .

واستمر فى سيره حتى دخل على شعيب ، وراح يقص عليه ما حدث له فى مصر فلما انتهى من قصته قال له الشيخ :

ــ لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

وقدم الطعام لموسى ، فلما شبع قام لينصرف فقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

ــ يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين .

فقال لها الشيخ :

ــ وما علمك بهذا ؟

ــ إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال .

ــ وما أدرك بأمانته ؟

ــ إنى مشيت قدامه فأبى على نفسه أن يخوننى وأمرنى أن أمشى خلفه .

فذهب شعيب إلى موسى وقال له :

ــ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين .

ـــ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ، والله على ما نقول وكيل .

وتزوج موسى صفورة وقد أجر نفسه للشيخ ثمانى سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه ، وبقى موسى يرعى الغنم ويسجد لله فى معبد الكون ويناجيه فى محراب الوجود ، فقد شب موسى فى قصر فرعون بين جدران وأعمدة ومسلات وفنون تحول بين روحه والانطلاق فى رحاب السموات والأرض لتتصل بروح الأرواح وتضىء بنور الأنوار .

وأحس موسى تناسقا بينه وبين الكون فراح يجوب الآفاق ويتصل بأبناء عمه إسماعيل الذين خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض فنزلوا على طريق القوافل بين الحجاز ومصر وكانوا إخوته فى الدم وإخوته فى الدين ، وقد أرضاه أنهم كانوا لا يزالون على ملة إبراهيم لم يغيروا شيئا منها و لم يبدلوا فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه فلم يكونوا فى حاجة إلى أن يبعث الله فيهم نذيرا .

ومرت السنون وموسى يكابد الحنين إلى أهله ، كان يستقى أخبار مصر من القوافل التى تمر بمدين فى طريق عودتها من وادى النيل ، وقد علم أن حتشبسوت امرأة فرعون التى التقطته وأكرمت مثواه ماتت وأن الأمر أصبح لتحتمس الثالث لا ينازعه فيه منازع .

كانت حتشبسوت تكره ذلك الفتى وإن كان ابن أبيها من إحدى جواريه ، وكان موسى لا يحبه وما كان يحب موسى فما اجتمعا فى القصر يوما إلا دارت المناقشات بينهما حادة عنيفة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان موسى فى شوق إلى مصر ، فلما أتم الأجل قال لزوجه :

ـــ اشتقت إلى أمى وإلى أخى هارون فتأهبى للخروج إلى مصر ؛ فإن لى فيها شيعة وأنصارا .

وتأهب موسى وزوجه وأولاده للخروج ، حتى إذا أذنت ساعة الرحيل

ودعوا الشيخ وانطلقوا يضربون فى البيداء حتى بلغوا جانب الطور الأيمن فى عشية شاتية شديدة البرودة .

وجاء الليل وغابت النجوم وأخذت السماء تبرق وترعد وتمطر ، فخرج موسى من خيمته ينظر ، وراح يدور ببصره فى الفضاء فآنس من جانب الطور نارا فقال لأهله :

ــ امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

وانطلق موسى فى وادى طوى يتوكأ على عصاه صوب النار ، فإذا بخشوع عجيب يحيط بالوادى كله ، وإذا بنور لطيف تحسه الأفئدة قبل العيون يغشى المكان ، وإذا بالهواء يفعم بتسبيحات رقيقة ، تسبيحات ملائكية ليس للوجود عهد بها ، وبدا الوادى جليلا ولا غرو فقد كانت الأرض تتلقى وحى السماء :

ودنا من النار فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . فخاف موسى وفر مفزوعا . ولما أفرخ روعه عاد ثانية إلى النار فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين .

وفر موسى مرعوبا ، وما بعد عن النار حتى عاد إليه روعه فدنا منها ، فلما أتاها نودى :

ــ يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .

وخلع موسى نعليه ولم يذهب عنه روعه ، فقال له الله مؤنسا فهو يعلم

ما فى يده وما يخفى صدره إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء :

ـــ وما تلك بيمينك يا موسى ؟

قال :

ـــ هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى .

قال :

ـــ ألقها يا موسى .

فألقاها فإذا هى حية تسعى .. فلما رأها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب .. فناداه ربه :

ـــ يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون .. أقبل ولا تخف إنك من الآمنين .

فلما رجع ورأى الحية تسعى بقى على خوفه فقال الله له :

ـــ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى .

فمد يده إلى الحية فإذا هى قد عادت عصا كما كانت وقال له الله :

ـــ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب .

فوضع موسى يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، وشغل فكره بالعصا التى صارت حية تسعى وبيده التى أضاءت كالبدر فقال له الله :

ـــ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين .

وعلم موسى أن الله أرسله إلى فرعون فقال :

ـــ رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون .

قال :

ــ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

ووقف موسى لا يدرى ما يقول فقال له الله :

ــ اذهب إلى فرعون إنه طغى .

فقال موسى فى ابتهال :

ــ رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى .

وسار موسى وأهله وهو يفكر فى تحتمس الثالث ذلك الشاب القصير الذى فتن بالغزو وقتل الناس ليكون من الفاتحين ، ودخل موسى وأهله مصر خلسة ، وانطلق إلى أمه فقرت به عينا ، وانتظر حتى جاء أخوه هارون فقام الأخوان يتعانقان ، وراح يقص على أخيه قصته ثم قال :

ــ يا هارون انطلق معى إلى فرعون إن الله قد أرسلنا إليه .

فقام هارون ليذهب مع أخيه ، فهبت أمهما إليهما تصيح :

ــ أنشدكما الله لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما .

فقال موسى لأمه :

ــ لا تخافى ولا تحزنى إن الله معنا ، قال .. فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل .

فقالت له أمه :

ــ أخشى عليكما من فرعون .

فقال لها موسى :

ــ اطمئنى ، لقد بعثنى الله لأخلص بنى إسرائيل من العذاب المهين .

وتحرك موسى وهارون للذهاب فقالت لهما أمهما :

ــ انتظرا حتى الصباح .

ــ سنذهب إليه الآن .

وانطلقا فى ردهات القصر وكان موسى يعرف طريقه فقد شب فيه وكان ذات يوم أميرا فى أمرائه ، ولم يكن الحراس حراس حتشبسوت فقد أتى تحتمس الثالث بأنصاره وجعل هامان وزيره ، حتى إذا وصلا إلى رئيس أسرار القصر قال لهما :

ــ ماذا تريدان ؟

ــ إنا رسول رب العالمين .

ودخل على تحتمس الثالث وقال له :

ــ إن بالباب مجنونا يزعم أنه رسول رب العالمين .

فقال فرعون :

ــ أدخلوه .

ودخل موسى وهارون على فرعون ، فراح تحتمس ينظر إلى موسى مليا ثم قال :

ــ ماذا تريد ؟

ــ إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل .

وعرف تحتمس موسى فقال له فى استخفاف :

ــ ألم نر بك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ؟

وعرف موسى أنه يحدثه عن المصرى الذى قتله فقال :

ــ فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين .

قال فرعون :

ـــ وما رب العالمين ؟

قال :

ـــ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

فالتفت تحتمس إلى من حوله وقال فى إنكار واستخفاف :

ـــ ألا تسمعون ؟

قال موسى :

ـــ ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال فرعون لمن حوله :

ـــ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

قال موسى :

ـــ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

وتضايق فرعون فأمر موسى وهارون بالخروج ، ثم رأى أن يذهب إلى معبد القصر ليسمع الكهنة وهم يصلون وقد جعلوا آمون العظيم يمجده حتى ليقر بربوبيته .

أطلق البخور وتكدست القرابين فى المذبح ، ودخل تحتمس الثالث وهامان ورجال القصر ورجال الجيش ورؤساء أسرار السماء وكبار الموظفين ، وارتفعت أصوات الكهنة بالترتيل . كان آمون يخاطب ابنه الإلٰه الملكى تحتمس الثالث :

أتيت فمنحتك نهاية العالم لتدكها بأقدامك .

ودائرة المحيط جعلتها فى قبضة يمينك .

وجعلتها تنظر إلى جلالتك كباشق يحلق عاليا .

ثم ينقض على ما يلتمسه بالقدر الذى يشتهيه .

أتيت فمنحتك أولئك الذى يقتربون من حدودك لتدكهم بأقدامك .

وقد أسرت سكان الصحراء أحياء .

وجعلتهم ينظرون إلى جلالتك كابن آوى فى الجنوب .

سريع يسترق الخطى وهو يجوب الأرضين .

وظل تحتمس الثالث يصغى إلى الكهنة وهم يزجون إليه المديح والتقديس والتأليه فانتفخت أوداجه ، وعاد إلى القصر يكاد ينفر غرورا ووزيره هامان يغذى فيه ذلك الغرور بقوله :

ـــ إنك جلالتك تعرف كل ما يحدث فما من شيء تجهله ، أحطت بكل شيء علما فأنت إلـٰه المعرفة وميزان العدل السماوى .

وأصر فرعون أن يجمع الناس ، فلما خفوا إليه وألقوا إليه سمعهم قال :

ـــ أنا ربكم الأعلى .. يأيها الملأ ما علمت لكم من إلـٰه غيرى .

قال له موسى :

ـــ إنى أدعوك إلى الله .

فقال فرعون فى غلظة :

ـــ لئن اتخذت إلـٰها غيرى لأجعلنك من المسجونين .

ـــ أوَلو جئتك بشيء مبين ؟

ـــ فأت به إن كنت من الصادقين .

فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين .

فنظر فرعون مدهوشا فقال له موسى وهارون :

ـــ إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى .

ــ فمن ربكما يا موسى ؟

ــ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال :

ــ فما بال القرون الأولى ؟

قال موسى :

ــ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

فقال فرعون فى غيظ :

ــ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

قال :

ــ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

وتأهب المصريون للعيد وخرجوا مبكرين وانطلقوا إلى الساحة الكبرى ، فاليوم هو اليوم الذى جعله موسى موعدا بينه وبين فرعون . وجاء السحرة الذين جمعهم تحتمس الثالث من أنحاء مملكته واصطفوا صفوفا . وجاء فرعون ووزيره هامان ورؤساء أسرار السماء وجاء سنحوت من كان موظفا فى معبد آمون فجعلته حتشبسوت عظيما فى القطرين وعينته رئيسا من الرؤساء ومشرفا على مشرفى الأعمال فى جميع أنحاء مصر ، كان مستشار الملكة بيد أن تحتمس الثالث نحاه عن منصبه وإن تركه عظيما من عظماء قصره .

وقال فرعون للسحرة :

ــ ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى .

وخرج موسى ومعه أخوه وسار وهو يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع ، تحتمس فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته ، يحف به رؤساء أسرار السماء ورئيس وحى آمون الذى جاء من سيوة ليشاهد ذلك الساحر الذى يريد أن يزعزع سلطانهم ، فأقبل موسى على السحرة وقال لهم :

— ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا وقد خاب من افترى .

وراح السحرة ينظر بعضهم إلى بعض ثم قال قائل منهم :

— هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما .

وأقبلوا على موسى وقالوا :

— يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى .

قال :

— بل ألقوا .

فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، فنظر موسى فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، فأوحى الله إليه :

— موسى لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقى موسى عصاه .. فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا :

— آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .

وثار فرعون وزاد فى ثورته أن موسى هزمه على مرأى من الملأ ، وأن السحرة سجدوا لإلـٰهه والناس ينظرون ، فخشى أن تشتعل الفتنة وأن يفلت زمام الشعب من يده فقد راح بنو إسرائيل يسبحون بحمد ربهم العظيم ، فقال

للسحرة :

ـــ آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .

وكانت حلاوة الإيمان قد مست قلوب السحرة فلم يفزعوا بل قالوا :

ـــ لم نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

وآمن له سنحوت مستشار حتشبسوت ورجال من قصر فرعون وإن أخفوا إيمانهم ، وهجر بنو إسرائيل عبادة آمون والعجل وابن آوى والثعبان وما كان يعبد المصريون ، وحرض موسى وهارون بنى إسرائيل على أن يضربوا عن العمل فى حقول الملك وفى مزارع المصريين .

وخاف الأغنياء ثورة العبيد فموسى يفتن بدعوته الفقراء والمستضعفين ، والناس يلتفون به ويعجبون ، وقال الملأ من قوم فرعون لتحتمس :

ـــ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟

قال :

ـــ سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

وأمر فرعون بقتل أبناء بنى إسرائيل فنزل بهم كرب شديد . قال موسى لقومه :

ـــ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وزاد اضطهاد فرعون لهم فجاءوا موسى يقولون فى ضيق :

ــ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا .

قال :

ــ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون .

وجلس فرعون مهموما فقتل بنى إسرائيل لم يرحه منهم ، إنه لن يعرف الراحة ما دام موسى يسعى فى الأرض فالتفت إلى من عنده وقال :

ــ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد .

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه :

ــ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله قد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟

فقال فرعون فى اعتداد :

ــ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

وقال الذى آمن :

ــ يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد .. ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا

عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .

والتفت فرعون إلى وزيره وقال :

ـــ يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إلـٰه موسى ، وإنى لأظنه كاذبا .

فنظر هامان إلى فرعون وفى عينيه حيرة ، فقال فرعون فى كبرياء :

ـــ يأيها الملأ ما علمت لكم من إلـٰه غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلـٰه موسى .

وقال الذى آمن :

ـــ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .

١٣

دخل موسى على فرعون يطلب منه تخليص بنى إسرائيل من العبودية وأن يرسلهم معه ليتركوا مصر . فقال له فرعون :

ــ إذا تركتهم لك فمن يحرث أرضى ومن يسقى زرعى ومن يصنع لى اللبنات لأبنى صرحى ؟ لا يا ساحر لن أطلق لك عبيدى فادع ربك ليخلصهم من يدى .

وأخذ الله مصر بالسنين ونقص من الثمرات ، فتفشت المجاعة فى البلاد وانتشر الجوع وخشى فرعون العواقب فبعث إلى موسى وقال له :

ــ ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

ــ وإذا رفعه عنكم ترسل معى بنى إسرائيل ؟

ــ أرسلهم معك .

ودعا موسى ربه فجاء بالخصب وعم الرخاء ، ودخل موسى على فرعون يستنجزه وعده فأبى فرعون واستكبر وقال له :

ــ ما أصابنا الجدب إلا بشؤمكم وما فعل إلهك لنا شيئا ، اخرج من عندى فما كنت لأطلق لك عبيدى .

وجاء الفيضان فأتلف الزرع وحاق الضيق بالبلاد ، وفزع فرعون وبعث إلى موسى وقال له :

ــ ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

فدعا موسى ربه فرفع مقته عن البلاد ، وذهب موسى إلى فرعون يستنجزه وعده فأبى وتكبر وقال :

ــ لن أتركهم لك حتى أبنى صرحى وأصعد إلى السماء وأسمع ربك يأمرنى بأن أرسلهم معك .

وسلط الله عليهم الجراد فلم يترك زرعا ولا ثمارا ولا سبدا ولا لبدا ، فجزع فرعون وفزع إلى موسى وقال :

ــ ادع لنا ربك يرفع عنا هذا البلاء .

ــ أوَ ترسل بنى إسرائيل معى ؟

ــ أرسلهم .

فلما رفع الله عنهم نقمته عاد فرعون إلى الاستكبار وقال لموسى :

ــ مهما تأتنا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وسلط الله عليهم القمل ، فسقطوا فريسة المرض الفتاك وانتشر فيهم الموت فراح يحصدهم حصدا ، فجزع فرعون وأهله إلى موسى وقالوا :

ــ يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل .

فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، فأرسل الله عليهم الضفادع والدم فهرعوا إلى موسى وقالوا :

ــ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إننا لمهتدون .

فلما كشف الله عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، ونادى فرعون فى قومه قال :

ــ يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين .

فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين .

فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ،

وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين .

ونفد صبر بنى إسرائيل فالمحن تنزل بهم والبلايا تتساقط عليهم ورجال فرعون يسوموهم العذاب . ففزعوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله ليخلصهم من محنتهم العظيمة فقال لهم :

ـــ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين .

كانت دعوة موسى هى الإسلام ملة أبيه إبراهيم . إنه يدعو إلى ما كان يدعو إليه آباؤه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا جميعا مسلمين . كان إلـٰههم الواحد الرحمن الرحيم رب العالمين ، و لم يكن يعرف تلك العصبية المقيتة و لا اليهودية المتعصبة التى جاء بها من جاءوا بعده من نسل يهوذا جد اليهود . فما كان موسى يهوديا بل كان حنيفا مسلما ، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا ، وإن كانوا آباء يهوذا ووجدوا من قبله أفلا تعقلون ؟ ! كان يهوذا من الأسباط وكان من الصالحين ، إنه أحد أبناء يعقوب ، حتى إذا ما حضر يعقوب الموت قال له مع من قال لهم من بنيه : « ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـٰها واحدا ونحن له مسلمون » .

وها هو ذا موسى جاء من نسل لاوى بن يعقوب و لم يأت من نسل يهوذا يقول لقومه من بنى إسرائيل : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين .

فقالوا :

ـــ على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين .

وأوحى الله إلى موسى وأخيه : أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين .

فراح موسى وهارون ينفذان وحى الله فاتخذوا لبنى إسرائيل بيوتا متميزة فيما بينهم ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض لا ليفرق الله بين بيوت بنى إسرائيل وبيوت المصريين إذا أراد أن يصب غضبه على المصريين كما قال الجاهلون ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقال موسى وهارون :

ــ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

قال :

ــ قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون .

وتأهب بنو إسرائيل للخروج سرا ولكن كيف يخرجون وهم أرقاء عبيد الأرض ؟ وذهب موسى وهارون وأكابر بنى إسرائيل إلى فرعون يرجونه أن يأذن لبنى إسرائيل فى الخروج إلى عيد لهم فلم يقبل ، فظلوا به يرجون ويلحفون فى الرجاء حتى قبل وهو كاره . فرح بنو إسرائيل لقرب الخلاص وخرجوا متظاهرين بالاحتفال بالعيد ، وذهب موسى وهارون وبعض القوم إلى حيث وضع تابوت يوسف الصديق وأخرجوه ثم حملوه فيما بينهم فقد عزموا على أن يذهبوا به ليدفنوه هناك فى الخليل إلى جوار إبراهيم وإسحاق ويعقوب الأبرار المسلمين . فلما جن الليل خرج بنو إسرائيل يتسللون واجتمعوا خارج المدينة ، ثم انطلقوا إلى الشمال ليسلكوا نفس الطريق الذى تسلكه بعثات التعدين إلى سيناء طلبا للفيروز .

انطلقوا لا يلوون على شىء ليفروا من الطاغية الذى استعبدهم وأذلهم وساروا مهطعين ، واقترب مؤمن آل فرعون من موسى وقال له :

ــ يا موسى أين أمرت ؟

ــ البحر !

وجاء الموكلون بإذلال بنى إسرائيل إلى القصر يسعون ويقولون :

ــ خرج بنو إسرائيل إلى العيد و لم يعودوا إلى أعمالهم ، فلم يعد فى ضياع الملك من يحرسها ويزرعها ويجنى ثمارها . وذاع فى مصر أن موسى خرج ببنى إسرائيل فهاجت البلاد وماجت ، وجمع فرعون جنوده وانطلق فى أثر الفارين ليعيدهم إلى أراضيه .

ملأ الحنق فرعون واشتد غضبه فشرع فى استحثاث جيشه ليلحق الهاربين ويمحقهم ، فأوحى الله إلى موسى : أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فراح موسى يجد السير ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى كان جنود فرعون يلوحون فى الأفق البعيد . وتراءى الجمعان و لم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة ، فتلفت أصحاب موسى وهم خائفون فالبحر أمامهم والجبال الشاهقة عن يسرتهم وعن أيمانهم ، فوقع الذعر فى قلوبهم وهرعوا إلى موسى يصرخون :

ــ إنا لمدركون .

ــ كلا إن معى ربى سيهدين .

وتقدم إلى البحر وأمواجه تتلاطم كالجبال وقال :

ــ ههنا أمرت .

وجعل بعض الرجال يقتحمون بأفراسهم البحر مرارا ليسلكوه ولكنهم كانوا يرتدون خائبين . وتفاقم الأمر واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.عند ذلك أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فلما ضربه انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . فانحدر بنو إسرائيل فيه مسرعين ، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود سيرته الأولى فأوحى الله إليه :

— واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون .

وأقبل فرعون على صهوة حصانه يهمزه برجليه ويضربه بسوطه حتى وقف على شفير البحر . فلما رآه منفلقا وقف ينظر مدهوشا وفكر فى أن يحجم ، ولكنه لم يشأ أن يظهر أمام جنوده رعديدا وهو الذى دوخ السوريين وبلغ حدود بابل ، فاقتحم البحر وانطلق وتدفق جنوده خلفه حتى إذا كانوا جميعا فى البحر ارتطم البحر كما كان وأخذت الأمواج تتقاذف الجنود ورفعت فرعون وخفضته حتى إذا أدركه الغرق قال :

— آمنت أنه لا إلـٰه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

آمن و لم يكن ينفعه إيمانه و كان هو وجنده من المغرقين وابتلعهم اليم .. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

وجاوز بنو إسرائيل البحر وساروا فى سيناء أرض عبادة إلـٰه القمر سين ، ورأوا تماثيل الآلهة وكيف يذبح القوم لتلك الأصنام ويسجدون لآلهة يرونها . كانوا حديثى عهد بآلهة المصريين وبالأصنام التى رأوها فى معابدهم وسجدوا لها فحنوا إلى أن يجعلوا لله أصناما بعد أن عرفوا الله رب السموات والأرض واكتشفوا الكنز الروحى . فجاءوا إلى موسى وقالوا له :

— اجعل لنا إلـٰها كما لهم آلهة .

كان رسولهم بينهم يفقههم فى أمر دينهم ، ولكنهم من طول ما رأوا المصريين يعكفون على أصنام لهم أثر فيهم وجعلهم يلتمسون إلـٰها يرونه إذا دعوه ، أرادوا أن يجسدوا الفكرة المطلقة ، أن يجعلوا لله رمزا ، فغضب موسى وقال لهم :

— إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .. أغير الله أبغيكم إلـٰها وهو فضلكم على العالمين ؟

وسار موسى بقومه صوب الأرض المقدسة ، إنه لا يستطيع أن يدخلها

حتى يقاتل أهلها فقال :

ـــ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

قالوا :

ـــ يا موسى إن فيها قوما جبارين . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون .

قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما :

ـــ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

قالوا :

ـــ يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

قال :

ـــ رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

قال:

ـــ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين .

وبقى بنو إسرائيل فى التيه فى صحراء سيناء القاحلة الماحلة وراحوا يبحثون عن الماء فلم يجدوه ، فجاءوا إلى موسى يفزعون إليه ، فاستسقى موسى لقومه فقال له الله :

ـــ اضرب بعصاك الحجر .

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان أسباط بنى إسرائيل اثنى عشر سبطا

فكان لكل سبط عين تنبجس ، وأحسوا الجوع فهرعوا إلى موسى يلتمسون الطعام فدعا موسى ربه أن يطعمهم فساق إليهم أسراب المن والسلوى . وضجر كثير من بنى إسرائيل بحياتهم الجديدة فأين ما هم فيه من خيرات مصر ، فجاءوا إلى موسى وقالوا له :

— يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .

فغضب موسى وقال لهم فى سخرية :

— أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم .

فما إن قرعت سخريته آذانهم حتى زاغت أبصارهم ثم أطرقوا فى خجل شديد . نسوا نعمة الله عليهم إذ نجاهم من فرعون وجنوده ومن الذل المهين وراحوا يشتهون ألوان الطعام بعد أن هجروا غذاء الروح .

وواعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقبل أن يذهب موسى ليأنس بالله ويناجيه قال لأخيه هارون :

— اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين .

وانطلق موسى لميقات ربه إلى جبل طور سيناء ، كان الكون خاشعا فى محراب الله وكانت النشوة تملأ جوارحه وقد اتسعت آفاق روحه حتى كادت تستوعب الكون كله ، فقد كان على صلة بربه له الملك لا إلـٰه إلا هو وسع كل شىء علما .

كلمه ربه فناداه وناجاه وقربه وأدناه ، فطمع موسى فى أن يرى الله فقال :

— ربى أرنى أنظر إليك .

قال :

— لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى .

فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال :

— سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين .

فقال الله :

— يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

وأوحى الله إليه فيما أوحى :

— يقيم لك الرب إلـٰهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلك له تسمعون .

وراح موسى يفكر : نبيا مثله من إخوته ! ترى من أى إخوته يبعث الله ذلك الرسول ؟

واستمر يصغى إلى ما يوحى به إليه :

— أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعلُ كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به .

وفهم موسى أن الله سيبعث فى إخوته نبيا .. لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ولكن ترى من أى إخوته يبعث ذلك النبى ؟

و لم يشأ الله أن يترك رسوله دون أن يوضح له ما شغل باله ، إنه يريد أن يعرف من أى إخوته يأتى ذلك النبى . فأوحى الله إليه :

— جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران .

فاران ؟ إنها الأرض التى استقرت بها هاجر وابنها إسماعيل . لقد وضح له كل شيء . إن ذلك النبى الذى سينزل عليه الذكر من فاران من أرض هاجر وإسماعيل ، إنه من بنى إسماعيل . إنه دعوة إبراهيم .

وولى موسى وجهه شطر البيت الحرام ، وإذا بالسكون كله يردد دعوة إبراهيم الخليل : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم

الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم .

وكتب الله له فى الألواح وراح يقرأ ما كتب فيها خافق القلب مبهور النفس : إن الله يأمره أن يسبحه ويقدسه لا إله إلا هو ، ولا يشرك به شيئا ، ولا يقتل النفس التى حرم الله ، ولا يحلف باسمه كذبا ، وأن يكرم أباه وأمه ، ولا يقتل ، ولا يزنى ، ولا يسرق ، ولا يشتهى امرأة صاحبه ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذى لصاحبه .

وقال الله لموسى :

ـــ وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟

قال :

ـــ هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى .

قال :

ـــ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا .

كان موسى قد ذهب لميقات ربه وكان قد وعدهم ثلاثين ليلة ، فلما أتمها بعشر وانقضت تلك الليالى ولم يعد جاء السامرى وقال لهم :

ـــ إن موسى قد احتبس عنكم ، إنه ليس براجع إليكم فينبغى لكم أن تتخذوا إلـٰها .

وفكر بنو إسرائيل فيما يقول السامرى فوجدوه يصادف هوى فى نفوسهم ، فقد التمسوا من موسى من قبل أن يجعل لهم إلـٰها كما للأقوام الذين مروا بهم آلهة ولكن موسى أبى . وها هو ذا موسى قد ذهب فما الذى يحول بينهم وبين اتخاذ إلـٰه لهم ؟ لقد عبدوا العجل لما كانوا عبيدا فى مصر ولقنوا أن روح الله تحل فى العجل المقدس ، فجاءهم السامرى بعجل له خوار صنعه من حلى المصريين ، واجتمع القوم يعبدونه والسامرى يقول لهم :

ـــ هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى .

فقال لهم هارون :

ـــ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى .

قالوا :

ـــ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى .

ورجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فبلغ سمعه أصوات عزف ، فانطلق إلى الصوت فإذا بالقوم يعزفون ويرقصون حول العجل ، فصاح فى غضب :

ـــ بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم .

وألقى الألواح وقال :

ـــ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى !

وذهب يبحث عن هارون فلما وجده أخذه برأسه يجره إليه ويقول :

ـــ يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ، أفعصيت أمرى ؟

ـــ يابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين .

وجره موسى من شعره وهو يقول :

ـــ هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم ؟

ـــ يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى .

فرفع موسى وجهه إلى السماء وقال :

ـــ رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

وبعث إلى السامرى فلما جاء قال له :

ـــ فما خطبك يا سامرى ؟

قال :

ـــ بصرت بما لم يبصروا به ، بصرت بجبريل فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها على العجل وكذلك سولت لى نفسى .

قال :

ـــ فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعدا لن تخلفه ، وانظر إلى إلٰهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا .

ونسف موسى العجل وقال لقومه :

ـــ إنما إلٰهكم الله الذى لا إلٰه إلا هو وسع كل شىء علما .

وأطرق بنو إسرائيل خجلا فقال لهم موسى :

ـــ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، دلكم خير لكم عند بارئكم .

ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون .

ورأى بنو إسرائيل أن يستغفروا ربهم فكلموا موسى ، فاختار موسى سبعين رجلا من علماء بنى إسرائيل وانطلقوا ليعتذروا عن بنى إسرائيل ، واقتربوا من الجبل فصعدِ موسى يكلم ربه وصعد بنو إسرائيل يسمعون .

أشرق الجبل بنور ربه لكأنما كان غارقا فى بحر من النور ، وساد الوجود خشوع وعبق المكان بأريج طيب لا نظير له فى طيب الأرض ومسكها وعطورها ، وغشى القلوب أمن عجيب ، وهامت النفوس لتنداح فى روح الأرواح لتفر منه إليه ، لتهيم فيه .

وجعل موسى يعتذر عن عبادة العجل ، ثم رجع إلى قومه فقالوا له :

ـــ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

فانقضت عليهم صاعقة من السماء فماتوا جميعا ، فقال موسى لربه :

ـــ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .

قال :

ـــ عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء .

وظل موسى يناجى ربه حتى بعثهم من بعد موتهم ، فعادوا فى التيه لا يفكرون فى الدخول إلى الأرض المقدسة فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، وتقضت السنون فمات هارون فحزن عليه بنو إسرائيل فقد كان عليهم لينا ، ومات بعده موسى فشق ذلك عليهم وراحوا يبكونه والتفوا حول فتاه يوشع بن نون .

وانقضت سنون التيه فخرج بنو إسرائيل بقيادة يوشع لغزو الكنعانيين ، ودارت بين الفريقين معارك قاسية مريرة وراح يوشع يسرف فى القتل ، كان ممن يؤمنون بقانون الطبيعة الثانى وهو : أن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا .

وتأخر فتح أورشليم فغضب ذو النون من ربه وذهب مغاضبا فظن أن لن يقدر الله عليه . واستمر القتال وحاق الغم بذى النون و لم يجد له ملجأ إلا الله فنادى فى الظلمات أن لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجاب له ربه ونجاه من الغم وجاء النصر والفتح ودخل بنو إسرائيل بيت المقدس ، وكذلك ينجى الله المؤمنين .

. وعكف بنو إسرائيل على كتاب الله ، على الفرقان الذى فرق بين حياة العبودية فى أرض مصر وحياة الحرية فى حياتهم الجديدة . « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

١٤

انتشرت قبائل الإسماعيليين فى سيناء وعلى طريق قوافل التجارة الذى يربط مكة بالشام ، حول البحر الميت وفى دومة الجندل ، وقد أحبوا أوطانهم الجديدة وإن تعلقت أفئدتهم بالبيت العتيق .

كان ولاؤهم لمجتمعاتهم الجديدة عظيما ولكن ولاءهم لمكة كان أعظم ، فقد عرفوا سعادة الدنيا فى التجارة ، فى الخروج من تلك المجتمعات الجديدة لينتشروا فى الأرض وليبتغوا من فضل الله ، بينا كانت سعادة الآخرة تتمثل فى ذلك البيت الذى أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل .

كانوا كلما هزهم الشوق إلى بيت الله.يعودون إليه ليطوفوا به ويبتهلوا إلى الله أن يأتيهم فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويملئوا جوانحهم بالنور الذى يفيض على البيت . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

انقسمت وحدتهم السياسية ولكن الإشعاع الروحى المنبعث من أفئدتهم المؤمنة كان يؤلف بينهم ، وكان يجعل الصلة بين بنى إسماعيل فى أوطانهم الجديدة وإخوانهم اللائذين بالحرم وبين بنى إسرائيل فى فلسطين صلة طيبة ، فقد كانوا جميعا ورثة النفحة الروحية التى جاء بها آباؤهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكانوا جميعا مسلمين . ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .

وبعدت الشقة بين بنى إسماعيل والحرم فلم يكن الخروج من مجتمعاتهم

الجديدة إلى البيت الذى تهوى إليه أفئدتهم أمرا سهلا ، و لم تكن المرات القليلة التى تتاح لهم للزيارة لتشفى الغليل أو تطفئ نار الشوق ، فهم يريدون فى مجتمعاتهم الجديدة بيوتا يطوفون بها كلما خرجوا من دورهم ويتمسحون بها كلما عادوا من أسفارهم ، بيوتا مكرمة مطهرة مقدسة يستحب فيها مناجاة الله وذرف دموع التوبة لله رب العالمين .

وطال على الناس الأمد فقست قلوبهم ، وبدأ شباب الإسماعيليين يولون مكة ظهورهم ، وهموا بأن يطلقوا العنان للنفس وأن يعيشوا وفق طباعهم دون ضابط أو وازع ، وخاف شيوخهم أن يفلت الزمام وأن يندثر الدين وأن تتقطع الأسباب بين حملة شعل التوحيد وبين السماء ، فأخرجوا الحجارة التى أخذها آباؤهم من البيت المحرم يوم خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض لتذكرهم بالوادى المقدس أحب بقاع الأرض إلى أفئدتهم ، وحملوها فى إجلال وهم يدعون الله فى خشوع ، تسيل عبراتهم على ذقونهم من شدة الانفعال ، وتنطلق ابتهالاتهم من حناجرهم شكرا لله رب العالمين .

ووضعوا الحجارة التى أخذها آباؤهم من أول بيت وضع للناس فى مكان أعدوه للعبادة ، وجعلوا لها حرما آمنا كذلك الحرم الذى فى مكة ، ووضعوا علامة يبدءون من عندها الطواف ، ثم راحوا يطوفون بها سبعا تشبها بالطواف حول الكعبة .

وضل سعى شيوخ بنى إسماعيل فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فقد فتحوا أبواب الفتنة على مصاريعها وإن ظنوا أنهم أعادوا إلى شعوبهم جوهر الدين الذى يغذى الروح ويسيطر على الذات وينظم الشهوات .

وراح بنو إسماعيل فى طور سيناء وفى دومة الجندل وفى أرض النبط ، أرض أبناء نابت بن إسماعيل الذين نزلوا حول البحر الميت يستخرجون الأسفلت ،

يطوفون بالحجارة التى جاء بها آباؤهم من الحرم المقدس كلما خرجوا من دورهم فى الصباح وقبل أن يعودوا إلى دورهم فى المساء ، وصارت لأماكن العبادة تلك قدسية كقدسية البيت المحرم فى الوادى المقدس .

كانوا يطوفون بالحجارة ويدعون الله وحده لا شريك له ، لم يشركوا بالله و لم يجعلوا له أندادا و لم يتخذوا له ذرية ولا أزواجا ، إذا تتلى عليهم صحف إبراهيم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا .

ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم .

وذهبت أيام تحتمس الثالث (فرعون موسى) وأيام أمنحتب الثانى الذى قاد ستة من ملوك الكنعانيين الآراميين من البلاد التى أخضعها فى سورية إلى طيبة وقدمهم قربانا إلى آمون ، وجاءت أيام أمنحتب الثالث فتزوج أميرة من أميرات سورية وفتح أبواب مصر للتجار ، فعاد بنو إسماعيل إلى أسواق منف وطيبة يحملون الطيب ومنتجات بابل وسورية ويستبدلونها بالصناعات المصرية من خزف وحلى ونسيج .

* * *

سارت قافلة بنى إسماعيل فى أرض مصر قاصدة طيبة كنز مصر العظيم ، وراح رجال القافلة يمدون أبصارهم لكل ما يرون ويلقون السمع للفلاحين والصناع ورجال الدين ، ويصيخون الآذان لابتهالات الكهنة لإلـٰههم آمون .

كان المصريون يعتقدون أن فرعون إلـٰههم وأن سلطان ذلك الإلـٰه أرض مصر وأنه يقف على حدودها ليحميها من أعدائها ، فلما جاء الهكسوس وجاء بنو إسماعيل ثم جاء من بعدهم يوسف وموسى يرفعون مشعل التوحيد تأثرت

الديانة المصرية بمعتقداتهم ، فصار إلـه الفراعين الذى لم يكن سلطانه يتجاوز أرض وادى النيل يرى جميع العالم فى كل ساعة ، وأصبح رب العالمين .

ولاح لقافلة بنى إسماعيل معبد لآمون فحطوا الرحال وذهبوا إلى المعبد ينظرون ويسمعون . فراح الكهنة يرتلون لآمون الباطن الذى رمزوا إليه بالهواء ، فهو لا يرى كما أن الهواء لا يرى :

— إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك .
ومصور دون أن تصور ،
منقطع القرين فى صفات .
أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم ،
أنت الذى ترى ما خلقت ،
والسيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم .
بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها .

وراح بنو إسماعيل ينظرون إلى التماثيل الجميلة التى غص بها المعبد ، إنها ثمرة الفن المصرى الذى أطلقوا عليه اسم الغسق المقدس ، إنها روحهم فقد كانت روح مصر فى عقيدتها وقد ترجمت تلك العقيدة إلى تماثيل ، إنها لتزدهر كلما ازدهرت فلسفتها . وطافت بأذهانهم تلك الحجارة البركانية التى يطوفون بها فى أوطانهم ، ولكن سرعان ما طردوا الخواطر التى راحت توازن بين حجارتهم وتماثيل آلهة المصريين ، وراحوا يستغفرون الله ويعوذون به من همزات الشياطين .

وانطلقت قافلة بنى إسماعيل إلى طيبة وكانت مدينة غنية عظيمة تخلب الألباب وتسبى العقول ، قصورها شامخة ومتنزهاتها منسقة تنسيقا بديعا وبحيراتها الصناعية منتشرة هنا وهناك ، والرجال والنساء يغدون ويروحون فى أحدث الأزياء . كانت مدينة مترفة يتغنى بها الشعراء ويجوس التجار خلالها

يبيعون ما جلبوا من السلع ويشترون أجود ما تنتجه الصناعات المصرية .

واصطف الشعب على جانبى الطريق الذى يؤدى إلى الهيكل العظيم بالكرنك ، فقد كان فرعون أمنحتب الثالث فى طريقه إلى معبد آمون ، وكان ولى عهده أمنحتب الرابع الذى سيعرف فيما بعد باسم إخناتون إلى جواره فى مركبته الملكية ، وكانت زوجة فرعون الآسيوية وأم إخناتون ولى العهد فى عربة ملكية زينت بأجمل زينة .

كان إخناتون شابا ضئيل الجسم كبير الرأس برز رأسه من الخلف بروزا كبيرا ، وقد غرست فيه أمه الآسيوية عقيدة التوحيد التى كانت لا تزال منتشرة فى قبائل بنى إسماعيل وبنى إسرائيل وعند بعض الموحدين فى الممالك السورية .

وبلغ الركب الملكى معبد الكرنك فراح إخناتون ينظر إلى الفتيات المقدسات الجالسات على جانبى الطريق فى اشمئزاز . كان الكهنة يخدعون الشعب ويوهمونه أن هؤلاء العاهرات إن هن إلا سرارى لآمون ، ولكن إخناتون ما كان يصدق ذلك الزعم فقد كان على يقين أنهن خليلات كهنة آمون الذين يستغلون الدين لابتزاز أموال السذج .

كان إخناتون شابا مستقيما وكان يرى فى تعدد الآلهة كفرا ، فإبراهيم دعا إلى التوحيد فى مصر أيام الهكسوس ، وجاء يوسف من بعده ليدعو إلى الله وحده ، ثم جاء موسى فى أيام تحتمس الثالث يدعو إلى الله الواحد القهار وما عهد موسى ببعيد ، فتغلغلت دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى فى إخناتون حتى النخاع .

ووقف بنو إسماعيل ينظرون ، ثم دخلوا معبد آمون فى طيبة ورأوا ضخامة تماثيل الآلهة وطقوس رجال كهنة آمون الأثرياء وما تكدس فى المذابح من ثيران وأبقار وطيور وأسماك وعسل وبيض وخبز ، فعادت أفكارهم تربط بين

تماثيل آلهة المصريين وبين الحجارة البركانية السوداء التى جاء بها آباؤهم من البيت المقدس والتى يطوفون بها آناء الليل وأطراف النهار .

ومضت أيام أمنحتب الثالث واعتلى العرش آمون حتب الرابع ذلك الشاب التقى الذى لقنته أمه الآسيوية عقيدة التوحيد ، فاتخذ مستشاريه من الآسيويين ، وكان أول ما فعله أن غير اسمه من آمون حتب أى آمون راضى إلى إخناتون أى آتون راضى ، فقد عزم على أن يوحد الآلهة فى إلٰه واحد ، وقد رمز لذلك الإلٰه بقرص الشمس « آتون » .

كان إخناتون يمقت آمون وكهنة آمون فراح يمحو اسم آمون أينما وجد فى آثار طيبة ، ولما كان مؤمنا بأن للعالم كله إلٰها واحدا فقد راح يمحو أسماء الآلهة حيثما وجدها ، وراح يشرد كهنة آمون ويصادر أموالهم التى ابتزوها من الشعب باسم آلهة ما أنزل الله بها من سلطان .

وبنى إخناتون لإلٰهة الجديد مدينة « أخيتاتون » لتكون عاصمة لملكه ، وراح الشعراء ينظمون قصائد تمجيد آتون ، وارتفعت الأصوات بالابتهالات لقرص الشمس رمز الإلٰه الواحد :

ما أكثر أعمالك وأجلها !
إنها على الناس خافية .
يأيتها الإلٰه الأحد ،
من لا يوجد معه إلٰه آخر ،
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك ،
وحينما كنت وحيدا لا شىء إلا أنت ،
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان ،
وجميع ما على الأرض ،
مما يمشى على رجليه ،

وما فى عليين مما يطير بأجنحته ،
وفى الأقطار العالية سورية ،
وكوش وأرض مصر ،
فإنك تضع كل إنسان فى موضعه ،
وتمدهم بحاجاتهم ،
وكل إنسان لديه رزقه ،
وأيامه معدودة ،
والألسنة فى الكلام مختلفة ،
وكذلك تختلف أشكالهم وألوانهم ،
لأنك تخلق الأجانبَ مختلفين .

ولم يذكر إخناتون أزريس ومحكمته ولا أخته إيزيس ولا ابنه حور ، ولم يعترف برع ولا ببتاح ولا بالآلهة الكثيرة التى عبدها المصريون ، كان يدعو إلى إلٰه واحد كما دعا من قبله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، وقد قال هؤلاء الرسل : إن المؤمنين يحسون الله فى قلوبهم ، وقال إخناتون لإلٰهه : إنك لا تزال فى قلبى . ولكن دعوة إخناتون كانت ردة إذا قيست بملة إبراهيم ، فقد دعا إبراهيم ومن جاء بعده من ذريته من الرسل إلى عبادة إلٰه واحد فوق الطبيعة ، فجاء إخناتون وجسد الفكرة المجردة ورمز إلى الله بقرص الشمس ، فكانت دعوته نكسة بين دعوات التوحيد التى سبقته .

ولم يخلد كهنة آمون للدعة بل راحوا يقاومون حركة إخناتون فى ضراوة ويتهمونه بالمروق ، ويوسعون الأرض إذاعة أن هيبة مصر ضاعت فى سورية ، وأن إمبراطورية تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث قد أخذ ظلها يتقلص ، وأن الوهن دب فى البلاد ، وراحوا يحرضون الخبازين الحانقين على الثورة بعد أن كسدت تجارة بيع « فطائر الشعائر » التى كانت تقدم على

مذابح الآلهة بعد أن قوض الدين الجديد الآلهة وشعائرهم .

وراحوا ينفخون فى نار حقد الصناع الذين كانوا يعيشون على صنع تماثيل إزيس وأزريس وحور وبتاح وأبيس والآلهة الأخرى ، وأخذوا ينفثون السموم فى صدور الكتاب الذين كانوا يحترفون كتابة الأدعية من كتاب الموتى ذلك الكتاب الذى لعنه إخناتون ، وراحوا ينزغون بين سواد الشعب بتذكيرهم بأيام آمون المجيدة أيام أن أيدهم بنصره فطردوا الهكسوس وفتحوا ما فتحوا من بلاد أعدائهم .

وأمسى إخناتون غارقا فى بحر من التذمر ، وبذل كهنة آمون الأموال لشن الحرب على ذلك المارق الذى كان فى أخيتاتون يتغنى بمجد إلٰهه ولا يمتشق الحسام فى وجه من ثاروا عليه فى سورية ، فقد كان داعية سلام يحلم بأن يندمج الناس فى أخوة عالمية فى ظل رب العالمين .

واشتدت الثورة على إخناتون وقاد الكهنة ثورة الشعب على الدين الجديد ، حتى إذا ما ذهب إخناتون وجاء بعده توت عنخ آتون أرغمه الكهنة على أن يمحو اسم آتون من الوجود وأن يصبح اسمه توت عنخ آمون ، فاستجاب لهم فعادت عبادة آمون واشتد نفوذ كهنته وصار إخناتون مجرم أخيتاتون .

وطوى الزمن عصر إخناتون وذهب جيل وجاء جيل جديد من بنى إسماعيل فى تجارة قومهم . وكانوا من النبط من نسل نابت بن إسماعيل ممن نزلوا حول البحر الميت يستخرجون الأسلفت وإن كانوا يرقبون فرصتهم لينتشروا فى الأرض المجاورة ، فساحوا فى أرض مصر ومدوا أبصارهم إلى تماثيل الآلهة فرأوها تماثيل دقيقة الصنع مميزة الملامح بها لمسات فنية تستهوى الأفئدة وتسر الناظرين . أين من هذه التماثيل الحجارة البركانية الخشنة التى يطوفون بها ؟

وما عاد بنو إسماعيل من مصر إلى أرض النبط حتى كانوا يحملون تمثال امرأة

جميلة ، وسرعان ما عادت إلى أذهانهم أساطير العرب قبل أن يدعو إبراهيم إلى عبادة الله ، عبادة الإيل . كان العرب قبل أن يعرفوا التوحيد يعبدون الشمس والقمر والنجوم فى بابل وفى سيناء وفى اليمن ، وكانوا يؤمنون بأن القمر هو رب الأرباب وأن الشمس هى زوجه وأم الآلهة ، وأن عشتار أو عشتر هى ابنتهما أو ابنهما حسب اعتقاد كل قبيلة ، فلما جلب النبط تمثال امرأة عادوا إلى أساطير الأولين ، إنهم يعبدون « الإيل » رب الأرباب فليكن تمثال المرأة الذى جلبوه زوجة الإيل كما كانت الشمس زوجا للقمر ، وأطلقوا عليها الإيلات أى زوجة الإيل ، وصارت رمزا للشمس .

وعاد النبط من أبناء نابت بن إسماعيل إلى عبادة الكواكب كما كان يعبدها العرب قبل أن يبعث الله جدهم الخليل هدى ونورا للعالمين ، وتطور الاسم من الإيلات إلى الليلات ثم اللات ، وذاعت عبادتها فى قبائل بنى إسماعيل الأخرى التى خرجت من مكة لتتفسح فى الأرض ولتعمل على نشر دين الله ، وصارت اللات أشهر معبودات بنى إسماعيل .

نسى بنو إسماعيل ما كانوا يدعون إليه من قبل وكانوا أول من غير دين الآباء : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب بعد بنى إسرائيل فى مصر قبل أن يبعث الله إليهم موسى ليعيدهم إلى دين الله ، وشاعت فيهم بدعة جلب الأصنام من البلاد التى يطوفون بها للاتجار ، وجعلوا لله أندادا بعد أن كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

وجلب النبط من مصر فيما جلبوا تمثال إيزيس ووضعوه فى معابدهم وسجدوا له ، وأطلقوا عليه العزيزة وجعلوها رمزا لكوكب الصباح . ولما كان العرب يميلون إلى تفخيم آلهتهم فقد أطلقوا عليها العزى وجعلوها بنتا من بنات الله ، وسرعان ما انتشرت عبادة العزى فى قبائل بنى إسماعيل الممتدة من طور سنين إلى أرض النبط إلى دومة الجندل .

ولما كان مما يسر الرجال أن يحملوا تماثيل النساء فقد حملوا تمثال امرأة وجاءوا به إلى أرض النبط ، وقد كان من الميسور أن تصبح تلك المرأة بنتا من بنات الله فله البنات ولهم البنون ، ولكن عرف بنو إسماعيل من البلاد التى جابوها التى تعكف على عبادة الأصنام أن للموت إلـٰها وللحظ إلها ، فجعلوا تلك المرأة للحظ والمنايا ، وأطلق عليها النبط « منوتن » ، التى صارت فيما بعد مناة .

وصارت اللات والعزى ومناة من الأسرة الإلـٰهيـة الغرانيـق الـعلى ، وصارت شفاعتهن ترتجى . أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

١٥

اتخذ بنو إسرائيل العبرية ـــ لغة الكنعانيين ـــ لغة لهم ، وأقاموا فى أورشليم خيمة الرب ووضعوا فيها التابوت فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

وكان حلم بنى إسرائيل أن يقيموا مكان خيمة الرب بيتا مطهرا كذلك البيت العتيق الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل فى وادى مكة ، ولكن الكنعانيين كانوا يشنون عليهم الحرب بين وقت وآخر و لم يتركوهم فى سلام أبدا ، فقد كانت الأرض للكنعانيين وكان بنو إسرائيل وافدين يريدون أن يثبتوا سلطانهم فى فلسطين .

ولما طال على بنى إسرائيل الأمد وقست قلوبهم نسوا الله الواحد القهار وعبدوا ما يعبد الكنعانيون ، عبدوا بعلا وعشتارا وآلهة الوثنيين الأخرى وغرقت خيمة الرب فى الدنس ، فقد اتخذ الكاهن عالى خدمة الخيمة تجارة لجمع الأموال ، ووقف أبناؤه ببابل لتحصيل اللذات ، فكانوا يترصدون الفتيات الإسرائيليات الجميلات ليضاجعوهن قبل الدخول للعبادة والاستغفار ، وكان عالى يعلم بما يأتيه أبناؤه فلا يزجرهم ولا ينهاهم فقد تفشت الفاحشة فى بنى إسرائيل تفشيها فى معابد عشتار .

وكان يعيش فى تلك الخيمة شمويل ذلك الغلام الهابط من نسل النبوة ، وقد وهب حياته لعبادة الله فكان يدعوه بقلب سليم ، ولولا ذلك الغلام المبارك لأنزل الله غضبه على الخيمة الغارقة فى الدنس والمنكرات .

وفى ذات ليلة دخل شمويل لينام إلى جنب الشيخ عالى ، وفيما هو غارق

فى نومه بلغ سمعه صوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ــ شمويل .. شمويل .

فهب الغلام فزعا إلى الشيخ فقال :

ــ يا أبتاه دعوتنى ؟

فنظر الشيخ إلى الغلام فى إنكار ثم قال له :

ــ يا بنى ارجع فنم .

فرجع شمويل فنام وإذا بصوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ــ شمويل .. شمويل .

فهب الغلام فزعا إلى الشيخ فقال :

ــ يا أبتاه دعوتنى ؟

فقال له الشيخ وهو نائم :

ــ ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبنى .

فرجع شمويل وما إن داعبه النوم حتى سمع صوتا أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ــ شمويل .. شمويل . قم !

فقام ونظر وهو يعجب ، كانت الخيمة غارقة فى نور يبده القلب ويريح النفس ويجعل الروح تهيم لتسبح فى ذلك النور الذى يملأ الجوانح بالسكينة والأمن ، وإذا بوحى يلقى إليه :

ــ اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك ، فإن الله قد بعثك فيهم نبيا .

وأوحى الله إليه ما أوحى ، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب .

وفى الصباح قال عالى لشمويل :

ــ ماذا حدث البارحة ؟

فقال شمويل :

ــ أوحى إلى أن الله سينزل غضبه عليك وعلى بيتك جزاء سكوتك على ما يفعله أبناؤك من المنكرات .

فأطرق الشيخ مليا ثم قال :

ــ أتوب إلى الله وأقرب له قربانا .

ــ لن يقبل منك .

فقال عالى فى استسلام :

ــ هو الله يفعل ما يشاء .

وصار شمويل نبيا لبنى إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده وهجر السيئات ، فكانوا يصغون إلى دعوته ويعجبون ، فهو يتكلم كما كان يتكلم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، ولكنهم ما كانوا يعملون بما يقول فقد أغرتهم الدنيا وصاروا عبيد اللذات .

وتأهب الكنعانيون أهل فلسطين لقتال بنى إسرائيل ، وتأهب بنو إسرائيل لقتالهم ودارت الحرب بين الفريقين ، فانهزم بنو إسرائيل وقتل منهم خلق كثير ، فاجتمع شيوخهم يفكرون فيما حاق بهم فأرجعوا سبب تخلى الله عنهم إلى أنهم خرجوا للقاء أعدائهم دونِ أن يأخذوا معهم التابوت المبارك الذى وضعوا فيه بعض الألواح المقدسة التى نزلت على موسى ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

إنهم ما جاءوا أعداءهم ومعهم التابوت إلا أيدهم الله بنصر من عنده ، فبعثوا الرجال ليحضروه ليبدل خوفهم أمنا ويقلب الهزيمة نصرا ، وما إن رأوا التابوت حتى دبت الحماسة فى صدورهم فهتفوا مستبشرين ، فتجاوب الهتاف فى أرجاء المكان وصك آذان الكنعانيين فأشاع الخوف فيهم ونزل الرعب فى قلوبهم لما علموا أن بنى إسرائيل أحضروا التابوت الذى به

ينتصرون .

وقام رجل من الكنعانيين يحمسهم ويحضهم على القتال فقال :

— يا قوم لقد جاءكم أعداؤكم بإلٰههم لقتالكم ، فإذا أصابكم الوهن فستهزمون وتصبحون عبيدا لبنى إسرائيل بعد أن كانوا عبيدا لكم ، فحاربوا عن نسائكم وأبنائكم وأعراضكم .

وهجم الكنعانيون على الأعداء وقد كشروا عن أنيابهم ففر بنو إسرائيل مفزوعين ، فقد كانت قلوبهم خواء وما كانت هتافاتهم المدوية للتابوت إلا صيحات جوفاء أطلقتها الحناجر لتذهب فى الهواء . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وتساقط بنو إسرائيل قتلى تحت سيوف الكنعانيين ونجا بجلده من أطلق ساقيه للريح ، وسقط التابوت غنيمة باردة فى أيدى الأعداء ، واستمر الهاربون فى جريهم حتى ابتعدوا عن ميدان الطعن والنزال .

ودخل رجل المدينة ممزق الثياب يحثو على رأسه التراب وفى وجهه هلع واضطراب ، فانجفل الناس إليه يسألونه :

— ماذا وراءك ؟

فقال وهو يتلفت كأنما يعدو خلفه مارد جبار :

— الهزيمة والانكسار .

فارتجت المدينة بالصياح وبلغت الأصوات مسامع عالى فقال :

— ماذا جرى ؟

— هزمنا هزيمة منكرة .

— وماذا فعل الناس ؟

— قتل منهم الآلاف .

— وأبنائى ؟

— قتلوا جميعا .

— والتابوت ؟

— أخذه الأعداء .

وبان فى وجه الشيخ القهر الشديد وعلاه عبوس ومال إلى الوراء فى ضيق فوقع على رأسه ودقت عنقه أمام خيمة الرب التى خلت من التابوت ، وفى نفس المكان الذى كان يضطجع فيه أبناؤه مع فتيات إسرائيل الجميلات الوافدات للعبادة والاستغفار !

ومرت السنون وشمويل يدعو بنى إسرائيل إلى الله ، وفى ذات يوم جمعهم وقال لهم :

— توبوا إلى الله وأخلصوا له وانزعوا من عبادة بعل وعشتار والآلهة الأخرى التى لا تملك لكم نفعا ولا ضرا ، واعبدوه وحده يخلصكم من أعدائكم وينصركم عليهم . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

فقالوا له :

— تبنا إلى الله وأنبنا .

فأمرهم أن يصوموا ذلك اليوم تطهيرا لأنفسهم وتقربا إلى الله ليؤيدهم بنصر من عنده ، ونشب القتال بين بنى إسرائيل وبين الكنعانيين أهل فلسطين فانتصر بنو إسرائيل بعد أن طهرهم شمويل من رجسهم وبث فيهم روح التضحية والإقدام ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز .

وأمسى شمويل شيخا فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل به وقالوا له :

— يا شمويل أصبحت شيخا وقد جئناك لتدعو ربك ليجعل علينا ملكا

يحكمنا ويجمعنا حوله ككل شعوب الأرض ، ويقودنا لنقاتل فى سبيل الله .

فقال لهم شمويل :

— إن ذهبت تركتكم لله وهو خير راع لكم .

— يا نبى الله إننا نعلم ذلك ، ولكنا نريد ملكا يلم شملنا ونلتف حوله .

فقال لهم شمويل ليردهم عن رأيهم :

— أتعلمون ماذا يفعل الملك فيكم ؟ يأخذ أبناءكم ليركضوا أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه آلاف الخدم والعبيد ليحرثوا أرضه ويحصدوا حصاده ، ويأخذ بناتكم سرارى وحظايا ، ويستولى على أجود أراضيكم ليمنحها عبيده ، ويسخر عبيدكم وجواريكم ليعملوا فى أرضه ، وستصبحون جميعا عبيدا له ، وستضرعون إلى الله أن يخلصكم منه ويومها لن يسمع الله دعاءكم .

— يا نبى الله إننا نعلم كل ذلك ونقبله ، فكل ما نبغيه أن يكون علينا ملك يجمع كلمتنا ويقودنا لقتال أعدائنا الذين أذلونا .

فقال لهم شمويل :

— هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟

فقالوا :

— وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .

وراح شمويل يصلى لله ، للإيل الذى ننسب إليه كما نسب إليه من قبل إسماعيل وإسرائيل ، وخر ساجدا يدعوه أن يجيب رغبة قومه . وفيما هو فى سجوده أوحى الله إليه أنه سيجعل طالوت ملكا عليهم ، فخرج شمويل إلى قومه وقال :

— يا قوم إن الله استجاب لدعائنا وسيبعث ملكا .

فقالوا له فى لهفة :

— من هو ؟

ـــ طالوت .

ـــ طالوت ؟!

وانبعثت من القوم أصوات استنكار ، فقد كان طالوت رجلا فقيرا وقد صار بنو إسرائيل عبيد المال ، قالوا :

ـــ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

فقال شمويل :

ـــ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم .

ـــ وما أدرانا أن الله اختار طالوت ليكون ملكا علينا ؟

ـــ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .

وتحققت آية الله فإذا بهم يجدون التابوت أمامهم ، ففرحوا وهتفوا بحياة أول ملك فى إسرائيل .

وجمع طالوت بنى إسرائيل حوله وراح يقودهم من نصر إلى نصر ، ودارت معارك بينه وبين العماليق فقد كان العرب يغيرون على مملكة إسرائيل بعد أن بعدت الشقة بين أبناء إسماعيل وأبناء إسحاق ويعقوب ، وبعد أن عبد حملة النفحة الروحية العظيمة الأوثان فى قبائل أبناء نابت وقيدار ودوما ومسا وإخواتهم وفى أرض إسرائيل .

وفى ذات يوم دخل شمويل على طالوت فألفاه شامخا متكبرا قد غره الملك فراح يحاكى الملوك فى تكبرهم ، فقال له شمويل :

ـــ أصبحت ملك إسرائيل يوم كنت متواضعا فى نفسك ، فما الذى غرك لتعصى أوامر الله ؟

فقال طالوت :

— سأتضرع إلى الله أن يغفر لى خطاياى .

وأراد شمويل أن ينصرف فأمسك طالوت بذيل جبته فتمزق ، فقال شمويل :

— يمزق الله مملكة بنى إسرائيل عنك .

— قد أخطأت . والآن فأكرمنى أمام شيوخ شعبى وأمام الله وارجع معى وسوف أسجد لله أو أدعوه إن يغفر ذنبى .

وسجد شمويل وطالوت لله ملتمسين غفرانه ، وبعد أن تمت الصلاة دخل طالوت قصره وكلمات شمويل ترن فى أذنيه : « يمزق الله مملكة بنى إسرائيل عنك » فأحس انقباضا ، فماذا لو استجاب الله دعاء نبيه ؟ إنه كان فقيرا فأكرمه الله فصار ملكا وقد ألف عيشة الملوك ، وإنه لمما يحز فى نفسه أن تزول عنه أبهة الملك والسلطان .

وظل طالوت قلقا حزينا ، فلما دخل عليه غلمانه أنكروه وقالوا :

— روح عن نفسك يا مولانا .

— إن الأفكار السود تعبث بى .

— ابعث إلى رجل يحسن الضرب على العود يبدد من حولك هذه الكآبة .

فقال أحد الغلمان :

— إنى أعرف غلاما يرعى الغنم ويحسن الضرب على العود ، إذا غنى أصغى الكون وخشعت القلوب ، فصوته عذب لا يحاكيه صوت فى الوجود .

فقال طالوت :

— علىّ بهذا الغلام .

فخرج العبيد يبحثون عن داود حتى إذا عثروا عليه عادوا به إلى الملك ،

وراح طالوت ينظر إليه فارتاح إلى منظره ، كان أشقر جميلا وكانت عيناه زرقاوين وفى وجهه صفاء يعكس صفاء نفسه ، وكان قصيرا بيد أنه لم يكن قميئا .

وأخذ داود يضرب على العود ، وما انبعثت الأنغام حتى أحس طالوت كأنما السحر يسرى فى الهواء ، وشعر بالضيق يجلو عن صدره وبالنشوة تمشى فى أوصاله . إنها نشوة من تهيم روحه لتتصل بروح الروح وتضىء جوانحه بنور النور . وارتفع صوت داود العذب الحنون يمجد الله ، ولا غرو فقد كان داود سبطا من الأسباط ، كان من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن :

— يا رب ما أعظم اسمك فى الأرض !
ويا لروعة جلالك فوق السماء !
الأطفال والرضع يسبحون بحمدك .
وطيور السماء تقدس لك .
والقمر والنجوم صنع يمينك .
يا رب ! ما أمجد اسمك فى الأرض !

وأحس طالوت تواضعا يغشاه فخر ساجدا لله وقد غشيته راحة وطمأنينة وأمن .

وكان على بنى إسرائيل أن يتأهبوا للقتال فجاء طالوت وقال لهم :

— إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى ، إلا من اغترف غرفة بيده .

إن الله مبتليهم بنهر ليعرف قائدهم المطيعين ممن لا يضغون إلى الأوامر ولا يعترفون بالنظام ، فلا خير فى جيش يعصى فيه الجنود أوامر قائدهم ولا يحترمون النظام ، فالنظام سند الروح المعنوية وسبيل النصر وإعلاء كلمة الله .

وخرج إخوة داود مع الجيش وبقى داود يرعى غنم أبيه ويقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض فتفتح آيات الله بصيرته وترهف نفسه وتنطلق روحه رفرافة مجنحة فى رحاب خالق الكون وواهب الحياة . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقــوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون .

وسار جيش بنى إسرائيل حتى إذا وصلوا إلى النهر راح الرجال يشربون منه وعصوا أمر طالوت إلا قليلا منهم ، فأمر طالوت من عصوه أن يقفلوا راجعين فلا خير فى جنود لا يطيعون ما يصدر إليهم من أوامر دون تفكير .

وعبر طالوت والذين معه النهر وانطلقوا حتى أصبحوا أمام جيش جالوت حاكم الكنعانيين ، فلما رأوا جيش جالوت الجرار مشى الرعب فى أوصالهم فقالوا :

ــ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

فقال الجنود الذين يظنون أنهم ملاقو الله :

ــ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وأصبح جيش طالوت أمام جيش جالوت وجها لوجه ، فدعا المؤمنون ربهم قالوا :

ــ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

وبدأت المناوشات بين الجيشين فكان الرجال يخرجون للرجال يتجالدون ويتبارزون ، وخرج من بين الصفوف جالوت وكان طويلا جدا فى وجهه صرامة يبعث منظره الرعب فى القلوب ويزلزل الأرض تحت أقدام الأبطال الصناديد .

ووقف يتألق فى زهو تحت أشعة الشمس وكان على رأسه خوذة من نحاس

تتألق فتنبعث منها أشعة تشيع فى صفوف بنى إسرائيل رعبا شديدا . وكان يخيل لبنى إسرائيل أن درعه النحاسية حصن منيع ، وكان فى يده رمح هائل تتراءى على سنانه المنون ، وصاح فى صوت يقصف كالرعد :

ــ يا طالوت لم يقتل قومى قومك ؟ اخرج لقتالى أو أخرج لى من شئت من جنودك ، فإن قتلتك كان الملك لى وإن قتلتنى كان الملك لك .

وساد فى ميدان القتال سكون رهيب ولف الخوف معسكر بنى إسرائيل ، فما كان أحد منهم يجرؤ على أن يفكر فى التقدم لقتال ذلك الجبار الرهيب ، وصاح طالوت فى جنوده :

ــ من يخرج لقتال جالوت ؟

فلم يخرج أحد فما كان أحد ليرمى نفسه فى أحضان الموت عن طواعية . وتقدم جالوت صوب صفوف بنى إسرائيل فتأخروا مرعوبين فضحك جالوت وجلجلت ضحكاته لتنزل الرعب فى قلوبهم ، فانبعثت الهتافات من صفوف جنوده وتطايرت عبارات الزراية والاستخفاف بمن يزعمون أنهم جنود رب السموات والأرض .

ومرت الأيام وجالوت يبرز كل يوم بين الصفوف يدعو الرجال للنزال فلا يجرؤ أحد على أن يخرج له . فحز ذلك فى نفس طالوت ، وأراد أن يشجع الرجال على الخروج لقتال ذلك الطاغية الذى يسخر منهم كل يوم ، فصاح فى جنوده .

ــ من يقتل جالوت كرمته وزوجته ابنتى وجعلت بيت أبيه حرا فى إسرائيل .

فلم يغر ذلك الوعد أحدا من بنى إسرائيل فقد كانوا على يقين من أن من يخرج لقتال جالوت يزف إلى الموت قبل أن يزف إلى ابنة طالوت .

وانقضت أربعون يوما والحرب دائرة وجالوت يخرج كل يوم بين

الصفوف يتألق فى الشمس ، ويصيح بالرجال الصناديد أن يخرجوا لقتاله فلا يجرؤ أحد على الخروج ، فكان يسخر بهم وكانت سخريته مريرة تحز فى نفس ملكهم طالوت .

وفى ذات يوم ترك داود غنمه وذهب ليرى إخوته المحاربين ويقدم لهم الطعام ، فبلغ ساحة القتال فوجد الجيشين اصطفا للنزال وخرج جالوت بين الصفوف وراح يصيح فى زراية واعتداد :

ـــ أما من أحد يريد أن يقاتلنى ؟

فانكمش بنو إسرائيل و لم يتقدم منهم أحد ، فأحس داود دماءه تثور فى عروقه وتتدفق حارة إلى رأسه ، فما بال هؤلاء الرجال يحجمون عن قتال ذلك الرجل ؟ وغضب داود لله فقد رأى المؤمنين يخافون رأس الكفر ولا يخجلون من الله الذى يحاربون فى سبيله ، فانطلق داود بين الصفوف كعاصفة مزمجرة غاضبة وصاح :

ـــ أنا أقاتلك .

فهرع إخوة داود إليه وصاحوا به :

ـــ أمجنون أنت ؟ إنه جالوت .

فقال داود فى إيمان :

ـــ إن من هو أقوى من جالوت يؤيدنى .

ـــ عد إلى غنمك يا داود إنك تقدم على الانتحار .

وتقدم طالوت منه وقال له :

ـــ إنك غلام وهو رجل حرب .

ـــ دعنى يا مولاى أقتله إن الله معى .

وألبس طالوت داود ثيابه وجعل على رأسه خوذة من نحاس ، وألبسه درعا وقلده سيفا وقال له :

ـــ اذهب والله يرعاك .

وهم داود بالسير ولكنه لم يقدر ، فنزعها عن نفسه وقال لطالوت :

ـــ إنى أجيد استعمال المقلاع فما صوبته إلى شىء إلا أصبته .

وتقدم داود و لم يكن فى يده إلا هراوة ومقلاع ، وتقدم جالوت وفى يده حربته التى طالما انتصر بها على أعدائه وكان رأسها يزن ستمائة شاقل من الحديد ، وقد غطى جسمه بالزرد الكامل من خوذة ودرع خفيف ودرع صغير ودرعى الساقين وقد امتلأ غرورا ، فما يحسب أن هناك سلاحا فى أيدى أعدائه من بنى إسرائيل بقادر على أن ينفذ إليه .

ونظر جالوت إلى داود الذى تقدم لقتاله دون درع وقال له :

ـــ يا فتى ارجع فإنى لا أريد أن أقتلك .

فقال داود فى حزم :

ـــ لا ، بل أنا مصمم على أن أقتلك .

ضحك جالوت فى سخرية ولكن سرعان ما ماتت سخريته فقد ألقى الله فى قلبه الرعب من ذلك الفتى الأعزل ، وأخذ الريب جالوت كل مأخذ وصاح :

ـــ هل أنا كلب حتى تأتى إلىّ بهراوة ؟

أتكون استهانة ذلك الفتى خطة محكمة ؟ ترى ماذا يكمن فى جراب الراعى الشاب ؟ أيملك سلاحا سريا يفوق حربته ودرعه ؟ فالفوز معقود لمن يملك أحدث سلاح . كان سلاح جالوت أمضى سلاح حتى هذه الساعة وقد حقق له ذلك السلاح كل نصر . ترى أيصمد ذلك الفتى الأعزل الذى لا يملك إلا هراوته لضربة من رأس حربته الذى يزن ستمائة شاقل من الحديد ؟!

وساد المعسكرين هدوء واشرأبت الأعناق وشخصت الأبصار ، وسار

جالوت إلى داود الأعزل ليضربه ضربة تقضى عليه فأخرج داود من جرابه حجرا ووضعه فى مقلاعه . ثم أدار داود المقلاع وأرسل الحجر فأصاب به عين جالوت فسقط فخف داود إليه وقعد على صدره وحز رأسه فانبعثت أصوات الهلع من صفوف الفلسطينيين وأصوات التهليل من صفوف بنى إسرائيل .

قتل داود جالوت فزلزل ذلك قلوب الكنعانيين فما دار بخلدهم أن غلاما يجدل ملكهم الجبار العتيد ، وبعث ذلك الحماسة فى صدور بنى إسرائيل فشددوا على أعدائهم النكير وأعملوا فيهم القتل حتى فروا من أمامهم مهزومين .

وعاد طالوت منتصرا فخرج بنو إسرائيل لاستقباله ، وراحت الإسرائيليات يرقصن ويغنين فرحات مستبشرات بنصر الله وأخذن ينشدن أن الملك ضرب أعداءه وأن داود استحق أن يتزوج ربوات ابنة الملك العظيم . فاستشعر طالوت بعض الكدر فما كان داود إلا راعيا يرعى الغنم لا يليق أن يصاهر الملك ، ونسى طالوت أنه كان سقاء قبل أن يختاره الله ملكا لبنى إسرائيل .

كان داود متواضعا فى نفسه عظيما عند الله فلم يلتمس أن ينفذ الملك وعده ويزوجه ابنته ، فما خرج لقتال جالوت ظمعا فى ربوات ولكنه تقدم لقتله إرضاء لإلـٰه إسرائيل .

وعين طالوت داود قائدا لجيوشه فكان لا يخرج إلى غزوة إلا عاد منها منتصرا ، واشتهر داود وعلا ذكره ولكن لم يتملكه الغرور ، كان يصلى لله ويصوم ويعتكف أياما ليتعبد ، فقد كان يريد أن يكون عند الله كآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وأحب الشعب داود ورأى الملك أن يصاهره فبعث إليه من يقول له :

— إن الملك يوافق على أن يعطيك ابنته ميرب لو طلبتها زوجة لك .

فقال داود فى صدق :

— ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟

وتزوجت ابنة الملك الكبرى من رجل آخر ، واستمر داود فى غزواته ، وكان دخوله وخروجه أمام الشعب فأصبح محط آمال بنى إسرائيل . وشغفت ميكال ابنة الملك به حبا فأرسلت إلى أبيها من يذكر له أن ميكال ابنته تهوى داود ولا تطيق العيش بعيدة عنه فبعث طالوت إليه الرسل يقولون له :

— إن الملك يحبك ويقدرك وهو يرى أن يزوجك ابنته ميكال إظهارا لإعجابه بك ومكافأة لك على الوفاء والإخلاص .

فقال داود :

— ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟!

— أنت قائده المظفر من يسير النصر فى ركابه ، أنت طالع السعد فى مملكته .

— إنى رجل فقير وليس من الهين على رجل مثلى أن يصاهر الملوك .

— أنت رجل حرب قدير وبمثلك توطد العروش .

واستمر الرسل فى إقناع داود بقبول الزواج من ميكال التى تحبه حتى اقتنع ، وتم الزواج ففرحت ابنة الملك العاشقة ، وزاد داود بتلك المصاهرة علوا ورفعة فى أعين بنى إسرائيل .

وزاد حب الشعب لداود وتعلق به كل من فى القصر حتى أهل بيت الملك ، فأحس طالوت غيرة وراحت تلك الغيرة تزداد على الأيام حتى فكر فى قتل داود .

وفى ذات يوم أفضى إلى يوناثان ابنه وولى عهده أنه سيقتل داود ليبقى على الملك فى أسرته فقد أصبح داود خطرا على العرش ، فقلوب الشعب تلتف

حوله والزمن حليفه فإذا ترك حيا فلن يحول بينه وبين الملك حائل .

كان يوناثان يحب داود وكان يؤمن بصلاحه وتقواه فهرع إليه وقال له :

— أبى يلتمس الليلة قتلك فاهرب من وجهه إلى الخلاء واختبئ ، حتى إذا ما أصبح الصباح خرجت أنا وأبى إلى قرب مخبئك وتحدثنا عنك فتسمع ما يدور بيننا من حديث .

وهرب داود من وجه طالوت ، فلما جاء الصباح خرج طالوت وابنه وأقبلا حتى وقفا بالقرب من مخبأ داود وقال يوناثان :

— ليت مولاى الملك لا يخطئ فى حق عبده داود ، فداود لم يخطئ فى حقك فهو يبذل فصارى جهده إرضاء لك . لقد شهر نفسه سيفا فى يدك على أعدائك وأنزل بهم الهزائم وأنت لا ترضى أن تريق دما بريئا . تذكر أن الرب الذى اختارك ملكا على هذا الشعب يرقب أعمالك ويعرف ما تخفيه فى صدرك.

فأطرق طالوت قليلا وقد أحس ندما على ما فكر فيه فقال :

— أقسم ألا أمد يدى إلى داود بأذى ما حييت .

وعاد طالوت وابنه إلى القصر يتسامران ، وخرج داود من مكمنه وانطلق إلى الملك فقابله الملك باشا مرحبا .

وخرج داود لقتال الكنعانيين فضربهم وانتصر عليهم وعاد إلى بنى إسرائيل مظفرا فاستقبلوه استقبالا فخما رائعا ، وبلغت مسامع طالوت هتافات الجماهير فتحركت الغيرة فى صدره وراحت تعذبه وتضنيه .

وجلس داود يوما إلى الملك يشجيه بصوته الحنون ، كان داود يمجد الله والدموع تسيل على خديه فقد كان يرتجف من خشية الله . واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب .

لم يكن طالوت يصغى إلى الصوت العجيب الذى ينفث السحر بل كان

يصغى إلى شيطانه الذى يوسوس له أن يقتل من سلبه حب شعبه ، فرفع الرمح وطعن به داود ولكنه أخطأه ، فنهض داود وفر من وجهه .

وهرب داود إلى بيته وذهب إلى ميكال يقص عليها خبره ، فقالت له :

ــ إنى أعرف أبى ، اهرب بنفسك الليلة لأنه سيبعث فى أثرك من يقتلك .

وهم داود بالخروج فقالت له ميكال :

ــ لا تخرج من الباب فعبيد أبى يرصدونك ويرقبون خروجك ليقتلوك ، تعال .

وساعدته على الخروج من فتحة فى الحائط فانطلق هاربا من الموت الذى يتربص عند الباب .

ووضعت ميكال فى فراش زوجها تمثالا وغطته بغطائه لتخدع الرجال الواقفين بالباب يترصدون داود .

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى فسمعت ميكال طرقا على الباب فذهبت لتجد عبيد أبيها ، فلما انفرج الباب قالت للرسل الذين بعث بهم الملك :

ــ ماذا تبغون ؟

ــ مولانا يطلب داود .

ــ إن زوجى مريض .

وعاد الرسل إلى الملك فأمرهم أن يأتوا إليه بداود من فراشه ، وقفل الرسل عائدين وما دخلوا حجرة داود حتى وجدوا التمثال فى استقبالهم .

واشتد غضب طالوت وصاح بابنته :

ــ لماذا أطلقت عدوى حتى فر من يدى ؟

فانبرت الزوجة المحبة تدافع عن زوجها ، ولكن دفاعها لم يذهب الغضب عن الملك فبعث رسله ينقبون عن داود .

وجاء إليه رسله يخبرونه بمكانه فخرج إليه فى جنوده ، وما إن وصل إلى

حيث كان حتى وقف ينظر لا يجرؤ على أن يتقدم خطوة واحدة . فقد كان داود والنبى شمويل يصليان فى خشوع وقد غمر المكان نور إلٰهى وطافت به نفحات ربانية تملأ القلوب رقة ومحبة وإيمانا وتسليما . وأحس طالوت كأن فيض النور قد غسل فؤاده مما فيه من حقد فتقدم إلى حيث كان شمويل وداود وهو مسحور ، وفى مثل لمح البصر تذكر نعمة الله عليه إذ جعله ملكا على شعبه بعد أن كان سقاء فخلع ثيابه وخر ساجدا لله رب العالمين يصلى له ويدعوه فى ذلة وانكسار .

وسرعان ما عاد طالوت إلى ما كان فيه وعاد إلى حقده على داود وراح يلتمس الفرص لقتله ، وقابل داود يوناثان ولى العهد وقال :

ــ ماذا جنيت حتى يلتمس أبوك طلبى ؟

ــ سامحك الله إن أبى قد عفا عنك .

ــ إنى أحس الشر يحيط بى من كل مكان .

ــ إن أبى لا يفعل شيئا إلا أخبرنى به ، فلو كان ينوى قتلك لحدثنى عن ذلك .

ــ لقد علم أبوك حبك لى فأخفى عنك عزمه .

ــ وماذا ترى ؟

ــ غدا أول الشهر وعلىّ أن أشارك الملك فى مجلسه فى الوليمة التى يعدها كل شهر ، ولكننى أرى أن أتخلف عن هذه الوليمة ، فإذا سأل أبوك عنى فقل له إن داود استأذننى فى الذهاب إلى بيت لحم ليقدم قربانا إلى الرب ، فإذا قال الملك : « حسنا » كان ذلك دليل الرضا والسلام ، أما إذا غضب وثار كان ذلك آية على ما يضمر لى من شر .

واتفقا على أن يختبئ داود حتى يكتشف يوناثان خبيئة نفس أبيه ويخبره بما يضمر له ، فقال داود لصديقه :

— أخشى إذا جئت إلىّ أن يبعث الملك رجاله فى أثرك يتعقبونك ليهتدوا إلى مكانى .

— فماذا نفعل ؟

— والله لا أدرى .

— أخرج مع غلام من غلمانى فإذا كان الملك راضيا عنك فسأرمى سهامى وآمر الغلام أن يلتقط السهام القريبة منه ، أما إذا كان الملك حاقدا عليك فآمر غلامى أن يلتقط السهام البعيدة عنه .

وانطلق داود يختبئ وذهب يوناثان التقى إلى القصر . ووافى ميعاد الوليمة فجلس الملك فى صدرها وجلس كل واحد فى مكانه وبقى مقعد داود خاليا . ومر اليوم الأول و لم يقل الملك شيئا . وجاء اليوم الثانى وجلس كل فى مكانه وبقى مقعد داود خاليا فقال الملك :

— أين داود ؟ غاب اليوم وغاب الأمس .

فقال يوناثان :

— التمس داود منى أن أسمح له بالذهاب إلى بيت لحم ليقدم إلى الرب قربانا ، وسألنى أن يذهب ليرى إخوته فأذنت له .

فغضب طالوت غضبا شديدا وصاح بابنه :

— يا أحمق ألا ترى أنه ما دام داود يمشى على وجه الأرض فلن تتربع يوما على عرشك . ابعث من يأتى به لأقتله .

— كيف تقتله و لم يفعل ما يوجب القتل ؟ حرام أن تهدر دما بريئا !

— إنى أقتله من أجلك .

— لا أرضى أن تسفك الدماء باسمى .

— عزيز علىّ أن أرى الملك يفلت من بين أصابعك وأنا أنظر لا أفعل شيئا .

— أين ذهبت حكمتك ؟! أنسيت أن الله يعطى الملك من يشاء ؟!

ـــ حكمتى تهيب بى أن أقتله ، إذا تربع على العرش فلن يتركك تمشى فى الأرض يوما . سيقتلك ويقتل أسرتك جميعا . فما كان لملك جديد أن يترك أحدا دون ذبح من أسرة من سبقه ، إنى سأقتله لأحييكم جميعا .

فقال يوناثان وهو يغادر المكان :

ـــ لن أسمح بذلك ما دام فىّ عرق ينبض .

وانقضت الليلة وبزغت الشمس تنشر أشعتها على الكون وخرج يوناثان يحمل قوسه وسهامه ومعه غلام صغير، وما إن بلغ مكان اختفاء داود حتى تناول القوس ووضع فيه السهام وأطلقها بعيدا وصاح بغلامه :

ـــ التقط السهام التى تجاوزتك ، أسرع ، اركض ، لا تقف .

وفهمها داود فخرج على حذر وانطلق وهو يترقب فالملك حاقد عليه يريد اغتياله . لقد أصبح طريد القانون فراح يحث الخطا هاربا بحياته .

١٦

أصبح داود طريد القانون ، إنه عرضة للقبض عليه وتنفيذ القتل فيه فى أية لحظة ، ومن يبدى له الصداقة يعرض نفسه للمهالك.واستمر فى فراره حتى وصل إلى نوب مدينة الكهان ودخل على أخيالك الكاهن ، فاضطـرب الكاهن لما رأى داود دخل عليه وحيدا فما اعتاد أن يراه إلا فى جنده وأبهته ، وأوجس خيفة فقال له فى ريب :

ــ لماذا أنت وحدك ؟

فقال داود فى همس كأنما يفضى إلى الكاهن بسر :

ــ أمرنى الملك أمرا وأوصانى ألا يعلم به أحد ، لذلك خرجت وحدى حتى لا يفطن أحد إلى خروجى .

وتلفت داود ثم قال :

ــ أيمكنك أن تمدنى بطعام ؟

ــ ليس عندى إلا الخبز المقدس .

وقدم له الخبز فلما تناوله منه قال :

ــ أيمكنك أن تمدنى بسلاح لأنى خرجت على عجل دون سيف أو رمح ؟

فقال كاهن نوب :

ــ ليس عندى إلا سيف جالوت الذى قتلته ، فإن رأيت أن تأخذه فخذه .

ــ علىّ به ، إنه سيف بتار .

وخرج داود لينضم إلى أهله وما درى أن أحد خدم طالوت كان فى المعبد

يسترق السمع ويعد عليه حركاته وسكناته .

وتقاطر الرجال على داود حتى اشتد ساعده واحتمى بالجبال ، فلما بلغ طالوت خروج الرجال إلى غريمه وقف فى رجاله وقال لهم :

— ما لقلوبكم قد تغيرت علىّ ؟ وما بالكم تخفون عنى أن ابنى قد تعاقد مع داود ؟ وما بال أفئدتكم قد تحجرت ؟ أيمنحكم داود جميعا حقولا وكروما وينصبكم رؤساء على الجند ؟ ماذا فعل لكم داود حتى أصبحت قلوبكم معه ؟

فتقدم الخادم الذى رآه فى المعبد وقال فى هدوء :

— رأيت داود فى نوب يتحدث مع أخيالك ، وقد أعطاه الكاهن مئونة وسيف جالوت .

فبعث الملك من يحضر له أخيالك وجميع أهل بيته ، فلما مثلوا أمامه قال الملك للكاهن فى غضب :

— ما الذى جعلك تتآمر علىّ وتتحالف مع عدوى ؟

— حاشاى أن أفعل ذلك يا مولاى .

— منحت داود طعاما وأعطيته سيفا ونفحته ببركاتك .

— إننى أعرف داود أكثر رعاياك إخلاصا لك ! إنه زوج ابنتك .

— إنه عدوى .

— ما كنت أعرف يا مولاى شيئا من ذلك .

ولم يصغ طالوت إليه وقال فى غضب :

— فلتمت أنت وأهل بيتك .

وصاح طالوت فى خدمه :

— اقتلوا هؤلاء الذين تآمروا على الملك مع داود .

ووقف الخدم مشدوهين فما كانوا يظنون أن يقتل طالوت رهبان الرب ،

وفطن طالوت إلى ترددهم فصاح فيهم :

ــ اقتلوهم .

ولكن أحدا من الخدم لم يتقدم ، فصاح فى الخادم الذى أفشى سر داود :

ــ اقتلهم أنت .

وتقدم الرجل يقتل أخيالك وأهل بيته . و لم يشف ذلك الدم المسفوك غليل الملك فبعث جنوده إلى نوب مدينة الرهبان ليضربوا أهلها بالسيف ، فسقط الرجال والنساء والأطفال صرعى و لم ينج إلا غلام انطلق يخبر داود بما حل بنوب مدينة الرهبان .

وقبل أن يفعل داود شيئا ترامى إليه أن الفلسطينيين أغاروا على قعيلة الواقعة على الحدود بين أرض إسرائيل والفلسطينيين ، فأمر رجاله أن يتأهبوا للخروج للقتال فقال له رجاله :

ــ إنا ها هنا خائفون نترقب ، نخشى أن يهبط علينا طالوت وجنوده ، فكيف تريد أن نذهب إلى قتال الجبارين ؟

فقال داود لرجاله :

ــ سنخرج للقتال وسننتصر على أعداء إسرائيل .

فقال الرجال فى اضطراب :

ــ كيف نغادر الحصون لنذهب إلى مدينة لها أبواب وأسوار ؟

ــ أوحى إلّى أننا منتصرون .

وخرج داود وضرب أعداءه وساق أمامه الغنائم والأسلاب ، وبلغ طالوت أن داود ورجاله الثائرين دخلوا قعيلة فأيقن أنهم وقعوا فى يده فما أيسر أن يحاصرهم فى مدينة ذات أسوار وأبواب ، ولكنه ما إن بلغ قعيلة حتى ألفي داود ورجاله قد خرجوا منها هاربين .

كان داود ورجاله يسكنون الكهوف ففى ذات يوم خرج طالوت فى ثلاثة

آلاف رجل يطلب داود ، واستمر فى تنقيبه حتى بلغ الكهوف وأحس التعب يمشى فى أوصاله ، فدخل إلى كهف ونام .

وكان داود ورجاله فى ذلك الكهف فلما رأوا طالوت نائما قالوا لداود :

ـــ هذا هو طالوت قد ساقه الله إليك فقم فاقتله .

فقال داود فى إخلاص :

ـــ حاش أن أقتل رجلا اختاره الله ملكا لبنى إسرائيل .

وهم الرجال بالانقضاض على ملكهم فقال لهم زاجرا :

ـــ حذار أن يمسه أحدكم بسوء .

وسار داود على حذر حتى إذا اقترب من طالوت الغارق فى سباته قطع طرف جبته ، ثم عاد إلى مكانه ينتظر استيقاظ الملك . وقام طالوت من رقاده وانطلق صوب باب الكهف ، وما إن خرج منه حتى مس أذنيه صوت يناديه :

ـــ مولاى .

ـــ هذا صوت داود ، أأنت داود ؟

ـــ نعم أنا داود يا مولاى ، لماذا تلقى السمع إلى من يوسوسون لك أننى عدوك ، وأننى أريد لك الأذى ؟ انظر إلى طرف جبتك ، لقد قطعته وأنت نائم لأدلك على ولائى ، فما كنت أقتل ملكا اختاره الله ، إنى أتركك وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

فانهمرت دموع طالوت وقال :

ـــ أنت أبر منى يا داود ، ظفرت بى وعفوت . إنى أسأت إليك يا ولدى وقتلت رهبان الدير دون ذنب . سأبتهل إلى الله وأدعوه عله أن يغفر لى ذنبى .

ووقع فى قلب طالوت التوبة وأقبل على البكاء ، وكان كل ليلة يخرج وينادى :

— أريد عالما عابدا يعلمنى كيف أتوب إلى الله !!

فقال له قائل :

— هل تدرى ما مثلك ؟ إن مثلك مثل ملك نزل قرية فغربت الشمس وصاح ديك فتطير منه فقال : لا تتركوا فى القرية ديكا إلا ذبحتموه . ونفذوا أمره وعندما أراد أن ينام قال : إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج . فقالوا له : وهل تركت ديكا يسمع صوته ؟ وأنت هل تركت عالما فى الأرض تسأله هل لك من توبة ؟

وخرجت جحافل الفلسطينيين لقتال إسرائيل وتأهب طالوت وجنوده للحرب ، ودارت المعركة رهيبة قاسية وأخذ طالوت يقاتل فى حرارة ليكفر عن ذنبه فقد كان متأهبا للاستشهاد لعل الله يغفر له دماء الرهبان الزكية التى سالت كالأنهار فى نوب .

وانخلعت قلوب بنى إسرائيل أمام هجوم الفلسطينيين الرهيب فولوا مدبرين ، وثبت طالوت وأبناؤه للقتال ، وراح يوناثان يحارب فى قوة وبأس يذب عن أبيه :

— وسقط يوناثان صريعا فأحس طالوت كأن خناجر تمزق فؤاده ، وسقط أبناؤه حوله يخبطون فى دمائهم فراح يئن كوحش جريح ، وأصابه سهم فى عنقه فأرداه .

وجاء الكنعانيون يسلبون القتلى فوجدوا طالوت صريعا فحزوا رأسه ونزعوا سلاحه وراحوا يطوفون بالرأس فى الأسواق وهم يتصايحون فرحا ، وفى ذلك الوقت كان رجل من بنى إسرائيل يفر مرعوبا كأنما يقتفى أثره الشياطين . .

وأقبل الرجل وقد شق ثيابه وراح يحثو التراب على رأسه فهرع داود إليه وقال :

ـــ من أين أنت آت ؟

ـــ من عسكر إسرائيل .

ـــ كيف خلفتهم ؟

ـــ فر الناس من المعركة مهزومين ، وقد سقط الرجال قتلى ، وصرع طالوت وابنه يوناثان .

وشعر داود بالحزن يعتصره وفاضت فى نفسه مشاعر الحب للملك ولابنه يوناثان الصديق ، فراح يندبهما فى صوت حزين :

ـــ مجدك يا إسرائيل صريع على شوامخك .
كيف سقط الجبابرة ؟!
لا تذكروا هذا النبأ فى جت .
ولا تذيعوه فى شوارع أشكلون ،
لئلا تفرح الفلسطينيات ،
لئلا تشمت بنات الأجلاف .
يا جبال جليوع ،
لا تدعى الطل ولا المطر يتساقط عليك ،
ولا المراعى تنبت على سفوحك ،
لأن هناك ألقى مجن الجبابرة ،
مجن طالوت دون أن يمسح بالدهن المقدس .
إن الحبيبين طالوت ويوناثان لم يفترقا فى حياتهما ،
وها هو ذا الموت يجمع بينهما .
كانا أخف من النسور وأشد من الليوث .
يا بنات إسرائيل ابكين على طالوت بالدمع الهتون ،
طالوت الذى دثركن فى الديباج ،

وجعلكن ترفلن فى ثياب موشاة بالذهب .
كيف سقط الجبابرة فى وسط المعمعة ؟!
يا يوناثان ، إن خوفى عليك عميق يا يوناثان !
كنت لى حبيبا .
وكان حبك لى عجيبا !
كيف سقط الجبابرة .
وتكسرت أدوات القتال ؟

ونصب ابن طالوت ملكا على إسرائيل ، ومرت السنون وداود فى حبرون يحكم عشيرته ويقضى بين الناس ويتلقى وحى السماء ، ويمضى نهاره وليله يتعبد لله رب آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . ويجتهد فى عبادته . وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا .

وفى ذات يوم جاء الناعى يعى إليه ابن طالوت فعلم داود أن موعد تنصيبه ملكا على إسرائيل قد حان . وسرعان ما جاء أكابر بنى إسرائيل إليه يدعونه ليكون ملكا على كل الأرض ، ونودى بالنبى الكريم ملكا على إسرائيل ، ولما كانت حبرون لا تصلح لتكون عاصمة للمملكة كلها خرج داود وزوجاته ورجاله وجنوده وانطلقوا إلى حصن أورشليم .

وقسم داود الدهر ثلاثة أيام : يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوما يخلو فيه لنسائه .

وجاء يوم عبادته ودخل محرابه يمجد الله بصوته الذى تخشع له الأفئدة والطيور والوحوش فى الغاب ، وجاء رجلان يتلمسان مقابلته فقال لهما الحراس :

— إنه لا يستطيع أن يقابلكما اليوم لأنه فى يوم عبادته .

فانطلق الرجلان إلى السور وتسلقاه ودخلا على داود وهو غارق فى عبادته ، فما شعر إلا وهما جالسان بين يديه فخاف منهما فقالا له :

ــ لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط .

قال لهما :

ــ قصا علىّ قصتكما .

ــ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، وقد قهرنى وأخذ نعجتى وضمها إلى نعاجه .

كان داود يتلفت فى خوف فقال دون أن يسأل الخصم الآخر :

ــ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .

ــ يا داود ما هكذا يكون القضاء ، حكمت قبل أن تسمع طرفى الخصومة .

فنظر داود فلم ير شيئا فعرف أنهما ملكان أرسلا ليفهماه . وظن داود أنا فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب .

يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

وكان العماليق يغيرون على إسرائيل على الدوام فلم تنقطع إغارتهم عليها منذ أن خرجوا من مصر . لقد طرد الهكسوس من وادى النيل وبقى بنو إسرائيل للذل والهوان حتى خرج بهم موسى إلى التيه ، ثم قادهم فتاه يوشع بن نون لينزلوا أرض فلسطين .

كان العماليق يمقتون بنى إسرائيل فبعد أن منحوهم الحماية أيام سلطانهم على مصر لم يحفظوا لهم هذا الصنيع بل انضموا إلى المصريين وتخلوا عنهم ، فلما صار ملك بنى إسرائيل إلى داود خرج فى جيش جرار لقتال العماليق .

ودارت الحرب بين الجانبين حتى انكسر العماليق وانسحبوا إلى قلب الجزيرة ، فاقتفى داود أثرهم حتى دخل يثرب . وراح علماء بنى إسرائيل يتلفتون ، إنها أرض ذات نخل فلعلها تكون مهجر ذلك النبى الذى بشر به موسى ، وعادت إلى أذهانهم تلك الآيات التى أوحى الله بها إلى عبده كليم الله : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه ، فأكلمهم بكل ما أوصيه به » .

إن الله سيتلألأ من فاران ، من الأرض المقدسة التى أنزل إبراهيم بها هاجر وإسماعيل ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

ونزل بعض أحبار بنى إسرائيل فى يثرب ينتظرون ذلك الرسول النبى الأمى الذى سيبعث فى الأمم لا فى بنى إسرائيل . الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة .

١٧

كانت إسرائيل فى ذروة مجدها ، فنبى الله داود يحكم بين الناس بالحق ويحاول أن يذيب أسباط إسرائيل الاثنى عشر فى أمة واحدة موحدة ، وأن يقضى على العصبية القبلية بعد أن هزم أعداء بنى إسرائيل .

وكان داود على علم ببيت الله المحرم الذى كرم الله به بنى إسماعيل ، وكان يقدسه وينظر إليه نظرة إجلال ويتمنى أن يكون لبنى إسرائيل بيت مقدس فى أورشليم عوضا عن خيمة الرب التى شدت من جلود البقر ، ولكن استغراقه فى العبادة شغله عن أن يبنى الهيكل أو يقيم القواعد من البيت .

ورزق داود بسليمان ومرت السنون فكبر داود وشاخ ، وفى ذات يوم جلس للناس يحكم بينهم وكان سليمان حاضرا فجاء خصمان قال أحدهما :

ــ إن غنم هذا الرجل دخلت حقلى وأكلت ما فيه من الزرع .

فسأل داود صاحب الغنم :

ــ هل فعلت غنمك هذا ؟ .

ــ نعم .

ــ يأخذ صاحب الحقل هذه الغنم مقابل زرعه الذى فسد .

كان سليمان فى الثانية عشرة من عمره فالتفت إلى أبيه وقال :

ــ غير هذا يا نبى الله .

ــ ماذا ترى يا سليمان ؟

ــ يأخذ صاحب الغنم الحقل ليصلحه ، ويأخذ صاحب الحقل الغنم لينتفع بلبنها ونتاجها ، حتى إذا عاد الحقل كما كان أخذ صاحب الحقل حقله

وأخذ صاحب الغنم غنمه .

وتهللت أسارير داود لحكمة ابنه وقضى بما قال ، ولما انقضى مجلسه ودخل إلى أهله وأقبلت زوجه إليه أخبرها أنه سينصب ابنها سليمان ملكا من بعده .

وظن أدونيا بن داود أنه وارث العرش بعد أبيه ، فجهز عجلات وفرسانا ورجالا يجرون أمامه ، ورأى أن أباه شاخ و لم يعد يصلح للملك فعزم على أن ينادى بنفسه ملكا على إسرائيل ، فأعد وليمة فاخرة دعا إليها جميع إخوته ما عدا سليمان ودعا خدام الملك ليبايعوه بالملك فى ذلك الحفل .

ودخل حكيم من حكماء القصر على أم سليمان وقال لها :

ــ دعا أدونيا إخوته إلى وليمة لينصب نفسه ملكا على إسرائيل دون أن يعلم داود . ادخلى إلى داود الآن وقولى له : أما وعدتنى أن يكون سليمان ملكا من بعدك ؟ فما الذى جعل أدونيا يطلب الملك لنفسه ؟ وفيما أنت تحادثين الملك أدخل أنا لأشد أزرك .

ودخلت أم سليمان على داود وقالت له :

ــ وعدتنى أن يخلفك ابنى سليمان على عرشك ، ولكن ها هو ذا أدونيا يذبح الذبائح ويمد الموائد ويدعو جميع إخوته ليبايعوه بالملك دون علمك ، فماذا أنت فاعل ؟

ودخل حكيم القصر وقال :

ــ أأنت أمرت أن يكون أدونيا ملكا من بعدك ؟

فقال داود :

ــ ادع لى رجالى .

ودخل رجال داود المخلصون فقال لهم :

ــ أركبوا سليمان على بغلتى وانفخوا فى الأبواق واهتفوا : يحيا الملك

سليمان ، لقد نصبته ملكا على إسرائيل .

وركب سليمان بغلة داود ونفخ فى الأبواق ، فجاء الناس من كل فج عميق يهتفون بحياة الملك الجديد .

وصكت الهتافات آذان من دعاهم أدونيا إلى الوليمة التى جهزها لينادى بنفسه ملكا على إسرائيل فارتعدت فرائصهم وانتشر الخوف فى جوانحهم فتفرقوا ذعرا ، ودبت الرهبة فى قلب أدونيا وخشى أن يفتك سليمان به ففر إلى خيمة الرب وقال :

— لن أبرح حتى يأتينى الأمان من أخى .

وأمنه سليمان فوفد عليه يعرض ولاءه ، وتربع سليمان على عرش أبيه فخر داود ساجدا فى فراشه وقال :

— لك الحمد يارب على ما أوليتنى من نعم ، إلٰهى اغفر لى عجزى لأن بيانى قصر عن أن يفصح عما يجيش به صدرى . لك الحمد يارب إذ وهبت لى اليوم من يجلس على عرشى وعيناى تبصران .

وراح سليمان يقنع أسباط بنى إسرائيل بنبذ الشقاق وهجر الحروب وبذل الجهود فى الصناعة والتجارة ، فأنشأ صلات ودية مع حيرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم إلى أورشليم . فازدهرت عمليات استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية .

ووطد أواصر الصداقة مع قبائل بنى إسماعيل التى انتشرت على طريق القوافل ، ومع العرب الذين التفوا حول البيت المحرم ، وراح يستخرج من جزيرة العرب الذهب والحجارة الكريمة .

وآمن سليمان بعدم جدوى الحروب إذ كان رجل سلام وإن كان على استعداد لامتشاق الحسام ، فتزوج ابنة فرعون مصر ليقوم السلام مكان الصدام بين مملكته ومملكة الفراعين .

وراح يحاول أن يقضى على النزعة الانفصالية بين قبائل الأسباط الاثنتى عشرة وأن يؤلف منها شعبا واحدا ، ولكنه أخفق فقد كانت النعرة القومية متأصلة فيهم ، وكانت كل قبيلة تعتقد أنها أشرف مما عداها من القبائل وإن كانوا جميعا ينتسبون ليعقوب ، وإن كان البشر كلهم لآدم وآدم من تراب !

وخرجت البعثات لاستخراج المعادن ولاستيراد العاج والقردة والطواويس لتباع للأثرياء المحدثين بأثمان باهظة ، واحتكر تجارة الخيوط والخيل والمركبات ، وفرض الزكاة على الأغنياء والقادرين ، وكان يعشر القوافل المارة بفلسطين ، فتكدست الأموال فى بيت المال وامتلأت أورشليم بالفضة وكادت تكون فى عداد الحجارة والحصى .

واستولت على لبه فكرة إقامة هيكل الله فى أورشليم بعد أن ضرب فى قلب صحراء جزيرة العرب وحج أول بيت وضع للناس ، فعزم على إقامة بيت الله ، وما فكر فى أن ينافس البيت العتيق أو الكعبة المقدسة بل أراد أن يجمع خيام الرب التى انتشرت فى قبائل الأسباط الاثنتى عشرة فى هيكل واحد ليوحد قبلة بنى إسرائيل كما توحدت قبلة بنى إسماعيل .

وجمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن عن عزمه على تشييد هيكل لله فهب الأغنياء يتبرعون ، وجاء الصناع من كل أنحاء بنى إسرائيل ليكون لهم شرف العمل فى بيت الله .

واستمر العمل فى بناء الهيكل سبع سنين ، ثم واصل مهرة العمال الذين جاءوا من صيدا وصور العمل ثلاثة عشر عاما لبناء الصرح ليكون مقرا للملك سليمان الحكيم .

وصار الهيكل مركزا روحيا لبنى إسرائيل وعاصمة لملكهم فنشأت الوحدة السياسية ، وراح الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وعاد الناس لعبادة الله وحده رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وداود ،

ونبذوا عبادة العجل والحية وبعل وتموز وعشتار وآلهة الوثنيين فى بابل وسورية ومصر .

وفى ذلك الوقت كان الناس فى اليمن فى ضنك كبير يتنفسون فى حذر ويتلفتون فى ذعر ويتهامسون فى خوف ، فقد هجرت الطمأنينة سبأ بعد أن سادها الطغيان ونزل بها الرعب والفزع ، فزلة لسان أو إشارة امتعاض أو غمغمة استياء كافية لإطاحة الرءوس ، فالذى استلب الملك من ملكهم طاغية قُدَّ قلبه من الصخر . كان قاسيا لا يعرف الرحمة فأذاق الشعب صنوف العذاب وسقاه الذل وجرعه الهوان ، إنه يلغ فى الدماء ولوغا وتستريح نفسه لأنات الألم وتأوهات الشقاء .

وخيم على سبأ سحائب داكنة من الذل والخنوع ، وأحست بلقيس ما يقاسى الناس من كرب بعد موت أبيها فتألمت وزاد أساها على مر الأيام فانقلب حقدا على الطاغية الغشوم ، فما كان الشعب الوديع يستحق كل ذلك الاضطهاد .

أطرقت مهمومة تفكر فيما تفعله لذلك الشعب الذى رماه سوء حظه بحاكم مستبد ظالم لا يطاق ، فالتمعت فى رأسها فكرة فبيتت العزم على إنفاذها لعلها تريح الناس من ذلك الطاغية الجائر ، وتعيد إلى القلوب الطمأنينة وإلى سبأ العظيمة الأمن والاستقرار .

تزينت وأرخت شعرها السبط الناعم الأسود فتهدل رائعا ، وتحلت بأفخر اللآلئ وأكرم المعادن ، وأبرزت الفتنة فكانت آية من آيات الحسن والجمال ، ثم انطلقت إلى قصر الطاغية تسبى العقول وتلعب بالأفئدة وتأخذ بالألباب .

ودخلت على الملك فلان القلب القاسى فخفق خفقات ورنا إليها فى حنان وانفرجت شفتاه عن ابتسامة كشفت عن إعجابه وافتتانه ؛ ودنت منه فأجلسها إلى جواره وأقبل عليها يحدثها فى اشتياق فحدثته فى لين ونظرت إليه

فى دلال فهفت نفسه إليها ، وما فارقته حتى كان أسير وجهها المشرق وعينها الناعمة وقدها المياس .

وترادفت زياراتها للملك فهام بها حبا ، فكان إذا خلا بنفسه يشاغله طيفها فتلوح له فى جاذبيتها وفتنتها فيخفق قلبه ويطرق ليستعيد حديثها فيحس سعادة ، كان حديثها يدغدغ حواسه وطلعتها تزلزل كيانه ونظرة منها تغمره بالنشوة ، فعزم على أن يتزوجها لتشاركه ملكه وتملأ قصره أنسا وسرورا .

وأوفد إليها رسله فاستجابت لطلبه ، وأقيمت فى سبأ الأفراح وتأهب القصر لاستقبال بلقيس الأميرة الجميلة ابنة الملك الراحل المحبوب .

ووفدت بلقيس فى ثياب العرس فكانت أروع من الزهر وأندى من الفجر وأحلى من الربيع ، فهرع إليها الملك وفى صدره لهفة وفى عينيه حب وانطلقا إلى صدر المكان لتجرى المراسيم .

وانفضت الحفلات فنهض الزوجان إلى غرفتهما وانصرف المدعوون وساد القصر هدوء ، ورنا الملك إلى بلقيس الجميلة فتحركت مشاعره وهم بالدنو منها ، فقدمت إليه كأس خمر فتجرعها فانتشت روحه ، واقترب منها فقدمت له كأسا أخرى فعبها ، وراحت تقدم له الكئوس حتى سكر فزحف إليها وهو مخمور وفتح ذراعيه ليضم إلى صدره عروسه الحسناء ، فأقبلت إليه واستلت من صدرها خنجرا أغمدته فى صدره ، فارتمى على سريره غارقا فى دمائه يعانى سكرات الموت ويلفظ آخر الأنفاس .

وسارت بلقيس فى ردهات القصر ثابتة الخطو حتى إذا بلغت العرش ألفت أعوانها يرصدون قدومها فى قلق ، فألقت إليهم برأس الطاغية واتجهت إلى سرير الملك وجلست شامخة ، فانطلق أعوانها خفافا ليزفوا إلى الشعب النبأ العظيم ، نبأ تخليص سبأ من سلطان الجور واعتلاء بلقيس عرش البلاد .

وذهبت بلقيس إلى معبد الموقاة إلٰه القمر وقدمت القرابين ، ثم انطلقت إلى

معبد ذات حميم إلـٰهة الشمس وسجدت لها شكرا أن أيدتها ومكنتها من الطاغية الذى قتل أباها واستبد بالشعب .

ومرت سبع سنين وبلقيس تحكم شعبها من قصرها فى صرواح ، تبعث قوافل الطيب واللبان إلى إسرائيل وسورية ومصر وتعود تلك القوافل بخيرات البلاد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون القمر والشمس وعشتار فقد كانوا قوما يعبدون النجوم والكواكب ككل العرب الذين لم يعتنقوا ملة إبراهيم أو الذين ارتدوا عن دين التوحيد .

ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال :

— يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين .

وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة :

— يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون .

فتبسم ضاحكا من قولها وقال :

— رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

وتفقد الطير فقال :

— ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين .

فمكث غير بعيد فقال :

— أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة

تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إلـه إلا هو رب العرش العظيم .

قال :

— سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .

قالت :

— يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين .

قالت :

— يأيها الملأ أفتونى فى أمرى . ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .

قالوا :

— نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين .

قالت :

— إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون .

فلما جاءوا سليمان قال :

— أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

قال :

— يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟

قال عفريت من الجن :

ـــ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين .

قال الذى عنده علم من الكتاب :

ـــ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ..

فلما رآه مستقرا عنده قال :

ـــ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم .

قال :

ـــ نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون .

فلما جاءت قيل :

ـــ أهكذا عرشك ؟

قالت :

ـــ كأنه هو .

وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها :

ـــ ادخلى الصرح .

فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال :

ـــ إنه صرح ممرد من قوارير .

قالت :

ـــ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون خبير . ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزع منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير .

يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين .

١٨

انقضت أيام داود وسليمان وكانا من سبط يهوذا ، ففتنت هذه المرحلة الفذة سبط يهوذا فتملكهم الغرور واعتبروا ذلك السمو الروحى الذى بلغته مملكة إسرائيل فى عهد داود وسليمان امتيازا منحه الله لهم وحدهم دون سائر البشر ، فزعموا أن اليهود من كان جدهم يهوذا بن يعقوب هم شعب الله المختار ، أما أبناء الأسباط الأحد عشر الأخر فهم كالأمم سواء بسواء .

زعموا أن النعمة الموروثة لليهود وحدهم فعبدوا ذواتهم وإن حسبوا أنهم يعبدون الله رب الناس ، ملك الناس جميعا ، لا فرق عنده بين من جاءوا من سبط يهوذا أو من سبط لاوى أو من سبط إسماعيل ، فهو رب العالمين . قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

وصارت سماحة دين إبراهيم تعصبا مقيتا ، وأصبح إلـٰه الناس إلـٰه إسرائيل ، بل إلـٰه اليهود وحدهم ثم صار إسرائيل نفسه . فقد راحوا يقولون فى صلاتهم : اسمع يا إسرائيل ! وقد انحرف بهم ذلك الغرور إلى العقم الفكرى بعد أن ورثوا مع أبناء إسماعيل النفحة الروحية العظيمة وكنز الوجود ، وانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل ، وعكف أحبار اليهود على التوراة يفسرونها على هواهم فى تنطع وتعصب وضيق أفق فأفسدوا توراة الله « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وقبل أن تنقسم مملكة إسرائيل إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل كانت مملكة

آشور تتكون فى شمال العراق . فقد كان هناك شعب مقاتل يعبد آشور الإلـٰه العظيم من يحكم الآلهة جميعا ، وقد وحد شلمنصر الأول دولة آشور قبل أن يستولى بنو إسرائيل على أرض كنعان ، ووسع تفلت فلاصر الأول هذه الدولة الناشئة قبل أن يصبح طالوت ملكا . وبعد أن مات سليمان وانقسمت دولة إسرائيل صار آشور ناصر بال الثانى ملكا يحكم بابل وآشور من قصره فى عاصمة ملكه نينوى .

فأصبح آشور أبا الآلهة وسيد الأقطار وسين العاقل سيد التاج الممجد فى فخاره ، شماش قاضى السماء والأرض الذى يمحق العدو ويساعد العدالة .

صار آشور كل شيء فى حياة الآشوريين لا يفعل شيء إلا باسمه ، ولا يدور القتال وتنشب المعارك وتذل البلاد إلا لمجده ، ما من ملك من ملوك آشور إلا يقدم عقب عودته من القتال تقريرا عما كان من الخسائر التى تكبدها العدو إرضاء لآشور البطل الذى يحط الأشرار وينصر المؤمنين !

كانت آشور تعترف اعترافا صريحا بأن الحكم هو تأميم القوة ، أن تكون الجيوش وموارد الدولة فى قبضة الحاكم يوجهها حيث يشاء آشور ، فشب الشعب الآشورى شعبا مقاتلا استغل عبقريته فى تطوير فن الحرب ، فنظم فرق المركبات والفرسان والمشاة والمهندسين الذين يقوضون أبنية أعداء آشور ، وطوروا آلات الحصار وعرفوا أهمية الانقضاض السريع على الأعداء ، وتقدمت عندهم صناعة الحديد فألبسوا الجنود حللا حديدية سابغة .

وكانت أبواب المدينة وأبواب القصر الآشورى فى حراسة ثيران مجنحة لها رءوس آدمية من البازلت الأسود ، فقد كان الثور المجنح فى آشور روحا خيرا تحرس أبواب المدينة المقدسة وقصر الملك الذى وهب روحه لإلـٰهه خالق الناس ، وكانت الأجنحة رمزا لمسارعة الإلـٰه لفعل الخيرات .

وما كان فى قصور ملوك آشور ما يوحى بالخير فالجدران مزينة بصور المعارك الحربية والاحتفالات التى تجرى عقب أن يكتب آشور النصر لشعبه على أعدائه . إنها مناظر بشعة تنبض بالوحشية : سهام تتطاير لتستقر فى القلوب ، وبطون تبقر ونسور تنقض من السماء تنهش جثث القتلى .

* * *

سار الملك شلمنصر الثالث فى ردهات القصر على رأسه التاج على هيئة مخروط ناقص تعلوه شوكة يربطه شريط تدلى أطرافه على كتفيه ، وكان الملك يرتدى قميصا مزركشا له أهداب وينتعل نعلا لا يغطى إلا عقبيه وفى أذنيه حلقات كبيرة ويتقلد عقودا من التمائم ويلف فوق ساعديه أساور وتتدلى من منطقته أساور وسيوف .

وانطلق إلى المعبد وخر ساجدا لآشور وكان له إلـٰه حرب تسلح بقوس وسدد سهمه إلى قرص مجنح ، وكانت زوجته بعليت ، عشتار الآشورية إلى جواره ، وهى محاربة كذلك وبطلة قتال لا تبقى ولا تذر على أحد من أعداء آشور .

كانت بعليت تحمل جعبتى سهام إحداهما على الكتف اليمنى والأخرى على الكتف اليسرى ، وفى إحدى يديها قوس واستلت باليد الأخرى سيفا مرهفامنذرة بالويل والثبور لأعداء آشور . وانتشرت عن يمين وشمال آشور وبعليت تماثيل سين وشماش وأدد وبعل ومردوخ والآلهة الأخرى .

وأتم شلمنصر صلاته وذهب ليستوى على عرشه ، فكان أول ما فعله أن راح يقرأ فى إعجاب ما سجله سلفه تجلات بلاسر الأول على أسطوانة من أسطوانات قاعة العرش :

ــ إن آشور والآلهة العظام الذين جعلوا ملكى عظيما منحونى القوة والنفوذ وأمرونى أن أمد حدود أراضيهم ، وقد وضعوا فى يدى أسلحتهم

القوية التى تعصف بأعدائهم .

لقد هزمت الأراضى والجبال والمدن والأمراء أعداء آشور وأخضعت بلادهم ، وحاربت بشجاعة ستين ملكا وانتصرت عليهم نصرا مؤزرا ، ولم يكن هناك من هو كفء لى فى المعركة .

وانتقل شلمنصر الثالث إلى أسطوانة أخرى وراح يقرأ ما سجله ملك آخر من أسلافه فاشتعلت فى نفسه الرغبة فى الغزو والقتال وعربدت فى جنباته شهوة أن يسجل أعماله المجيدة فى سبيل آشور على أسطوانة من أسطوانات قصره ، وراح يحلم بذلك اليوم الذى يقدم فيه إلى إلٰهه تقريره عن غزواته فى سورية وفى أرض الفراعين .

وجلس على عرشه وراح يجرى وراء خياله فرأى نفسه على رأس جيشه فى عربة القتال والنسور تحلق فوقه ، يطأ بقدميه قبائل بنى إسماعيل يفتك برجالهم ويسبى نساءهم ويبيح لجنوده أن ينهبوا مخازن غلالهم .

تهللت أساريره والتمعت فى عينه القسوة ، فيا ويل بنى إسماعيل يوم ينقض عليهم انقضاض الصواعق المزمجرة ، ويا ويل دمشق وملكها ، ويا ويل بنى إسرائيل فلن يكتفى بتمزيقهم وتشتيت شملهم بل سيأسر آلهتهم ويلقى بها تحت أقدام آشور .

واستولى عليه الانفعال فراح ينمق الكلمات التى سيرفع بها تقريره إلى مولاه نبأ فوزه المبين يوم ينصره آشور على أعدائه :

— آشور السيد العظيم .

من له الحكم على الآلهة جميعا .

من يعطى التاج والصولجان .

من يثبت دعائم الملكية .

عشتار الأولى بين الآلهة .

سيدة الصراع من تخوض أعنف المعارك فتكلل بالنصر .
يأيتها الآلهة العظام ، يا من تحكمون السماء والأرض .
يا من عظمتم ملكية شلمنصر الأمير المحبوب ، من له الحظوة فى قلوبكم .
البطل الرائع الذى اصطفيتموه وتوجتموه ورسمتم إلى الأبـد مصيره الملكى .
لقد جاء اليوم الذى سطع نوره وقضى بتأييدكم على أعداء آشور .

قتلت بسيفى خمسين من المحاربين ، وألقيت فى النار ثلاثمائة أسير ، واستوليت على خزائن الذهب والفضة ، وسقت أمامى إلى معابدكم المقدسة الإبل والماشية والغنم والعبيد .

وبترت أيدى كثير من أعدائكم ، وجدعت آناف آخرين ، وصلمت آذانهم وفقأت عيونهم وأحبطت أعمالهم وتركت مدنهم طعمة للنيران .

وشخص بصره إلى السماء وقال :

ــ أى آشور العظيم ، سأفعل ما أوحيت إلىّ ، سأفعل ما لم يفعله ملك من قبلى حتى ترضى ، فلا تخزنى وانصرنى على أعداء آشور .

واستولت على لبه فكرة غزو قبائل الإسماعيليين والقضاء على ملك دمشق وملك بنى إسرائيل ، وامتدت أحلامه فأخذ يفكر فى الاستيلاء على مصر ، وإنه ليوم من أعظم أيام التاريخ يوم ينتصر آشور على اللات إلـٰهة العرب ويهوذا إلـٰه بنى إسرائيل وآمون إلـٰه المصريين ، وجاء شهر تموز شهر تجمع الجيوش كما كتب ذلك إلـٰه العلم الآشورى على عباده فقد فرض عليهم القتال فى ذلك الشهر ، فبعث شلمنصر إلى العرافين وطلب منهم أن يستشيروا الآلهة فى حملته على بنى إسماعيل والسوريين .

وعكف العرافون على أمعاء الذبائح ينظرون فيها ليروا ما سجل آشور فى لوح القدر بعد أن اغتسلوا وأطلقوا البخور وقدموا القرابين ، ونام بعضهم

بعد أن اجتهدوا فى صلواتهم وابتهلوا إلى الآلهة أن تلقى فى صدورهم رغباتهم فى الأحلام ، وسهر آخرون ينظرون فى النجوم .

وجاء العرافون إلى شلمنصر وقد تهللوا بالنبأ العظيم وقالوا :

ـــ إن السيد الكريم آشور المبجل يأمر مولانا بالخروج ، فسر على بركة آشور .

وجاء « التورتان » وهو أكبر موظفى البلاط ، وجاء كبار القواد إلى حيث جلس الملك يرسم خطط الغزو ، وراحوا يقرءون تقارير العيون المنبثة فى سورية فى أمل ، فقد كانت التقارير جميعها متفائلة تؤكد نجاح الحملة وانتصار آشور .

وتأهب الجيش للخروج من نينوى وكان جيشا من أحدث الجيوش ، كان المشاة مزودين بمعاول من البرونز ومسلحين بالأقواس والرماح وغطيت صدورهم بالدروع وهى قشور محارية مروحية الشكل تلبس فوق الدثر ، وعلى رءوسهم خوذات مخروطية تتدلى منها صفائح جانبية لحماية الأذنين .

أما حملة الأقواس فقد علقوا الجعب على ظهورهم وتألقت أعينهم بالبريق كأنهم الصقور .

وجاءت عربات القتال وأخذت مكان الصدارة من الجيش ، وكانت العربة صندوقا فوق عجلتين ضخمتين عاليتين . وفى مؤخرة الجيش كانت الإبل تحمل المؤن والماء .

وهاج الجنود وماجوا وارتفعت ضحكاتهم ونداءاتهم وتجاوبت الساحة بأصواتهم ، وسرعان ما سرى همس فى الجيش ، الملك .. الملك ، فاستقرت الألسنة وحبست الأنفاس .

وجاء الملك فى عربته ووقف خلفه جنديان يحملان علمين ، وكان معه فى العربة أحد الخصيان ليقود العربة إذا رأى الملك أن يستريح . وجاء القواد فى

عرباتهم خلف الملك صفا صفا ، وراحت النسور تحوم فوق رأس الملك وجيشه وكانت نسورا مدربة تنهش جثث الجرحى والقتلى ، وكان عبثها بالجثث أشد فتكا من الرماح والسهام والسيوف .

ونفخ فى الصور فانطلق جيش آشور كجراد منتشر على رأسه شلمنصر الثالث إلى أرض بنى إسماعيل وأرض سورية ومملكة إسرائيل التى انقسمت إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا ، لتكون كلمة آشور هى العليا ولتذل آلهة العرب والكنعانيين والآراميين والعموريين وبنى إسرائيل ، ذلك هو الخزى العظيم .

١٩

قابل جندب ملك العرب الشماليين رسول بنهدد الثانى ملك دمشق وألقى إليه سمعه . لقد جاء الرسول يدعوه ليدخل فى حلف الأخلامو حلف الرفاق ، لوقف توسع الآشوريين الطامعين فى المنطقة ، فسرعان ما استجاب للدعوة فقد كانت ممالك بنى إسماعيل التى تكونت بين بادية العراق والطور تمقت الآشوريين أشد المقت لما اشتهر عنهم من القسوة وغلظ القلوب .

كانت العلاقات طيبة بين بنى إسماعيل فى الشمال وبين جيرانهم ، فالصلات متوطدة بينهم وبين الآراميين وبينهم وبين بنى إسرائيل ، ولكن البغضاء تملأ أفئدتهم لآشور فكانوا على استعداد ليمدوا أيديهم لكل مناوئ لهؤلاء المستبدين .

كان بنو إسماعيل يتعشقون الحرية وكانوا يفضلون أن يجودوا بدمائهم على أن يخضعوا لسلطان دولة من الدول أو لطاغية مفتون ، ولما كانت أطماع الآشوريين تهدد حريتهم فقد رحب جندب بدعوة بنهدد ودخل فى حلف الأخلامو وهو مستريح الضمير .

وانطلق رسول بنهدد إلى أورشليم وقابل آخاب ملك إسرائيل بعد أن خرج من هيكل سليمان يتلفت ، فقد صلى أخاب صلاة حارة لإلـٰهه يهوذا ، بيد أن السكينة لم تنزل قلبه والطمأنينة لم تعرف طريقها إلى نفسه بل ذهبت شعاعا فقد كان مشغول البال حائرا قلقا .

ودعا رسول بنهدد آخاب إلى الدخول فى حلف الرفاق فلم يسارع أخاب لاستجابة الدعوة ، فقد كانت العداوة على أشدها بين الآراميين وبنى إسرائيل

منذ أن قامت الحروب بين الدولتين واستولى داود على دمشق إلى حين .

وراح آخاب يفكر فى العماليق وكان يعرف مقتهم لدولة إسرائيل ، فقد غزوا مملكة إسرائيل فى عهد داود وتغلغلوا فيها حتى وضعوا أيديهم على عسلوج . فإن كان داود نجح فى أن يطرد العماليق بعد ذلك من أرض إسرائيل ويتعقبهم حتى يثرب فقد دالت مملكة داود وابنه سليمان وانقسمت إسرائيل إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا وصار بنو إسرائيل يخشون أن يتخطفهم الناس ، فكل من حولهم من الشعوب يرون أنهم وافدون على البلاد وأنهم اغتصبوا الأرض من الكنعانيين . وزاد فى مقت الناس لهم تلك الدعوة التى اعتنقها من جاءوا من سبط يهوذا بعد أن صار الملك فى داود وسليمان وكانا من ذلك الفرع ، بأنهم وحدهم الناس ومن عداهم أميون محرومون من رحمة الله !

وفكر فى ملك حماه حكام المدن الفينيقية ، فرأى أنهم يرحبون جميعا بدعوة من ملك دمشق ليصدوا تيار الآشوريين ، واهتدى إلى أنه لن يستطيع أن يتخلف عن تلبية هذه الدعوة وإن كتب له النصر على الآشوريين .

كان جيش شلمنصر قد خرج من نينوى يحمل معه إلٰه آشور ، وهو فى طريقه إليهم ولا قبل لهم به إذا لم يتحدوا ، فاستجاب آخاب لدعوة رسول بنهدد ومد يده إلى المتربصين به وبدولته ، فمن يدرى بماذا تجرى المقادير يوم يلتقى جيش اتحاد الرفاق بجيش الآشوريين .

ونجح بنهدد فى تكوين اتحاد الأخلامو من اثنى عشر ملكا ، وراح كل ملك يبعث بجنوده إلى الميدان فبلغ الجيش ستين ألف مقاتل ، وبعث جندب ملك العرب بألف جمل عليها رجال لكأنهم الرماح يطل من نصالها المنون .

وسار بنهدد على رأس جيش من الآراميين والفينيقيين وبنى إسماعيل وبنى إسرائيل وقد جمع الخطر المشترك بين الأعداء وإن ظلت قلوبهم متنافرة ، وانطلق جيش الرفاق إلى حلب يرقب جيش الآشوريين .

وجاءت العيون تنبئ أن شلمنصر يتقدم جيشه فى عربته الحربية وأنه يطوى إليهم الأرض طيا ، فخرج بنهدد لملاقاته وتراءى الجمعان عند قرقار شمالى حلب ، فضج عسكر آشور بالدعاء لإلـٰههم :

— أيها الإلـٰه الأعظم آشور !

يأيها الإلـٰه العطوف ،

يارب الأرباب وخالق السماء !

يا من منحك مردوخ السلطة منذ الأبد ،

يا من خلقت البشر ،

يا من أمرتنا أن نخضع الشعوب لسلطانك ،

فهيئنا لطاعتك لنخرج إلى القتال فى سبيلك ،

لنمد سلطانك على الشعوب ،

فأيدنا يا آشور بنصرك .

وأظهرنا على أعدائك أيها العطوف .

وفزع جنود اتحاد الأخلامو إلى السماء فراحوا يصلون ، وكان كل شعب منهم يبتهل إلى إلـٰهه ويدعوه أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، فراح بنو إسماعيل يسألون « الإيل » إلـٰه إبراهيم وإسماعيل أن يجعلهم الأعلين فقد كانوا يؤمنون بالله وبأنه وحده خالق الكون والمتصرف فى عباده ، فإن كانوا قد حملوا معهم أصنام اللات والعزى ومناة ، فما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى .

وارتفعت أصوات بنى إسماعيل :

— يا ربنا ، يا رءوف يا رحيم !

يا من خلق الخلق .

يا من تعلم ما نسر وما نعلن ،

يا من لا يحب المستكبرين ،

انصرنا على القوم الظالمين .

وانتهوا من الابتهال فارتفعت أصواتهم بالتلبية :

ــ لبيك اللهم لبيك ! لبيك وسعديك ! ما أحبنا إليك .

وراح بنو إسرائيل يستنصرون إلٰههم يهوذا على عدوهم وارتفعت أصواتهم بالصلاة :

ــ السمع يا إسرائيل !

وراح الآراميون والفينيقيون يبتهلون إلى بعل إلٰه الحرب ، من حاكمه الناس ظلما وقتلوه فقام من بين الأموات ليكون إلٰها فى السماء ، وطفقوا يدعونه لينصرهم على أعدائهم .

ودارت معركة رهيبة فى قرقار ، انطلق شلمنصر فى عربته الحربية ليشق صفوف جيش الاتحاد وطار فرسانه خلفه ، وإذا بالعرب من بنى إسماعيل الذين كانوا على ظهور إبلهم يخرجون لصد ذلك الهجوم ، وتراشق الجانبان بالسهام والنبال ، وشد الآراميون والفينيقيون والإسرائيليون أزر بنى إسماعيل وحمى وطيس القتال وارتفعت الصرخات والأنات وانتشرت على أرض المعركة جثث الآشوريين والعرب من إسماعيليين وآراميين وفينيقيين وإسرائيليين ، وانقضت النسور تبقر البطون وتنهش الجثث .

وشد الأخلامو على الآشوريين واستبسلوا فى النضال واستمات جنود آخاب فى القتال ، فقد كانوا أكثر المقاتلين خوفا من انتصار الآشوريين .

كان العبريون إذا انتصروا على عدوهم يضربون رقاب الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأخذون الأموال ويسوقون الأنعام إلى هيكل سليمان ، كانوا غلاظ الأكباد بيد أنهم كانوا يعلمون أن الآشوريين أشد منهم قسوة ، فلا غرو أن كانوا يرتجفون خشية أن تدور الدائرة عليهم وأن يحملوا إلى نينوى

للذل والعذاب .

واشتد القتال واختلطت الخيول بالجمال والتحم المشاة وتقارعت السيوف وغاصت الخناجر فى القلوب ومزقت الصدور وعاثت النسور فى الجثث وتكسرت النصال على النصال وثار النقع كالجبال ثم انتشر كالسحاب ، فاختفت فى جوفه أنات الجرحى ودماء القتلى وصرخات المفزوعين وكر الفرسان وانقلاب عربات القتال وصيحات القواد أن شدوا فقد لاح النصر يا رجال !

وانجلت المعركة دون أن يظهر فريق على فريق وإن كان شلمنصر يرغب فى الانسحاب ليلعق جراحه ، وإن كان جنود اتحاد الوفاق يتمنون أن يرفع الآشوريون أيديهم عنهم وأن تقف المعركة التى طحنتهم ، فقد نال منهم القتل والتعب والكلال .

وانسحب شلمنصر وفى قلبه عداء مرير لجندب وبنى إسماعيل وحقد هائل على آخاب وإسرائيل ومقت شديد لبنهدد الذى جمع الأخلامو ليقاوموا رغبة آشور العظيم ، وانطلق إلى نينوى وهو يتميز غيظا ليقدم تقريره عن الحرب التى دارت بينه وبين اتحاد الرفاق إلى إلٰهه الذى أمره أن يشن هذه الحرب الضروس ، وراح يواسى نفسه بأنه سيعود لقتال الأخلامو وسيحملهم أسرى إلى نينوى ليذبحهم تحت أقدام آشور العطوف .

وعاد جندب والذين معه من بنى إسماعيل إلى ممالكهم وقد علموا أن العداوة باتت سافرة بينهم وبين آشور . وأن الأيام تخبئ لهم كفاحا مريرا قاسيا إذا أرادوا أن يحافظوا على حرياتهم ، وإذا رغبوا فى أن يكون لممالكهم وجود فى الحياة .

٢٠

أراد شلمنصر الثالث أن يقلد جده شلمنصر الأول ، فيصيد الممالك كما كان يصيد الأسود ، وأن يذل مردوخ وبعل واللات وآمون لآشور العظيم ، ولكنه تكبد خسائر فادحة فى الأرواح وفى عدة القتال وعاد يجر أذيال الإخفاق وإن قتل فى وقعة واحدة ستة عشر ألفا من السوريين ، وفرض الجزية على المغلوبين يؤدونها عن يد وهم صاغرون .

كان تذمر الشعب والجيش فى نينوى قد تجاوز الهمس ، وبدا أن الخطر استفحل فقام ابنه تفلت فلاصر الثالث بالثورة عليه فانتزع الملك منه ، ولما كانت سمورامات أم الملك ذات نفوذ قوى فى البلاط فقد راحت تحكم دولة آشور .

ولم يكن من اليسير على الشعب أن يخضع لامرأة فراح رجالها يوهمون الشعب أن سمورامات من نسل الآلهة ، إنها نصف إلـٰهة ونصف ملكة وأنها تحكم شعبها بذلك الحق الإلـٰهى ، فصدق الناس ما بذره رجال القصر والكهنة فى صدورهم وأسلسوا لها قيادهم .

وراحت الأساطير تنسج حول سمورامات أنها قائدة باسلة ومهندسة بارعة وحاكمة محنكة مدبرة ، فصدق الناس كل ما قيل لهم ولا غرو فهى من نسل مقدس طاهر قادر على ما لا يطيقه البشر .

وماتت سمورامات ذات الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية بعد ثلاث سنوات من حكمها ولم يمت ما نسج حولها من أساطير ، بل نقلت أسطورتها قوافل التجارة مع ما نقلت من آلهة واستقرت فى اليونان لتصبح سمورامات أسطورة

سميراميس اليونانية .

وصار الملك تفلت فلاصر الثالث الحاكم باسم آشور العظيم فى مملكة آشور ، فراح يجمع الجيوش ليخضع لإلـٰهه العطوف آلهة الممالك المجاورة ، وكان يطمع فى إخضاع سورية وإسرائيل ومملكة يهوذا التى تكونت فى السامرة بعد أن انقسمت إسرائيل إلى مملكتين متنافستين متنابزين بالألقاب . يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

وراح بنو إسماعيل يتحصنون فى موقعهم فى طريق الجيوش ، فالطامعون فى مصر من الآشوريين والطامعون فى بلاد ما بين النهرين من المصريين لا بد أن يخضعوا العرب الشماليين لسلطانهم ليتقدموا فى أمان ويحققوا أطماعهم ، دون أن يخشوا وثبة هؤلاء العرب الذين يتعشقون الحرية ويشنون الغارة على الفرق الضاربة فى الصحراء ليسلبوا الجنود ويغنموا الجيوش .

ولم يكن إخضاع بنى إسماعيل أمرا ميسورا فهم يعرفون الدروب فى الصحراء الواسعة والمسالك التى تيسر لهم الفرار دون أن يجرؤ أحد على اقتفاء آثارهم خشية الموت عطشا ، فقد كان لبنى إسماعيل آبار سرية يعلمون أماكنها ولا يعرف أعداؤهم عنها شيئا .

وكان لبنى إسماعيل أطماع ككل القبائل التى أثرت من التجارة . كانوا يرصدون الأحداث الدائرة حولهم ويتربصون ضعفا من الممالك القوية القريبة منهم ليثبوا عليها وينتزعوا السلطان منها ، وكان لهم فى قبائل العماليق أسوة حسنة إذ رعوا فى سورية وفى دلتا النيل ، فلما دب الضعف فى الحكام وآنسوا منهم خورا وثبوا على الملك فى سورية ومصر فانتزعوا الحكم وأسسوا مملكة الهكسوس .

وكانت قبيلة قيدار أقرب قبائل الإسماعيليين إلى آشور وقد أسلمت قيادها لكاهنة القبيلة ، فاجتمع الرجال وانطلقوا إلى زبيبة ملكة القيداريين وكاهنتهم وراحوا يسألونها الرأى فى الجيوش التى تتجمع فى نينوى لتنطلق نحو الغرب لا تبقى ولا تذر .

كانت زبيبة فى دومة الجندل تصوم النهار وتصلى الليل وتنظر فى النجوم فى أكباد الذبائح فى الفجر تقرأ فيها مستقبل قومها كما كان يفعل كهنة بابل على عهد إبراهيم الخليل ، فكان الرجال يلقون إليها سمعهم ولا يبرمون أمرا إلا إذا أشارت به وباركته وأكدت أن ما تنطق به إنما هو من وحى الآلهة .

كان بنو قيدار على دين إبراهيم وقد خرجوا من مكة لينشروا دين الله ، فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم راحت أساطير الشعوب التى اختلطوا بها تؤثر فيهم فلم يبق من دين إبراهيم إلا ذلك الإيمان الذى يبذره الله فى أفئدة الناس ، فجعلوا لله شركاء وزوجات وبنات وأصبحوا فى ضلال مبين .

وكانت زبيبة تمقت الآشوريين وتعمل فى الخفاء على تقويض ملكهم ، فكانت تبعث البعوث من دومة الجندل إلى بابل لشراء الدقيق والثياب وما تحتاج إليه من مواد . فكان رجالها يسلكون البادية يدرسون طبيعتها ومواقع حصونها ، فقد كانت زبيبة تحلم بذلك اليوم الذى تثب فيه على آشور وتقضى على ظلمها .

وكان رجالها يجوسون خلال الأسواق بالنهار ويجتمعون تحت جنح الظلام بذوى الرأى والسلطان من أهل بابل يحرضونهم على الثورة ويؤكدون لهم استعدادهم للوقوف إلى جانبهم وإمدادهم بالرجال والفرسان والعتاد ليعيدوا إلى بابل مجدها التليد .

ولم تكن قبيلة مسا بعيدة عن فلسطين ، كانت تعيش فى منطقة يقعقع فيها السلاح فكان عليها أن تتأهب للدفاع عن كيانها ، فوضع رجالها أيديهم على

مقابض سيوفهم وجعاب سهامهم فالعدوان يطل من العيون .

وكانت قبائل بني إسماعيل الأخرى فى المنطقة التى تعيش على فوهة بركان ، فما أن انسحب شلمنصر من قرقار حتى دب الخلاف فيمن أسسوا اتحاد الرفاق وعادت أطماع بنهدد تطل برأسها .

ذهب بنهدد إلى معبد إلـٰهه هدد فى منبج يحيط به رجال الدولة والكهان ورجال الدين وكان معبدا فخما يضارع هيكل سليمان ، وأطلق البخور وارتفعت أصوات المرتلين والمرتلات وقدمت القرابين ودخل بنهدد وكبير الكهنة إلى قدس الأقداس ، وخر ساجدا لإلـٰهه ولم يرفع رأسه وراح يعاهد ربه على القضاء على إسرائيل والاستيلاء على هيكلهم المقدس .

وخرج بنهدد ليحارب من زعموا أنهم شعب الله المختار ، فاجتاح أراضى إسرائيل وأخضع مملكة يهوذا وساح فى السامرة وأرغم ملكهم على أن يدفع له الجزية وانطلق حتى بلغ سهل فلسطين الساحلى ثم اتجه جنوبا حتى ضم شرق الأردن إلى أراضيه .

وسيطر بنهدد على طرق التجارة بين بلاد ما بين النهرين والساحل ومصر وبلاد العرب وبات على حواشي ملكه قبائل مسا وقيدار ونابت وقبائل بنى إسماعيل الأخرى التى تعيش على التجارة ، فكان على هذه القبائل أن تهادن ملك دمشق أو تخوض المعارك لتحرر شرايين حياتها من سيطرة بنهدد .

كانت قبيلة نابت لا تزال فى مواضعها على ساحل البحر الميت تستخرج الأسفلت وقد عرفت بالنبط ، وكانت تتطلع إلى مناجم النحاس فى أرض سدوم ، بل إلى « سلع » عاصمة الأدوميين الحصينة فى وادى موسى .

كان موقع « سلع » حصينا وكان النبط يحلمون بأن تصبح عاصمة ملكهم يوما ما . كان يحرس مداخلها جبلان عاليان لا يسمحان إلا بمرور فارس واحد أو اثنين على الأكثر ، فما أيسر حمايتها من هجوم الأعداء ، ويمر

بين الجبلين وادى موسى ثم ينفرج على شكل مروحة تحيط بها الجبال الشاهقة ، وتنتهى من الناحية الغربية بممر آخر أكثر ضيقا من مدخلها ، وعند رأس الوادى نبع غزير يمد ذلك الحصن الطبيعى بالحياة .

وكانت قبيلة مسا ترقب الأحداث الجارية فى المنطقة فى حذر وقد تأهبت للدفاع عن حريتها ، وكانت قبيلة أدبئيل فى سيناء فى عدة القتال فبنهدد لم يهاجمها ولكن من يدرى ماذا يكون غدا ؟

كان شيخها أدبئيل الذى سمى باسم جده العظيم أدبئيل بن إسماعيل قوى الشكيمة مقاتلا من خيرة الفرسان ، وكان ذا آمال عريضة يطمع فى أن يمد سلطانه على الأراضى المتاخمة لسيناء ، وكانت دلتا النيل تتخايل له وتغريه بأن يثب وثبته وأن يخوض غمار المخاطرة .

كانت قبائل بنى إسماعيل قوية ولكن انقسام الوحدة العملية للحياة السياسية قعد بهم عن أن يخرجوا إلى نظام الأمم . أحبوا مجتمعاتهم الجديدة ودانوا بالولاء الروحى لمكة ، ولكن صلتهم بالنبع الروحى لما طال عليهم الأمد أصابها الوهن وراحت كل قبيلة تتخذ لها آلهة وتجعل لها حرما كحرم مكة المقدس ، فعطلوا سير التاريخ وصار عليهم أن يتريثوا حتى يشتد ساعد قبيلة منهم وتقوى وتنتشر وتصهر تلك القبائل المعتزة بعصبيتها فى أمة واحدة .

كانت دعوة إبراهيم عالمية فإذا بأحفاده يتعصبون لوثن السيادة القومية ويشركون برب العالمين أربابا محليين ، فتعالى الله عما يشركون .

وكان تفلت فلاصر يرقب الأحداث فى سورية ليثب عليها بجيوشه ويخضعها لآشور ، وما كان يريد أن يرتكب ذلك الخطأ الذى تردى فيه شلمنصر يوم قاد جيوشه إلى دمشق ثم قفل راجعا دون أن يقضى على أعدائه ويحمل آلهتهم ليلقى بهم تحت أقدام آشور .

نجح بنهدد أيام شلمنصر فى أن يجمع الملوك فى اتحاد الرفاق ، فلما انتهت

الحرب فى قرقار دون أن يظهر فريق على فريق لم يتريث بنهدد بل قام يحارب رفاق الأمس ويخضعهم لسلطانه حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

فصم بنهدد عرى الاتحاد وخان التحالف وخاض غمار حروب مع رفاق الأمس فأوهن جيشه وحطم جيوش إسرائيل ويهوذا وأتاح الفرصة لتفلت فلاصر ليحقق أحلامه ، إنه سوف يزحف برجاله وفرسانه لقتال جيوش مشخنة بالجراح .

وجاءت عيون قيدار إلى زبيبة ملكة قيدار وكاهنتها التى تتصل بالسماء وقالوا لها :

ـــ إن تفلت فلاصر جمع جموعه وعما قليل يخرج من نينوى ليطأ بعجلاته وفرسانه أرض القبيلة فى طريقه إلى سورية .

واعتزلت زبيبة القبيلة ودخلت خلوتها وراحت تصلى لإلٰهها وتستخيره وتنظر فى النجوم وفى أحشاء الذبائح لتقرأ ما يخبئه القدر لقبيلتها إذا نشبت الحرب بينها وبين الآشوريين .

وخرجت على قومها باسرة الوجه كاسفة البال وقالت :

ـــ لا قبل لنا بتفلت فلاصر وجنوده .

وتعلقت أعين الرجال بها وقالوا :

ـــ وبم تشيرين ؟

ـــ أن تدفعوا الجزية .

وحدثت همهمة استياء بين شباب القبيلة المتحمسين وبدرت منهم بوادر العصيان فهم يفضلون الموت على أن يفقدوا حريتهم ، فقالت لهم زبيبة مواسية :

ـــ إن تدفعوا لآشور الجزية اليوم ، فستكون نهاية آشور غدا على أيديكم .

غدا ؟ ترى متى يأتى ذلك الغد ؟ وكثر الأخذ والرد والجذب والشد وتمكنت زبيبة من أن تفرض إرادتها على قومها ، فدفعت قبيلة قيدار الجزية لآشور وإن راحت تتحين فرصتها لتطعن قلب آشور القاسى طعنة تدول بعدها دولة أولئك الذين يقوم ملكهم على الحرب حتى تنتشى أرواحهم بسفك دماء أعداء آشور .

وسرت عدوى دفع الجزية لتفلت فلاصر إلى سائر قبائل بنى إسماعيل اتقاء لشر الآشوريين . فدفعوا جميعا ما فرضه عليهم الملك الذى غطت جحافل جيشه أرض الصحراء ، وأبى الشيخ أدبئيل أن يخضع لذلك الهوان الذى فتحت أبوابه زبيبة ملكة قيدار وكاهنتها ، وزحف بجيشه حتى دخل غزة ووقف يرصد ما تتمخض عنه الأحداث فى المنطقة .

وانطلق تفلت فلاصر لقتال بنهدد ، والتقى الجمعان بالقرب من دمشق ودارت رحى حرب قاسية بين الجانبين لا هوادة فيها ، فكانت عربات الآشوريين تشق صفوف الآراميين ، وكان فرسانهم يلقون الرعب فى القلوب ، وكان تفلت فلاصر يتوغل فى قلب جيش أعدائه فيثير حماسة جنوده ، وراحت السهام تتطاير والرماح تغوص فى القلوب والسيوف تطيح بالرءوس وانقضت النسور تنهش جثث الضحايا فتخلع أفئدة الآراميين .

وأرغم جيش بنهدد على الانسحاب فدخل دمشق وأغلق أبوابها خلفه . وراح يدافع عن المدينة دفاع اليائس المستميت . واعتلى الجنود الآراميون الأسوار وراحوا يصبون الزيت المغلى على رءوس المهاجمين فاختلطت صيحات الفزع بأنات الجرحى بعجيج المعركة وضجيجها بأوامر القواد للجنود أن يصبروا ويصابروا وأن يشددوا النكير .

وانهمرت سهام الآشوريين على المدافعين عن الأسوار كوابل من الطل ، وتقدمت فرق هدم الأسوار ودك الحصون فى حماية الرماة ، وعملت المعاول

فى جدران السور حتى نجحت فى أن تنقبه فتدفقت الجنود من النقب تدفق السيل الجارف ، واشتد القتال حول باب دمشق حتى ظهر الآشوريون على الآراميين ففتحوا الباب فانقضت العجلات منه تشق الصفوف وتشيع الذعر فى المدافعين ، واندفع الفرسان كالليوث وقد أطل من سيوفهم المنون ، ودارت رحى معركة رهيبة وزلزلت دمشق زلزالا شديدا .

وراح الآشوريون يدكون الحصون ويسبون النساء ويهدمون الدور ويحرقون البساتين ويصنعون من جماجم المقاتلين جبالا يزينون بها الأسوار . وما انتهت المعركة حتى كانت الرياض حطاما تتراقص على خرائبها ألسنة النيران .

وساق تفلت فلاصر الأسرى والإبل والماشية والغنم واستولى على ما كان فى دمشق من أموال وأجلى سكانها . وانطلق إلى مملكة إسرائيل وأخضع أورشليم ، ثم اندفع إلى مملكة يهوذا فى الشمال وغطى أرض السامرة بجثث اليهود ورواها بدمائهم وحمل ما شاء من الأسرى والغنائم والأموال والنساء .

وأصبح تفلت فلاصر أمام أدبئيل وجها لوجه . إنه أول زعيم من زعماء بنى إسماعيل يرفض الخضوع وحمل الجزية إلى آشور ، وفكر تفلت فلاصر مرات قبل أن يخوض غمار معركة مع ذلك الشيخ العربى الذى أبى إلا النزال ، ترى لو هاجم أدبئيل المتحصن فى سيناء ألا تهب مصر لنجدته دفاعا عن حدودها ؟

كان تفلت فلاصر مزهوا بنصره على الآراميين وبنى إسرائيل واليهود ، وكان يحلم بالعودة إلى آشور وعلى رأسه أكاليل النصر يسوق الأسرى والغنائم إلى إلـٰهه الرحيم ، وما كان يريد أن يكدر زهوه أو يثلم فخره فرأى أن يصالح أدبئيل ويعينه « قيبو » مندوبا عنه على مقاطعة مصرى ، وجعل تحت تصرفه خمسة وعشرين موضعا من عسقلان حتى حصن القلعة البيضاء مفتاح الطريق

بين سيناء ومصر ، فامتد سلطان أدبئيل من غزة إلى طور سيناء ، ومن دومة الجندل والبادية حتى حدود دمشق .

وانطلق تفلت ناصر إلى منبج ليزور معبد هدد إلـٰه الآراميين إرضاء لمن تبقى من الشعب الذى كومت رءوس مقاتليه كالجبال ، وسيق رجاله ونساؤه زمرا أسرى يضربون فى الأرض مع الغنم والبقر والخيل والجمال فى طريقهم إلى آشور ، وما إن دخل المعبد حتى فغرفاه من الدهشة فقد كان المعبد رائعا أروع من معابد آشور فى نينوى ومعابد مردوخ فى بابل ومعابد سين فى أور ، إنه استعار فخامته من فخامة معابد الفراعين ، وزاد فى روعته امتزاج الهندسة المصرية باللمسات الفنية للآراميين .

ودخل تفلت فلاصر قاهر الآراميين والإسرائيليين واليهود إلى المعبد وهو يتلفت . كان تمثال هدد إلـٰه الرعد فى كوة بطنت بالذهب وإلى جواره تمثال زوجه ومن حولهم تماثيل إيل وشمش ورشف وكان يعرف ببعل شمين أى رب السموات ، وكان هدد يعرف برامون .

عرفت سورية وما حولها التوحيد منذ أيام إبراهيم الخليل بل منذ إدريس ، منذ ذلك الزمن السحيق الذى عرفت فيه مصر الله قبل عصر الأسرات ، وعرفت بلاد ما بين النهرين الله الواحد القهار منذ أن دعا نوح قومه أن يعبدوا الله ما لهم من إلـٰه غيره ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم واتخذوا من أسماء الله الحسنى تماثيل كل تمثال يعبر عن صفة من صفاته ، فآشور الرحيم وإيل الله وبعل شمين رب السموات وآمون الباطن وذو الشرى رب البيت ، وتعصبت كل دولة لإلـٰهها وحاربت الدول الأخرى لتكون كلمة معبودها هى العليا ، ونسى الناس جميعا أنهم يعبدون إلـٰها واحدا وإن تعددت أسماؤه وأنه رب العالمين .

وأمر تفلت فلاصر أن تؤخذ أبعاد معبد هدد وأن يبنى مثله فى أورشليم لينافس هيكل سليمان ويعبد فيه آشور ، ثم انطلق بما حمل من نفائس وأموال وآلهة وأسرى إلى نينوى .

وخرج شعب آشور لاستقبال البطل المظفر ، وغصت طرقات الموكب بالناس وقد تهللت أساريرهم بالفرح الفياض ، وانطلقت الهتافات من الحناجر فقد كانت احتفالات النصر أروع ما يهز مشاعر الآشوريين ، وسار الأسرى زمرا إلى الساحة الواسعة وراح الكتبة يحصون الرءوس والغنائم ليأخذ الملك نصيبه منها ويحمل إلى الكهنة ورجال الدين نصيب آشور !.

وجلس تفلت فلاصر وحوله رجال القصر وكبار ضباط الجيش والكهنة ورجال الدين ، وجيء بالأسرى وزعماء العموريين وشيوخ بنى إسرائيل وأكابر اليهود ووضعوا على الخوازيق ، ثم جاء الجلادون بمديهم الطويلة وراحوا يسلخون الأسرى وهم أحياء ثم يغطون الجدران بجلودهم بين صيحات الفرح وتهليلات النشوة المعربدة فى الصدور ، فقد فاضت غبطة الشعب لأن آشور مكنهم من أعدائهم ففعلوا ما فعلوه إرضاء لآشور العطوف ! آشور الرحيم !

كان بنو إسماعيل يمقتون الآشوريين أشد المقت ، فإن كانت زبيبة أشارت بدفع الجزية لهم اتقاء لشرورهم ، وإن كانت قبيلة مسا رضيت أن تطاطئ رأسها إلى حين ، وإن كان النبط أحفاد نابت بن إسماعيل رحبوا بملك آشور وقبلوا أن ينزل بينهم ، وإن كان الشيخ أدبئيل من كان زعيما لقبيلة أدبئيل قبل أن يكون « قيبو » لتفلت فلاصر ، إلا أن قلوبهم كانت تنطوى على الحقد الشديد لآشور تلك الدولة التى قامت على التعذيب والتنكيل وسفك دماء الأبرياء وقتل الرجال وسلخ جلودهم وهم أحياء واستحياء النساء .

٢١

ضاقت شمس ملكة عريبى وكاهنتها بقبضة آشور الحديدية ، فحنثت بالقسم الذى أقسمته لشماس إلـٰه العدل ، فقد أقسمت ألا تتعرض للآشوريين بأذى . إلا أنها راحت تغير على أطراف آشور لتنال من هيبتها وتطمع أعداءها فيها .

وانتفخت أوداج تفلت فلاصر غيظا لما بلغه أن الملكة شمس كاهنة قبيلة عريبى حنثت فى قسمها العظيم وأبت أن تؤدى الجزية للإلـٰه العطوف .

إن ما فعلته شمس شوه جلال الاحتفالات التى أقامها ابتهاجا بانتصار إلـٰهه آشور على آلهة بنى إسرائيل والآراميين وكل الشعوب التى دحرها وأرغمها على أن تخر ساجدة تحت أقدام إلـٰهه العظيم .

إنه أشعل النيران فى المدن ليصعد دخانها بخورا لإلـٰهه العطوف ، وأطاح بالرءوس وكومها أهراما تقربا إلى إلـٰهه آشور ، وسلخ أعداءه وهم أحياء ونشر جلودهم على جدران مدينته لعل ربه يرضى ، فجاءت شمس لتدنس كل أعماله الباهرة التى ما قام بها إلا بأمر ربه العظيم .

وأحس رغبة طاغية فى إشباع غضبه فلن تهدأ نفسه قبل أن يسوى قبيلة عريبى وملكتها بالأرض وأن يضع رءوس زعمائها يربوع وخاطر وخباب ونمر على أنقاض حصونها ، وأن يتوج حراب جيشه برءوس العرب الذين تمردوا على سلطان آشور ، وأن ينسف مملكة شمس نسفا .

وجاء شهر تموز ذلك الشهر الذى كتب سيد العلم الإلـٰه « نن إيجى أزاج » فى لوح قدره أنه فصل تجمع الجيوش ، فتطهر الملك وذهب إلى معبد

آشور يقدم القرابين ويناجى إلـٰهه :

« إنى خارج لمحاربة شمس وقبيلتها لأنها منعت جزيتها وهداياها عن الإلـٰه آشور .

إنى سأذلهم ليخضعوا لمولاى آشور .

وسأقتل رجالهم وأسبى نساءهم وأيتم أطفالهم وأحمل أموالهم وأسوق مواشيهم إرضاء لمولاى آشور .

أى آشور العطوف ، سأحمل كاهنتهم شمس التى خانت عهدك لتخر ساجدة تحت أقدامك يا مولاى » .

وخر تفلت فلاصر ساجدا ثم قام وانسحب من المعبد مطأطئ الرأس يرجع القهقرى دون أن يولى ظهره لمعبوده .

وبعث الملك يستدعى « التورتان » القائد الأعلى لجيشه ، فلما مثل بين يديه أمره أن يجهز جيشا لقتال شمس وقبيلتها عريبى وأن يمد مشاته بمعاول برونزية ليدكوا بها الصخور والحصون .

وعلمت شمس أن تفلت فلاصر يتأهب لغزوها فاستدعت يربوع وخاطر وخباب ونمر زعماء القبيلة وقالت لهم :

— إنى لا أحب أن أقطع أمرا دونكم أنتم رءوس القوم وسادتهم ، إن ملك آشور يتأهب لقتالنا فأشيروا على بالرأى .

— الرأى رأيك ، إننا لا نتصل بالسماء وإنما وضعناك على رءوسنا لما بينك وبين السماء من أسباب ، قولى لنا ماذا يخبئ لنا الغيب ؟

فأطرقت شمس وقالت :

— لا يزال نجم آشور ظاهرا ، إن دار القتال بيننا وبينهم فستكون الغلبة لهم .

— الحكمة تقضى أن نحمل الجزية إلى الملك قبل أن يدهمنا بعرباته وخيله

ورجله .

فقالت شمس :

ــ سيطلب منكم أن تجددوا العهد لشماش وأن تسجدوا لآشور .

ــ سنجدد العهد وسنخر ساجدين وسيظل ما فى القلب فى القلب ، فلن تعرف نفوسنا الراحة قبل أن نزيل دولة الظلم من الأرض .

وخرج يربوع وخباب ونمر وخاطر من عريبى يحملون الجزية والهدايا ، وانطلقوا إلى نينوى ليقدموا لتفلت فلاصر الولاء والخضوع وإن أغلقوا صدورهم على ما فيها من مقت شديد .

وطلب بنو إسماعيل المثول بين يدى الملك فتأهب لاستقبالهم فى قاعة عرشه ، بعد أن أمر أن توضع بها تماثيل آلهة الشعوب المهزومة التى حملها معه أسيرة إلى نينوى لتكون لهم عبرة ولتنزل الرهبة فى نفوسهم .

ودخل بنو إسماعيل على الملك وقدموا له الجزية وما حملوه من هدايا ، فأجلسهم معه ليروا ما أعد لهم وقد تعمد أن يكون مجلسهم بحيث يروا تماثيل الآلهة التى دانت لآشور بالخضوع .

ورأى بنو إسماعيل تمثال هدد إلٰه الرعد وإلٰه الآراميين وقد كتب عليه أنه صار عبدا لآشور ، ورأوا العجل الذى صاغه بنو إسرائيل ليعبدوه بعد أن نسوا دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ورأوا تماثيل البعل وآلهة القبائل التى دحرها الآشوريون ، فلم ترتجف أفئدتهم رعبا بل زادهم ذلك كراهية ومقتا لآشور .

وقام الملك ليبلغ إلٰهه العطوف أن الملكة شمس بعثت زعماء قبيلتها يحملون إليه الجزية ، وأنهم جاءوا صاغرين يعلنون له خضوعهم وولاءهم . وخرج يربوع وخاطر وتمر وخباب من نينوى ، وما خلفوا أبراجها العالية خلفهم حتى تعاهدوا على مناوأة آشور وشق عصا الطاعة وليكن ما يكون .

وهلك تفلت فلاصر واعتلى عرش آشور من بعده سرجون الثانى فى الوقت الذى ضاقت فيه الملكة شمس وشعبها بذل الخضوع للأجنبى الدخيل ، وبمندوبه السامى الذى عينه تفلت فلاصر فى بلاطها ، وبتلك التقارير التى كان يبعث بها ذلك « القيبو » إلى الحاكم الآشورى العام فى سورية .

كان بنو إسماعيل يتطلعون إلى الحرية ، فإن كانت آشور فرضت عليهم الجزية بسلطانها فإنهم لن يستكينوا لذلك الظلم إلى الأبد ، فما إن بلغهم هلاك تفلت فلاصر حتى ثاروا على الحكم الآشورى وطردوا المندوب السامى من أراضيهم وامتنعوا عن دفع الجزية .

وثارت حماه على حكم سرجون . وجمع ملكها جيشا لجبا وانطلق به إلى قرقر لقتال الآشوريين بعد أن حنث بقسم الولاء الذى أقسمه لرب آشور ، وثارت دمشق وإسرائيل والسامرة ، واتفق هنو أمير غزة مع فرعون مصر على أن يثور هنو فى وجه الآشوريين وعلى أن يمده فرعون بالعون والمساعدة والجنود .

ووجد سرجون فى مستهل حكمه ثورة مشبوبة فى الأقاليم التى خضعت لآشور يغذيها فرعون مصر . لقد شق عصا الطاعة بنو إسماعيل وبنو إسرائيل وبنو يهوذا والآراميون والفينيقيون ، وراح سرجون يفكر فى هذه الثورات العارمة فاهتدى إلى أن خير ما يفعل هو أن يستغل الموقف أحسن استغلال ، وأن يتصرف تصرف السياسى الحاذق وأن يبتعد عن النزق والتهور دون تبصر فى عواقب الأمور .

فلو أن هؤلاء الثائرين وجدوا من يجمعهم فى اتحاد كاتحاد الأخلامو الذى وقف فى وجه شلمنصر لتعقدت الأمور وصار من الصعب ضرب كل هذه الشعوب . إنه يعلم علم اليقين أن مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا مملكتان محاطتان بكراهية من حولهما من الشعوب ، فلو أنه هادن تلك الشعوب إلى حين ووثب

على إسرائيل ويهوذا فلن تحرك الأقاليم الأخرى ساكنا ، بل قد تبارك حملته وتغض الطرف عن فظائع الآشوريين .

وحارب سرجون ملك دمشق وهزمه ، وحاصر عاصمة مملكة إسرائيل ثلاث سنين ، ولما تم له فتحها أطاح بالرءوس وكومها جبالا عالية ، وسلخ جلود الزعماء وهم أحياء وأضرم النيران فى الدور ودك المعاقل والحصون ، وطرد سكان العاصمة إلى حدود ميديا ، وأخرج السامريين من أراضيهم .

قضى سرجون على إسرائيل وأخضع الفينيقيين وهزم هنو أمير غزة ، وأضرم النيران فى القرى والمحصولات ، وفتح مخازن الغلال لجنوده ، وأباح لهم المدن المهزومة يصنعون فيها ما يشاءون .

وانطلق بجنده إلى شمس وقبيلتها التى حنثت فى قسمها مرتين وثارت على آشور مرتين وقد عزم على أن يلقن هؤلاء العرب درسا لن ينسوه .

وعلى مقربة من مؤاب دارت معركة رهيبة بين جنود آشور والعرب المدافعين عن حريتهم ، كان العرب على ظهور إبلهم يهجمون على عربات الآشوريين كالليوث ، وكان سرجون فى عربته ينطلق كالسهم فى صفوف العرب ويعدو فرسانه عن يمينه وعن شماله ليغطوا هجومه ويصوبوا رماحهم إلى قلوب الشاردين والمدبرين .

وتبادل الطرفان الكر والفر وأطلقت السهام وتطايرت لتستقر فى الصدور وفى الظهور ، ووقفت شمس بين رجالها تحرضهم بأفضل ما فيهم وتذكرهم بما سيحيق بهم من ذل وعار إذا دارت عليهم الدوائر وحلت بهم الهزيمة .

وراح يربوع وخاطر وتمر وخباب يقاتلون قتال من يعرف ما سينزل بهم من عذاب إذا انتصر عليهم سرجون ، فسيحملهم إلى نينوى ليضعهم فوق الخوازيق أو يسلخهم وهم أحياء بين تهليل شعبه المجنون .

واضطر سرجون أن ينزل من عربته وأن يحارب على قدميه ، وعقر جمل

خباب وقتل خاطر واشتد وطيس القتال وراحت النسور تعبث بجثث الضحايا ولم يظهر فريق على فريق .

وصاح صائح من العرب :

— اقتلوا سرجون . اقتلوا الملعون .

وحمل رجال القبيلة حملة رجل واحد وكان هدفهم الملك الآشورى بيد أن جنوده التفوا حوله ، والتحم الجيشان واشتبكوا بالأيدى واستخدمت الخناجر والسيوف ، وانجلت المعركة عن هزيمة العرب فقتل سرجون من قتل ودمر ما دمر ، وأشبع غضبه بأن فرض على شمس جزية ثقيلة ، وساق شباب القبيلة ونفاهم إلى السامرة من أرض فلسطين عقابا ونكالا .

وعاد سرجون إلى آشور بعد أن هزم الآراميين وأحرق دمشق وصب جام غضبه على إسرائيل وأسر هنو ودك مدينة رفح وسواها بالأرض وفرض سلطانه على بنى إسماعيل وترك فى كل مكان أهراما من جماجم ضحاياه .

ودخلت عربات الآشوريين نينوى تتهادى ، وهتف الشعب بسرجون ، وراح الكتاب يعدون رءوس الأسرى ، وعزف الموسيقيون على القيثار أهازيج النصر ، ورفعت تماثيل الآلهة الذين لطخوا بذل الهزيمة فانطلقت حناجر الآشوريين بهتافات النشوة التى ماجت فى الصدور .

كان الحمالون يحملون الإله هدد الإله الرعد والإله بعل وبعل شمين رب السموات وأصنام العرب من بنى إسماعيل ، وتقدم ضباط الملك صفا وأيديهم معقودة احتراما وخلفهم قائد شاب يسوق الأسرى ، وعلى رأس موكب النصر هنو أمير غزة وقد أوثقوه بحبل يقوده محارب يجذبه من شعره بين وقت وآخر ، ويدفعه دفعا إذا وقف يلتقط أنفاسه .

وظهرت الغنائم وكانت أوانى من كل لون وصحافا وقدورا وأبواقا وسبائك من ذهب وفضة وأقمشة من حرير دمشق ، وزوجات الملوك

والأمراء اللائى وقعن فى الأسر وبناتهم وأولادهم ، وما إن رأى الشعب كله هذه الأسلاب حتى تعالت هتافاته وأدارت رأسه نشوة النصر .

وأرسل سرجون إلى إلٰهه آشور نصيبه فى الغنائم ، وحمل إلى خزائن القصر ما أفاء آشور عليه ، ثم دخل سرجون ليقدم إلى ربه العطوف تقريره عن حملته :

« آشور السيد العظيم !
من يحكم الآلهة جميعا ،
من يمنح الصولجان والتاج ،
من يوطد أركان الملكية ،
أبو الآلهة وسيد الأقطار » .

وبعد أن سرد ألقابه وألقاب ربه وفصل تاريخ حملته راح يؤكد لإلٰهه العطوف ما فعله بالشعوب التى لم تشهد أن آشور رب الأرباب وإلٰه الآلهة جميعا :

« من كل اثنين قتلت واحدا ، وأقمت جدارا أمام البوابات العظيمة بالمدينة ، وأمرت بسلخ زعماء المتمردين وغطيت ذلك الجدار بجلودهم ، ووأدت بعض هؤلاء فى بناء الجدار كما صلبت البعض الآخر ، وأمرت بسلخ عدد كبير منهم وغطيت الجدار بجلودهم » .

وفى الوقت الذى كان سرجون يتغنى فيه بأمجاده وأمجاد إلٰهه آشور كان السفراء يمشون بين قبيلة قيدار والنبط وقبائل بنى إسماعيل الأخرى ليتحلفوا ويتعاهدوا على القضاء على آشور وعدوانها .

٢٢

كان حزقيا ملك يهوذا يرتجف فرقا من ملك آشور ، ففى كل عام كلما جاء تموز شهر تجمع الجيوش ، تخرج حملة من نينوى وتهاجم مدن يهوذا وتضرم النيران فيها وتطيح برءوس رجالها وتسبى نساءها وتبيح خيراتها لجنود آشور .

وكان هوشع بن أيلة ملك إسرائيل يبعث سفراءه إلى فرعون مصر يطلب منه أن يمده بعربات حربية وفرسان وجنود لكسر شوكة آشور ، وكان فرعون يعده خيرا ولكن القلاقل الداخلية فى وادى النيل كانت تضطر ملك مصر أن يحبس الجند فى البلاد وأن يمد حلفاءه بمعونات يسيرة عاجزة عن أن يكون لها أثر فعال فى تقرير المصير .

نسى بنو إسرائيل الله فأنساهم أنفسهم وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب بعد أن هجروا دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وعبدوا العجل الذى سبكوه بأيديهم ، وسجدوا لنجوم السماء وعبدوا آلهة الأميين .

كانوا يتيهون على الشعوب بأن الله هداهم إليه دون البشرية جمعاء ، فبنو إسرائيل فى جانب والأمم جميعا فى جانب ، وجعلوا الخير كله فى بنى إسرائيل وما كان حظ الأمم إلا الضعة والهوان ، وإذا بهم يتردّون فيما تردت فيه الأمم فعبدوا الأجرام والأوثان والأصنام .

وراح أشعيا النبى يجوب مملكة يهوذا يحطم الأصنام ويخوف اليهود غضب الله ويحذرهم أن يكون مصيرهم مثل مصير سدوم أرض لوط ويدعوهم إلى

ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين .

وراح يقول لليهود :

ـــ أيديكم ملطخة بالدماء .. شاعت الفاحشة فيكم .. تأكلون فى بطونكم أموال اليتامى .. تحبون الرشوة حبا جما .. رؤساؤكم لصوص .

وراح الله يوحى إليه من أنباء الغيب ، وأشعيا يحدث القوم بما يلقى فى صدره من الوحى :

ـــ يكون فى آخر الأيام جبل بيت الرب ثابتا فى رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه « تحج » كل الأمم .

واستمر الله يوحى إليه من أنباء الغيب وأشعيا يعلن ما يوحى إليه علام الغيوب ، كان وحى بابل ينبئ بزوال آشور ، ووحى دمشق ينبئ بخراب عاصمة الآراميين ، ووحى مصر ينبئ بالحرب بين المصريين والآشوريين ، أما وحى بلاد العرب فكان ينبئ عن الرسول النبى الأمى الذى يخرج من الأمم لا من بنى إسرائيل :

ـــ ووحى من جهة بلاد العرب ، فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين .. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء . وافوا الهارب « المهاجر » بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب .

واستمر أشعيا فى إذاعة ما يوحى إليه علام الغيوب :

ـــ هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وصعدت روحى عليه فيخرج الحق للأمم ، ولا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته ، قصبة مرضوضة لا تقصف ، وفتيلة خامدة لا تطفأ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته .

أوحى إليه أن مختار الله من بلاد العرب وأنه سيخرج من دياره فرارا من

الاضطهاد ، ولكن من أى بلاد العرب سيخرج ذلك المهاجر فى سبيل الله ؟ ولم يسكت الوحى عن ذلك ، إنه يقول صراحة إنه من قيدار ونابت ، من نسل إسماعيل عليه السلام ، ويحدد المدينة التى سيشرق منها نور الله(١) :

ـــ هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها .

يا سط الأرض وساطحها ،

معطى الشعب عليها نسمة ، والساكنين فيها روحا ،

أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم .

تفتح عيون العمى وتخرج من الحبس المأسورين فى بيت السجن الجالسين فى الظلمة .

أنا الرب ، هذا اسمى ومجدى لا أعطيه لآخر ، ولا تسبيحى للمنحوتات ، هو ذا الأوليات قد أتت ، والحديثات أنا مخبر بها ، قبل أن تنبت أعلمكم بها .

غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحة من أقصى الأرض .

أيها المنحدرون فى البحر ومائه ، والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها ، والديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سالع من رءوس الجبال ، ليهتفوا

---

(١) قال وهب بن منبه (فى حديث طويل) إن الله تعالى أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له أشعيا : أن قم فى قومك بنى إسرائيل فإنى منطق لسانك بوحى ، وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا كمها وآذانا صما وقلوبا غلفا ، أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته وأحمد اسمه .

ليعطوا الرب مجدا ، ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر .

الرب كالجبار يخرج ، كرجل حروب ينهض غيرته ، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه .

قومى استنيرى لأنه جاء نورك ، ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم .

أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك .

ارفعى عينيك حواليك وانظرى قد اجتمعوا كلهم ، جاءوا إليك يأتى بنوك من بعيد ، وتحمل بناتك على الأيدى .

حينئذ تنظرين وتنيرين ، ويخفق قلبك ويتسع ،

لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتى إليك غنى الأمم وتغطيك كثرة جمال بكران مديان وعيفه كلها تأتى ومن شبا تحمل ذهبا ولبانا وتبشر بتسابيح الرب .

كل غنم قيدار تجمع إليك .

كباش نبايوت « نابت » تخدمك .

تصعد إليك مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى .

وكما كانت عادة ملوك آشور هاجم سنحاريب جميع مدن يهوذا ، وسقط حزقيا ملك يهوذا أسيرا فى أيدى الآشوريين فحمله الجيش المظفر إلى آشور .

ودخل الجيش نينوى وعزفت الموسيقى وراح الكتاب يحصون رءوس الأسرى ، وجلس سنحاريب على عرشه ينظر إلى حزقيا الملك الأسير وقد التمعت عيناه سرورا ورفت على شفتيه شماتة الشامتين .

وجىء بحزقيا ووقف ذليلا أمام سنحاريب ، وتعالت هتافات الشعب المنتصر ، وبدأ الجلادون يسلخون اليهود أحياء ، ورأى حزقيا ما رأى

فخارت قواه وقال فى توسل لسنحاريب :

ـــ قد أخطأت ومهما تضع على من جزية أحملها إليك .

فقال ملك آشور :

ـــ ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثون وزنة من الذهب .

ودفع حزقيا جميع الفضة التى كانت فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك ولم يصل الذهب الذى كان فى خزائنه إلى ثلاثين وزنة ، فراح حزقيا يقشر رقائق الذهب عن أبواب هيكل أورشليم هيكل الرب لينقذ جلده .

ومرت سنون وعاد حزقيا يفكر فى رفض دفع الجزية لآشور ، فبعث سنحاريب « التورتان » القائد الأعلى للجيش إلى السامرة فى جيش عظيم ، وراح رجال آشور يحدثون رسل حزقيا على الملأ :

ـــ على من اتكلت يا ملك أورشليم ؟ على فرعون مصر ! إن فرعون مصر أضعف من أن ينجد حلفاءه .

ثم قالوا للناس الذين تجمعوا على أسوار أورشليم :

ـــ اسمعوا كلام الملك العظيم سنحاريب ملك آشور ، يقول لكم : لا يغرنكم حزقيا فإنه أعجز من أن يخلصكم من يدى ، ولا يخدعنكم حزقيا بقوله إن الرب قادر على أن ينقذكم منى وإنه قادر على ألا تسقط مدينتكم فى يدى ، هل أنقذت آلهة الأمم عبادهم من يدى ؟ مَن مِن آلهة الأرض أنقذ أرضه من سلطانى حتى ينقذ إلٰهكم أورشليم من أن تسقط فريسة فى قبضتى !

يقول لكم ملك آشور : اعقدوا معى صلحا حتى آتى لآخذكم إلى أرض كأرضكم ، أرض حنطة وخمر ، أرض خبز وكروم ، أرض زيتون وعسل ، واحيوا ولا تموتوا .

وبلغ حزقيا ما قاله رسل سنحاريب لشعبه فمزق ثيابه وبعث رسالة إلى أشعيا النبى يلتمس عونه .

ودخل أشعيا المحراب وصلى لله وأطال الابتهال والسجود ، وهدأ كل شىء وعبق المكان بأريج طيب ، وبدا أن الأرض تتلقى وحى السماء ، ثم رفع أشعيا رأسه وقال لرجل حزقيا :

— قولوا لسيدكم لا ترتجف فرقا مما سمعت ، إن الله سينتقم من سنحاريب لتطاوله على ذاته العلية ، وسيرديه بسيفه فى أرضه ليكون عبرة للعالمين .

٢٣

اجتمع فى دومة الجندل ملوك بنى إسماعيل يتشاورون ، فقد استقبل خزائيل ملك قيدار تلخانو ملكة عريبى وكاهنتها وملك النبط وزعماء القبائل العربية فى قصره ، وحضرت الاجتماع الأميرة الشابة تابوه بنت تلخانو ، فلما تم عقد الأمراء الإسماعيليين قالت الملكة تلخانو :

ـــ نظرت فى النجوم فرأيت أن ملك آشور فى أفول ، فبعثت إلى خزائيل ليدعو لهذا الاجتماع .

فقال خزائيل :

ـــ إن سنحاريب ظاهر على كل الملوك ، ما خاض معركة إلا كتب له النصر .

وقالت تلخانو فى ثقة :

ـــ رأيت فى المنام كأن عاصفة هوجاء اجتاحت آشور فألقت ثيرانها المجنحة على جنوبها وكبتها على وجوهها ، ثم ما لبثت تلك الثيران أن تطايرت فى الهواء . ولما انقشعت العاصفة رأيت سنحاريب يسبح فى بركة من الدماء .

فقال قائل فى خوف :

ـــ لعله يسبح فى دمائنا .

فقالت تلخانو :

ـــ كان جثة هامدة .

وقال خزائيل ملك قيدار :

ـــ ثارت بابل على سنحاريب لتتخلص من حكم الآشوريين .

فقالت تلخانو :

ــ لهذا دعوت لعقد اجتماعنا هذا .

ــ وماذا ترين ؟

ــ أن نخرج بجيوشنا لتأييد بابل فى ثورتها ، ونضرب آشور معا الضربة القاضية .

فقال صوت الخوف :

ــ وإن انتصر سنحاريب ؟

فقالت تلخانو فى ثقة :

ــ ستكون نهاية آشور على أيدينا نحن بنى إسماعيل .

كان نفوذ الملكة تلخانو واسعا يمتد من دومة الجندل إلى حدود بابل ، فما أيسر إمداد الثائرين فى بابل بالمقاتلين العرب من البادية ، و لم يكتف زعماء العرب بتشجيع ثورة بابل وتأييدها بجيوشهم بل رأوا أن يهاجموا المقاطعات الآشورية فى الشام وفلسطين ، و لم يعجب ذلك الرأى تلخانو فقالت :

ــ إن مهاجمة المقاطعات الآشورية فى الشام توهين لقوانا وتشتيت لجيوشنا .

فقال خزائيل :

ــ إنه تأمين لظهورنا ، إنى أخشى إذا سرنا إلى بابل وانشغلنا بقتال آشور أن تزحف حاميات المقاطعات الآشورية فى سورية وتطعننا من الخلف .

ووافق الحاضرون على رأى خزائيل ملك قيدار و لم يستمعوا إلى ما أشارت به تلخانو ، واختير خزائيل قائدا لجيوش العرب .

واجتمعت الجيوش تحت إمرته فسار إلى أرض عريبى ثم تقدم فى البادية حتى دخل بابل وانضم بجيوشه إلى جيوش البابليين لقتال سنحاريب ، وبعث السرايا لمناوشة المقاطعات الآشورية فى سورية ليشغل حكامها عن الخروج

لتأييد ملكهم .

وراح كل جيش يحمل تماثيل آلهته لتؤيده فى حربه ولتنتصر على آلهة أعدائه ، فقد كان القتال قتال آلهة ، أما الجيوش فما كانت تتحرك إلا بوحى من آلهتهم لتمد سلطانها على أعدائها من الشعوب .

كان جيش آشور يحمل تماثيل آلهتهم آشور وعشتر وأونو وأداد و كان جيش بابل يحمل تماثيل مردوخ وسين وشماس وعشتار ، وكان جيش العرب يحمل تمثال اللات ؛ ودارت الحرب وانطلقت العجلات تخترق بوابة عشتار وتدور حول المعابد والأبراج ، واشتد الطعن والنزال وراح كل جيش يدافع عن آلهته ، وجاءت الإمدادات من آشور ومن البادية على السواء .

اختلطت العجلات بالفرسان ، وشدت الأقواس وأطلقت السهام والنبال ، وأشاعت الإبل الفوضى فى صفوف المشاة ، وارتفعت الصيحات وسالت الدماء ، وفرشت جثث القتلى الأرض وزلزلت بابل زلزالا شديدا .

وانجابت المعركة عن انهزام البابليين وحلفائهم العرب وانتصار سنحاريب ، فانسحب خزائيل وجيشه وترك أهل بابل لمصيرهم المحتوم .

أخذ سنحاريب يضع زعماء الثوار على الخوازيق ، ويضرب الرقاب ويزين أسوار بابل بالرءوس ويصنع منها أعلام النصر ، ويسلخ الرجال أحياء ويحرق الدور وينهب المعابد ويترك كل ما تقع عليه يده قاعا صفصفا ، ثم يسوق الأسرى من أصنام الآلهة والنساء والغنائم إلى نينوى ليشرك شعبه فى احتفالات النصر المبين .

وفى طريق عودة الجيش العربى قامت مشادة بين تلخانو وخزائيل قالت تلخانو وهى غاضبة :

— كنت أنت سبب الهزيمة ، فلو استمعت لنصحى لكنا الآن فى طريقنا إلى نينوى ، ولكنك تشبثت برأيك وبعثت الجيوش لمناوأة المقاطعات

الآشورية فى سورية فأضعفت جيوشنا ، ولم تحز نصرا واحدا على تلك المقاطعات .

— لو لم أفعل لكنا نساق الآن أسرى إلى نينوى .

فقالت تلخانو فى يأس :

— إذا كنا أفلتنا اليوم من الأسر فسنساق إلى نينوى غدا .

فقال خزائيل فى حدة :

— عشتار أقرب إليهم من هذا .

— سيسلخونك ويلصقون جلدك بجدار سور نينوى .

فقال خزائيل :

— هيهات .

— وإن فعلوا ؟

— وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

وانفصل حلفاء الأمس وقد دب بينهم الشقاق ، ولكن قلوبهم اتحدت على بغض آشور .

وعادت تلخانو إلى عريبى تنتظر قضاء سنحاريب ، ترن فى أغوار نفسها سخرية خزائيل منها : « أين وحى السماء الذى حدثتنا به ؟ إن آشور لم تهزم ولم تسبح جثة سنحاريب الهامدة فى بركة من دمه ، إنه خاض بعجلاته فى دمائنا . لو أنصف شعبك لقتل كاهنته الكاذبة » .

وأغذ خزائيل السير ليحصن دومة الجندل عاصمة القيداريين تأهبا للحرب التى ستنشب بينه وبين سنحاريب ، فما كان ملك آشور ليسكت على انضمامه إلى ثوار بابل ومحاربة آشور وإعلانه على الملأ كراهيته لحكومة البرابرة .

وقفل سنحاريب عائدا إلى نينوى مزهوا بنصره يسوق الأسرى والغنائم

والأموال إلى معبد آشور وإلى خزائن قصره ، وقامت احتفالات النصر بما فيها من إراقة دماء وصلب وسلخ ، ثم استراح إلى زوجه زاكوتو وكانت امرأة داهية فراحت تغريه بأن يولى ابنها أسارحدون من بعده ليكون لها الكلمة فى البلاط الآشورى ، فما كان أسارحدون يعصى لأمه أمرا .

وتأهب سنحاريب لقتال العرب فأيام آشور كلها قتال ، وعلى الرغم مما كان بين تلخانو وخزائيل من شقاق فقد اضطرهما الخطر المشترك إلى أن يتحدا وأن يخرجا ليدافعا عن حريتهما . وسار سنحاريب من بابل إلى البادية وإذا بجيش العرب يستقبله فى الصحراء وإذا بمعركة طاحنة تدور فى الفضاء ، وانقضت نسور السماء تعبث بالجثث بعد أن انسحب خزائيل وتلخانو وابنتها تابوه ليتحصنوا فى حصن دومة الجندل .

وتقدم سنحاريب إلى معقل أعدائه الذين مدوا أيدى المساعدة لكل من ثاروا عليه ، إلى الذين بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، إلى بنى إسماعيل أشد الشعوب بغضا لآشور .

وبلغ سنحاريب دومة الجندل فألفى العرب قد تحصنوا فى المدينة واعتلوا أسوارها يلقون على عربات آشور وابلا من الحجارة والمشاعل والسهام المشتعلة .

وأمر سنحاريب أن تتقدم الدبابات وهى عربات أقيمت عليها أعمدة غطيت بأسقف لتحمى المهاجمين من الحجارة التى تلقى من فوق الأسوار ، فراحت الدبابات تزحف حتى دنت من سور المدينة ، فأمر خزائيل رجاله أن يصبوا على الآشوريين الزيت المغلى .

وارتفعت صرخات الفزع وهوت الأجساد تتلوى على الأرض وتقهقرت الدبابات ، ولكن سنحاريب أمر جنوده أن يشدوا على الأعداء ليقوضوا الحصن فعادت الدبابات تستأنف الهجوم ، وراح العرب يلقون الخطاطيف

لينتزعوا أسقف الدبابات حتى ينكشف الجنود لوابل الحجارة والسهام المشتعلة والزيت المغلى .

ونجحت دبابات آشور فى أن توطد مراكزها بالقرب من السور فراح المهاجمون يقوضونه بمعاولهم البرونزية ، ونجحوا فى أن ينقبوه فى أكثر من موضع فتدفق الجنود من الثقوب كالجرذان ، ودارت معركة رهيبة بين العرب والآشوريين بالقرب من باب الحصن استخدمت فيها الرماح والخناجر والمعاول البرونزية ، ونجح الآشوريون فى فتح الباب فانطلقت العربات كالسهام وانقضت على المدافعين كالصاعقة ، فكثر الطعن والنزال والكر والفر وارتفع صهيل الخيل وصليل السيوف .

وصاح خزائيل فى خيرة جنوده احملوا حملة رجل واحد ، شدوا يا رجال .

وانطلقوا يسابقون الريح ويهزون الرماح وهجموا فى عنف وصدق وإصرار فإذا بصفوف الآشوريين تنفرج ، فاهتبل خزائيل ومن معه هذه الفرصة وأفلتوا من الحصار الذى ضرب عليهم وفروا إلى الصحراء .

واشتد الحنق بسنحاريب فقد كانت أمنيته أن يقبض على عدوه اللدود فيضعه فى قفص ويحمله أسيرا إلى نينوى ليطوف به على شعبه ليشفى غليله ويروى ظمأه إلى الدماء ، ولكن خزائيل نجح فى أن يحطم الحصار وأن يلوذ بالصحراء وهو أدرى من الآشوريين بدروبها ومسالكها .

واستسلمت تلخانو ملكة عريبى لسنحاريب وقبلت أن تدفع ما فرضه عليها من جزية ، و لم يكتف سنحاريب بما قتل وصلب من رجال بل أخذ تابوه ابنة تلخانو معه لتتربى فى بلاط قصره ولتتعلم الولاء لآشور .

وساق سنحاريب الأسرى والغنائم إلى نينوى وخرج الشعب يحيى البطل ، واستقبلته زوجه زاكوتا بالبشر والترحاب وزينت له أن يجلس ابنه

أسارحدون معه على عرشه فى أثناء الاحتفال بالنصر المبين .

واستوى سنحاريب على عرشه وقرب إليه ابنه أسارحدون ، فأوغر ذلك صدور إخوته فلم يكن أسارحدون أكبر أبناء ملك آشور ولم يكن ولى عهده .

وعزفت الموسيقى وسار موكب الأسرى من رجال ونساء ، ثم وضع زعماء قيدار وعريبى ومن لاذ بهم من بنى إسماعيل على الخوازيق ، وراح الجلادون يسلخون بمديهم الطويلة الرجال وهم أحياء بين هتاف الشعب وتهليله .

وتمت مراسيم الاحتفالات وقدم سنحاريب إلى إلـٰهه آشور تقريرا بما كان وبعدد الأسرى والغنائم ، وسار فى ردهات القصر مرحا وإذا باثنين من أبنائه يفاجئانه ويطعنانه فى الصميم ويلوذان بالفرار .

سقط سنحاريب يخبط فى دمه وسكنت حركته إلى الأبد ، وتحققت رؤيا تلخانو وصدقت نبوءة النبى أشعيا .

٢٤

استولى أسارحدون على ملك آشور وكان يعرف أن الفضل لأمه زاكوتا فى ارتقائه عرش البلاد ، فما كان يبرم أمرا دون أن يستشير أم الملك . وعرف حكام الأقاليم أن الحل والربط فى يد زاكوتا إن شاءت رفعت وإن شاءت أقصت وإن شاءت سيرت الجيوش للفتك بأعـداء آشور وإن شاءت صفحت ، فراح الجميع يخطبون ودها ويبعثون إلى أم الملك بالتقارير عن حالة الدويلات التى خضعت لآشور .

وراح أسارحدون وأمه يتشاوران : إن مصر هى رأس المتاعب فهى تقف فى وجه التوسع الآشورى وتحرض حكام البلاد التى دانت لآشور على الثورة ، ولا تكتفى بالتحريض بل تمدهم بالعتاد والجيوش .

وكانت الأسرة الكوشية فى مصر أسرة قوية لها مطامع ، وكان ملوكها من ملوك نباتا فى شمال السودان وكانوا فى الأصل من الكهنة المصريين الذين فروا إلى الجنوب أيام أن هاجمت الجيوش المرتزقة فى ليبيا وادى النيل واستولت على ملك مصر . وقد زحف ملوك نباتا من الجنوب وطهروا شمال الوادى من أسرة الجنود المرتزقة التى جاءت من ليبيا وأعادوا لمصر وحدتها ، بل وأخذوا يفكرون فى إعادة ما كان لها من نفوذ فى جنوب غربى آسيا وعلى الأخص فلسطين .

وراح أسارحدون وأمه زاكوتا يدرسان الأحداث التى وقعت أيـام سنحاريب ، فقد انضم العرب إلى ثوار بابل ، واستسلمت تلخانو ملكة عريبى إلى حين ، وحملت ابنتها تابوه إلى البلاط الآشورى لتلقن فيه حب

آشور . ولكن خزائيل ملك قيدار فر إلى الصحراء وقلبه ينبض بالكراهية للآشوريين فلن يتورع عن أن يمد يده إلى أعداء آشور .

ومات ملك مصر بعد قتل سنحاريب فنودى بأخيه طهرقا بن بعنخى ملكا على البلاد ، وإن طهرقا لمن أشد أعداء آشور الألداء فقد خرج أيام ملك أخيه على رأس جيش إلى حدود مصر ليساعد ثورة إسرائيل ، عندما حاصر سنحاريب أورشليم واضطر أن يرفع الحصار عنها لما تفشى فى جيشه وباء الطاعون .

وراحت زاكوتا تنفث فى صدر أسارحدون مقت بنى إسماعيل وكراهية بنى إسرائيل وعداء المصريين . وكانت تزين له الاستيلاء على أورشليم وتقويض هيكل سليمان وقتال المصريين واعتلاء عرش الفراعين ، كل ذلك باسم آشور ، حتى يسيطر الإلٰه العطوف الإلٰه الرحيم على أعدائه ويمد نفوذه على العالمين . ولكن حقيقة هذه الحروب كلها كانت الرغبة فى الاستيلاء على طرق التجارة وحمل خيرات بلاد البحر الأبيض وبحر العرب « البحر الأحمر » إلى نينوى . فقد كان القتال منذ عرف البشر الحروب قتالا اقتصاديا وإن أعلن مرة باسم رع وآمون ، ومرة أخرى باسم مردوخ وعشتار ، ومرة ثالثة باسم عشتر وآشور .

وراح أسارحدون يلقى نظرة على تماثيل الآلهة التى حملت ذليلة إلى نينوى ، آلهة بابل وآلهة العرب وآلهة بنى إسرائيل وآلهة الآراميين ، وطافت به أمنية أن يأتى ذلك اليوم الذى يحمل فيه إلى آشور آلهة الفراعين .

وجاء كبير رجال القصر والبشر فى وجهه وقال :

ـــ خزائيل ملك قيدار جاء يلتمس المثول بين يدى مولاى العظيم .

فقال أسارحدون وقد تهلل بالبشر :

ـــ خزائيل هنا فى نينوى ؟

ــ إنه واقف بباب مولاى !

و لم يستطع أسارحدون أن يكتم ما به من فرح فقال :

ــ شكرا لآشور ! شكرا للرب العطوف !

وجلس أسارحدون على عرشه وعن يمينه أمه زاكوتا وابنه آشور بانيبال وعن يساره تابوه ابنة تلخانو ملكة عريبى وكاهنتها ، الأميرة العربية التى كانت تربى فى البلاط الآشورى ويغرس فى وجدانها حب آشور .

ودخل خزائيل وابنه يطع ووجوه قومه ، وما إن رأوا أسارحدون حتى خروا له ساجدين ، فانتفخت أوداج ملك آشور غرورا وأمرهم أن يرفعوا رءوسهم وأن يجلسوا إلى جواره .

وأقبل الرجال يحملون هدايا نفيسة أدخلت البهجة على قلب أسارحدون ، فأقبل على خزائيل يرحب به ويرعاه رعاية الصديق للصديق .

وبعد حفلات الترفيه والترحيب ، وبعد أن أزجت أم الملك النصائح إلى ابنها بدأت المفاوضات بين الملكين فأقسم خزائيل يمين الولاء لآشور وقبل أن يسوق كل عام خمسة وستين من الإبل إلى نينوى أكثر مما كان يدفع أيام سنحاريب قبل أن يعلن ثورته على الآشوريين . على أن يعيد ملك آشور إليه آلهته ، وعلى أن يضمن ملك قيدار لابنه يطع من بعده .

وخرج خزائيل من نينوى يحمل تماثيل آلهته وهو سعيد بأن خلصها من أسرها ، بينما ساد شعوب بنى إسماعيل وجوم ما لبث أن انقلب إلى ثورة تتأجج فى الصدور . فقد قبل خزائيل ملك قيدار عار الذل ولكن بنى إسماعيل لم يرضوه ، فوطدوا العزم على الثورة على ظلم آشور ، وعلى كل من طأطأ رأسه منهم لآشور فسرت فيه روح الهزيمة وقبل الاستسلام المهين .

ووفد خزائيل على دومة الجندل عاصمة ملكه وهو يحمل تماثيل الآلهة ، فارتفعت الابتهالات وانفعلت النفوس حتى سالت العبرات ، وضجت

جنبات العاصمة بالتهليل ، ولكن ما إن وضعت الآلهة فى محاريبها وقرأ الكهنة ما نقش عليها فى نينوى حتى ثاروا وحرضوا الشعب على الثورة ، فقد نقش عليها أن آشور رب الأرباب ، ودنست باسم أسارحدون !

وماتت تلخانو ملكة عريبى فأرسل أسارحدون الأميرة تابوه فى موكب ملكى لتتربع على عرش العرب بعد أمها ، ولم يرحب الشعب بمقدمها فقد أغلقت قلوبهم دونها فهى ربيبة البيت المالك الآشورى ترعرعت فى أحضان أبغض أهل الأرض إلى قلوب العرب ، فأطلت الثورة بخطمها فى أرض العرب الشماليين .

ومات خزائيل وولى الملك بعده ابنه يطع بتأييد أسارحدون ، ففرض عليه أن يؤدى له عشرة أميان ذهب وألف حجر « بيروتى » ومائة قربة مليئة بالمواد العطرية ، أزيد من الجزية التى كان يدفعها أبوه .

وقام وهب فى قيدار ثائرا على هذا الخزى ، وراح يحرض الشعب على شق عصا الطاعة على يطع وآشور معا ، ولم يكتف بذلك بل سار إلى مملكة عريبى ينفث فى الشعب روح الثورة على تابوه ربيبة آشور وصنيعتها ، ويدعوهم للجهاد المقدس .

ومشى إلى النبط أبناء عمومته واتفق معهم على أن يخلعوا ربقة آشور من أعناقهم وأن يعودوا أحرارا كما خلقهم الله . واندلعت الثورة على أسارحدون فى ممالك بنى إسماعيل من حدود بابل إلى سيناء .

وسرت روح الثورة إلى بابل فهبت لتسترد حريتها ، ورأى طهرقا ملك مصر أن الفرصة سانحة لتأليب الفينيقيين على حكم الآشوريين فراح يتصل بملوك صور وصيدا لمناوأة آشور فى ممتلكاتها فى سورية ، وخلق المتاعب أمام الحكم الآشورى .

ورأى أسارحدون أن الثورة شبت فى أرجاء ملكه تريد أن تنقضه من

أطرافه ، فخرج فى جيشه وأخمد ثورة بابل وخرب ودمر وقتل وأطاح بالرءوس وسلخ الجلود وزين بها الجدران ووضع زعماء الثورة على الخوازيق ثم قال :

— صعد الآلهة والإلـهات الذين كانوا يقطنون بابل إلى السماء ، بينما خضع من كانوا فيها من البشر للنير والنار والأغلال والقيود .

وبعث أسارحدون جيشا تحت إمرة القائد الأعلى للجيش الآشورى لمحاربة بنى إسماعيل الثائرين ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين فرجحت كفة آشور وثبت وهب وأبى أن يلوذ بالفرار .

واشتد وطيس القتال ، وشد الآشوريون على وهب وصحبه فأبى وهب أن يزول من مكانه وظل واقفا كالطود يمشى إلى أعدائه مشى الوعول ، يسدد سهامه إلى جحافل الآشوريين التى جعلته هدف هجومها .

وسقط الرجال صرعى حول وهب وهو كالليث يدافع عن عرينه وعن حرية شعوب لم تعرف الخنوع ألبتة . وضاقت الحلقة المضروبة حوله وحول من ثبت معه وكثر فيهم القتل إلى أن وقع وهب وحفنة من الرجال أسرى فى أيدى الآشوريين .

وعاد جنود آشور إلى نينوى بأغلى غنيمة وقعت فى أيديهم ، بوهب العربى الثائر من زين للعرب جميعا الثورة على آشور ، وعزفت الموسيقى واستوى أسارحدون على عرشه وجلست إلى جواره أمه زاكوتا التى غرست فى قلبه القسوة على أعداء آشور ، وابنه آشور بانيبال أحب أبناء أسارحدون إلى قلب زاكوتا لأن قلبه قد من صخر ولأنها تراه أشد قسوة من أبيه ، فهو رجل آشور المنتظر .

وسار وهب وهو مكبل بالقيود فى طرقات نينوى بين هتافات الشعب العدائية ، وقادوه إلى حيث جلس ملك آشور فوضع الأغلال فى عنقه وفى

أعناق صحبه فتعالت صيحات الشعب ، وأمر أسارحدون أن يربطوا فى قوائم باب قصره .

ولم تهمد ثورة بنى إسماعيل ولم يستكينوا للملوكهم الذين دانوا بالولاء للقوة الغاشمة ، ولم يدب اليأس فى قلوبهم بل مشت سفارات الزعماء بين قدار والنبط ومسا وأدبئيل فى سيناء .

وهبت مدينة صور تخلق المتاعب للآشوريين فى المنطقة وأيدها طهرقا ملك مصر فى ثورتها ، فبعث أسارحدون الجيوش لإخماد هذه الثورة ، ولكن جيوشه أخفقت فى اقتحام أسوار صور الحصينة ، فرأى أساحدون أن يأتى بنفسه ليدك حصونها ويشيع الخراب فى أرجائها .

وجاء أسارحدون فاستعصت عليه المدينة ولم يستطع التغلب عليها وكان لا بد أن يرفع الحصار عنها ، ولكن أيعود إلى نينوى والهزيمة فى ركابه ؟ فعقد العزم على أن ينطلق إلى مصر ليضع حدا لتدخل مصر وإثارة القلاقل فى ممتلكاته ، وليتحقق حلمه الذى راوده سنين : أن يحمل إلى نينوى آلهة المصريين أسرى وأن يرغم عبادها على أن يسجدوا لآشور .

وترك مينة صور محاصرة وتقدم بجيشه إلى وادى النيل ، واستولى فى سيناء على آلاف الجمال لنقل المؤن والمياه ، واستمر فى زحفه حتى وصل إلى وادى الطميلات فى شرق الدلتا ، وبعد خمسة عشر يوما سقطت فى يده منف غنيمة باردة .

ولما عاد أسارحدون من هذه الغزوة راح يقدم تقريره إلى إلـٰهه آشور عما فعله بمصر وبطهرقا ملك مصر فكتب :

« ومن مدينة « اشهوبرى » حتى مدينة منف مقر الملك ، وهى مسيرة خمسة عشر يوما ، كنت أحارب طهرقا « طرقو » ملك مصر وكوش الملعون من جميع الآلهة العظيمة حربا دامية لا هوادة فيها ، وقد أصبته خمس مرات

بسنان سهامى وأحدثت فيه جراحا لن يبرأ منها ، ثم حاصرت منف مقره الملكى واستوليت عليها بإحداث النقوب فى أسوارها وكسرها مستخدما سلالم الهجوم ، وخربتها ودككت أسوارها وأحرقتها وحملت زوجته الملكية ونساء قصره و « أوشانا هورو » ولى عهده وأولاده الآخرين إلى آشور ، واستوليت على ما كان يملكه من ماشية وجياد لا يحصيها عد ، ولا يحيط بها حصر .

وطردت جميع الكوشيين من مصر ولم أترك واحدا منهم ليقدم خضوعه ، وفى كل مكان من مصر عينت ملوكا جددا وحكاما وضباطا ورؤساء للموانى وموظفين ورجالا للإدارة ، ورتبت قرابين للإلٰه آشور وسادتى الآلهة العظيمة الأخرى .

وفرضت عليهم الجزية يقدمونها إلىّ عن يد وهم صاغرون ، وهأنذا آمر الجباة أن يحصلوها فى عنف دون رحمة أو إمهال ، وأمرت بعمل هذه اللوحة وعليها نقوش باسمى ، وكتبت فيها أمتدح قوة ربى آشور وأعمالى العظيمة عندما كنت أحارب العدو وفقا لأوامر ربى آشور الصادقة ، وأقمتها لتبقى على مدى الزمان حتى تراها بلاد أعدائى » .

ترى أتقبل مصر الهزيمة راضية ؟ وينام بنو إسماعيل على الضيم ؟ وتقبل سورية أن ترسف فى أغلال الاستعمار الآشورى ؟ وتحنى بابل رأسها لآشور إلى الأبد ؟

٢٥

هلك أسارحدون واعتلى آشور بانيبال العرش بتأييد جدته زاكوتا التى رعته منذ كان طفلا وكانت تعده لذلك اليوم العظيم ، يوم تصبح السلطة فى يده ليحقق الأحلام التى بثتها جدته فى وجدانه ، فقد كانت تحلم بأن تمتد رقعة آشور لتشمل أرجاء الأرض وتسيطر على العالمين .

هزم ابنها أسارحدون الفراعين وحمل نساء طهرقا وولى عهده ومركباته الملكية إلى نينوى ، ولكن سقوط منف فى أيدى جنود آشور لا يعنى استتباب الأمر فى مصر لملوك آشور ، فالخطر كامن هناك فى الجنوب ، فإن أمراء طيبة لم يناموا على الضيم وسيثورون على حكم نينوى كما ثاروا على حكم الهكسوس .

وراح آشور بانيبال بوحى من جدته زاكوتا يتأهب للانطلاق إلى طيبة ليقضى على الحكم الكامن فيها ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فقد كان يخشى إذا انطلق إلى مصر أن تندلع الثورات فى بابل وممالك بنى إسماعيل وصور ، فرأى قبل أن يغامر بالسير إلى وادى النيل أن يغزو بابل وأن يخضد شوكتها ، وأن يطأ بعرباته أرض العرب من بنى إسماعيل ، وأن يفتح حصن صور الذى امتنع على أبيه .

وانطلق بجيشه إلى بابل فهزم جيشها وعاث فيها فسادا ، ولما كان أقسى ملوك آشور قلبا فقد أمر بقطع رءوس المهزومين وشق شفاههم وقطع ألسنتهم ، وأمر بإرسال المشوهين إلى نينوى ليرضى شعبه المريض .

ونبحت الكلاب فمزق أوصال بعض الأسرى وألقى بها إليها ، فأقبلت

الكلاب على الأشلاء تنهشها — وأعجبته الفكرة فراح يقطع الأسرى ويلقى بأجسامهم للذئاب والخنازير وجوارح الطير وفى القنوات ليطعم الأسماك .

وكان يلتفت إلى من حوله ويقول فى ورع :

— ما فعلت هذا إلا إرضاء لقلوب الآلهة !

وأباح سوسة للجنود شهرا لينهبوها وينهبوا ما حولها من أراضى ، واستولى على ثروات ملوك عيلام ووزعها بين معابد آشور وجنوده المتعطشين للدماء .

ونادى الحاكم الآشورى على بابل وأصدر إليه أوامره بنهب قبور الملوك الأقدمين ورفع عظامهم حرمانا لأرواحهم من الراحة إلى الأبد ، كأنما لم يرو حقده دماء الأحياء التى سالت أنهارا فصب جام غضبه على أحداث الموتى .

واندفعت جيوش آشور بانيبال غربا نحو فينيقية ، ولبسوا هناك الثياب الأرجوانية التى ابتاعوها من التجار ، ولا غرو فقد اشتهرت هذه الأرض بالصبغة الأرجوانية التى كانت تصبغ بها الثياب ، وسميت لذلك أرض كنعان أى الأرجوانية قبل أن يندمج الكنعانيون فى الفينيقيين .

وحاصرت جيوش آشور صور وصيدا وبيبلوس ، وتحصن الفينيقيون فى الحصون وألقوا على المهاجمين الحجارة من فوق الأسوار ورموهم بالأسهم المشتعلة والزيت المغلى ، وعلى الرغم من استبسال المدافعين فقد نجح جنود آشور فى نقب جدران الحصون بمعاولهم والتدفق من النقوب إلى داخل الحصون.

واشتد القتال وكثر القتل فى الجانبين ، وانبهرت الأنفاس واستولى التعب على الرجال ، فنفد صبر الفينيقيين فاستسلموا للقتل والتعذيب ، فقطعت الرءوس وزينت بها أسوار الحصون ، وشقت الشفاه وقطعت الألسن وسلخ بعض الرجال وهم أحياء ، ووضعت القيود فى أيدى الزعماء وفى أعناقهم وسيقوا إلى نينوى زمرا وعرايا ، فأخذوا يرددون والأسى يمزق أكبادهم : يا

له من ذل وهوان !! .

وفرض آشور بانيبال الجزية عليهم فأرسلت إليه صور وصيدا وبيبلوس كميات من الفضة والذهب والرصاص والبرونز ، وخمسة وثلاثين إناء من البرونز ، وملابس من أقمشة زاهية الألوان ، وكمية من العاج ، ودرفيل من البحر الأبيض ، فاعتكف ليسجل نقوش انتصاراته الباهرة وليمجد إلـهه اشور الذى مكن له فى الأرض ونصره على أعدائه .

وكان أسارحدون قد أيد تنصيب يطع ملكا على قيدار بعد موت خزائيل ، وكان الآشوريون يطمعون فى أن يذكر لهم يطع هذا الجميل فيستكين لحكمهم فيأمنوا جانب أكثر الناس بغضا لآشور . ولكن ما إن هلك أسارحدون وتولى الملك آشور بانيبال حتى ضاق يطع بالعبودية لآشور ، إنه حر سليل الأحرار من سادات بنى إسماعيل لا يقبل الضيم ولا يرضى بالهوان . لخير له أن يقتل ويسلخ جلده وهو حى من أن يعطى بنو قيدار الجزية للآشوريين عن يد وهم صاغرون .

ومشى يطع إلى أبناء عمومته ، إلى ملك النبط وإلى ابن عمه مالك قمر زعيم قبيلة مسا ، وإلى زعماء قبائل بنى إسماعيل الآخرين ، وراح يحرضهم على قتال آشور ، وما أسرع ما استجابوا لدعوته فقد ألقيت عداوة الآشوريين فى سويداء قلوب العرب .

وتجهز بنو إسماعيل للقتال وخرجوا لحرب الآشوريين ، وعند أرك شرق تدمر التقى الجمعان : بنو إسماعيل يحملون آلهتهم ويبتهلون إليها أن تنصرهم على أعدائهم ، والآشوريون يحملون تماثيل آلهتهم .

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده ، وقد انتصروا على أعدائهم أيام كانوا ينصرون الله ، أما بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم واتخذوا الأصنام آلهة ليقربوهم إلى الله زلفى فقد أذاقهم الله العذاب ؛ ذلك بأنهم أعرضوا عن

ذكر ربهم ، فالله يعذب أقواما بأقوام ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ودارت رحى وأطلت المنون من سنان سهامهم وصحائف سيوفهم ، وانطلقت السهام من فوق ظهور الجمال كالشهاب ، وتجاوبت فى جنبات الفضاء صرخات امتزجت بصهيل الخيل وصليل السيوف ، وغطت أرض المعركة جثث القتلى فحومت نسور السماء فوق ساحة الوغى ثم انقضت تنهش الأجسام وتبقر البطون .

ومشى الرجال إلى الرجال وتقارعت السيوف بالسيوف ، وهوت المعاول على الرءوس وارتطمت السهام بالدروع ، واشتبكت الأيدى واختلط التراب بالعرق ، وبلغت القلوب الحناجر وذهبت النفوس شعاعا وأخذت المنون تلقف الرجال وتصرع الأبطال .

وانكشف العرب فانقض جنود آشور على من لم يستطيعوا الفرار من العسكر وأخذوا يأسرون الآلهة والرجال والنساء ، وقد وقعت أصنام يطع وأمه وزوجه فى أيدى الآشوريين .

وتفرق بنو إسماعيل وعاد يطع إلى دومة الجندل حصن العرب الحصين ، ولكنها لم تستطع أن تصمد فى وجه عواصف الآشوريين فقد نقبوا أسوارها بدباباتهم أكثر من مرة ، وتمكنوا من أن يضعوا عليها السلالم الطويلة على الرغم من الزيت المغلى الذى كان يصب فوقهم صبا .

وغضب آشور بانيبال غضبا شديدا لأن يطع حنث بقسمه العظيم الذى أقسمه لآشور وشماش ، فقد أقسم بالولاء لآلهة الآشوريين وسرعان ما نسى قسمه وراح يحرض العرب ويجمع شملهم لقتال آشور .

إن إلـٰهه العظيم آشور سلاح الآشوريين البتار قد أنزل الهزيمة بأعدائه ، ولكن يطع نجا بجلده من عذاب آشور ، ولن يرضى إلـٰهه العطوف قبل أن يرى يطع يجر أذيال الذل فى نينوى .

وبعث آشور بانيبال إلى التورتان ليتأهب ليدمدم على العرب بذنبهم وأن يسوى ممالكهم بالأرض ، وسمع ملك النبط بعزم ملك آشور فخاف مغبة نزول الآشوريين بملكه ، فستطاح الرءوس وتفتضح النساء ويحمل الرجال أسرى إلى نينوى لعذاب الهوان ! فرأى أن خير ما ينتهجه أن يتودد إلى ذلك الملك القاسي الذى إذا دخل قرية أفسدها وجعل أعزة قومها أذلة .

شق يطع عصا الطاعة وأعلن الثورة على آشور وساق الجيوش لقتال غلاظ الأكباد ، فإن حمل يطع أسيرا إلى نينوى سكن غضب آشور بانيبال وأرضى ذلك غروره وغرور إلـهه المتعطش للدماء ، وأنقذ ذلك النبط والعرب من الدمار والتخريب .

إنها تضحية ثقيلة على فؤاد ملك النبط أن يبعث ممن كان بالأمس ملكا على قيدار أسيرا ذليلا إلى نينوى ، أن يخون حليفه لينقذ نفسه وزوجه وأولاده وشعبه من المصير الذى ترتجف منه فرقا أقوى القلوب . إنه بين نارين اشتعلا فى كيانه ، أن يضحى بيطع أو يضحى بشعبه بل بقبائل بنى إسماعيل كلها .

وفى يوم نحس مستمر قبض ملك النبط على يطع ، على من لاذ به وطلب الإجاره فأجاره ، وأرسله أسيرا إلى آشور بانيبال ، وبعث مع رسله الهدايا الفاخرة وخضوعه وولاءه للدولة التى بعثت الرعب فى قلوب العالمين .

وفى قاعة العرش الآشورى استقبل آشور بانيبال وفد ملك النبط وهو يتهلل فرحا ، وجذب يطع من شعره وقال له :

ــ حنثت بقسمك وثرت على مولاى آشور ، إن مولاى آشور هو سيفنا البتار ، سلاحنا الذى انتصرنا به على كل الأعداء ، سترى الآن ماذا يفعل بك مولاى العطوف .

وشرد آشور بانيبال كأنما يتلقى وحى إلـهه ، وساد الصمت الرهيب فى قاعة العرش ، ثم قال الملك :

ـــ لو أمرت بإطاحة رأسك لأرحتك من العذاب ، ولو أمرت بسلخ جلدك وأنت حى فما أهون ذلك العذاب ، ولو وضعتك على الخازوق فستتأ لم لحظات ثم ينتهى كل شىء ، ولو مزقتك إربا إربا وألقيت بها إلى الكلاب لما شفى ذلك غليل مولاى آشور .

أمرنى مولاى آشور أن أضعك فى قفص وأن أعرضك على عباد آشور ليسبوك ويلعنوك ولتعذب فى كل حين .

ووضع يطع ملك قيدار فى قفص ، وحمل القفص وترك عند باب من أبواب نينوى ليتلقى إهانات الشعب الآشورى السقيم .

وراح آشور بانيبال يسجل فى نشوة : « لقد سلخت جلود كل من خرج علىّ من الزعماء وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم حرقا ووضعت بعضهم على الخوازيق ، أما الزعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم » .

وراح يفخر فى لوح آخر بأنه حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ولم يبق على واحد منهم حيا ليتخذه رهينة . ونقش على نقش آخر : « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق آشور وائتمروا بالشر علىّ فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنائزية وألقيت بأشلائهم الممزقة للكلاب والخنازير والذئاب ... وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام » .

وفى البلاط النبطى كان ملك النبط يسير مطأطئ الرأس خزيا ، فقد غدر بابن عمه ملك قيدار العظيم ليفر من الرعب الذى كان يحاصره ويستريح ، ولكنه لم يذق طعم الراحة منذ أن قبض على يطع وألقى به بين براثن وحش آشور ، إن الصيحات تنبعث من جنبات القصر وتردد :

ـــ خائن .. خائن .. خائن .

و لم تكن أصابع الاتهام تشير إليه من وجدانه فحسب ، بل إن أصبع مالك قمر ارتفعت وأشارت إليه وقال بصوت غاضب حاقد :

ـــ خنت ابن عمك يا ملك النبط ، أنت عار بنى إسماعيل ، ولا بد أن نغسل هذا العار .

وسار مالك قمر على رأس رجال قبيلة مسا إلى الأنباط فى الأردن ليثأروا ليطع ويمحوا ما حاق بهم من عار الخيانة ، وغزا ابن عمه ملك النبط الخائن وأعمل السيف فى الرجال الذين لم يثوروا على ملكهم ، على من فسق فى حق الجوار وخان وغدر وخارت قواه من شبح العذاب الشديد .

وأسرف مالك قمر فى القتل وحمل الغنائم وساق المواشى ليكون ذلك عبرة لكل خوار من بنى إسماعيل ، فنار العداوة مشبوبة بينهم وبين الآشوريين ولعنة الآلهة على من يطفئها قبل أن تلتهم ملك الظالمين .

وانطلق آشور بانيبال إلى وادى النيل وزحف من منف إلى طيبة يحرق الأشجار ويتلف الزرع وينهب المواشى ويقتل الرجال ويسبى النساء ، وطال حصاره لطيبة وأخيرا خرت ساجدة تحت قدميه .

وعاد آشور بانيبال إلى نينوى ليسجل أعماله فكتب فيما كتب : « وفى ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة فى القصر ... الذى شاده جدى سنحاريب ليقيم فيه وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداعت جدرانه ، وإذ كنت أنا آشور بانيبال الملك العظيم ، الملك القادر ملك العالم ، ملك آشور ... قد نشأت فى ذلك الحرم وحفظنى فيه آشور وسن وشمش ورامان وتابو وعشتار . وأنا ولى للعهد ، وبسطوا علىّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضى ، و لم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا وإذ كانت أحلامى وأنا على سريرى فى الليل أحلاما سارة كما كانت خيالاتى فى الصباح مبهجة جميلة ... فقد قوضت خرباته وأردت أن أوسع رقعته فقوضتها

جميعا ، وبنيت ربوة ولكنى وقفت خائفا أمام مزارات أربابى الآلهة العظام فلم أعل بهذا البناء كثيرا .

وفى شهر طيب ويوم موات وضعت أساسه فوق تلك الربوة وأقمت البناء وصببت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباء مونه ، كما صببتها على جداره الطينى . ولكى أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبنات فى عربات عيلام التى غنمتها منهم بأمر الآلهة ، وسخرت ملوك بلاد العرب الذين نقضوا الهدنة معى والذين أسرتهم فى الحرب بيدى وهم أحياء يحملون الأسفاط ويلبسون قلانس الفعلة ليشيدوا ذلك الحرم ، وكانوا يقضون نهارهم فى صنع اللبنات ويرغمون على العمل فيه فى أثناء عزف الموسيقى .

وشدت بناءه من قواعده حتى سقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ووضعت فوقه كتلا طويلة من أشجار الأرز التى تنمو على سرارا ولبنان ...

ولما فرغت من أعمال بنائه قربت القرابين العظيمة للآلهة أربابى ودشنته وأنا منشرح مغتبط الصدر ودخلته تحت ظلة فخمة » .

وبينما كان آشور بانيبال يمشى فى الأرض مرحا كأنما خرق الأرض وبلغ الجبال طولا ، كان ناحوم نبى بنى إسرائيل يعلن على الملأ ما أوحى إليه :

« وحى على نينوى .

يوم نبطش البطشة الكبرى ، والله عزيز ذو انتقام .

ويل لمدينة الدماء ، كلها مملوءة كذبا وخطفا ، لا يزول الافتراس .

صوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل تخب ومركبات تقفز وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث ، يعثرون بجثثهم .

من أجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر البالغة أمما بزناها ،

وقبائل بسحرها ، هأنذا عليك يقول رب الجنود فأكشف أذيالك إلى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والممالك خزيك .

وأطرح عليك أوساخا وأهينك وأجعلك عبرة ، وكل من يراك يهرب منك ويقول : خربت نينوى . من يرثى لها ؟ من أين أطلب لك معزين ؟؟

جميع قلاعك أشجار تين بالبواكير ، إذا هزت سقطت فى فم الآكلين .

هو ذا شعبك نساء فى وسطك ،

تتفتح لأعدائك أبواب أرضك ، تأكل النار مغاليقك .

تعست رعاتك يا ملك آشور ، اضطجعت عظماؤك ، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع .

ليس جبر لانكسارك . جرحك عديم الشفاء . كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام ؟! » .

ودنت أيام آشور بانيبال الملك القادر ، ملك العالم ، ملك آشور ، فراح يكتب فى آخر لوح من الألواح التى غصت بها مكتبته : « لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ، فلم إذن أصابنى المرض وحل بى الشقاء ؟ إنى عاجز عن إخماد الفتن فى بلدى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزعجة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئ من إشرافى . هأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ، يائسا فى يوم إلـٰه المدينة ، يوم العيد .

إن المنية تنشب فىّ أظفارها وتنحدر بى نحو آخرتى ، أندب حظى ليلا ونهارا وأنوح وأعول وأتوجع : « أى إلـٰهى ! هب الرحمة لإنسان وإن كان عاقا حتى يرى نورك ! » .

وراح يكتب العبارات التى ستوضع على قبره :

« إنك تعلم حق العلم أنك قد ولدت للفناء .

فاطرب وابتهج فى الأعياد .
وإذا مت فلن يبقى لك بعدئذ ما يسرك ،
ومن أجل هذا فإنى :
وقد حكمت من قبل تينس العظيمة .
لست الآن إلا ترابا .
ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجت بها
فى حياتى : الطعام التى أكلته واللهو الذى استمتعت به .
وملاذ الحرب ومسراتها .
أما ما عدا ذلك من الأشياء التى يراها الناس نعما ، فقد تركتها خلفى .

٢٦

ضاق المصريون بالآشوريين الذين عاثوا فى البلاد فسادا ، فغصت المعابد بالعباد ، وارتفعت الابتهالات إلى آلهة السماء التى خرت ساجدة لآشور ، وراح المصريون يناجون آمون :

ــ يا من خلق كل ما هو موجود ،
ومن عينيه نشأ الإنسان ،
ومن فمه الآلهة !
يا من فطر الأعشاب للماشية ،
وثمار الأشجار للبشر !
يا من نفخ الحياة للأسماك فى الماء ،
وللطيور تحت قبة السماء !
يا من منح الحياة للفرخ فى البيضة ،
وحفظ ابن الدودة حيا !
يا من ترزق البعوض والديدان والبراغيث !
يا رازق الجرذان فى جحورها !
ابعث فينا الثور القوى الذى يقتل الأعداء ،
الجميل فى ميدان القتال .
من ضربته كالشمس ،
من يطوى الجبل من على رقبة الشعب ،
من يمنح نسائم الحرية لمن وقعوا فى الأسر ؛

من ينتقم من عدوك وعدونا شر انتقام .

وقام أمير صالحجر ينفث فيمن حوله روح الثورة على من أهانوا آمون رع ، وراح يجهز عربات القتال ويدرب الرجال ويحرضهم على أن يهبوا لمحو ما لحق البلاد من عار ، واستعان بالكهنة ليعدوا الشعب للجهاد لقتال عدو آمون وعدهم .

ورأى القوم فى أمير صالحجر الثور القوى الذى أرسله آمون ليضرب به الآشوريين ، فالتفوا حوله وصاروا رهن إشارته ، فلما اطمأن إلى قوته انقض على الحامية الآشورية فى طيبة وأنزل بها شر هزيمة وقوض معابد آشور من أساسها .

وأجج انتصار أمير صالحجر على أعدائه وأعداء آمون نار الحماسة فى صدور المصريين ، فثارت المدن على من فيها من آشور ، واندفع الجيش المصرى المظفر كالإعصار يقتلع معاقل الأعداء حتى دخل أمير صالحجر القصر الملكى فى منف وطهره من المعتدين .

وترنح جنود آشور تحت ضربات المصريين ، كان الموت يتخطفهم من كل جانب وقد زلزلت الأرض زلزالها وبلغت القلوب الحناجر ، ودب الوهن فى نفوس الآشوريين فراحوا ينسحبون وهم يلعقون جروحهم حتى انقشع ظلهم عن وادى النيل ، فوحد أمير صالحجر مصر العليا والدلتا فى مملكة واحدة ونادى بنفسه ملكا عليها ، وبذلك أسس الأسرة السادسة والعشرين .

واستقلت مصر وبقيت سورية ترزح تحت نير الآشوريين ، ولكن مدينة صور ومدينة صيدا من مدن الفينيقيين ، وملوك النبط وقيدار وقبائل بنى إسماعيل الأخرى ثاروا على حكم الآشوريين وطردوا ممثل البلاط الآشورى من بلادهم .

كان سن شار اشكون ملك آشور قد ورث ملك بابل فيما ورث عن أجداده ، فقد قضى أسلافه على الملكية فى بابل وسلبوا كل سلطات الإلـٰه

مردوخ ومنحوها لآشور العطوف ، وقد ورث فيما ورث كراهية البابليين والفينيقيين والأراميين والعرب وبني إسرائيل ، فما كاد يستقر فى عرشه حتى اشتعلت الثورات التى كان يؤججها فراعين مصر ويمدونها بالوقود .

وثارت بابل ثورة عارمة لتحطم القيود وتزيح كابوس الآشوريين الجاثم على الصدور ، وهب بنو إسماعيل لنجدة البابليين وللقضاء على العدو المشترك .

وخرجت جيوش قيدار والنبط ومسا وقبائل الإسماعيليين الأخرى إلى البيداء الفاصلة بين بابل وممالكهم ، كانت الصحراء قد أخذت زخرفها وازينت ؛ النوار الأصفر يسر الناظرين وسفوح الجبال مستها عصا الربيع السحرية فكسيت بسندس أخضر ، كان الكون فى أبهى حلله يشرح الصدور ، ولكن الكراهية التى كانت فى سويداء قلوب بنى إسماعيل للآشوريين أعمت عيونهم عن كل جمال ، فقد كانوا خارجين للقضاء على الطغيان لتهب نسائم الحرية على العالمين .

وبينما كانت جيوش بنى إسماعيل تغذ السير لتشد أزر ثورة بابل ، كان حبقون نبى بنى إسرائيل ينظر إلى فاران ، إلى حيث استقر إسماعيل وأمه هاجر ، إلى مكة ، إلى أرض الخلاص ، وراح يصلى :

ــ الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران ، سلاه . جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور له من يده شعاع ، وهناك استنارت قدرته ، قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى .

ودخل بنو إسماعيل بابل وما دار بخلد أحدهم أن من أصلابهم سيأتى ذلك الذى سيملأ الأرض تسبيحا لله ، فى يده شعاع كتاب منير ، شريعة بيضاء تنير ملكوت السماء والأرض بنور ربها .

ودارت فى أرجاء بابل رحى الحرب وقد حمل كل فريق آلهته يستنصرها على عدوه ، وتجاوبت صيحات القتال وجرت العجلات الحربية فى الطرقات ، وفرت العربات الآشورية إلى الأزقة وخيل العرب وإبلهم وجند بابل فى أثرها تصليها نارا من سهامها .

وألقيت الحجارة والزيت المغلى من الدور على الآشوريين المنهزمين ، وأطلقت السهام من أبراج المعابد ، واشتبكت الأيدى فقد كان الصراع فى كل مكان يدور بلا رحمة لإزهاق النفوس .

وانهزم الآشوريون ولاذوا بالفرار ، وانطلق البابليون والعرب فى أثرهم يكيلون لهم الضربات القاضية ولا يتركون لهم فرصة لاسترداد أنفاسهم .

وخرج جيش آشور من بابل مرتدا إلى نينوى وجيوش أعدائه فى أثره ، وقد وطدت العزم على أن تسدد إليه طعنة قاتلة لا يقوم بعدها أبدا .

ودخل الجيش الآشورى عاصمة ملكه وأغلقت الأبواب خلفه ، وضرب الحصار على نينوى ونصبت المنجنيقات وقذفت الأسوار بالحجارة ، وجاءت الدبابات وقد احتمى تحتها الجنود وفى أيديهم المعاول ، ودنت من الأسوار ليتمكن الجنود من نقبها أو تقويضها من أساسها .

وأطلقت السهام المشتعلة من الحصون ، وصب الزيت المغلى من فوق الأسوار على رءوس المهاجمين ، وألقيت الخطاطيف لانتزاع أسقف الدبابات ، وجاء المهاجمون بالسلالم الطويلة وتمكنوا من وضعها على الأسوار ، وسرعان ما صعد فيها البابليون والعرب ودار قتال لا هوادة فيه فوق الأسوار ، وما لبثت أن فتحت أبواب نينوى لمن سامهم الآشوريون سوء العذاب .

وتدفق البابليون وبنو إسماعيل من أبواب المدينة الجميلة التى وضعت على جوانبها تماثيل الثيران المجنحة الهائلة لتحرسها روح آشور . ورأى المهاجمون

المناظر الوحشية التى زينت بها الجدران : رءوس تقطع وأكداس من الرءوس ، ورجال يسلخون وهم أحياء ، ورجال يصلبون ، ورجال تشق شفاههم وتقطع ألسنتهم ، وآخرون تفقأ عيونهم ، ورجال يوضعون على الخوازيق ، فثارت روح الانتقام فى نفوس المهاجمين .

كان ملوك آشور يفخرون بأنهم يشبعون غضبهم بالخوض فى دماء الشعوب ، فراح المهاجمون يثأرون من قساة القلوب ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا المعابد بعد أن خلصوا آلهتهم من ذل الأسر ، وحطموا تماثيل آشور ومرغوه فى الأوحال ، وقوضوا الدور وأشعلوا النيران فى القصور .

وصارت نينوى كما قال صفنيا نبى بنى إسرائيل :

ـــ ويبيد آشور ويجعل نينوى خرابا يابسا كالقفر ، فتربض فى وسطها القطعان كل طوائف الحيوان .

النوق أيضا والقنفذ يأويان إلى تيجان عمدها .

صوت ينعب فى الكون : خراب على الأعتاب .

هذه هى المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة ، القائلة فى قلبها : أنا وليس غيرى !

كيف صارت خرابا ، مربضا للحيوان .

كل عابر بها يصفر ويهز يديه .

ولفظت آشور أنفاسها إلى الأبد وتحققت أمانى الملكة شمس كاهنة قبيلة عريبى ، وخزائيل ملك قيدار وابنه يطع ، ووهب الثائر الذى جمع كلمة العرب وحمل لواء العصيان فى وجه الظالمين ، وطويت صفحة من تاريخ بنى إسماعيل لتبدأ صفحة جديدة من الكفاح مع دولة الكلدانيين ، دولة بابل الجديدة التى قامت ولكن إلى حين .

٢٧

كانت بابل تزهو على مدن العالم بجمالها ، فأبراج معابد الآلهة ترتفع فى السماء ، ونهر الفرات يشقها ، وامتدت الدور والقصور عن يمين وشمال ، وعلى النهر جسور ، وفى مجراه قوارب فى غدو ورواح تحمل سكان كل ضفة إلى الضفة الأخرى ، ومن الشمال إلى الجنوب طريق المواكب العظيم ، ووسط الطريق مرصوف ببلاط من حجر الجير ، وعلى الجانبين بلاط آخر من حجر أحمر معروق بالأبيض وكتب على حافة كل واحدة : « أنا بختنصر ملك بابل ابن نابو بولاسار ، أيها الإلـٰه العظيم مردوخ امنحنا الحياة الأبدية » .

كانت آشور قد أمست فى الغابرين واندثرت عبادة إلـٰهها العطوف ، وعاد ملوك الكلدانيين إلى بابل ، واسترد مردوخ مجده ، وتربع على عرش بابل الجديدة نبوخذنصر « بختنصر » ، ولكيلا يصلْ إلى « انجور بعل » حائط بابل أى هجوم ، شيد جدارا جبارا شرقى بابل طوله أربعة آلاف ذراع ، وحفر خندقا ووضع أساسا بالقار والطوب الأحمر ، ومن فوقه أقام سورا بارتفاع جبل .

كتب نابو بولاسار : « أوحى إلىّ مردوخ أن أدعم أساس برج بابل وكان قد ضعف وأصابه الوهن ، فكان على أن أجعل هذا الأساس يضرب فى الأرض إلى العالم السفلى بينما يشمخ برأسه إلى السماء » . وراح ابنه بختنصر يقيم معبد « إتمنانكى » ليبلغ الجبال طولا .

ودخل بختنصر الملك الأمى ـــ الذى لا يقرأ ولا يكتب ـــ معبد مردوخ ، وأمر أن يكتب لإلـٰهه العظيم ابتهالاته :

« إنى أحب طلعتك السامية ، كما أحب حياتى الثمينة !
إنى لم أختر لنفسى بيتا فى المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل .
ليت البيت الذى شيدته يدوم إلى الأبد بأمرك أيها الإلـٰه الرحيم ،
ولعلى أشبع ببهائه وجلاله وأبلغ فيه الشيخوخة ويكثر ولدى ،
وتأتى إلىّ فيه الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بنى الإنسان أجمعين » .

وراح يخاطب مردوخ فى تذلل وخضوع :

« إذا لم تكن أنت يا ربى ، فماذا يكون ،
للملك الذى تحبه وتنادى باسمه ؟
وستبارك لقبه حسب مشيئتك ،
وتهديه صراطا مستقيما .
أنا الأمير الطائع لك ،
باق كما صنعتنى يداك ،
إنك أنت خالقى ،
وأنت الذى حكمتنى فى جيوش العباد ،
وبمقتضى رحمتك يا مولاى ،
بدل قوتك الرهيبة حبا ورحمة ،
وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك ،
وهبنى ما ترى فيه الخير لى » .

كان بختنصر يقوم بتحصين عاصمته بينما كان بنو إسماعيل يغدون ويروحون بين بابل ومصر واليمن يحملون البخور والطيب للمعابد ويسعون بين العواصم للتجارة وحمل منتجات مصر إلى بابل ومنتجات بابل إلى مصر والنزول بأسواق العرب .

وفى مملكة النبط قام عدنان بن أدد ، من جاء من نسل نابت بن إسماعيل

ويشجب بن نابت ويعرب بن يشجب يوحد كلمة العرب ويقوى صفوفهم ، حتى لا يكونوا لقمة سائغة للطامعين .

وولد عدنان معد وعك ، وكان معد طفلا لم يبلغ الحلم ، وعلى الرغم من حداثة سنه وأنه ابن سيد قومه فقد كان مرهف الحس يحيى حياة التقشف ويكرس وقته للعبادة والحياة الخشنة ، حتى إن معدا أصبحت تعنى شظف العيش ، وحتى إن رسول الله الذى جاء من صلبه قال يوصى قومه : اخشوشنوا وتمعددوا .

وركب بنو إسرائيل المعاصى واستحلوا المحارم وراحوا يعبدون بعل وهدد والأوثان ويقيمون فى أعالى الجبال الأنصاب ، ونسوا الذل الذى أذاقهم الله على أيدى الآشوريين وأن الله نجاهم من عدو الله وعدوهم ، فأوحى الله إلى أرميا نبيهم :

ــ ائت قومك من بنى إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به ، وذكرهم نعمى عليهم وعرفهم أحداثهم .

قال أرميا :

ــ إنى ضعيف إن لم تقونى ، عاجز إن لم تبلغنى ، مخطئ إن لم تسددنى ، مخذول إن لم تنصرنى ، ذليل إن لم تعزنى .

فأوحى الله إليه :

ــ ألم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى ؟ وأن القلوب كلها والألسن بيدى أقلبها كيف شئت فتطيعنى ؟ وأنى أنا الله الذى لا شىء مثلى ؟ قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتى . وأنا كلمت البحار ففهمت قولى ، وأمرتها ففعلت أمرى ، وحددت عليها بالبطحاء فلا تعدى ، حتى تأتى بأمواج كالجبال ، حتى إذا بلغت حدى ألبستها مذلة طاعتى خوفا واعترافا بأمرى .

إنى معك ولن يصل إليك شىء معى ، وإنى بعثتك إلى خلق عظيم من خلقى لتبلغهم رسالاتى وتستحق بذلك مثل أجرة من اتبعك منهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، وإن تقصر به عنها تستحق بذلك مثل وزر من تركت فى عماه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا .

انطلق إلى قومك فقل : إن الله ذكر بكم صلاح آبائكم ، فحمله ذلك على أن يستثنيكم يا معشر الأبناء . وسلهم كيف وجد آباؤهم مغبة طاعتى ، وكيف وجدوا هم مغبة معصيتى ، وهل علموا أن أحدا قبلهم أطاعنى فشقى بطاعتى أو عصانى فسعد بمعصيتى .

إن هؤلاء القوم رتعوا فى مروج الهلكة ، أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولا يتعبدونهم دونى ، ويحكمون فيهم بغير كتابى ، حتى أجهلوهم أمرى ، وأنسوهم ذكرى ، وغروهم منى .

وأما أمراؤهم وقادتهم فبطروا نعمتى وأمنوا مكرى ونبذوا كتابى ، ونسوا عهدى وغيروا سنتى ، ودان لهم عبادى بالطاعة التى لا تنبغى إلا لى ، فهم يطيعونهم فى معصيتى ويتابعونهم على البدع التى يبتدعون فى دينى ، جرأة على وغرة وفرية علىّ وعلى رسلى ، فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى ، وهل ينبغى لبشر أن يطاع فى معصيتى ؟ وهل ينبغى أن أخلق عبادا أجعلهم أربابا من دونى ؟

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيتعبدون فى المساجد ويتدينون بعمارتها لغيرى لطلب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير العلم ، ويتعلمون فيها لغير العمل ، وأما أولاد الأنبياء فممتكرون مقهورون مغترون ، يخوضون مع الخائضين ، فيتمنون علىّ مثل نصرة آبائهم والكرامة الى أكرمتهم بها ، ويزعمون أن لا أحد أولى بذلك منهم منى بغير صدق ولا تفكر ولا تعبد ، ولا يذكرون كيف نصر آبائهم لى ؟ كيف كان جدشم فى أمرى حين غير المغيرون ، وكيف بذلوا

أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى ؟ فتأنيت بهؤلاء القوم لعلهم يستجيبون ، فأمليت لهم وصفحت عنهم لعلهم يرجعون ، فأكثرت ومددت لهم فى العمر لعلهم يتفكرون ، فأعذرت وفى كل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو فلا يزدادون إلا طغيانا وبعدا منى ، فحتى متى هذا ؟ أبى يتمرسون أم إياى يخادعون ؟ فإنى أحلف بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ، ويضل فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جبارا قاسيا عاتيا ، ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرأفة والرحمة والليان ، يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم له عساكر مثل قطع السحاب ، ومراكب أمثال العجاج ، كأن خفيق راياته طيران النسور ، وكأن حملة فرسانه كرير العقبان .

ثم أوحى الله عز وجل إلى أرميا :

— إنى مهلك بنى إسرائيل بأهل بابل .

فلما سمع أرميا وحى ربه صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فقال :

— ملعون يوم ولدت فيه ويوم لقنت فيه التوراة . ومن شر أيامى يوم ولدت فيه ، فما أبقيت آخر الأنبياء إلا لما هو شر علىّ . لو أراد بى خيرا ما جعلنى آخر الأنبياء من بنى إسرائيل ، فمن أجلى تصيبهم الشقوة والهلاك .

وناداه ربه :

— يا أرميا أشق عليك ما أوحيت لك ؟

— نعم يا رب . أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أسر به .

— وعزتى وجلالى لا أهلك بيت المقدس وبنى إسرائيل حتى يكون الأمر من قبلك فى ذلك .

ففرح عند ذلك أرميا وطابت نفسه وقال :

— لا والذى بعث موسى وأنبياءه بالحق لا آمر ربى بهلاك بنى إسرائيل أبدا .

وانقلب أرميا إلى ملك بنى إسرائيل مسرورا فأخبره بما أوحى الله إليه ، فاستبشر وفرح وقال :

— إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة قدمناها لأنفسنا ، وإن عفا عنا فبقدرته .

ومرت ثلاث سنين وازدادت المعاصى فى إسرائيل وفى يهوذا ، وألهتهم الدنيا عن ذكر الله ، وخاف الملك غضب الله فراح يقول لشعبه :

— يا بنى إسرائيل انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يمسكم بأس الله ، وقبل أن يبعث الله عليكم قوما لا رحمة لهم بكم ، فإن ربكم قريب التوبة مبسوط اليدين بالخير ، رحيم بمن تاب إليه .

واستمر بنو إسرائيل فى اقتراف المعاصى يعبدون الأوثان ويتقربون إلى آلهة الأمم ويغرقون فى الدنس ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يسير إلى بيت المقدس وأن يفعل فيه ما كان الآشوريون يفعلون .

وخرج بختنصر من بابل فى ستمائة ألف راية يريد أهل أورشليم ، فلما فصل سائرا أتى ملك بنى إسرائيل الخبر أن بختنصر قد أقبل هو وجنوده يريدكم ، فأرسل الملك إلى أرميا فجاءه فقال :

— يا أرميا أين ما زعمت لنا أن ربك أوحى إليك ألا يهلك أهل بيت المقدس حتى يكون منك الأمر فى ذلك .

— إن ربى لا يخلف الميعاد وأنا به واثق .

وخرج أرميا من عند الملك ، وفيما هو فى الطريق أتاه رجل يستوقفه فقال له أرميا :

— من أنت ؟

— أنا رجل من بنى إسرائيل أستفتيك فى بعض أمرى .

ـــ تكلم .

ـــ يا نبي الله أتيتك أستفتيك فى أهل رحمى ، وصلت أرحامهم بما أمرنى الله به ، لم آت إليهم إلا حسنا و لم آلهم كرامة فلا تزيدهم كرامتى إياهم إلا إسخاطا لى ، فأفتنى فيهم يا نبى الله .

ـــ أحسن فيما بينك وبين الله ، وصل ما أمرك الله أن تصل ، وأبشر بخير .

وانصرف عنه الرجل فمكث أياما راح فيها المنافقون يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقوى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح الفقراء وطحن عظامهم ، وراح أرميا يذكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين . ثم أقبل إليه الرجل يستفتيه فقعد بين يديه فقال له أرميا :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا الرجل الذى أتيتك أستفتيك فى شأن أهلى .

ـــ أوَ ما ظهرت لك أخلاقهم بعد و لم تر منهم الذى تحب ؟

ـــ يا نبى الله والذى بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا وقد أتيتها ، وأفضل من ذلك .

ـــ ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم واسأل الله الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلح ذات بينكم وأن يجمعكم على مرضاته ويجنبكم سخطه .

فقام الرجل من عنده فلبث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول أورشليم بأكثر من الجراد ، ففزع منهم بنو إسرائيل وبلغت القلوب الحناجر ، وشق ذلك على الملك فدعا أرميا فقال :

ـــ يا نبى الله أين ما وعدك الله ؟

ـــ إنى بربى واثق .

وقعد أرميا على جدار بيت المقدس ينظر إلى بختنصر وجنوده يضحك

ويستبشر بنصر ربه الذى وعده ، وأراد سراة المدينة أن يسترضوا ربهم فأطلقوا من كان عندهم من عبيد بنى إسرائيل ، ورفع بختنصر الحصار عنهم لفترة قصيرة ، فخيل إليهم أن الخطر قد زال ، فقبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة .

وجاءه الرجل الذى استفتى أرميا مرتين وقعد بين يديه فقال له أرميا :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا الذى كنت أتيتك فى شأن أهلى مرتين .

ـــ أوَ لم يأن لهم أن يفيقوا من الذى هم فيه ؟

ـــ يا نبى الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه وأعلم أن ما لهم فى ذلك سخطى ، فلما أتيتهم اليوم رأيتهم فى عمل لا يرضاه الله ولا يحبه .

ـــ على أى عمل رأيتهم ؟

ـــ رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله ، فلو كانوا على مثل ما كانوا عليه من قبل اليوم لم يشتد غضبى عليهم وصبرت لهم ورجوتهم ولكنى غضبت اليوم لله ولك فأتيتك لأخبرك خبرهم ، وإنى أسألك بالله الذى هو بعثك بالحق إلا دعوت عليهم أن يهلكهم الله .

ـــ يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم .

وكان بنو إسرائيل على سخط الله وعمل لا يرضاه فحمل بختنصر وجنوده على أبواب أورشليم فإذا بالأبواب تنهار ، فلما رأى ذلك أرميا صاح وشق ثيابه ونبذ التراب على رأسه وقال :

ـــ يا ملك السماء ويا أرحم الراحمين ، أين ميعادك الذى وعدتنى ؟

فنودى :

ـــ يا أرميا إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك التى أفتيت بها رسولنا .

وعرف أرميا أن الذى جاءه يستفتيه لم يكن رجلا من بنى إسرائيل بل كان رسول ربه ، وأنه أفتى بهلاك قومه فنزل عن سور أورشليم التى عزم الله على هلاك أهلها ، وانطلق بعيدا وفى القلب حسرة وفى العين دموع .

٢٨

اندفعت عربات بابل الحربية فى طرقات أورشليم كالسهم المنطلق وانقضت على بنى إسرائيل انقضاض الصواعق ، ودارت فى الشوارع المؤدية إلى هيكل سليمان معارك بالسيوف وبالسهام ، ولما كانت قلوب بنى إسرائيل هواء قد طار منها الإيمان فقد خر الرجال أسرى أو لاذوا بالفرار .

وسقطت المدينة الحصينة فى قبضة بختنصر ، فأحرق الهيكل وجمع التوراة وأشعل فيها النيران بعد أن غنم كل ما كان فى بيت المقدس ، واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل .

وزحف جيش بختنصر على مملكة يهوذا ، ودار القتال فى السامرة بين أهل بابل واليهود ، وسرعان ما خرت اليهودية ساجدة تحت أقدام ملك الكلدانيين .

وأمر بختنصر جنوده أن يجمعوا سبايا إسرائيل وسبايا يهوذا ، وإذا بشيوخ وعجائز ورجال ونساء وصبيان يملئون الأفق قد طأطئوا الرءوس فى ذل وانكسار ، وزاد فى أساهم أن توراة الله قد التهمتها النيران .

وكان فى الأسرى سبعة آلاف من أهل بيت داود ، وسبعة عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط أشر بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفا من سبط زبالون بن يعقوب ونفثالى بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب جد اليهود .

ونظر بختنصر إلى سبايا بنى إسرائيل وشرد يفكر ، ثم أمر أن يجعلوا ثلاث فرق ، فلما تم تقسيمهم أقر ثلثا بالشام وثلثا سبا وثلثا أعمل فيهم القتل .

وانطلق بالغنائم والأسرى إلى بابل ، وكان بين السبايا سبعون ألف صبى فيهم دانيال وحنانيا وعزير .

وهام الذين فروا من بنى إسرائيل على وجوههم ثم انسابوا فى جزيرة العرب يلتمسون الأمن ، فنزلت طائفة فى تيماء وطائفة بخيبر ، ومضى أشرفهم وأكثرهم حتى أتوا يثرب فنزلوا بها وقالوا : إنها مهاجر الرسول الذى سيبعثه الله فى الأميين .

وضغط النبط على الأدوميين فقد كانوا يتطلعون إلى موطنهم الحصين ، وإلى مناجم النحاس والحديد فى أدوم ، ودار القتال بين أبناء نابت بن إسماعيل وأبناء العيص بن إسحاق ، وعلى الرغم من موقع سلع الذى تحيط به الجبال الشامخة من كل مكان فقد تمكن النبط من أن يتدفقوا من المدخل الضيق بين الجبال إلى الوادى الفسيح .

ونزل الخراب بأرض أدوم وكثر فيهم القتل ، فجلوا عن بلادهم وساروا حتى نزلوا بأورشليم ، بالمدينة التى خربها بختنصر ملك الكلدانيين ، واستقروا فى فلسطين .

وأضحى النبط يسيطرون على شرايين التجارة التى كانت تمر بأرض أدوم لتحمل تجارة العربية الجنوبية وتجارة أفريقية والهند التى تنقل بالطرق البرية إلى دمشق وغزة ، وبدأت تزدهر حضارة النبط أعظم حضارات بنى إسماعيل .

وجاء أرميا على حمار له معه عصير من عنب فى ركوة وسلة تين من أقصى أورشليم يسعى ، وراح يقلب وجهه فى المدينة المقدسة فألفى الخراب فى جنباتها والبوم ينعب على أطلالها والذئاب تعوى فى أرجائها ، وقد ملئ بيت المقدس ترابا وصارت الدور رمادا ، فلوى عنق حماره وانطلق مخلفا المدينة التى نزل بها غضب الله .

وحانت منه التفاتة ليرثى بيت المقدس ، هيكل سليمان الذى تجاوبت فيه

صلوات بنى إسرائيل ، الذى تليت فى محرابه توراة الله التى نزلت على موسى الكليم ، فإذا بالمكان موحش يقبض القلب ويبعث فى الصدور حسرات .

ودمعت عينا أرميا بعد أن وقعتا على رماد التوراة الذى راحت الرياح تذروه فقد نزعت التوراة من الأرض بعد أن نزعت من الصدور ، وحلت اللعنة ببنى إسرائيل .

وعبث الشك بأرميا فقال لما رأى أورشليم خاوية على عروشها :

ـــ أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟

فأماته الله ليبعثه وليجعله آية للناس .

وعكف بنو إسرائيل فى أرض السبى على كتابة التوراة بأيديهم يجعلونها قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا . إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

كانوا أذلاء فى الأسر يعبث أهل بابل بمقدساتهم ويستبيحون نساءهم فراحوا يصمون الأنبياء بالنقص ، يجعلونهم عباد شهـوة وشراب خمر ، وينسبون إليهم الغش والخداع وسرقة البركة لينفسوا عـن مـرارة مـا فى نفوسهم . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

وراحوا يحاولون أن ينفضوا عن أصلهم العربى بتأسيس جنس لا سند له من واقع ولا تاريخ أطلقوا عليه اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق ، وجعلوا من أنفسهم شعبا مختارا ، وصاروا هم الناس ومن عداهم أمم من

حقهم أن يستحلوا أموالهم ودماءهم . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

وكتبوا فى التوراة بأيديهم أن الله أورثهم الأرض التى بارك فيها للعالمين وجعلهم أئمة ، ونسوا أن الله قال لإبراهيم : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

وجعلوا النبوة فيهم فهم الذين سيرقدون وحدهم يوم القيامة فى حضن إبراهيم فى جنات النعيم ، ولما كان بنو إسماعيل ينافسونهم فى التوحيد وفى عبادة الله الواحد القهار وفى أنهم مثلهم من ذرية إبراهيم ، وأكرمهم الله بأن أمر بإقامة بيته فى أرضهم قبل أن يبنى سليمان الهيكل بقرون ، فقد كرهوا منافستهم وصمتوا عنهم الصمت المريب ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

ومرت السنون وأحبار إسرائيل يكتبون التوراة بأيديهم . يلبسون الحق بالباطل ، قد وقع الخلاف بينهم وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

وبينا كان بختنصر نائما رأى رؤيا وقد أعجبه ما رأى ، وما إن أتمها حتى قام من رقاده وهو يتهلل بالفرح .

واستأنف نومه ولما أشرقت الأرض بنور ربها نهض يتثاءب وراح يفكر فى حلمه . بيد أن شيئا أصابه فأنساه الذى كان رأى ، فأرسل يستدعى السحرة والكهنة والذين ينظرون فى النجوم وحكماء مملكته ، وقال لهم :

ـــ أخبرونى عن رؤيا رأيتها ثم أصابنى شىء فأنسانيها .

ـــ أخبرنا بها نخبرك بتأويلها .

ـــ لا أذكرها ، وإن لم تخبرونى بتأويلها أمرت بقتلكم جميعا .

وعجز السحرة والكهنة وحكماء الكلدانيين عن معرفة حلم الملك ، فأمر بقتل كل سحرة بابل وحكمائها ، ولما جاء الجلادون ليأخذوا دانيال وصحبه طلبوا أن يدخلوا على الملك ، فدخل دانيال وحنانيا وعزير من ذرارى أنبياء بنى إسرائيل فلما مثلوا بين يديه قال لهم :

ـــ أخبرونى عن رؤيا رأيتها ثم أصابنى شيء فأنسانيها وقد كانت أعجبتنى ، ما هى ؟

ـــ أخبرنا بها نخبرك بتأويلها .

ـــ ما أذكرها ، وإن لم تخبرونى بتأويلها لأنزعن أكتافكم .

فخرجوا من عنده يتلفتون فى فزع ، فسيصب عليهم بختنصر جام غضبه إن لم تدركهم رحمة السماء .

وراحوا يصلون إلى الله صلاة حارة ويدعون رب آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويتضرعون إليه ويسألونه أن يعلمهم إياها ، فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم .

وأوحى الله إليهم ما سألهم عنه بختنصر ، فانشرحت صدورهم وطلبوا المثول بين يدى ملك الكلدانيين ، فلما أذن لهم ساروا فى طرقات القصر العظيم مرفوعى الجبين .

كان بختنصر جالسا على عرشه يحف به رجال قصره ، فدخل عليه دانيال وعزير وحيوه دون أن يخروا له ساجدين ، ثم قالوا له :

ـــ رأيت تمثالا .

ـــ صدقتم .

ـــ قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد .

ـــ صدقتم .

— فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك ، فأرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته فهى التى أنستك رؤياك .

— صدقتم ، فما تأويلها ؟

— تأويلها أنك رأيت ملك الملوك ، فكان بعضهم ألين ملكا من بعض ، وبعضهم كان أحسن ملكا من بعض ، وبعضهم كان أشد ملكا من بعض ، فكان أول الملك الفخار وهو أضعفه وألينه ، ثم كان فوقه النحاس وهو أفضل منه وأشد ، ثم كان فوق النحاس الفضة وهى أفضل من ذلك وأحسن ، ثم كان فوق الفضة الذهب فهو أحسن من الفضة وأفضل ، ثم كان الحديد ملكك فهو أشد الملوك وأعز مما كان قبله .

وكانت الصخرة التى رأيت أرسل الله عليه من السماء فدقته نبيا يبعثه الله فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه ، وتستمر مملكة الله فى الأرض إلى الأبد .

رأى بختنصر تتابع العصور منذ خلق الله الخلق : عصر الفخار ثم عصر النحاس ثم عصر الحديد ، ثم بزوغ نجم ذلك النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة .

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون .

٢٩

كان برخيا من نسل يهوذا أبى اليهود جميعا ، وكان فى نجران يتعبد لرب إسرائيل ، فلما بلغه أن بختنصر أحرق هيكل سليمان وحمل بنى إسرائيل وبنى يهوذا وأبناء الأسباط إلى بابل وأخذ عمالهم ونجاريهم وبنائيهم ليشيدوا مجد الكلدانيين نزل به هم ثقيل ، وزاد فى حنقه أن مجد بنى إسماعيل بدأ يتألق بينا مجد إسرائيل أفل وحاق بهم الذل المهين .

هيكل الرب فى بيت المقدس أكلته النيران ، وراحت ذئاب البرية تعوى فى جنباته والبوم تنعب على أطلاله ، وأصبحت أورشليم خاوية على عروشها ، بينا بيت الله فى مكة البيت المحرم الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل يتألق بالنور ، يأمن فيه الطير ويلوذ به الخائف ، إنه لا يزال حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء ، أهله فى سلام بينا يتخطف الناس من حولهم !

ونهشت نار الغيرة قلب برخيا وضاق بالحنق على بنى إسماعيل صدره ، فإن كان الخراب قد حل بإسرائيل وهيكلها فلن يطفئ لهيب مقته إلا أن يرى البيت المحرم بمكة خرابا يبابا . ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ؟

وامتطى برخيا راحلته وانطلق من نجران إلى بابل وقد عزم على أن يدخل على بختنصر وأن يخر له ساجدا وأن يوغر صدره على العرب ، فما دام الدمار قد حاق ببنى إسرائيل فليحرض ملك الكلدانيين على أن يلبس منافسيهم من بنى إسماعيل لباس الذل وأن يجعلهم حصيدا خامدين .

ودخل بابل وكانت عروسا تزهو بجمالها على مدن العالمين ، أبراجها عالية

تضرب فى السماء شامخة ، وتعلن للملأ مجد مردوخ وسين وشماش وعشتار وآلهتها أجمعين ، يحيط بها سورها العظيم بأبوابه المائة ، فجعلها حصنا حصينا تستعصى على جبابرة الأرض ، وأطلق فى معابدها البخور ونحرت الذبائح وقدمت للآلهة القرابين لتكون فى حماية السماء وأرباب العرش العظيم .

وراح نهر الفرات يجرى وسطها وعن يمينه وشماله قامت الدور والقصور وحدائق بابل المعلقة التى أدهشت العصور .

كانت مقامة على أساطين مستديرة متتالية طبقة من فوقها طبقة وقد أنشأها بختنصر بعد أن تزوج ابنة سباخار ملك الميديين . لم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ، فدفعت الشهامة زوجها فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة وغطى سطحها الأعلى بطبقة سميكة من الطمى وغرس فيها الأزهار والأشجار وجعلها جنة تسر الناظرين ، ورفع المياه إليها من نهر الفرات بآلات مائية مخبأة فى الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق .

وراحت نسوة القصر يمشين غير محجبات آمنات من أعين الناس فقد كانت الحدائق ترتفع عن الأرض خمسا وسبعين قدما .

اجتاز برخيا بوابة عشتار ولم تخطف بصره روعة الفن البابلى ولا تماثيل الأسود البارزة ولا دقة التهاويل التى زينت البوابة العظيمة التى كان جمالها يسبى العقول ، كانت آية من الفن الكلدانى ، ولكن مشاعره الثائرة فى نفسه أعمته عن كل ما حوله من روعة ، فقد كدر حقده على العرب كل صفاء وشوه كل جمال .

وبلغ الميدان الكبير فألفى بختنصر قد أقام تمثالا من الذهب لمردوخ رب الأرباب إلٰهه العظيم ، طوله ستون ذراعا وعرضه ست أذرع ، وقد غص المكان بالكهنة والمرازبة والولاة والقضاة وقواد الجيش وحكام الولايات

والمغنين والمرتلين .

ونادى المنادى :

ـــ أمرتم أيها الشعوب والأمم أن تخروا لمردوخ العظيم ساجدين إذا ما نفخ فى الصور .

وجلجل فى الميدان صوت القرن والناى ، وسرى العزف على العود والرباب ، وتساوقت مع هذه الموسيقى أنغام المزامير ، وارتفعت ابتهالات المرتلين لرب الناس وخالق الناس . فإذا بجباه الكهنة والمرازبة والولاة والقضاة وقواد الجيش وحكام الولايات والناس أجمعين تلتصق بالأرض ، وإذا ببختنصر يخر ساجدا وتمتزج دموعه بالتراب . وتمت المراسيم وقضى الاحتفال العظيم ، وراح برخيا ينظر إلى بنى إسرائيل الذين يسيرون فى أرض السبى مطأطئى الرءوس فيستشعر حسرة ، فإن كان أعجز من أن يحررهم من ذل الأسر فلا أقل من أن يلحق بهم منافسيهم من بنى إسماعيل .

وانطلق إلى القصر يدرج على البلاط الذى كتب على حوافيه : « أنا بختنصر ملك بابل ، ابن بابو بولاسار ، أيها الإلٰه العظيم مردوخ امنحنا الحياة الأبدية » ، حتى إذا بلغ كبير موظفى القصر التمس منه أن يقابل بختنصر لأنه تلقى من السماء وحيا وقد أمر بأن يبلغه إلى الملك العظيم .

كان بختنصر كثير الأحلام وكان يستعين بالكهنة والسحرة وحكماء مملكته فى تفسير أحلامه ، حتى إذا عجزوا عن تأويل رؤياه كان يبعث إلى دانيال وعزير وأنبياء بنى إسرائيل ، فلما سمع أن بالباب نبيا يحمل أوامر السماء قد جاء من نجران ليسر إليه بما يوحى إليه أمر بأن يدخل وتأهب للقاء المثير .

ودخل برخيا ترن فى جنباته تلك الأغنية التى سمعها من اليهود الجالسين على شاطئ الفرات :

« على أنهار بابل جلسنا وبكينا على صهيون ،

وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا ،
لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم ، والذين عذبونا أرادوا أن نطربهم ،
ونادونا هلا أنشدتمونا أحد أناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله فى بلد غريب ؟
ولئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى حذقها .
وليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم ،
وإن لم تكونى لدى خيرا من أفراحى » .

ورحب بختنصر ببرخيا وألقى إليه السمع ، فقال برخيا :

ـــ إن الله أوحى إلىّ أن ائت بختنصر وأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب ، وأن يطأ بلادهم الجنود فيقتل مقاتلتهم ويستبيح أموالهم ، وأعلمه كفرهم بى واتخاذهم الآلهة دونى وتكذيبهم أنبيائى ورسلى .

وظل برخيا ينفث سمومه فى صدر بختنصر حتى أقنعه بما يريد ، وألقى فى روعه أن ما قاله إن هو إلا وحى يوحى ، ونهض بختنصر لينفذ مشيئة السماء .

كان تجار العرب يغدون ويروحون فى بلاد بابل مطمئنين بعد أن اتحد العرب والبابليون على آشور وسددوا إليها طعنة جعلتها فى الغابرين ، كانوا يقدمون على بابل بالتجارات والبياعات ويمتارون من البابليين الحب والتمر والثياب . وكانوا سعداء بالأمن وبالسلام الذى رفرف على ربوع ممالكهم ، بيد أن برخيا بحقده الدفين عكر ما بين البابليين وبنى إسماعيل من صفاء .

وأمر بختنصر قائد جيوشه بالقبض على العرب فى الأسواق وفى كل مكان من بلاد الكلدانيين ، وساق جند بابل العرب زمرا إلى قصر الملك الذى أعار برخيا أذنيه وأسلس له قياده ، وغصت بابل بمن ظفر به بختنصر من العرب ، فأمر أن تبنى لهم مدينة على النجف وأن تحصن ، وأن يقوم عليها حرس وحفظة .

وبنيت الحيرة وضم إليها أسرى العرب ، وأحس برخيا بعض الراحة فما حاق ببنى إسرائيل قد لحق مثله ببنى إسماعيل ، بيد أن هيكل سليمان قد سار طعمة للنيران بينا بيت الله فى مكة لا يزال مثابة للناس وأمنا ، فراح ينفخ فى نار الحقد ويؤججها فى صدر بختنصر .

وانتشر الخبر فى قيدار وعريبى وفى مملكة النبط وفى قبائل بنى إسماعيل التى كانت تفصل بينهم وبين بلاد الرافدين ، فرأت طوائف منهم أن تخرج إلى بابل مسالمين مستأمنين ، ورأى عدنان بن أدد أن يتأهب لمعركة يشيب من هولها الوليد .

وخرجت طوائف المسالمين إلى بابل يحملون الهدايا والولاء لبختنصر ملك الكلدانيين العظيم ، ومثلوا بين يديه وقد جنحوا للسلم يلتمسون منه الأمن ، ولم يستطع بختنصر أن يبت فى الأمر قبل أن يستشير برخيا الرجل المبارك الذى جاءه بوحى السماء !

واستشار بختنصر فيهم برخيا فقال :

— إن خروجهم إليك من بلادهم قبل نهوضك إليهم رجوع منهم عما كانوا عليه ، فاقبل منهم فأحسن إليهم .

وأنزلهم بختنصر السواد على شاطئ الفرات ليبنوا موضع عسكرهم وليصيروا فيما بعد « الأنبار » ، ونزل العرب الحيرة والأنبار ، وحمل بنو إسرائيل إلى بابل واجتمع العرب وبنو إسرائيل فى الأرض التى خرج منها جدهم العظيم إبراهيم الخليل ، أرض الكلدانيين .

خرب بختنصر بيت المقدس وأرض يهوذا ونسف بنى إسرائيل نسفا فأوردهم أرض بابل ، ولكنه لم يظفر من العرب إلا بمن خرجوا إليه مسالمين مستأمنين ، وما كان هذا ليرضى برخيا فراح يزين له الخروج إلى العرب الذين

لم يعلنوا له الولاء والخضوع .

وراح بختنصر يتأهب لغزو العرب ، لقتل الذين لا يؤمنون بإلٰهه ولا يدينون بالولاء لمردوخ ، وقد عزم على ألا يستحيى فيها إنسيا وأن ينسف كل شيء نسفا .

واستعد عدنان للقتال ، وفيما هو يتأهب للخروج ألقى الله فى صدره أن يبعث بولديه معد وعك إلى من بقى من بنى إسماعيل بأرض الحجاز ليكونا فى بيت الله ، حيث يأمن الخائف ، ليبتغيا السلام وفضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم .

وراح عدنان يودع ولديه ، كان معد فى الرابعة عشرة وكان عك أصغر منه ، ولكن معدا كان يبدو رجلا مكتملا ، فى وجهه نبل ووسامة يشع منه صلاح وتقوى . وقد كان ضامرا ركن إلى التقشف واخشوشن دون أن تفرض عليه الظروف قسوة الحياة .

انطلق معد وأخوه فى رعاية الله وما دار بخلد أحد أن الله قد أبعد معدا عن ميدان القتال لأمر جليل ، فهو عالم الغيب لا يظهر على غيبه أحدا ، وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين .

أراد الله أن يدخره ليتم نوره ، فمن ولده نبيه ورسوله خاتم المرسلين . سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا .

خرج بختنصر فى عدد مثل سواد الليل المظلم له عساكر مثل قطع السحاب ، ومراكب أمثال العجاج ، كأن خفيق راياته طيران النسور وكأن حملة فرسانه كرير العقبان ، فى أيديهم أقواس وسهام ورماح وفئوس ، تتدلى من مناطقهم الخناجر والسيوف ، وقد انطلقوا لتحقيق حلم برخيا من فى قلبه مرض للعرب أجمعين .

وخرج عدنان على رأس جيوش بنى إسماعيل وقد امتطوا الخيل العراب والإبل التى تنطلق فى الصحراء انطلاق الريح ، وقد تسلحوا بالسيوف التى جلبوها من مصر ودمشق ومن بلاد الفينيقيين ومن اليمن ، وبالرماح والأقواس والسهام التى جلبوها من كل مكان ، فإنهم لما أحسوا الخطر أخذوا يستبدلون البخور والطيب والتوابل بكل بتار عنيد .

والتقى جيش بختنصر بمركباته وفرسانه بجيش عدنان بحصورا ودارت رحى المعركة ، وكان القتال رهيبا سالت فيه الدماء وزهقت فيه الأرواح وملأت جثث القتلى الفضاء ، وانقضت نسور السماء وجوارح الطير تبقر البطون ولم يظهر فريق على فريق .

وراح أهل بابل يبتهلون إلى مردوخ وسين وشماش وعشتار وآلهتهم الأخرى لتنصرهم على أعدائهم ، وكان عدنان ومن معه من بنى إسماعيل يفزعون إلى اللات والعزى ومناة بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فنسوا إلـٰه آبائهم الواحد القهار ، من ينصر من ينصره ، ويمد أولياءه بالنصر المبين .

وأراد الله أن يذيق بنى إسماعيل العذاب وذلك بما قدمت أيديهم . ما يأتيهم من ذكر ربهم محدَثٍ إلا اتبعوه وهم يلعبون . فألقى الرعب فى قلوبهم فراح جند بختنصر يمشون إليهم مشى الوعول ويضربون منهم الرقاب . وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسَنا إذا هم منها يركُضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون . قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين .

وكثر فى بنى إسماعيل القتل ، ثم ثبت عدنان وثبت معه من حوله فتكسرت عليهم حملات البابليين ، وصبر العرب للقتال ، وخشى بختنصر أن تدور عليه

الدائرة فراح يحفر الخنادق ليحتمي فيها ، وخندق عدنان واستمرت المناوشات بين الجيشين ، ثم نهى عدنان عن بختنصر ونهى بختنصر عن عدنان وقفل كل جيش راجعا إلى بلاده وقد فاز من الغنيمة بالإياب .

ولم يشأ الله أن يذهب عدنان والذين معه ويأتي بخلق جديد ، فقد كان يعلم أن سيكون من نساء هؤلاء العرب الذين أشركوا به خير أمة أخرجت للناس ، وكان الله عليما حليما .

تذييل

هذا الكتاب ـــ على ما أعلم ـــ أول كتاب عن بنى إسماعيل ، فلم يعرف المؤرخون القدامى ولا الإخباريون الإسلاميون إلا النزر اليسير عن تلك الحقبة التى انقضت بين إقامة إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وبين عدنان بن أدد الجد الأعلى للرسول ﷺ ، أى بين سنة ١٧٠٠ وسنة ٥٠٠ قبل الميلاد ، وقد اعتمد المؤرخون القدامى والإخباريون الإسلاميون على ما جاء فى التوراة عن الإسماعيليين . ولما كانت المنافسة على الزعامة الدينية بين بنى إسماعيل وبنى إسرائيل شديدة ، ولما سجل مؤرخو اليهود تاريخهم عندما أعادوا كتابة التوراة فى منفاهم ، فقد سكتوا متعمدين عن تاريخ الإسماعيليين .

ومن هنا ذهب بعض الكتاب الإسلاميين فى عصرنا هذا إلى أن إسماعيل أسطورة من الأساطير وأنه لم يمش فى الأرض يوما ، ذلك لأن إسماعيل لم يرد اسمه فى نقش من النقوش التاريخية ، متبعين مذهب الشك قبل اليقين ، كأنما قد كشفت بطون الأرض كل أسرارها وكأنما لم يعد هناك تاريخ مطمور .

اكتشف بوتا فى العصر الفيكتورى العاصمة الآشورية الجديدة التى بناها سرجون الثانى فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، فأصبحت آشور فجأة ملء الأسماع وزخرت المجلات المصورة فى كل من إنجلترا وفرنسا بصور تمثل تفاصيل مناظر الحرب والفتح والاحتفالات والحياة اليومية لشعب لم يكن يعرف عنه حتى ذاك الوقت إلا بعض تلميحات فى التوراة وبيانات غير واضحة للمؤرخين الكلاسيكيين .

وقام هنرى لا يرد بالتنقيب فى نمرود وتكشفت حضارة بابل وآشور ، ولما

كان بنو إسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وآشور ، وقد لعبوا دورا هاما فى تاريخ المنطقة آنذاك ، وكانوا يمقتون الآشوريين ويمدون يد العون لكل أعداء آشور ، فقد سجل الآشوريون ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بنى إسماعيل من مناوشات وحروب .

وأعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بنى إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوئ بابل وآشور ومصر والإغريق والرومان ، وأثبتت الحفريات والنقوش أن إسماعيل عليه السلام كان يمشى فى الأسواق وكان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

وأعتقد أن ما وصل إلينا من المصادر الآشورية والإغريقية والرومانية عن بنى إسماعيل قليل وأن بطن الأرض لا يزال يخفى الكثير عن هذه الحقبة التى تقع بين بناء الكعبة أيام إبراهيم وإسماعيل ومولد الرسول ﷺ . وقد اعتمدت على هذا القليل لتوضيح بعض الجوانب التى خفيت على الإخباريين الإسلاميين والمؤرخين الكلاسيكيين وتصويب المزاعم التى حاول اليهود أن يغرسوها فى العقول على مر العصور .

ترجمت التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى إلى العربية فى القرن الثانى الهجرى ، فراح المؤرخون والإخباريون المسلمون ينهلون منها دون حذر ، ولا غرو فقد كانوا يحسبون أنها توارة الله ، فغصت كتب التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات وأساطير الشعوب التى دسها أدباء اليهود على كتاب الله ، وراح المولعون بوضع الأحاديث النبوية ينهلون من كتاب اليهود وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فكان ما يلاحظ فى بعض الأجاديث من مجافاة للمنطق الذى اشتهر به محمد بن عبد الله ﷺ ، ومجافاة لعظمة من أوحى الله إليه قرآنه .

ولم يعرف الإخباريون الإسلاميون دولة النبط التى كانت قبيلة نابت بن إسماعيل ثم امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق وامتد سلطانها حتى حدود بلاد النهرين ، وإن عرفها يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، وعرفها مؤرخو الإغريق والرومان الكلاسيكيين . وقد ضيع جهل الإخباريين بهذه الدولة كثيرا من الحقائق وجعلهم يتخبطون فى تفسير بعض ما لا يمكن تفسيره إذ أهمل تاريخ هذه الدولة التى كانت ركنا هاما قامت عليه حضارة الإسلام ، فقد كانت لغة قريش لغة القرآن مشتقة من لغة هؤلاء الأقوام ، وقد قال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط » .

وقد عثر على نصوص نبطية فى البتراء — وكانت تعرف من قبل بسلع — عاصمة ملكهم بوادى موسى ، والحجر والعلا وتيماء وخيبر وصيدا ودمشق وطور سيناء والجوف واليمن ومصر وإيطاليا ، ولما كان الإخباريون لا يعرفون شيئا عن مملكة النبط فقد قالوا : إن النبط جيل من العجم ينزلون البطائح بين العراقين ، سموا بذلك لكثرة النبط عندهم ، وهو الماء . وقد قصد الإخباريون بالنبط بقايا الشعوب القديمة خاصة النازلين فى البطائح منهم ، أما النبط الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب والذين سيرد ذكرهم فى الجزء الرابع بإذن الله ، فهم أبناء نابت بن إسماعيل . وقد أطلق يوسيفوس اسم « النبط » على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتتصل بحدود الشام إلى البحر الأحمر وهى من مناطق أولاد إسماعيل .

وكان لجهل الإخباريين بدولة النبط أثره فى تدوين التاريخ ، فقد ذكروا أن عدنان قابل بختنصر بذات عرق بحصورا باليمن . ولما كانت حصورا هى الحيرة على رأى أغلب المؤرخين المحدثين ، فقد جعلت عدنان فى مملكة النبط ، وأدارت المعركة بين بختنصر وبين عدنان إن كانت قد وقعت — فى الحيرة ،

وهذا أقرب إلى العقل ، فقد دارت جميع المعارك التى نشبت بين بنى إسماعيل وبين الآشوريين والبابليين فى بلاد ما بين النهرين وفى البادية حتى تلك الأيام ولم يحدث أن توغلت قوة من الآشوريين أو البابليين فى قلب جزيرة العرب لتصل إلى اليمن .

وقد يقول قائل : لماذا أطلقت على هذه السلسلة « محمد رسول الله والذين معه » إذا كنت أكتب تاريخ الأنبياء منذ أيام أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتم النبيين محمد رسول الله ﷺ ؟ وأحب أن أقول إنى أكتب قصة الإسلام منذ أن دعا إليه إبراهيم الخليل إلى أن جاء الرسول الكريم ليثبت أركانه وليعلن للملأ أن الله سيحفظ دينه إلى يوم الدين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

دعا جميع الأنبياء والرسل إلى الإسلام ، فهو دين الله منذ آدم إلى يوم يبعثون ، لم يعرف التطور ولا الارتقاء فهو دين الفطرة ، كلما طال على الناس الأمد طمسوه بفلسفاتهم وأساطيرهم فبعث الله الرسل ليعيدوا للدين القيم بساطته ولينقوه مما علق به من شوائب قسوة القلوب .

كان الإسلام دعوة جميع الرسل والأنبياء : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »(٢) . « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون »(٣) . ودعا يوسف إلى الإسلام : « رب قد آتيتنى من الملك

(١) الحجر ٩ (٢) آل عمران ٦٧ .
(٣) البقرة ١٣٠ — ١٣٣ .

وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »(١) . ودعا موسى وداود وسليمان إلى الاسلام : « .. قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »(٢) . وكانت دعوة المسيح عليه السلام الإسلام : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »(٣) .

إلـٰه واحد ودين واحد لم يعتوره التطور و لم يعرف التبديل « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٤) .

وقد كتبت فى إيجاز قصة الرسل جميعا ، لأظهر بشاراتهم بالنبى الأمى الذى سيبعثه الله نورا هاديا من الأمم لا من بنى إسرائيل .

الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكان إدريس أول من أرسل إلى المصريين فعرفوا التوحيد قبل عصر الأسرات ، ثم جاء إلى مصر إبراهيم الخليل هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى عصر الهكسوس جاء يوسف إلى مصر وجعله الملك على خزائن الأرض فعرفت مصر التوحيد فى ذلك العهد ، وجاء أبوه يعقوب وإخوته واستقروا فى الدلتا وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

عرفت مصر التوحيد قبل عصر الأسرات وعرفته الأسرة الثالثة عشرة يوم أن جاء إبراهيم يجادل كهنة منف ، وعرفته فى الأسرة السادسة عشرة فى أيام يوسف الصديق قبل أن يدعو إخناتون إلى عبادة الشمس فى أواخر أيام الأسرة

---

(١) يوسف ١٠١ .
(٢) النمل ٤٤ .
(٣) آل عمران ٥٢ .
(٤) البقرة ١٣٦ .

الثامنة عشرة التى اضمحلت على يديه ، ولم يكن إخناتون أول من عرف التوحيد كما قيل بل كانت دعوته نكسة بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، بل ردة عن التوحيد .

وقال المفسرون إن امرأة فرعون التى التقطت موسى من اليم هى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها واستندوا فى ذلك إلى أحاديث نبوية ، وقال الإخباريون ، إنها آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف فأسلمت على يد موسى ، ثم عادوا وقالوا : إن امرأة فرعون آسية كانت من بنى إسرائيل وأنها كانت تخفى عن فرعون .

جعلوها مرة من الهكسوس ومرة أخرى من بنى إسرائيل وقد رفضت الرأيين معا ، لأن أحمس كان قد أجلى الهكسوس قبل مولد موسى بعدة قرون ، وعلى ذلك فمن الخطأ أن تنسب إلى الهكسوس . ورفضت الرأى القائل بأنها كانت من بنى إسرائيل لأن الفراعين ما كانوا يتزوجون إلا امرأة يجرى فى عروقها الدم الملكى ، وللمحافظة على نقاوة ذلك الدم كانوا يتزوجون أخواتهم ، وقد أخذت برأى الأستاذ جارستنج عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة ليفربول . أنه كشف فى مقابر ريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته بالتحقيق الأميرة حتشبسوت « الملكة حتشبسوت فيما بعد » وكان ذلك فى عام ١٥٢٧ ق . م . وأنه تربى فى بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث . هو يعتقد كذلك أن المخلفات التى وجدت فى هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا « يشوع ٢٦ » ويرجع سقوطها إلى حوالى ١٤٠٠ ق . م . ، كما يرجع خروج بنى إسرائيل من مصر إلى عام ١٤٤٧ ق . م . وتعتمد هذه التواريخ على ما وجد منقوشا على الجعلان والخزف .

وقال المفسرون والإخباريون المسلمون إن فرعون موسى هو مصعب بن

قابوس وهو من العماليق ، و لم آخذ بهذا الرأى اعتمادا على القرآن الكريم(١) ، ففى قصة يوسف حرص القرآن على أن يؤكد أن حاكم مصر لم يكن من الفراعين بل كان حاكما أجنبيا : « قال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف »(٢) ، و « قال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى »(٣) أما عندما كان يقص قصة موسى فقد كان يذكر فرعون صراحة : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه .. »(٤) .

قبلت الرأى القائل بأن ملك مصر فى أيام يوسف الصديق هو الريان بن الوليد ، وأيد هذا الرأى عندى أنه عثر على ملك من ملوك الهكسوس اسمه خيان ، وأظن أنه من الممكن أن يحرف الريان إلى خيان ، و لم أقبل الرأى القائل بأن فرعون موسى هو مصعب بن قابوس ، اعتمادا على ما جاء فى القرآن الكريم .

والمتواتر بين أغلب المؤرخين أن موسى كان فى عهد رمسيس الثانى وابنه منفتاح . وقد رفضت هذا الرأى فقد أقام منفتاح لوحة حوالى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد كتب فيها :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما ،
وهدئت أرض الحيثيين ،
وانتهت كنعان وحلت بها الشرور ،
وخربت إسرائيل و لم يعد لأبنائها وجود ،
وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،
وضمت كل البلاد وهدئت .
وكل من كان ثائرا قيده الملك منفتاح » .

---

(١) راجع تذييل الجزء الأول . (٢) يوسف ٤٣ .
(٣) يوسف ٥٤ . (٤) هود ٩٦ ، ٩٧ .

وليستقيم هذا الخبر لا بد أن تكون إسرائيل قد تكونت قبل أن يشن منفتاح عليها هجومه الذى دونه فى هذه اللوحة ، لذلك لم آخذ بهذا الرأى المتواتر الذى أخذ به معظم من كتبوا تاريخ موسى عليه السلام أو سجلوا أحداث هذه الفترة فى عمل أدبى .

ويظن كثير من المسلمين ، بل كثير من المؤرخين أن إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى كانوا يهودا ، على الرغم من أن القرآن الكريم أكد أنهم لم يكونوا هودا : « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل : أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون »[١] . وإن الواقع التاريخى ينفى كونهم هودا، كان إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط مسلمين على ملة أبيهم إبراهيم ، وكان الأسباط اثنى عشر رجلا من أبناء يعقوب ، وكان يهوذا ــ الجد الأعلى لليهود ــ ابنه الرابع . وقد ظل بنو إسرائيل ينسبون إلى يعقوبب (إسرائيل) حتى صار ملك إسرائيل لداود وسليمان وكانا من نسل يهوذا فأرادت قبيلتهما أن تستأثر بالفضل وحدها ، فانقسمت إسرائيل بعد موت سليمان فى عام ٩٣٧ ق . م . إلى دولتى يهوذا وإسرائيل ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت اليهودية .

كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل يهوذا ، وكان يوسف سبطا من الأسباط مثل يهوذا ، وكان موسى من نسل لاوى ولم يكن من نسل يهوذا ، وعلى ذلك لم يكن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان يهودا بل كانوا حنفاء مسلمين .

عرف بنو إسماعيل وبنو إسرائيل ذلك الكنز الروحى الذى جاءهم به إبراهيم ، وكانوا يدعون لله رب العالمين حتى عرفت قبيلة يهوذا ذلك التعصب

---

(١) البقرة ١٤٠ .

بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، وأن الله لن يبعث رسولا إلا منهم ولن يبعث فى الأميين رسولا ، وقد فرق القرآن الكريم بين بنى إسرائيل وبين اليهود فلم يأت ذكر لليهود فى القرآن قبل ملك سليمان ، وقد ذكر الله بنى إسرائيل بنعمته التى أنعم عليهم وبالهدى الذى هداهم وبالكتاب الذى أورثهم ولم يذكر اليهود بخير ، ذلك بأنهم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار ، وقصروا الجنة على أنفسهم دون الأميين . « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى »(١) وسأذكر فى تذييل الجزء الرابع إن شاء الله ما طرأ على التوراة من تغيير فى أيام المنفى ، وكيف بدلت صفات الله إلى صفات يهوه إلـٰه اليهود القاسى المستبد ، سبحان الله عما يصفون ، وكيف كان اليهود من أوائل الشعوب التى نادت بالتفرقة العنصرية بعد أن كان إبراهيم يدعو إلى العالمية وإلى أخوة بشرية .

وقد جاءت كلمة أمى فى القرآن الكريم نسبة إلى الأمة والأمم ردا على مزاعم اليهود . فقد قالوا إن الله اصطفاهم على العالمين ولن يبعث فى الأميين رسولا ، فجاء القرآن يدحض هذا الزعم الذى قاله قوم بلغ بهم التعصب المقيت أن عبدوا أنفسهم غرورا : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا »(٢) ، « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم .. »(٣) ، « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »(٤) . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى »(٥) .

ووصم الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض السبى أنبياء الله بكل نقائص البشر ، فجعلوا نوحا شارب خمر ، ووصفوا إبراهيم خليل الرحمن بالكذب ، وقالوا إن ابنتى لوط قد أسكرتا أباهما واضطجعتا معه ، ورموا داود بالزنا ،

---

(١) البقرة ١١١ .

(٢) الجمعة ٢ .

(٣) آل عمران ٢٠ .

(٤) آل عمران ٧٥ .

(٥) الأعراف ١٥٧ .

وقد انقاد كثير من الإخباريين المسلمين إلى هؤلاء اليهود الذين ملئوا كتاب الله بأساطير الشعوب ، وقد كان الطبرى من أكثر المؤرخين الذين نهلوا من التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى بابل دون تمحيص .

قال الطبرى فى سيرة داود : « ... كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوما يخلو فيه لنسائه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال :

— يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى ، فأعطنى مثل ما أعطيتهم وافعل بى مثل ما فعلت بهم .

فأوحى الله إليه : إن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها ، ابتلى إبراهيم بذبح ابنه ، وابتلى إسحاق بذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بحزنه على ابنه يوسف ، وإنك لم تبتل من ذلك بشىء .

قال :

— يارب ، ابتلنى بمثل ما ابتليتهم به وأعطنى مثل ما أعطيتهم .

فأوحى إليه : إنك مبتلى فاحترس .

فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، إذ جاءه الشيطان قد تمثل فى صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلى ، فمد يده ليأخذه فتنحى ، فتبعه فتباعد حتى وقع فى كوة ، فذهب ليأخذه فطار من الكوة ، فنظر أين وقع فيبعث فى أثره ، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل النساء خلقا ، فحانت منها التفاتة فأبصرته فألقت شعرها فاستترت به ، فزاده ذلك فيها رغبة ، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجا وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا ، فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث أوريا إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه ففتح له وكتب إليه بذلك ، فكتب إليه أيضا أن ابعثه إلى

عدو كذا وكذا أشد منهم بأسا ، فبعثه ففتح له أيضا ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه فقتل المرة الثالثة .

وتزوج داود امرأته ، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيرا حتى بعث الله ملكين فى صورة إنسيين فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه ، فتسورا عليه المحراب فما شعر وهو يصلى إذا هو بهما بين يديه جالسين ، ففزع منهما ، قالا :

ـــ لا يخف إنما نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط .

قال :

ـــ قصا علىّ قصتكما .

فقال أحدهما :

ـــ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائة .

فقال للآخر :

ـــ ما تقول ؟

فقال :

ـــ إن لى تسعا وتسعين نعجة ولأخى هذا نعجة واحدة ، فأنا أريد أن آخذها فأكمل بها نعاجى مائة .

قال :

ـــ وهو كاره ؟

قال :

ـــ وهو كاره .

قال :

— إذًا لا ندعك وذاك .

قال :

— ما أنت على ذلك بقادر .

قال :

— فإن ذهبت تروم ذلك ضربنا منك هذا وهذا . (طرف الأنـف والجبهة) .

فقال :

— يا داود ، أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته .

فنظر فلم ير شيئا ، فعرف ما قد وقع فيه وما ابتلى به فخر ساجدا فبكى ، فمكث يبكى ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها ثم يقع ساجدا يبكى ، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه ، فأوحى الله عز وجل إليه بعد أربعين يوما :

— يا داود ارفع رأسك فقد غفرت لك .

فقال :

— يارب كيف أعلم أنك قد غفرت لى وأنت حكم عدل لا تحيف فى القضاء إذا جاء أوريا آخذا رأسه بيمينه أو بشماله يشخب أوداجه دما قبل عرشك ، يقول : يارب سل هذا فيم قتلنى .

فأوحى الله إليه :

— إذا كان ذلك دعوت أوريا فأستوهبك منه فيهبك لى ، فأثيبه بذلك الجنة .

قال :

ـــ رب الآن علمت أنك قد غفرت لى .

فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء حتى قبض[1] .

سامح الله الطبرى ومن أخذ عنهم . وغفر لى زلتى يوم أخذت عن الطبرى هذا الحديث لما كنت أكتب كتابى « قصص من الكتب المقدسة » ، فما نسب إلى داود عليه السلام لا يليق بعباد الرحمن ، فما بالك بأنبياء الله وأصفيائه ؟!

روى عن الإمام أحمد أنه قال : « من حدث بحديث داود على ما يروّيه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » . فقد اعتبر الإمام أحمد ما يرويــه القصاص قذفا فى حق نبى من أنبياء الله . إن الآيات الكريمة الواردة فى القرآن عن تسور الخصمين محراب داود لا علاقة لها بأوريا ولا زوجة أوريا ، إنما أريد بها أن يعلم الله داود أسلم مبدأ للحكم بين الناس ما دام قد جلس للقضاء . ألا وهو أن يسمع أقوال الخصمين قبل أن يصدر حكمه وألا تأخذه شفقة بمظهر أحدهما ، فقد يكون الغنى أو القوى هو صاحب الحق وقد يكون المنكسر الفقير لا حق له ، وقد أخطأ داود الحكم فى القضية التى عرضت عليه لأنه حكم بعد أن سمع أحد طرفى الخصوم قبل أن يسمع الطرفَ الآخر ، وكان هذا التسرع فى الحكم هو ما ظن داود أنه فتنة ، أما أن نؤول نعجة بامرأة ففى ذلك تعسف شديد ولوى لعنق النصوص دون حاجة إلى ذلك العنت والجهد . والآيات الكريمة التى جاءت بعد آيات تسور الخصمين المحراب وعرض قضيتهما توضح فى جلاء أن القصة إنما أريد بها تعليم داود عليه السلام أن يحكم بين الناس بالحق : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال :

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٥ .

لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »(١) .

وكان بنو إسرائيل عربا كما كان بنو إسماعيل ، ولكن اليهود بعد أن انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفضوا عن أصلهم العربى بتأسيس جنس لا سند له من التاريخ ، فأطلقوا على أنفسهم اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق . وعاش بنو إسرائيل بين الكنعانيين وأخذوا العبرية عنهم وكانت بينهم وبين الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين حروب ، وقد تعمد اليهود إقصاء الكنعانيين فى توراتهم التى كتبوها فى المنفى بعد عصر موسى بمئات السنين ، من جدول أنساب سام لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية .

وقد أشتد الغضب بين قبائل بنى إسرائيل بعد أن صار ملك إسرائيل إلى داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا ، وقد ظهر ذلك التعصب بوضوح فى إصحاحات الأنبياء التى دونت فى المنفى فلم يرد اسم موسى فى « أشعيا » ، لأن موسى كان من اللاويين ولم يكن من نسل يهوذا .

ويقول ول ديورانت فى كتابه « قصة الحضارة » : « وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل . ويقول : وإذا ما وضعنا إلى جانب

---

(١) ص ٢١ — ٢٦ .

هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما فى الحياة اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كتَّاب العهد القديم وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة قد أخفوه عنا .. ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال أشعيا والخطباء ؟ » .

ويذهب إلى أن « نشيد الإنشاد » الذى ينسب إلى سليمان قد يكون من وضع امرأة ، والحق معه فهل يعقل أن يقول سليمان :

« ها أنت جميل يا حبيبى وحلو وسريرنا أخضر .

أنا نرجس شارون ، سوسنة الأودية .

أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جدا .

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء .

حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن » .

وظلم اليهود سليمان وزعموا أنه مات كافرا بالله . وجاء القرآن الكريم لينصف داود وسليمان ويغسل عنهما وعن أنبياء الله أدران من كتبوا الكتاب بأيديهم . « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[١] .

كنت قد عزمت على أن أكتب تاريخ الأنبياء ما دمت أقص قصة الإسلام منذ إبراهيم الخليل إلى خاتم النبيين ، إلا أنى وقفت حائرا أمام أيوب فقد اضطربت الروايات فى العصر الذى ظهر فيه اضطرابا شديدا لم تضطرب بمثله فى شأن الزمن الذى ظهر فيه أى نبى من أنبياء الله ، قال بعض مؤرخى التوراة إنه ظهر فى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد أى إبراهيم الخليل الذى قدر أنه كان فى عام

(١) البقرة ٧٩ .

١٧٥٠ ق . م . وقال آخرون إنه كان فى عام ٤٥٠ ق . م . أى فى أيام السبى بعد أن حمل نبوخذنصر أسرى بنى إسرائيل ويهوذا إلى بابل ، وتأرجح مؤرخون وإخباريون آخرون بين هذين التاريخين .

قال الرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف فى بلاد العرب » Alarms and Explorations in Arabia : إن أيوب من أهل عمان . وقال الكاهن عزرا فى القرن الثانى عشر : إن أيوب ظهر فى نجد . وأجمع أغلب المؤرخين على أنه نبى عربى و لم يكن من أنبياء بنى إسرائيل.ومما جعل بعض شراح التوراة يقدرون أن زمن أيوب كان حوالى ٢٣٠٠ ق . م . أنه ذكر الأهرام والمدافن التى يبنيها الملوك لأنفسهم . وهذا الرأى لا يستند إلا على استنتاج من اليسير دحضه ، فكما أن ذكر الأهرام ومقابر الملوك ونقد تلك الأعمال يمكن أن يكون فى عصر بناة الأهرام فإنه يمكن أن يكون بعد ذلك العصر بقليل أو كثير ، ولا ينهض حجة على أنه كان فى نفس العصر . والقرآن الكريم يهدم هذا الرأى فهو يقرر أن أيوب من ذرية إبراهيم « .. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين »(١) .

ورأى بعض شراح التوراة أن أيوب يسبق عهد خروج بنى إسرائيل من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التى دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهوه » فى صلب كتابه . وهذا الرأى قريب من رأى الإخباريين المسلمين ، فقد قال الطبرى : إن أيوب كان نبيا فى عهد يعقوب ، وأنه جاء إلى مصر مع يعقوب والأسباط لما أرسل

---

(١) الأنعام ٨٣ — ٨٤ .

يوسف فى استدعاء أهله . وقال الإخباريون إنه من نسل العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

ويقول ول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة عن سفر أيوب : « وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ، ولعل ذلك السفر قد كتب فى أيام السبى ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلى » . ويقول فيه كارليل وهو من أشد الناس تحمسا له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم .. فهو كتاب نبيل وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التى لا آخر لها ، مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض ... واعتقادى أن لا شىء فى التوراة أو فى غير التوراة يضارعه فى قيمته الأدبية » .

وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا ، ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية القديمة ، فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيرا ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة » ؟. ولم يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟ وها هو ذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأسئلة وهو أكثر ممن سبقه عزما وثباتا ، ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزا لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (فى فترات متقطعة) كما كان يعبده أيوب ، وكانت بابل تجحده وتكفر به ، ومع ذلك فقد ازدهرت بابل وتمرغ بنو إسرائيل فى الوحل ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا ، فماذا يقول الإنسان فى هذا الإلـٰه ؟

وجاء فى مقدمة لهذا السفر ، لعل كاتبا أريبا قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه : إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه

رجل محظوظ ، فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألوانا من المصائب على رأس أيوب ، ويظل البطل وقتا ما صابرا « صبر أيوب » ، ولكن صبره هذا يفارقه فى آخر الأمر ويفكر فى الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . ويصر صوفر — وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح فى هذه الدنيا نفسها ، ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتدا :

— إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه !. خيام المخربين مستريحة ، والذين يغيظون الله مطمئنون ، الذين يأتون بإلهم فى يدهم .. هذا كله رأته عينى ، سمعته أذنى وفطنت به .. أما أنتم فملفقو كذب أطباء بطالون كلكم ، ليتكم تصمتون صمتا ، يكون ذلك لكم حكمة .

ثم يفكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

— الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبا ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف ، .. لأن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف ولا تعدم حرا عيبها .. أما الرجل فيموت ويبلى ، الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفد المياه من البحر والنهر ينشف ويجف والإنسان يضطجع ولا يقوم ... إن مات رجل أفيحيا ؟.

ويظل الجدل قائما بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه حتى يدعوه خصمه ، ويتمنى أن يهلك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على نمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلـٰهية ، وتوخى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تحت أقوال أيوب » بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل آراء أقلية جاحدة بين اليهود ، ولكن فيلسوفا آخر — أليهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه : وأخيرا

يسمع صوت بين السحاب يتحدث حديثا هو أجل ما فى التوراة كلها :

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

— من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة ؟ اشدد الآن حقويك كرجل فإنى أسألك فتعلمنى ، أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبرك إن كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطمارا ؟ على أى شىء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصباح معا وهتف جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وضرمت عليه حدى وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟.. هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ أدركت عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله ؟ .. أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد ؟.. هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض... من وضع فى السماء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟

هل يخاصم القدير موبخه ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى .

وبذل أيوب نفسه لهول ما يرى ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ويقبل تضحيته ، ويتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية ، ويهب أيوب نفسه أربعة عشر ألفا من الغنم وستة آلاف من الإبل وألف فدان من الثيران وألف أتان وسبعة بنين وثلاث بنات ، وعاش هذا مائة وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ، لأن أيوب يحصل على كل شىء إلا جواب أسئلته ، فالمشكلة تظل باقية وسوف تكون لها آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد .

ويقوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « أبو الأنبياء ، الخليل إبراهيم » ، ولم تكن حجته « أى أيوب » قط فى الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء فى مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء فى الجزيرة العربية وكلهم متفقون على أنه من أبنائها وإن اختلفوا فى مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعى التوراة من يضع سفرة بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية مع كتاب العهد القديم .

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ولكنه أشار إلى أقدم أدوات الكتابة كما هى معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر وليست طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذى كان يطبع فى البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد . أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع فى العهد القديم ، فغاية فى السمو والكرم والتنزيه .

إنه ينكر عبادة الشمس والقمر ويصف الله القدير بأنه أعلى من السموات وأعمق من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوى بين الحر والعبد قائلا : « أوَليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟ » . ويحمد من الغنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكتئب نفسه على المساكين ، وأن يبكى لمن عسر يومه ، ويستعيذ بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة غير امرأته وأن يطمع فى مال غير ماله .

وأجل من هذا شأنا تاريخ العقيدة الدينية أنه أول من نص على البعث فى كتب العهد القديم . وكانت تربيته الإلـٰهية التى انتهى منها إلى هذه العقيدة

تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الأقربين والأبناء . وتدرج من القول بالزوال والعدم إلى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان فى أول السفر يقول : « الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد » . ويقول : « الإنسان يضطجع ولا يقوم » ، و« إذا مضت سنوات قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » ، ويتساءل : « إن مات رجل أفيحيا ؟ » .. ثم انتهى من هذه التجارب إلى الأمل فى خلود النفس ولقاء الله : « فبعد أن يفنى جلدى هذا ويذوى جسدى ، أرى الله » .

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريبا فى موضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بنى إسرائيل أن يجمعوا فى التوراة كتبا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر من الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه فى بقاع فلسطين الجنوبية محفوظا يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان . ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فإنه عزاء صالح للمتعزين ، وعبرة صالحة للمعتبرين . ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء العربية الدارجة فى مصر والشام ، ولا نعرف كتابا من كتب التوراة ظفر فى رأى النقاد الغربيين بالإعجاب الأدبى الذى ظفر به سفر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه إنه واحد من أجل الأشياء التى وعتها الكتابة ، وأنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التى لا تنتهى : قضية الإنسان والقدر والأساليب الإلٰهية معه على هذه الأرض . ولا أحسب أن شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية .

وقال فيكتور هوجو : « إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان » .

وقال شاف Schaff : « إنه يرتفع كالهرم فى تاريخ الأدب بلا سابقة ولا

نظير » .

كان اليهود قد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، فنسوا دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم فى المنفى ، نسوا الحياة الأخرى التى كانت دعوة جميع الأنبياء وحسبوا أن الإنسان يثاب على أعماله فى الدنيا ، وأنه إذا ما ذهب إلى الهاوية ، كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة إبراهيم الرسول وبعده ، ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلتهم مع القدر .

إن مشكلة الإنسان وقدرته وتصرف الإلٰه معه على هذه الأرض لا حل لها إلا إذا آمن الإنسان بأن حياته فى الأرض تتبعها حياة أخرى ترفع فيها كل المظالم وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسيء ويثاب المحسن أجزل الثواب ، بيد أن اليهود كانوا يؤمنون بالهاوية وأن حياتهم الدنيا هى كل حياتهم ومن هنا جاءت الحيرة والقلق والشك والعذاب ، « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين »(١) .

وقال المفسرون إن ذا النون هو يونس بن متى وإن النون بمعنى الحوت وقد نسب إليه . واختلفوا فى مكان بعثه فقيل إنه كان فى نينوى وقيل فى فلسطين واختلفوا فى سبب ذهابه مغاضبا فقال قوم : ذهب مغاضبا لقومه وهى رواية الضحاك والعدنى عن ابن عباس ، وقال الحسن البصرى : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظرهم ليتأهب للشخوص إليه ، فقال له الأمر أسرع من ذلك و لم ينظروا ، حتى سأل لمن ينظر إلى أن يأخذ نعله ... وكان رجلا فى خلقه ضيق فقال :

---

(١) القصص ٦١ .

أعجلنى ربى أن آخذ نعلى ، فذهب مغاضبا . وروى ابن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال : انطلق إلى نينوى فأنذرهم أن العذاب الذى قد حضرهم إن لم يتوبوا ، قال له : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة وكان من أمره ما كان .

تضاربت الروايات فى شأن يونس ، فتارة جعلته يغضب من أجل نعله وتارة جعلته يغضب من أجل عدم السماح له بالتماس دابته .

وقيل مرة إنه بعث فى نينوى وقيل مرة إنه بعث فى فلسطين ، ونسبت كلتا الروايتين لابن عباس . ولما كانت أسباب غضبه فى تلك الروايات أتفه من أن تصدر من نبى فلم آخذ بها ، وبحثت فى القرآن عن ذى نون آخر فلم أجد إلا يوشع بن نون فتى موسى ، فقلت إنه ذهب مغاضبا لما تأخر فتح فلسطين وليغفر الله لى إن كان قد جافانى التوفيق .

وقبل أن أختم هذا التذييل أعود فأقول ما سبق أن أشرت إليه فى تذييل سابق من أن كتاب العرب يقاسون من محاولة إعادة كتابة الأسماء العربية التى كتبها الباحثون والمنقبون والمؤرخون الأجانب بأحرف لاتينية ، ويجدون مشقة فى إعادتها إلى أصلها العربى وغالبا ما يبتعدون عن القصد ويجافيهم الصواب .

وجدت بعض مؤرخينا وبعض من قاموا بترجمة النصوص الآشورية يكتبون اسم الملك الآشورى الذى جاء بعد سلمنصر « تغلت فلاصر » مرة و« تقلت بلاصر » مرة أخرى و« تجلات بلاسر » مرة ثالثة ، ولا أدرى أى هذه الأسماء هو الصواب .

وكتب اسم الأميرة العربية Tabua التى حملت لتتربى فى البلاط الآشورى « تابوا » ولا أعرف حقيقة اسمها أهو « تبعة » أم اسم عربى آخر حرفه كتابته

بحروف لاتينية .

وكتب اسم القائد العربى الذى ثار على الآشوريين Vailtè يطع ، وفى بعض الكتب العربية يكتب « يثع » . أما ملك النبط الذى أسر يطع وحمله إلى آشور بانيبال بعد أن أجاره تقربا للملك الآشورى فلم أذكر اسمه ، لأنى لم أعرف كيف أكتبه بالعربية ، إن اسمه Matru ترى كيف كان عرب الشمال ينطقون هذا الاسم ؟

ولما عاد خزائيل إلى نينوى وقابل الملك الآشورى « أسر حدون » — وقال بعضهم إن اسمه « آشور أخى الدين » — استقبله بلطف وسلمه أصنامه الأسيرة . الآلهة Diblat — ترى أهى اللات ؟! — و Daja و Nuhaia و Ebrillu وعشتار ، و لم أهتد إلى حقيقة أسماء هذه الأصنام العربية فتركتها على كره منى وأنا أكتب قصة تلك الفترة . ترى أما آن الآوان أن يقوم متخصص عربى فى تاريخ هذه الحقبة ويحقق الأسماء العربية فى النصوص البابلية والآشورية ويعيدها إلى أصلها ؟ إنها خدمة جليلة تستحق كل ما يبذل فيها من تعب .

بدأت كتابة تاريخ فترة لم يعرف عنها المؤرخون ولا الإخباريون العرب شيئا وكان لهم عذرهم فقد اندثرت الحضارة التى قامت فى جزيرة العرب بعد الخليل إبراهيم إلى أن بعث محمد رسول الله ﷺ ، وقد بدأت بطن الأرض تلد أسرارها فى تلك المنطقة ، وإنى لعلى ثقة من أن الأيام التالية ستكشف عن حقائق مذهلة توضح أثر تلك النهضة الروحية التى بثها فى المنطقة خليل الرحمن وذريته التى ظلت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ، و لم تعرف الشرك بالله إلا قبل بعث محمد بن عبد الله ﷺ بثلاثمائة سنة .

أشرك بنو إسرائيل بالله وموسى بينهم وعبدوا آلهة الشعوب فى كل العصور ، أما بنو إسماعيل الذين ظلوا حول الكعبة فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين أبيهم إبراهيم و لم تقع نكسة الشرك فيهم إلا بعد أكثر من ألف

سنة من بعثة الخليل ، وظلت ملة إبراهيم فى الحنفاء منهم إلى أن بعث الله رسوله ليعيد شريعة إبراهيم ناصعة كما كانت : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[1] .

القاهرة فى ١٠ ــ ٥ ــ ١٩٦٦

(١) النحل ١٢٠ ــ ١٢٣ .

المراجـــع

قرآن كريم	
الكتاب المقدس	
تاريخ الأمم والملوك	للطبرى
تاريخ ابن خلدون	
قصص الأنبياء	للثعلبى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	للحافظ أبى الطيب الفاسى
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	للسمهودى
مدن دارسة	تأليف ليونارد كوترل ترجمة عديلة حسن مياس
سيناء أرض القمر	اللواء رفعت الجوهرى
الدولة العربية الكبرى	محمود كامل المحامى
دراسات فى تاريخ الشرق القديم	الدكتور أحمد فخرى
فجر الضمير	تأليف جيمس هنرى برستد ترجمة الدكتور سليم حسن
مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة	تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر
مختصر دراسة للتاريخ	تأليف أرنولد توينبى ترجمة فؤاد محمد شبل

قصة الحضارة تأليف ول ديورانت
ترجمة محمد بدران

Seven Pillars of Wisdom. By T. E. Lawrence .

تاريخ العرب قبل الإسلام الدكتور جواد على

محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء تأليف محمد عبد الغفار الهاشمى

محمد (ﷺ) فى التوراة والإنجيل والقرآن
إبراهيم خليل أحمد

إبراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد

للمؤلف

- أحمس بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى — ترجم إلى الأندونيسية
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة — (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين — (مجموعة أقاصيص)
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان — (رواية)
- أميرة قرطبة — (قصة)
- النقاب الأزرق — (قصة)
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة — (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين — (مجموعة أقاصيص)
ترجمت إلى الأندونيسية

- حياة الحسين
- الشارع الجديد — (رواية)

ـــ وكان مساء (قصة)
ـــ أذرع وسيقان (قصة)
ـــ المستنقع (قصة)
ـــ ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
ـــ الحصاد (رواية)
ـــ جسر الشيطان (قصة)
ـــ النصف الآخر (قصة)
ـــ السهول البيض (رواية)
ـــ أم العروسة (قصة)
ـــ قلعة الأبطال (قصة)
ـــ وعد الله وإسرائيل
ـــ عمر بن عبد العزيز
ـــ هذه حياتى
ـــ الحفيد
ـــ ذكريات سينمائية
ـــ كشك الموسيقى
ـــ خفقات قلب
ـــ صور وذكريات
ـــ الإسراء والمعراج
ـــ القصة من خلال تجاربى الذاتية
ـــ عدو البشر
ـــ أبطال الجزيرة الخضراء
ـــ النمر
ـــ الله أكبر

- ثلاثة رجال فى حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب فى أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

فى عشرين جزءا

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب
٣ ـــ بنو إسماعيل
٤ ـــ العدنانيون
٥ ـــ قريش
٦ ـــ مولد الرسول
٧ ـــ اليتيم
٨ ـــ خديجة بنت خويلد
٩ ـــ دعوة إبراهيم
١٠ ـــ عام الحزن
١١ ـــ الهجرة
١٢ ـــ غزوة بدر
١٣ ـــ غزوة أحد
١٤ ـــ غزوة الخندق
١٥ ـــ صلح الحديبية
١٦ ـــ فتح مكة
١٧ ـــ غزوة تبوك
١٨ ـــ عام الوفود
١٩ ـــ حجة الوداع
٢٠ ـــ وفاة الرسول

رقم الإيداع ٥٠٤٧
الترقيم الدولى ٧ — ٤٢١ — ٣١٦ — ٩٧٧

السيرة النبوية

محمد رسول الله ﷺ والذين معه

العدنانيون ﷺ

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

(قرآن كريم)

١

الحرب دائرة بين عدنان وبختنصر فى حصوراء ، وقد غصت معابد اللات وذى الشرى والعزى ورب البيت بالكهان والشيوخ والنساء والأطفال يبتهلون لآلهتهم أن تؤيد بنصرها عدنان ، ويقدمون إليها القرابين ويحرقون البخور ، فغطيت عاصمتهم البتراء بسحب كثيفة من الدخان ، وتجاوبت فى أرجائها الصلوات وترددت أناشيد الكاهنات والمغنيات ، وانهمرت الدموع من العيون تعبر عما تزخر به قلوبهم المؤمنة من انفعالات .

وفى هجعة الليل خرج معد وعك ابنا عدنان من أرض النبط ؛ وسارا ومن خرج معهما فى وادى موسى ، وخلفوا وراءهم عاصمتهم البتراء التى امتلأت بمعابد اللات والعزى والأصنام الأخرى التى جلبت من بابل ودمشق ومصر ، ولم تأخذ القافلة معها « شيع القوم » إلـٰه القوافل ، فقد كان معد على الرغم من حداثة سنه ينفر من عبادة الأوثان .

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده ويعظمون الكعبة ، فلما تفسحوا فى الأرض أخذوا معهم حجارة من البيت المعظم ليتبركوا بها ، فلما هزهم الشوق إلى البيت المحرم وبعدت بينهم وبين البيت الأسباب أخرجوا حجارة البيت ووضعوها وطافوا بها طوافهم بالبيت العتيق .

وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم فنسوا ما كان يعبد آباؤهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وحسبوا أن الحجارة تعبد لذاتها . ولما كانوا قد طافوا بالبلاد ورأوا تماثيل مصر الجميلة وأصنام مردوخ وسين وعشتار فى بابل ، فقد استبدلوا بالحجارة تماثيل جلبوها من مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين ، ووضعوا لها الأساطير فزعموا أن اللات والعزى ومناة بنات الله ، وأنهن يقربن عبادهن إليه ، وأن شفاعتهن ترتجى .

عبد العرب الكواكب والنجوم قبل أن يدعوهم إبراهيم الخليل إلى الإسلام وإلى عبادة الله وحده ، فلما طال عليهم العهد وعادوا لعبادة الأصنام بعثت فيهم عبادة الكواكب مرة أخرى ، فجعلوا كل إلٰه من آلهتهم رمزا لنجم أو كوكب ، ولما كانوا يعتقدون — قبل أن يعرفوا التوحيد — أن القمر هو رب الأرباب ، وأن الشمس هى زوجة الإلٰه وأم الآلهة الأخرى ، وأن النجوم أبناؤها ؛ ولما كان دين إبراهيم قد غرس فى ضمائرهم أن لهذا الكون ربا هو « الإيل » فقد ظل ذلك الاعتقاد راسخا فى نفوسهم ، بيد أنهم جعلوا « للإيل » زوجة أطلقوا عليها « الإيلات » ثم اللات للتخفيف . وكانت الشمس رمزا لأم الآلهة وزوجة الإلٰه فى ديانات العرب قبل بعثة إبراهيم خليل الرحمن ، فصارت اللات رمزا للشمس ، وأصبحت العزى ابنة الإيل واللات رمزا لكوكب الصباح ، وكانت مناة ابنة ثانية تقسم على الناس حظوظهم ، ولما كان العرب الشماليون لا يزالون يؤمنون بالبعث بعد الموت ، فقد جعلوا « منوتن » — ومناة فيما بعد — المتصرفة فيهم بعد موتهم .

وانطلق معد وعك والذين معهما من بنى إسماعيل إلى الجنوب ، وكانت الكعبة قبلتهم ومكة أملهم المنشود ، وكان كل ما يشغل بال رجال القافلة أن يركضوا فرارا من بختنصر وجنوده ، ولكن معدا كان هادىء النفس يقلب وجهه فى السموات والأرض ، فيستشعر فى أعماقه رب

المشارق والمغارب ، ويحس أنه مرتبط بذلك الكون وأن ذاته تفنى فيه ، وأن نورا ينسكب من وراء الطبيعة ومن فوقها ينير ظلام نفسه ويفجر بالضياء بصيرته ، وأن روحه تتصل بروح الوجود وتذوب فيه ؛ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وظلت القافلة تضرب فى البيداء حتى نزلت تيماء تستريح ، فوجدت فيها قوما من بنى إسرائيل كانوا قد فروا من وجه بختنصر يوم انتسف أرض إسرائيل وأرض يهوذا نسفا ، وخف شيوخ بنى إسرائيل يرحبون بالوافد الكريم ، فلم يكن بنو إسرائيل قد نسوا بعد فضل بنى إسماعيل الذين كانوا يسارعون لنجدتهم كلما حاقت بهم الخطوب .

ودار بين بنى إسماعيل وبنى إسرائيل الحديث حول موائد الطعام التى مدت ، فقال بنو إسرائيل فيما قالوا : إنهم نزلوا هذه الواحة لأن فى كتبهم أن النبى المنتظر الذى يجدونه عندهم فى التوراة سيهاجر إلى أرض ذات نخل ، وإنهم ليرجون أن تكون هذه الأرض .

ودار الحديث حول الأنبياء والدين ، وأرهف معد أذنه يصغى إلى ما يقصه أحبار اليهود عن أجداده إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإلى النبى الذى سيبعثه الله من ذرية إسماعيل فى آخر الزمان ليعيد ملة إبراهيم ناصعة كما كانت ، وما دار بخلد معد أن ذلك الذى بشر به الرسل والأنبياء سيكون من صلبه .

ومكثت القافلة فى تيماء ما شاء الله لها أن تمكث ، ثم شدت الرحال إلى ثمود ، ومعد يسمع بأذنيه ويرى ببصره وبصيرته ، ويهفو فؤاده إلى بيت الله الذى أقام قواعده أبواه إبراهيم وإسماعيل .

ودخلت القافلة مدائن صالح عاصمة الثموديين ، وراح معد يمشى فى الأسواق يرقب الناس فى غدوهم ورواحهم ، فى تجارتهم وفى عبادتهم ،

فرآهم إذا كالوا الناس أو وزنوهم يخسرون ، وإذا دخلوا المعبد خروا ساجدين لمناف .

وكان مناف على صورة رجل لا لحية له ، ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعى ، وعلى صدره طيات ردائه ، ينعطف طرف طيلسانه من كتفه اليسرى ليتصل بكتفه اليمنى ويعقد بها ، يزين جبينه قلادة علقت بها الهدايا ، وقدمت له النذور ونحرت تحت قدميه الذبائح .

وعجب معد على الرغم من حداثة سنه من تناقض القوم فى ثمود ، يطففون الكيل والميزان ويقدمون القرابين إلى آلهتهم ! ومد بصره وأصاخ سمعه فلم ير ما كان يرجو أن يراه ، ولم يخترق بصره حجب الغيب ، ولم يسمع ما كان يهفو إلى أن يشنف أذنيه به ، فقد قام صالح فى ثمود من مئات السنين يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وسرى صوته فى هذه الأرجاء يقول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود».

راح معد يفكر فى الغابرين ويقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض ، فإذا الحقيقة الأزلية تستولى عليه ، إن كل شىء هالك إلا وجه ربه

الكريم وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . كان ابن عدنان سيد قومه ، فزادته السياحة فى الأرض زهدا على زهد .

ثم غادرت القافلة جنات ثمود وعيونها وخلفت وراءها قوما ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، وانسابت فى البيداء وسرت فى الكون العريض كالنسيم . كان كل شيء يسجد فى محراب الله ويسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان معد يتساوق مع ما حوله ويتعاطف مع الوجود ، بينما ختم الله على قلوب الذين معه وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

وعلى مدى البصر لاحت أشجار النخيل كأنها المنائر فى بحور الرمال ، فصاح صائح :

— خيبر !

وأغذت القافلة السير لتحط رحالها بأرباض يثرب ، وقبيل غروب الشمس كان بنو إسماعيل يصغون إلى أحاديث بنى إسرائيل الذين فروا من اضطهاد بختنصر : كانوا يتحدثون عن النبى الذى سيهاجر إلى أرض ذات نخل ليبلغ رسالات ربه للعالمين ، وكانوا يرجون أن تكون مهاجره خيبر .

ولم يطل مقام القافلة فى خيبر فقد كان الرجال فى شوق إلى يثرب . إلى أرض اللذة ، فهبوا يتأهبون للرحلة المثيرة ، وسرعان ما انطلقت القافلة وأخذ الرجال يسبقون الواقع بأخيلتهم الداعرة وقلوبهم التى تخفق بالشهوة . ومدوا أبصارهم إلى الأفق البعيد فى لهفة وإذا بصائح يصيح فى نشوة :

— الرايات الحمر !.. الرايات الحمر !..

وراح الرجال يحثون رواحلهم على الجد فى السير وأطلقوا لها أعنتها، وتدفقت الدماء حارة فى شرايينهم ، فقد لاحت لأعين خيالهم خيام البغايا تخفق فوقها الرايات الحمر قبل أن تلوح لأعينهم منازل إطفاء الرغبة الجامحة المتأججة فى جوانحهم .

كانت يثرب قلبة طلاب اللذة ، يفدون إليها من كل فج عميق من بلاد العرب يعبون كئوس الخمر ويغرقون هموم الحياة فى الخيام التى رفعت فوقها الرايات الحمر ، معلنة دون حياء عن بيع المتعة لمن الثمن . وهرع رجال القافلة يتضاحكون ويتصايحون ويستبقون إلى النسوة اللائى فتحن لهم أذرعهن ، وقد توجت شفاههن بسمات إغراء ولمع فى أعينهن بريق نداءات خضعت إليها أفئدة الرجال التى تهفو إلى الجنس الآخر . ووقف معد يتلفت فى ذهول وإنكار ، ثم لوى شفته امتعاضا وسار مبتعدا مخلفا خيام البغايا وراء ظهره ، وراح يقلب وجهه فى الكون فيستشعر لذة روحية عارمة دائمة لا تنطفئ ، يزيدها رقة حنينه للاندماج فى الروح الخالد الذى يخفق فى جنبات الوجود ، وينسكب نوره من فوق السموات لينير قلوب المؤمنين . نور على نور .

وبلغ صومعة لأحبار بنى إسرائيل ، فدنا منها فى شوق وألقى سمعه إلى الحديث الدائر بين الشيوخ ، كانوا يتحدثون عن ذلك الذى كتب عليه أن يهاجر إلى قرية ذات نخل لعلها تكون هذه الأرض أرض يثرب .

وجلس معد بعيدا يرهف سمعه فأحس نشوة تملأ جوانحه ، فحديث الدين والأنبياء يستهويه ويملأ فؤاده بالفرح وإن كان لم يتجاوز الحلم ، كانت روح إبراهيم من آتاه الله رشده من قبل أن يبعثه تسرى فيه ، وقد ورث عن أبيه إسماعيل صبره وصدق وعده وإيمانه العميق ، وجعل يصغى وهو فى مجلسه وسحره عذب الحديث حتى كاد ينسى نفسه وكل ما حوله .

واستأنفت القافلة رحلتها فاتخذت طريق الشاطئ ، وجاء الليل وجثمت الظلمات على الكون وإذا بالبحر يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، فأمتلأت نفس معد خشية من جلال الله ، وإذا بكل جارحة من جوارحه تسبح بحمد ربه العظيم .

وتعاقب الليل والنهار ومعد ينظر ويتلفت ويفكر فى خلق السموات

والأرض ويغذى روحه برحيق الرحمة التى وسعت كل شىء ، بينما كان الرجال لا هم لهم إلا تلبية شهوات البطون والجوارح .

وأشرفت القافلة على وادى مكة فأحس الرجال راحة إذ انتهت الرحلة ، وخفق قلب معد خفقانا شديدا واضطرب جسده حتى إنه ضغط على يد أخيه عك فى انفعال ، فروحه تهفو إلى أول بيت وضع للناس . وأرهفت منه الحواس فكان حفيف النسيم فى أذنيه تسبيحات ، وخفيق أجنحة الطير صلاة ، والجبال التى تحيط بالوادى المقدس تترنم بمجد الله ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون .

وهبط الرجال ليطوفوا بالبيت الحرام ، وسار معد كالمسحور كل خلجة من خلجات نفسه تخفق بذكر الله ، فى نفسه ورقة وفى عينيه دموع وفى قلبه إيمان عميق . كان فتى غضا ولكن لو وزن إيمانه لرجح إيمان كل الطائفين بالبيت والعاكفين والركع السجود .

وأتم طوافه ثم صلى فى مقام إبراهيم كما يصلى بنو إسماعيل الذين لم يشركوا بالله ولم يعرفوا بعد عبادة الأوثان . ولما أتم صلاته وقف أمام حجر إسماعيل خاشعا يحس فى أعماقه أنه أمام هاجر جدة الإسماعيليين وأمام إسماعيل أبى العرب من كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

٢

تقابل بختنصر وعدنان فى حصوراء ، ودار القتال بين البابليين والعرب الشماليين دون أن يظفر فريق بفريق ، وطالت المناوشات وإطلاق السهام من الخنادق التى حفرها كل من الجيشين ؛ ثم رأى كل من القائدين أن يفوز من الغنيمة بالإياب فعاد بختنصر إلى بابل وقفل عدنان راجعا إلى قومه ، وقد وقاهم معرة انتصار بختنصر عليهم وحملهم أسرى كما حمل بنى إسرائيل واليهود وساقهم أمامه زمرا سوق الإبل والأنعام .

أخفق الصدام ووضعت الحرب أوزارها دون أن تحقق أهدافها الحربية ، ولكنها زودت النبط بحوافز استجاب لها عرب الشمال إذ فجرت طاقات الإبداع فى شتى ميادين النشاط ، فراح الفنانون العرب ينحتون من الجبال بيوتا ومعابد ، ويصنعون لآلهتهم وشيوخهم ومشاهير رجالهم تماثيل فنية من البرنز ، وراح قادة الجيوش يعيدون تنظيم وحداتهم ، ونشط التجار فراحوا يغدون ويروحون بين الممالك والبلدان ليعرضوا ما فاتهم من زمن شغلوا فيه بالحرب مع ملك بابل الجديدة الذى طمع فى أن يبسط سلطانه عليهم كما بسطه على كل من حوله .

صد العرب الشماليون جيوش بختنصر ولكن إشعاعات الثقافة البابلية تغلغلت فى أحشاء مملكة النبط ، فإذا بحركة بعث جديد تخفق فى جنبات البتراء ، وإذا بتيار الحضارة البابلية يصب فى رقعة الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر وخليج العقبة وميناء أيلة (إيلات) ، وانتقلت الثقافة البابلية فى ركاب القوافل كما انتقلت من قبل الثقافتان المصرية والسورية ، وآلهة الفراعنة

والعموريين والآشوريين .

وراح عدنان يفكر فى ولديه معد وعك اللذين بعث بهما ليكونا فى رحاب بيت الله بين أهليهما من بنى إسماعيل حيث الأمن والاستقرار ، وفى ذلك الوقت كانت قافلة معد تنحدر إلى أرض تهامة على ساحل البحر الأحمر ، فقد كان بنو إسماعيل ينتشرون بها ، وكان سراتهم يصيفون بالطائف ويمضون الشتاء بمكة فى كنف بيت الله .

ونزل معد وعك تهامة على الرحب والسعة وقد اكتست الأرض بحلة سندسية وتدلت عناقيد العنب من عروشها وخفق الكون بالجمال ، إلا أن نفس معد أغلقت عينيها عن الحسن وزخرف الأرض وزينتها ، فقد كانت تهوى إلى جمال آخر يبهر الروح ويملأ الوجدان بالجلال ، جمال يحس روعته كلما صفت نفسه واتصلت بينها وبين ذات الذوات الأسباب .

إنه يهفو إلى بيت الله ولا يطيق البعد عنه ، فنار الشوق تبرحه ولهفة النفس تخفق فى جنباته تود لو تحلق به إلى هناك . كان فى تهامة بجسمه بينا روحه تطوف بالحرم فى كل آن ، فقام وشد الرحال إلى مهوى الفؤاد ليعيش فى ظل البيت . تنتشى روحه بعبيره وتضىء جوانحه بنوره .

كانت لغة معد رقيقة أرق من لغة المكيين ، فقد استلهمت رقة المروج الخضراء وموسيقى خرير المياه فى الانهار وزفيف النسيم وحفيف الشجر ، وكانت فصيحة أفصح من لغتهم ، زادها غنى اتصال أهلها ببابل وآشور والآراميين والفينيقيين والمصريين ، فراح المكيون يصغون إليه منشرحين ، ويأخذون عنه فرحين بما آتاهم من جزالة فى اللفظ ورقة فى التعبير .

وجلس معدٌّ عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، حيث يكتب الكتاب وتبرم العقود ، وأخذ يعلم الصبية الكتابة بحروف وأشكال مستمدة من الخط النبطى ، ليتم حلقة القلم العربى الذى وضعت هاجر بذرته عند بئر

زمزم أيام أخذت على عاتقها مهمة تعليم ابنها الحبيب إسماعيل بالقلم ما لم يعلم .

كانت هاجر تكتب بحروف هيروغليفية ولا غرو فقد تعلمت الكتابة على أيدى كهنة منف . وتعلم إسماعيل منها أن يكتب الجمل موصولة ، فلما وجد ابنه قيدار صعوبة ذلك على النشء الجديد راح يفرق بين الألفاظ وييسر الكتابة . وخرج بنو إسماعيل من مكة وانتشروا فى سيناء وعلى حدود سورية وفى أعالى الحجاز وبلاد ما بين النهرين ، ولما كانوا يعيشون على التجارة فقد اهتموا بالكتابة لتدوين العقود وتوثيق المواثيق .

ووضع بنو إسماعيل فى سيناء الأبجدية السينية وقد تألفت من اثنين وعشرين حرفا ، ومنها أخذ العبريون أبجديتهم وبها تأثر الخط الكنعانى ، فكانت الأبجدية السينية أم أبجديات المنطقة التى حولها .

وتعلم معد فى أرض النبط أبجد هوز وكان العبريون قد أخذوها عنهم من قبل ، فلما عاد إلى مكة أخذ فى تعليم الناس ما تعلم ليتم الله لبنى إسماعيل فضلهم على الخط العربى والخط العبرى وعلى أقلام الكنعانيين ، بل وعلى كل الأقلام التى اتصلت بالنبط بسبب .

بدأ القلم العربى العربى عند بئر زمزم ، أيام كانت هاجر تعلم ابنها إسماعيل القراءة والكتابة ، ثم ترعرع فى ظل الكعبة ، ثم خرج يطوف بالشرق الأوسط ليتهذب قبل أن يعود مرة أخرى ليتفيأ ظلال البيت المحرم ويزدهر ليصبح لسانا عربيا مبينا .

وأقام معد إلى جوار الكعبة إن غابت عن عينيه فهى فى قلبه ، وإن طاف بها رقت نفسه وتعلق بها فؤاده وأحس رحابة فى صدره تتسع للكون كله ، فهو يذوب فى روح الوجود وتفنى ذاته فى ذات الذوات وكأنه استحال إلى كوكب درى يصب فيه فيض النور الإلـهى .

كان يمضى سحابة يومه فى حرم الله وفى حرمته ، حبس له نفسه وصبر على لأواء مكة وشدتها ابتغاء وجهه ، وكان يقوم الليل إلا قليلا يسبح الله رب العالمين .

وسار أخوه عك وبعض أهله إلى اليمن ، ودارت الأيام ومرت السنون وتزوج عك فى الأشعريين فأقام فيهم فصارت الدار واللغة واحدة ، وتزوج معد فى الجرهميين كما تزوج بنو إسماعيل فيهم من قبله ، تزوج ابنة جرشم بن جلهمة الجرهمى فولدت له نزار بن معد .

وراح معد ينقى دين إبراهيم من الشوائب التى علقت به ، ولم تكن أصنام النبط وأوثان قيدار وتماثيل الثموديين والبابليين والآراميين والمصريين قد وردت بعد إلى الكعبة ، فكان من اليسير أن يعيد المكيين بالموعظة الحسنة إلى ملة أبيهم إبراهيم .

وفى مواسم الحج كان يخرج على رأس الحجيج ، تهز كيانه نداءات التلبية المنبعثة من قلوب عامرة باليقين :

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وراح الحجاج يهرولون بين الصفا والمروة كما هرولت هاجر بينهما وهى تبحث عن الماء لابنها إسماعيل ، وراحوا يرجمون إبليس فى المواضع التى رجمه إبراهيم الخليل وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر القانتة لله رب العالمين ، ويزورون جبل ثبير حيث فدى الله جد العرب بذبح عظيم .

ونجح معد فى أن يعيد إلى مكة جلالها وأن يجدد دعوة إبراهيم ، وأن يقول لأبنائه كما كان يقول خليل الرحمن لبنيه : يا بنى ، إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

وراح معد يفقه ابنه نزار فى الدين ويعده لولاية البيت ، وإنه لشرف عظيم

أن تعود ولاية البيت إلى ذرية عدنان وإنه لشرف يتطاول إليه شرف الدنيا وسؤدد الملك والسلطان .

وظل معد فى تقشفه يحيا حياة خشنة لا يقدر عليها إلا النساك ، وهجر الدنيا وزينتها وأسلم وجهه لله رب العالمين . كان يرتجف خشية أن يخزيه ربه يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وجاء النبأ إلى معد أن عدنان مات فأحس حزنا ثقيلا يجثم على صدره ، كان يحب أباه حبا جما ولكنه كان عميق الإيمان ، إن كل نفس ذائقة الموت وأنه ليجتهد فى عبادته اجتهادا ليتقى ما بعد ذلك الفراق من عذاب أليم ، فلم يجزع للنبأ و لم يستول عليه اليأس بل راح يدعو الله أن يغفر لأبيه .

وتجهز معد للسفر ولكنه لم يفكر فى أن يلحق بأهله فى الشمال ، فهو مذ خرج من البتراء عاصمة النبط فرارا من بختنصر وجنوده وأقام بفناء بيت الله المحرم تعلق فؤاده بالبيت العتيق و لم يعد يصبر على البعد عنه ، إنه خارج إلى اليمن ليعود بأخيه علك وأهل بيته إلى تهامة ، ليعيش العدنانيون فى كنف الله ورعايته .

وانطلقت قافلة معد إلى الجنوب ، إلى العرب الذين هاجروا فى سالف الزمان إلى الرافدين ، من جاء من نسلهم جده إبراهيم وشب وترعرع فى أور الكلدانيين قبل أن يأمره الله بالهجرة إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

ومرت ليالى وأيام و القافلة تسرى فى ملك الله ومعد يقلب وجهه فى الجبال منها جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، وراح يرصد نجوم السماء ويمد بصره إلى الشمس والقمر والصحراء فتمتلئ نفسه خشية ويشرق قلبه بالنور ، إن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء .

وخرج معد ساجدا لله على قتب بعيره وراح يسبحه ليلا طويلا ، ولما أشرقت الشمس بنور ربها كانت القافلة تسير فى سهول اليمن وقد لاحت مدنها على سفوح الجبال كالعقاب فى الجوزاء .

ودخلت القافلة مدينة مأرب وراح معد ينظر . إنها مدينة حصينة شيدت جدرانها من الحجر وقامت الدور على أعمدة فخمة وزينت الحوائط بنقوش وتهاويل وقامت التماثيل فى كل مكان .

وفى الميدان الفسيح وعلى قمة مرتفعة من الأرض قام المعبد وانتشرت حوله البغايا المقدسات . وكان المعبد أشبه بمعابد بابل ولا غرو فقد أقام المهاجرون اليمنيون فى بابل معابد على نسق معابدهم وبنوها على المرتفعات وزادوها علوا بالأبراج المقدسة ، فإن آلهتهم تعيش فى عليين .

كان القمر رب الأرباب والشمس زوجه وأم الآلهة وعشتر الابن ثالث الثالوث المقدس . ولولا أن رفع حمورابى مردوخ ؛ كوكب المشترى إلى مرتبة رب الأرباب فى بابل لظل القمر كما كان دائما فى فترات عبادة الكواكب والأجرام السماوية فى كل أرض العرب هو الرب الأعلى .

رأى معد تماثيل الآلهة فى شمال جزيرة العرب أيام صباه ، رأى اللات والعزى ومنوتن وذا الشرى وشيع القوم وعشرات الآلهة الأخرى ، وإنه ليراها الآن فى أرض الجنوب بعد أن طال على الناس العهد ونسوا ما دعاهم إليه إسماعيل فانقبضت نفسه ، إلا أنه حمد الله أن ظل البيت خالصا لوجهه وأن أهل مكة لم يشركوا به أحداو لم يسجدوا لصنم من الأصنام .

وغام وجهه أسى لما تذكر أن بنى إسماعيل كانوا أول من غير دين الله ، وأنهم أشركوا بربهم وجعلوا له بنات واتخذوا لآلهتهم بيوتا فى البتراء وفى دومة الجندل وفى تيماء وفى سيناء وفى كل مكان نزلوا فيه بعيدا عن مكة .

وحمل معد أخاه علك وزوجه وأهل بيته وعاد بهم إلى تهامة ، فخف نزار ابن معد وقضاعة بن معد وقنص بن معد لاستقبال أبيهم والذين معه ، واستقر أبناء عدنان إلى جوار البيت المحرم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

٣

انطلق الميديون نحو الجنوب من بلادهم بخارى وسمرقند وتوغلوا فى الأرض حتى وصلوا إلى فارس ، فوجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام والحجارة الكريمة فى الجبال ، فاستقروا بها لتكون وطنا جديدا لهم .

كان الميديون قوما أشداء بسطاء ، فأخذوا يفلحون الأرض المنبسطة وسفوح الجبال العالية المغطاة بالثلوج ، فكانت الثلوج تذوب فى الصيف فتنحدر المياه إلى الوديان بالخصب والخير .

وعند ملتقى الطرق الكثيرة الواقعة فى واد يسحر الألباب بحسنه ، أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى وزينها بقصر ملكى رائع جميل كان يقضى فيه بين الناس بالعدل ، فأحبه شعبه وتعلقت قلوبهم به .

وحرك السلطان غرور الملك فانتفخت أوداجه وترفع عن مخالطة شعبه ، وطغى وبغى وتجبر وأصدر أوامره بألا يسمح لإنسان بالمثول بين يديه ، وعلى من يشاء أن يعرض عليه أمرا أن يتصل برسله ليرفعوا إلى جلالته ما يريدون . وكان يعد من سوء الأدب أن يضحك إنسان فى حضرته ، وكان يبغى من ذلك أن يوهم الذين لا يرون ذاته الملكية أنه من طبيعة أرق من طبيعتهم .

وشبت الحروب بين الميديين والآشوريين، واستطاع سياخار أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . ولما تم له ذلك ولدت فى نفسه آمال عريضة راحت تغريه بأن يتوغل فى آسية الغربية ليخضع البلاد لسلطان الميديين .

ووصلت جيوش الميديين إلى أبواب سرديس فخرج أهلها لقتال الغزاة ، ودارت رحى الحرب وحمى وطيسها وإذا بالظلام يسود الميدان فى رائعة النهار فقد كسفت الشمس و لم تعد ترسل ضياءها .

وارتاع القائدان وحسبا أن ذلك نذير من السماء وأن الآلهة ستصب عليهما جام غضبها وتسومهما العذاب ، فمشت بينهما سفارات تبغى الصلح قبل أن يحل بهما غضب السماء .

وأبرمت معاهدة الصلح بأن شرب كل منهما جرعة من دماء غريمه ، وقفل الجيشان راجعين إلى بلادهما ، ولكن الثروة راحت تتدفق إلى الميديين فى سرعة عجيبة فلم يحسنوا استغلالها . أصبحت الطبقات العليا أسيرة الحياة المترفة فلبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة وغالى النساء فى الزينة ، بل زينت الخيل بالذهب .

وراح الرجال الذين كانوا بالأمس القريب خشنين تحملهم عربات بدائية ذات دواليب خشنة غليظة قطعت من سوق الأشجار ، يرفلون فى أفخر الثياب ويركبون عربات فارهة عظيمة الكلفة ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة .

واعتلى عرش الميديين استياجس ، وبعد أن كان أسلافه يفخرون بعدالتهم ورعاية شعبهم وبذل كل جهد لرفاهيته ، جاء الملك الجديد بالظلم والقهر والعسف والاستبداد .

وفى ذلك الوقت كان قورش الشاب النابه حاكم ولاية أنشان الفارسية التابعة للميديين يحكم بين الناس بالعدل ويتألف قلوب شعبه ، وقد زاد فى محبة القوم له أنه كان وسيما بهى الطلعة ، حتى إن الفرس اتخذوه نموذجا لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم .

كان استياجس يرتدى الثياب المزركشة ويتمايل فى مشيته تمايل الغوانى ، وكان قورش رجلا ذا خلق قويم آماله أروع من جمال جسمه وسريرته أنقى

من بهاء طلعته .

وفى ذات يوم غضب استياجس على هرباجس ، وكان واليا من ولاته ، فدعاه إلى وليمة فى قصره . وما كاد يستقر فى مكانه حتى قدم إليه أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه وقال له :

— كل .

فراح هرباجس يتلفت بعيون زائغة والحزن يهصر قلبه ، فرن صوت الملك فى أذنيه قاسيا موحشا كأنه صراخ الفناء :

— كل .

فمد هرباجس يده إلى أشلاء ابنه وتناول منها وهو يقول :

— إن كل ما تفعله يا مولاى يبهج قلبى .

وخرج هرباجس من القصر وصدره يختنق بالكراهية والمقت لذلك الطاغية الذى قد قلبه من الصخر ، وأطرق يفكر فى الانتقام فوجد أن قورش حاكم أنشان الشاب شق عصا الطاعة على الطاغية المخنث فى فارس ، فطار إليه ليعينه على خلع استياجس أبغض أهل الأرض إلى قلبه .

والتقى جيش الميديين بجيش فارس ، وما هى إلا وقعة واحدة حتى أصبحت فارس سيدة ميديا بعد أن كانت ميديا سيدة فارس .

وابتهج الميديون بانتصار قورش على طاغيتهم الذى سامهم سوء العذاب وإن فقدوا استقلالهم. ومنذئذ بدأ نجم فارس يبزغ وراحت الأقدار تهيىء لها الظروف لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

وراح قورش يمد بصره إلى ما وراء حدود فارس ، إلى بابل وأرض العرب من بنى إسماعيل وسورية ومصر ، فرأى أن تحقيق مثل هذه الأحلام الكبار يحتاج إلى نفحة روحية تسرى فى صدور أهل فارس تدفعهم إلى القتال مستبسلين فى سبيل المبدأ الذى يعتنقونه، وسرعان ما جاءت هذه النفحة من

دين كريم .

كان الرعاة فى ذلك الوقت يرعون فى إيران ويرتدون ثيابا بالية ويسيرون خلف الغنم حفاة الأقدام تعرف فى وجوههم قسوة الحياة فالأرض لا تجود بالخيرات . وكان شاب فى العشرين من عمره يرعى الغنم بعيدا عن رفاقه يمد عينيه إلى السماء ويقلب وجهه فى الآفاق فيرى آيات بينات ؛ الليل يولج فى النهار والشمس تولد فى الظلام وتسرى فى الكون روح فيخفق كل ما فيه ومن فيه بالحياة ، إن لهذا الوجود ربا وإن كل ما فى السماء وما فى الأرض يسبح لإلٰه .

كان زرادشت هو ذلك الشاب ، وكان يطيل التأمل والتفكير فيخيل إليه أنه يسمع نبضات قلب الكون ، ويستشعر رغبة فى الفناء فى ذلك الوجود ليستشف أسراره ويعرف الحق ويصل إلى الحقيقة فيتساوق مع العالم الذى يعيش فيه .

وفتح قلبه بصيرته ، وشحذ روحه فأرهفت وشفت وسمت وحلقت وصارت أهلا لتلقى فيض النور المنبعث من نور السماوات والأرض ، ولكنه كان يحس أنه سجين الجسد ، أسير الثرى الذى يمشى فوقه ، مشدود بعواطفه إلى أهله الذين يعبدون أسلافهم ويعبدون مثيرا إلٰه الشمس وأنيتا إلٰهة الخصب ، والأرض ، وهوما النور المقدس الذى مات ثم بعث حيا ووهب الجنس البشرى دمه شرابا ليسبغ عليه نعمة الوجود ، فوطن العزم على أن يهجر وطنه وأن يسرى فى الكون كالنسيم إلى أن يفضى إليه رب الناس بسره العظيم .

وهام على وجهه يسير على قدميه التماسا للحقيقة فى الشمس والقمر .. فى الليل والنهار .. فى السحر والشفق .. فى الأرض الجرداء والجبال الشم والسهول الخضر التى أخذت زخرفها وازينت .. فى الطير والشجر .. فى

الأودية والفلوات .. فى الأنهار والقنوات .. فى النمل الذى يدب على الأرض دبيبا .. وفى الدود الذى يجد رزقه فى الحجر .. فى نفسه المتعطشة إلى كشف النقاب عن حقيقة الوجود .

ومرت عشر سنوات وزرادشت يجوب الآفاق متفتح النفس والروح وقد اعتزل الناس ، طعامه الجبن وثمار الأرض ، ولكن روحه كانت تتغذى بأفخر غذاء .. كانت تمتص رحيق الحقيقة فتتألق بالنور .

وغرق فى صمت طويل لا تمس أذنيه أصوات الناس ولكن الوجود كله كان يناجيه ، فبدت الحقيقة أمام بصيرته ناصعة وفاض فؤاده بإيمان عميق . إن لهذا الكون إلـٰها حكيما . إلـٰه النور والسماء «أهورا مزدا» هو الأول أبو الجميع وجد قبل الوجود ، منه فاض كل شيء فهو روح الكون ، إنه الإلـٰه العظيم المدبر الحكيم .

ووصل زرادشت إلى مقاطعة أذربيجان فبلغ نهر دينى مع الفجر . وكان السكون مسيطرا على المكان وقد عبق الجو بعبير أطيب من المسك ، وسرت أصوات عذبة كأنها تسبيحات ملائكية خر لها الوجود كله ساجدا يغمره فرح فياض ، وسطعت أنوار لطيفة كأنها تبعث من كوكب درى تبدد ظلمات القلق من النفوس وتشيع الدعة والاطمئنان ، وبدا أن الأرض تتلقى وحى السماء .

وأحس زرادشت نشوة روحية تخفق بين جنبيه ، وأنوارا تضيء وجدانه وخشوعا يسيطر على جوارحه وسموا يلفه ، حتى إنه استشعر كأنما تحرر من سجن الجسد وصار روحا هائما فى الوجود كله .

وراح يناجى ربه :

ــ هذا ما أسألك عنه فأصدقنى الخبر يا أهورا مزدا :

من ذا الذى رسم الشموس والنجوم ؟

ومن ذا الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ؟
ومن ذا الذى بسط الأرض ورفع السماء وأمسك بها أن تقع ؟
ومن ذا الذى حفظ المياه والنباتات ؟
ومن ذا الذى سخر للرياح والسحب سرعتها ؟
ومن ذا الذى أخرج الحكمة يا أهورا مزدا ؟

ورأى كائنا نورانيا يدنو منه كأنه عمود من نور ، وسمعه يقول له :

— أنا فاهو مانا (كبير الملائكة) .

واضطرب زرادشت وتملكه خوف عظيم ، ولكن سرعان ما ذهب عنه الروع وراح فاهو مانا يوحى إليه وحى السماء ويأمره أن ينذر قومه ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واختفى كبير الملائكة بعدما وعى زرادشت ما ألقى فى صدره . وراح يدعو الناس إلى عبادة إلـٰه النور « أهورا مزدا » الإلـٰه الحكيم . خالق كل شىء بيده الخير إنه على كل شىء قدير .

وأعرض عنه الناس ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، إن تدعهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون . واستمر عشر سنوات يدعو الناس إلى الدين الجديد دون أن يؤمن برسالته أحد من العالمين .

ونام ذات ليلة تحت شجرة فرأى فى منامة ابن عمه ميتيوما يقود جيشا من المؤمنين يحارب فى سبيل إعلاء كلمة الله أهورا مزدا إلـٰه النور ، الإلـٰه الحكيم . ثم ظهر جيش ابن عمه على أعدائه وجاء نصر الله والفتح المبين .

وهب من رقاده يتهلل بالفرح وينتفض بالسرور ، وانطلق إلى ابن عمه وهو مستبشر برؤياه التى كانت واضحة كفلق الصبح ، فقد أطلعه ربه على ما ينتظره فى غده ، إن نصر الله قريب .

وهرع إلى ابن عمه يدعوه إلى عبادة « أهورا مزدا » وهو على ثقة من أن ابن عمه سيؤمن به وبدينه الذى جاء به ، ولكن ابن عمه استقبله فى بشر كما اعتاد أن يفعل كلما جاء لهدايته، و لم يغلظ له فى القول و لم يوله دبره، ولكنه لم يسارع إلى الاستجابة إلى ما يدعوه إليه من خير عميم .

وقام زرادشت يناجي ربه ويبثه همه ، فقال فى انفعال :

— أهورا !. أين المفر ؟. وإلى أين أذهب ؟

ربى ! أعرض عنى النبلاء والعظماء .

و لم يلق إلىّ سمعه أحد من الناس .

حتى هؤلاء الأفاكون حكام البلاد الدجالون وضعوا أصابعهم فى آذانهم .

مزدا ! أيها الحكيم اهدنى الصراط حتى ترضى . إلٰهى كيف أهتدى بهداك ؟

عرفت يا إلٰهى السر فى خيبة رجائى وسبب إخفاقى فى دعواى .

إنى فقير فلم يعرنى سمعهم إلا المستضعفون .

إياك أدعو يا إلٰه الخير .

وإياك أستعين يا مبعث النور .

فامنحنى يا إلٰهى العون والتوفيق .

وأعنى كما يعين الصديق الصديق .

واهدنى الصراط المستقيم .

ربى ! أما آن أن ينبثق فجر الهداية والفداء ؟

وأن ينتشر دينك لينجو هذا العالم من الشرور ؟

أين يا رب هؤلاء الذين ستفيض عليهم السعادة بفضل تعاليمك ؟

أهورا ! أنت عونى وإنى أضع فيك كل ثقتى ، فأعنى يا إلٰهى على أن أبلغ رسالتك وأن أنفذ ما به أمرتنى .

وانقضت سنة وزرادشت يقول للناس كما اعتاد أن يقول :

ــ اجعلوا العدو صديقا .. اجعلوا الخبيث طيبا .. اجعلوا الجاهل عالما . عليكم بالتقوى .. وتحلوا بالشرف والأمانة وأدوا الديون إلى أصحابها .. يمحق الله الربا . الكفر رأس الخطايا.. اعبدوا الله وتطهروا وأقيموا الصلاة . إن للمتقين جنات وحور العين وللكافرين نار الجحيم .

ولم يستجب لدعوته أحد ، وبينا هو فى حزنه إذ دخل عليه ابن عمه ميتيوما يعلنه بأنه آمن بأهورا مزدا والدين الجديد ، فهب زرادشت فرحا ، فقد وقع أخيرا ما رآه فى منامه وجاء النصر وتحقق وعد الله ، وعما قليل ينطلق ابن عمه بجيش المؤمنين لتكون الكلمة العليا لله وحده .

وبلغ زرادشت الثانية والأربعين وأوحى أهورا مزدا إليه أن اذهب إلى ملك إيران وادعه للدخول فى الدين الجديد ، فراح يقطع السهول والفيافى ويتسلق الجبال ويطوى الوديان ، وطال عليه السفر وسالت الدماء من قدميه ونال منه التعب ، ولكن النور الذى أضاء فى قلبه ازداد إشراقا .

وبلغ بلخ عاصمة الملك ودخل القصر ، وسار ليمثل بين يدى الملك ثابت الجنان تعلوه مهابة ووقار ، حتى بلغ قاعة العرش فإذا قورش وأعوانه يتشاورون فى أمور الملك ، فاشترك زرادشت معهم فى الحديث ، وسرعان ما استولى على ألبابهم فقد كان محدثا لبقا قوى الحجة راجح العقل سديد الرأى مؤيدا من الإلـٰه الحكيم .

وأقبل قورش على زرادشت لا يبرم أمرا قبل أن يسأله الرأى ولا يقطع برأى قبل أن يرجع إليه ، فأكلت الغيرة أفئدة رجال القصر فراحوا يكيدون له كيدا ويوغرون صدر الملك على الرجل الذى كاد يصطفيه لنفسه .

ووسوسوا للملك وهمسوا فى أذنه قالوا : لئن وثقت فيه لتكونن من الخاسرين . ونجحوا فى وشايتهم فأمر الملك بأن يلقى فى غياهب السجن إلى

حين .

وراح زرادشت يرتل بصوته الأخاذ آيات من الأبستاق ، كتابه المقدس ، فكان السجن يفيض بنور يملأ قلبه سلاما وأمنا ، وكان يستشعر وهو فى محبسة حرية تفوق تلك الحرية التى يتمتع بها نزلاء القصور والدور .

ومرض أخو الملك ووزيره وأخفق الأطباء والسحرة والمنجمون فى إبلاله من مرضه ، فمشى الخوف إلى قلب الملك واستبد به القلق ، وجاء إليه أحد رجال القصر يسعى وقال له :

ــ لماذا لا تدع يا مولاى ذلك الذى يزعم أن الوحى يأتيه من السماء ليعالجه ؟

ــ وإن أخفق؟

ــ تستحل دمه لأنه كذاب .

وجىء بزرادشت من سجنه وقال له الملك :

ــ أتستطيع أن تبرئ أخى ؟

ــ بإذن الله .

ــ إذن تفعل ..

ــ على شرط .

ــ وما هو ؟

ــ أن تؤمن بالله الحكيم أهورا مزدا وأنه لا إلـٰه غيره .

ــ إن أصبح أخى بارئا أشهد أن لا إلـٰه إلا هو .

وراح زرادشت يصلى لله ويبتهل فى حرارة ويدعوه أن يبرئ المريض ليؤيد دينه بملك قوى عادل قادر على أن ينشره فى الآفاق ، واستمر زرادشت فى صلاة ودعاء وابتهال حتى أحس أن ربه قد استجاب له .

وأصبح المريض بارئا بإذن الله فامتلأ قلب قورش سرورا وخر ساجدا لله

القادر الحكيم ، وآمن لزرادشت وشهد أن لا إلٰه إلا أهورا مزدا الخالق العظيم .

وآمن رجال القصر والنبلاء وعامة الشعب ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان الله قد فرض على المؤمنين خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فلما حان وقت الصلاة تطهر القوم ووقف زرادشت يؤم الملك والمؤمنين ويتلو :

ـــ أيها الرب الخالق القادر !

اغفر لى ما ارتكبت من سيئات

وما وسوست به نفسى من شرور ،

وما نطق به لسانى من قول خبيث

وما ارتكبت من موبقات

أيها الرب الخالق القادر !

باعد بينى وبين كل محرم

حتى أحشر يوم الدين مع الأبرار والصديقين .

وعرف الملك أن الدين أقوى من الدولة فأمر كتابه أن يكتبوا الأبستاق الكتاب المقدس ، فكتبوه فى جلد اثنى عشر ألف معزى ، بأن حفروه فى الجلود ونقشوة بالذهب .

وراح زرادشت يأمرهم أن يتمسكوا بالدين الذى جاءهم به إلى أن يبعث النبى العربى ، وكان يقول لهم فيما يقول :

ـــ استمسكوا بما جئتكم به حتى يجيئكم صاحب الجمل الأحمر .

وسرت فى الفلاحين نفحة روحية ملأت جوانحهم قوة جعلتهم يتطلعون إلى نشر دين الله ، فانضموا إلى جيش قورش ليقاتلوا فى سبيل الدين الجديد طلبا لإحدى الحسنيين ؛ النصر أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .

وذاع فى بابل أن دينا جديدا ظهر فى فارس يدعو إلى الله وحده « أنا الرب وليس آخر لا إلـٰه غيرى » . ووصل ذلك الخبر إلى أشعيا الثانى نبى اليهود الذين يقاسون ذل الأسر فى بابل ، فتهلل بالفرح ورأى الفرج فى النهضة الدينية الجديدة ، فراح ينادى بين اليهود فى أرض السبى بأن قورش رجل قوى لا يقهر ، وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من الأسر فيعـودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلا جديدا ومدينة جديدة تكون جنة بحق ، الذئب والحمل يرعيان معا ، والأسد يأكل التبن كالبقرة ، أما الحية فالتراب طعامها .

وسار قورش إلى بابل والتقى جيش فارس بجيش الكلدانيين ، وراح المؤمنون يرمون السهام لتستقر فى الصدور والقلوب . وسرعان ما دب التخاذل فى نفوس الكلدانيين فانقض عليهم الفرسان من الجناحين وهم يهتفون لأهورا مزدا فى أصوات كالرعد تنخلع لها قلوب الأعداء .

ودارت الدائرة على أهل بابل وقضى على مملكة بابل الجديدة ، بابل التى كانت تخر ساجدة لمردوخ وسين وشمش وعشتار والآلهة الأخرى ، لتزدهر إمبراطورية فارس بفضل تعاليم زرادشت التى ثبتت فى النفوس إيمانا عميقا ، ونفحت فى الكيان نفحة روحية سرت فى قلوب المؤمنين فملأتها عـزة وكرامة .

وانتظر اليهود ما يحيق بأعدائهم من عذاب مهين ، ولكن قورش كان مؤمنا صادقا فكان أكثر رقة وأكثر حضارة من الآشوريين ، بل من اليهود أنفسهم ، فلم يأمر بسلخ الأسرى وهم أحياء بل عاملهم بالتى هى أحسن ، ولم يأمر بتخريب بابل ولا بتقويض معاقلها ولا بإضرام النار فى دورها .

وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم ، فعاد لهم ما كان باقيا فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما بختنصر من الهيكل ، وأمـر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجون

إليه فى أثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم .

ولم يتحمس شباب اليهود لهذا التحرير فقد تأقلم كثير منهم فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى قفارهم الخربة فى الأرض المقدسة .

وتطلع قورش إلى أن يمد سلطانه حتى وادى النيل ، ولكنه راح يفكر طويلا ، فسيطأ بخيله ورجله شعب قيدار وشعب النبط وقبائل بنى إسماعيل الأخرى ، إن وصية زرادشت لا تزال ترن فى أذنيه : « استمسكوا بما جئتكم به حتى يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » ، وإن صاحب الجمل الأحمر من هؤلاء ، وهو يكره أن يسفك دماء قوم سيبعث فيهم ذلك النبى المنتظر ، فرأى أن يبعث إليهم ليكون بينه وبينهم عهد وصداقة ومودة .

ورأى أن يشرك معه فى حكمه ابنه قمبيز فنادى به ملكا على بابل ، ثم سار ليخضع سورية والأراضى التى تفصل بينه وبين مصر بعد أن تحالف مع ملوك الإسماعيليين وزعماء قبائلهم .

وأخضع قورش سكان آسيا لسلطان فارس ، وتحالف مع العرب الذين أبوا أن يخضعوا كالرقيق للحكام الذين تعاقبوا على المنطقة تعاقب الليل والنهار مذ خرجوا من البيت المحرم ابتغاء التفسح فى الأرض ، ثم راح يعد العدة لغزو مصر .

وأحس فرعون مصر أحمس الثانى (أمازيس) الخطر الذى يتهدده ، فعمد إلى التحالف مع بعض اليونانيين ليقفوا فى وجه الزحف الذى يحمل لواء دين جديد .

وشبت ثورة صغيرة فى شمال فارس ، فلم يبعث قورش من يخمدها من قواده بل ذهب بنفسه على رأس جيشه لإخمادها ، وفى أثناء القتال أصابه سهم قاتل ، فسقط قورش المؤمن من أيد زرادشت فى دعوته وعمل على نشر دينه ليلفظ أنفاسه ، وليتولى ابنه قمبيز إمبراطورية فارس من بعده .

٤

أشعلت دعوة زرادشت نار الحماسة فى صدور الفارسيين ، وبدلت النفحة الروحية فلاحى الأمس البسطاء فأصبحوا مقاتلين صناديد يجودون بأرواحهم عن طيب خاطر فى سبيل الله ، وتمكين سلطان أهورا مزدا فى الأرض .

مات قورش مؤسس أعظم إمبراطورية فى التاريخ القديم فلم يدب اليأس فى قلوب أهل فارس ، فإن كان قورش قد مات فأهورا مزدا حىّ لا يموت .

وقام قمبيز فى بابل فجمع جيوش المؤمنين وخرج لفتح مصر وتحقيق حلم أبيه . ورث قمبيز عن قورش عرشه وقوته ولكنه لم يرث شيئا من كرمه ولا من تسامحه ، كان يرى القانون مظهرا لإرادة أهورا مزدا ، وكان يرى فى آلهة الأقوام الآخرين شركاء لإلٰهه الفرد من صيغ من الوحدانية جوهره ، فعزم على تحطيم أصنام الآلهة جميعا ليخلو وجه الأرض لإلٰهة خالق الناس ملك الناس إلٰه النور .

وانطلق قمبيز بجيشه إلى أرض العرب ، إلى الأرض التى أوصى زرادشت أتباعه أن يكرموا أهلها لفضل صاحب الجمل الأحمر الذى سيبعث فيهم ، فقوبل بالترحيب ودخل أرض النبط دخول الظافرين ، وخف لاستقباله والترحيب به ملك النبط وأنزله بقصره التى نحت فى الجبل وأشرف على البتراء العاصمة التى تدفقت إليها قوافل التجارة من أقطار الأرض فى مشارقها ومغاربها ، وازدهرت فيها فنون البابليين والسوريين والمصريين .

كانت البتراء حصينة تستعصى على عقاب الجو ، وكان أهلها ينحتون من

الجبال بيوتا آمنين ، وقد انتشرت المعابد الفخمة على قمم الجبال : معبد اللات ومعبد العزى ومعبد منوتن ومعبد ذى الشرى ، وكانت القرابين تحرق فتتصاعد أدخنتها مع البخور تعلن للآلهة أن عبادها قد أحرقوا خطاياهم .

ودار الحديث بين قمبيز وبين ملك النبط حول الله وجوهره ، ولما كان بنو إسماعيل يعرفون الله ، وبقيت لهم بقية من دين إبراهيم ، فقد كان من اليسير أن يفهم ملك النبط فلسفة قمبيز وإن كان بنو إسماعيل أشركوا بالله وجعلوا اللات زوجه وأم الآلهة ، والعزى ومنوتن والإلـٰهات الأخريات بناته وقالوا إن شفاعتهن ترتجى .

كان العرب قبل أن يدخلوا فى دين إبراهيم يعبدون الكواكب ، وكانت الشمس عندهم زوجة الإلـٰه القمر ، والنجوم بنيه وبناته ، وقد وقر فى أذهانهم منذ أن بعث إبراهيم أن الله هو رب الكون وخالق كل شىء ، ولما طال عليهم العهد وقست قلوبهم وأشركوا بالله ، فقد جعلوا اللات زوجه وصارت رمزا للشمس ، وجعلوا العزى ابنته وصارت رمزا لكوكب الصباح ، ومنوتن ابنته الأخرى ووكلوا إليها الحظ والمنايا .

خرج قمبيز من وادى موسى وانساب وجيشه فى أمان ، ولا غرو فقد كانت الأرض بين بيت المقدس وخان يونس فى قبضة حلفائه من بنى إسماعيل ، تحميها جيوش عربية قوية ذات بأس شديد .

أثرى النبط من التجارة فوجدوا أن لا مفر من تكوين جيش قوى يحمى طرق القوافل والتجارة التى تغدو وتروح بين اليمن ومكة ويثرب وبصرى وبابل ودمشق ودلتا النيل . وقد اشتد ساعدهم فراحوا يحلمون بأن يمدوا سلطانهم إلى كل هذه الأقاليم وينتهزون فرصة ضعف الملوك والأباطرة ليثبوا وثبتهم كما وثب الهكسوس من قبل ، ويضعوا أيديهم على الممالك ما بين وادى الرافدين ووادى النيل .

سار قمبيز ومن معه من اليهود فى أرض حلفائه من بنى إسماعيل آمنين ، وقد خرج اليهود مع جيوش الفرس لا اعترافا بفضل قورش عليهم إذ خلصهم من ذل أسر البابليين ، بل ليتركوا جاليات منهم على طرق القوافل لتصبح شرايين التجارة فى خدمة بنى إسرائيل ، فقد كان حلمهم مذ وضعوا أقدامهم فى أرض فلسطين أن يتحكموا فى التجارة وأن يسيطروا بأموالهم على العالمين .

مات أحمس الثانى قبل أن يشن قمبيز وحلفاؤه من بنى إسماعيل الحرب على مصر ، وقام بسامتيك الثالث يتأهب لخوض المعارك دفاعا عن الوطن المقدس وعن شرف آمون إلٰه الفراعين . وهربا من عار الدنيا والآخرة لو أذله أهورا مزدا .

واستعان بسامتيك بجنود مرتزقة من اليونانيين ، وأسند قيادة الجيش إلى قائد يونانى ، وخرج الجيش من منف وكان مزيجا من المصريين واليونانيين لقتال من جاءوا للاستيلاء على مصر وإخماد أنفاس آمون وكهنة آمون .

وبلغ جيش مصر رفح وإذا بقمبيز وجنوده قد نزلوا بأرباضها ، فراح الجيشان يتأهبان للقتال ووطن المصريون العزم على أن يردوا الفرس على أعقابهم مجللين بعار الهزيمة ، وأن يقفوا سدا فى وجه قمبيز الطامع فى أن يبسط سلطانه على منف مخزن غلال الآلهة والعرش العظيم .

وفى جنح الظلام تسلل قائد جيش مصر اليونانى إلى معسكر قمبيز وأفشى له جميع أسرار الدفاع عن البلاد ، ولم تكن هذه هى الخيانة الوحيدة التى ارتكبها اليونانيون بل إن ملكهم بوليقراط ملك جزيرة ساموس لما رأى الجيش الفارسى وصل إلى غزة ، نقض التحالف الذى أبرم بينه وبين أحمس الثانى ، والذى تعهد فيه أن يهب لنجدة حليفه إذا داهمته جيوش فارس .

وراح جيش مصر يحارب الخيانة وجيوش فارس وبنى إسماعيل دون جدوى ، فسرعان ما تصدعت الصفوف بعد أن نخر فيها سوس الجنود

المرتزقة الذين تفاعسوا عن القتال وفتحوا الثغرات ليتدفق منها فرسان فارس والعرب ، وما لبث أن حاقت الهزيمة بجيش مصر فارتد الفارون إلى منف مولين الأدبار ، وقمبيز وجنوده فى أثرهم يهللون لأهورا مزدا الذى صدق وعده ومكنهم من الفراعين .

و لم تصمد منف للحصار وسقطت غنيمة باردة فى أيدى قمبيز ، سقطت مخزن غلال الآلهة والعرش العظيم ، مدينة أزريس ومدينة هاجر أم هؤلاء العرب الذين تهللوا بالفرح لما وقع بسامتيك فرعون مصر أسيرا فى أيدى الفرس .

وانطلقت جيوش فارس إلى طيبة ، وتخلفت حفنة من اليهود لتكون حلقة فى سلسلة النفوذ الاقتصادى التى بدأت تمتد من سوسا عاصمة فارس إلى منف قلب وادى النيل .

ودخل قمبيز طيبة دخول الفاتحين ، ولم يعكر صفوه إلا نبوءات كهنة آمون فى سيوة التى كانت تنتشر بين المصريين انتصار الريح . ومن القصر الفرعونى فى طيبة قرر أن يبعث ثلاث حملات حربية ، واحدة للاستيلاء على قرطاجنة ، والثانية للاستيلاء على واحة سيوة مقر وحى الإلـٰه آمون ، والثالثة للاستيلاء على كوش .

كان قمبيز ينفس على القرطاجنيين سيادتهم فى البحر ومناوأتهم لسلطان فارس ، وكان يتميز غيظا من وقاحة كهنة آمون فى سيوة فقد كانوا يوسعون الأرض إذاعة بأنه سيبوء بالإخفاق ، وكان يزيد فى حنقه عليهم أن الإغريق كانوا يؤمنون بوحى آمون إيمانا عميقا ويصدقون كل ما يتنبأ به الكهنة من سوء مصيره وإخفاق فتوحاته ، وكان يريد أن يستولى على كوش ليأمن ثورات الجنوب ويخضع وادى النيل كله لسلطانه.

وخرجت الحملات الثلاث وخرج قمبيز على رأس الجيش المنحدر إلى

كوش ، وكان اليهود فى ركابه لا ليشدوا أزر الجيش الفارسى بل ليمدوا السلسلة اليهودية البشرية التى بدأت من فارس ليسروا فى شرايين التجارة مسرى الدم ، ولتكون فى أيديهم مفاتيح خزائن الأرض ومصائر الشعوب .

وانسحب الكوشيون نحو الجنوب وتركوا قمبيز وجنوده يواجهون الطبيعة القاسية ، وراح يقتفى أثرهم وهو يرجو أن يصل إلى مروى عاصمة ملكهم ليستريح بها كما استراح فى طيبة ، إلا أن أنفاسه وأنفاس جنوده تقطعت فى منتصف الطريق ، وصادفتهم أهوال ونقصت المؤن وحلق فوقهم شبح الفناء ، فوجد قمبيز أن خير ما يفعله أن يعود إلى طيبة يستمع إلى أنباء انتصارات جيوشه الخارجية لتأديب القرطاجنيين وكهنة آمون .

وفى القصر الفرعونى فى طيبة سمع ما أطار لبه ، علم أن الحملة الأولى أخفقت . فقد أبى العرب الفينيقيون أن يحملوا الفرس فى البحر على أساطيلهم ليضعوا أغلال الرق فى رقاب أهلهم العرب القرطاجنيين . وجاءته أنباء الحملة الثانية تلك التى انطلقت إلى واحة سيوة بضجيج عرباتها وخفيق راياتها لتقويض معبد آمون وسلخ جلود كهنته لتعلن على الملأ كذب نبوءة آمون وأن قمبيز هو النجم الصاعد وملك الملوك — وكانت أنباء تطيش لها العقول . فقد غاب الجيش كله فى جوف المجهول بعد أن بلغ الواحات الخارجة وأخذ منها المؤن والأدلاء ثم انساب فى الصحراء .

أطبق على الجيش الصمت الرهيب ، ودفن سره معه ، فما وصل إلى سيوة منزل وحى آمون جندى فارسى ، ولم يعد جندى واحد إلى طيبة ليقص على ملك الملوك ما لاقاه جيشه فى الطريق .

وتهلل كهنة آمون بالفرح وقالوا :

— انتقم آمون من أعدائه ، أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية دفنتهم جميعا فى الرمال .

وذبحت الذبائح وقربت القرابين وتجاوبت فى جنبات سيوة الأناشيد تمجيدا لآمون العظيم،ودخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس وخر ساجدا لتمثال آمون ، وقامت الاحتفالات فى المعبد حتى إن الابتهالات بلغت الجوزاء وارتفع البخور فى السماء كالسحاب .

وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .

وسرى فى طيبة همس ينبض بالفرح ، لقد انتقم آمون من قمبيز ، وقرع ذلك الهمس أذنى ملك الملوك فاستشاط قمبيز غضبا وراح يسخر من دين المصريين ، وبدأت الثورة تتحرك فى مصر فقد رفع من روح الشعب ما أذاعه كهنة آمون من أن إلٰـههم القدير قد قضى وحده على جيش الفرس الذى جرؤ على رفع أسلحته فى وجه جلالته .

ووجد قمبيز أن التسامح لم يعد يجدى ، فهيبة فارس وهيبة أهورا مزدا وهيبة إمبراطورها أصبحت جميعا فى الميزان . فراح يصب جام غضبه على المصريين . بقتل العصاة وهدم المعابد ، وفى احتفال دينى كبير فى منف طعن بخنجره العجل أبيس .

وأخرج الجثث المحنطة من مدافنها ونبش قبور الملوك ، وخرب الهياكل وأمر بإحراق ما فيها من أصنام وهو يسبح بحمد أهورا مزدا إلٰـهه العظيم .

وانتابته نوبة صرع فاعتقد المصريون أن ما حل به إن هو إلا عقاب من آلهتهم وأنه آية من آيات آمون الذى اتخذه قمبيز هزوا ، وارتفع آمون فى أعين المصريين والإغريق وعلا علوا كبيرا .

وفى نوبة من نوبات صرعه أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه بركسبيس بسهم من قوسه ، ودفن اثنى عشر من الفرس أحياء .

وجاءت الأنباء من فارس قاسية تزيد فى قسوتها عن الضربات التى وجهها

إليه القدر فى وادى النيل ، فقد جاءه نذير السوء يقول : إن ثورة عارمة قامت فى فارس تبغى القضاء عليه وعلى سلطانه .

وعاد قمبيز مسرعا يريد الوصول إلى بلاده ليخمد أنفاس الثورة المندلعة فى فارس ، وخلف وراءه اليهود فى الفنتين (جزيرة أسوان) وفى طيبة وفى منف وفى كل مدن التجارة بأرض الفراعين وأرض السوريين يمتصوا دماء الشعوب .

وانتابته نوبه الصرع فى أرض حلفائه من بنى إسماعيل وكان يحقد على نفسه لأنه أهان إلٰهه أهورا مزدا إلٰه النور فما استطاع أن يبسط سلطانه على العالمين ، بل إن آمون إلٰه المصريين تحداه ودفن جيشه فى الصحراء ولطخ جبينه بالعار .

تقوض الحلم الجميل . حلم إخضاع العالم لإلٰه النور وحده لا شريك له ، إنه هو الذى أساء إلى إلٰهه وإلى بلاده ، إنه هو قمبيز ، قمبيز الفظ غليظ القلب من قتل أخته وحبيبته وزوجته ركسانا ، وسدد إلى فلذة كبده سهمه فأرداه .

وصرخ قمبيز صرخة هائلة دوت فى أرجاء المكان بآلام نفسه ، ثم راح يطعن قلبه بخنجره ليسكت الصيحات المنبعثة من أغواره تتهمه بأنه عار على بلاده ، وعار على إلٰهه الحكيم إلٰه النور .

ومات قمبيز وهو هائم على وجهه فى أرض حلفائه من بنى إسماعيل ، ولم يحزن عليه حلفاء الأمس من اليهود فقد كانوا ينظرون إلى المعارك الطاحنة الدائرة بين فارس وآشور وبابل وعيلام ودمشق ومصر نظرة رضا ، بل كانوا يباركونها ويؤججون نارها ليدب الوهن فى تلك الممالك ، وتحين فرصتهم التى يرقبونها بصبر نافد ليثبوا على ملك هذه الشعوب ، لتكون لهم اليد العليا من بابل إلى دلتا النيل .

٥

سجى نزار بن معد فى فراشه وجلست عند رأسه زوجتاه سودة بنت علك والجدلة بنت وعلان بن جوشن بن جلهمة بن جرهم . ورأت الزوجتان أن قد حضرت نزارا الوفاة ، فبعثت سودة تطلب ولديها مضر وأياد ، وأرسلت الجدلة إلى ولديها ربيعة وأنمار أن أقبلا فأبوكما يجود بأنفاسه .

وجاء مضر وربيعة وأياد وأنمار والتفوا بأبيهم حفيد عدنان ، وألقوا إليه السمع فقال نزار فى صوت خافت :

ـــ ولاية الكعبة لأياد .. أخرجوا جرهم من البيت فقد كثرت مظالمهم .

وصمت ليلتقط أنفاسه ، ثم قال فى جهد وهو يقلب وجهه فى بنيه :

ـــ أى بنى ، هذه القبة الحمراء وهى من أدم وما أشبهها من المال فلمضر ، وهذه البدرة والمجلس فلأنمار ، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبهها من مال فلربيعة .

والتفت إلى خادم شمطاء كانت ترقبه فى حزن وقال :

ـــ وهذه الخادم وما أشبهها من مالى فلأياد . وإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجرهمى ومنزله بنجران ، وإن أمنتم رضيتم .

وخفت صوته وانبهرت أنفاسه ، ثم سكنت حركته إلى الأبد ، فقاموا من عنده وجوههم باسرة يتلفتون فى حيرة ، فقد مات نزار من ملأ مكة تقى وعدلا قبل أن يتم وصيته .

واختلف بنو نزار وتشاجروا فى ميراثه و لم يهتدوا إلى القسم ، فتوجهوا إلى

الأفعى يريدونه فى نجران ، وفيما هم فى الطريق إذ رأى مضر أثر بعير كان يرعى فقال :

— إن الذى رعى هذا الموضع لبعير أعور .

فقال ربيعة :

— إنه لأزور .

فقال أياد :

— إنه لأبتر .

فقال أنمار :

— إنه لشرود .

فساروا قليلا فإذا برجل يسألهم :

— ألم تروا بعيرا لى قد ضل ؟

فقال مضر :

— أهو أعور ؟

— نعم .

وقال ربيعة :

— أهو أزور ؟

— نعم .

وقال أياد :

— أهو أبتر ؟

— نعم .

وقال أنمار :

— أهو شرود ؟

فتهلل الرجل بالفرح وقال :

ــ نعم هذه صفة بعيرى . أين هو ؟

فقالوا جميعا :

ــ إنا لم نره .

ونظر إليهم الرجل فى ريبة وقال :

ــ كيف لم تروه ، وقد وصفتم لى صفته ؟

ــ قلنا لم نره.

وانطلقوا إلى الأفعى الجرهمى والرجل فى أثرهم يطلب بعيره ، حتى إذا دخلوا نجران وبلغوا الأفعى ، وكان حكم العرب وقاضيهم ، هرع إليه الرجل يشكو إليه هؤلاء الرجال الذين وصفوا له بعيره ثم ينكرون أن أعينهم وقعت عليه ، قال صاحب البعير :

ــ هؤلاء أصابوا بعيرى ، وصفوا لى صفته وقالوا لم نره .

وحلف مضر أنهم لم يروه ، فنظر الأفعى فى عينى مضر وقال .

ــ وكيف عرفت أنه أعور ؟

ــ إنه رعى جانبا وترك جانبا فعرفت أنه أعور .

والتفت الأفعى إلى ربيعة وقال :

ــ وكيف عرفت أنه أزور ؟

ــ رأيت إحدى يديه ثابته الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئه .

وقال لأياد :

ــ كيف عرفت أنه أبتر ؟

ــ باجتماع بعره ، ولو كان ذيالا لمُصيع به.

فقال لأنمار :

ـــ وكيف عرفت أنه شرود ؟

ـــ إنه رعى فى المكان المكلىء ولم يجزه إلى مكان أغزر منه نبتا .

فالتفت الأفعى إلى صاحب البعير وقال له :

ـــ ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه .

وخرج الرجل وهو فى حيرة من هؤلاء الرجال الذين وصفوا له بعيره دون أن يروه !

والتفت الأفعى الجرهمى إلى الرجال وقال :

ـــ من أنتم ؟

ـــ نحن أبناء نزار بن معد بن عدنان .

فقال الكاهن فى ترحيب :

ـــ أهلا بكم ومرحبا . وما جاء بكم إلينا ؟

ـــ قال لنا أبونا وهو يموت : إن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى الجرهمى ، وقد اختلفنا فى الميراث فأتيناك لتحكم بيننا .

فأطرق الأفعى وهو يقول فى إنكار :

ـــ تحتاجون إلى وأنتم كما قد أرى ؟

وقام الأفعى يذبح لهم ويستحث خازنا له الطعام ، ثم وضع الطعام وأكلوا وشربوا ، وتنحى عنهم الأفعى حيث لا يرى وهو يسمع كلامهم ، فقال ربيعة :

ـــ لم أر كاليوم لحما أطيب منه ؛ لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة .

فقال مضر :

ـــ لم أر كاليوم خمرا ، لولا أن حُبلته نبتت على قبر .

فهمس الأفعى :

ــ ما هؤلاء إلا شياطين !

وذهب إلى القهرمانة وقال :

ــ خبريني خبر هذه الكرمة.

ــ إن حُبلته غرستها على قبر أبيك .

وانطلق إلى الراعى وسأله عن العناق الذى ذبحه وقدمه طعاما لبنى نزار بن معد ، فقال الراعى :

ــ هى عناق أرضعتها بلبن كلبة ، و لم يكن ولد فى الغنم غيرها وماتت أمها.

ورجع الأفعى إليهم ثم التفت إلى ربيعة وقال :

ــ من أين علمت اللحم ؟

ــ لأن لحم الكلب يعلو شحمه، بخلاف لحم الشاة فإن شحمها يعلو لحمها.

وقال لمضر :

ــ من أين عرفت الخمر ؟

ــ الكرم إذا نبتت على قبر يكون انفعال خمرها أقل انفعالا .

واعتدل الأفعى الجرهمى ثم قال :

ــ قصوا علىّ قصتكم

فقصوا عليه ما قال نزار قبل أن يلفظ النفس الأخير ، فقال الأفعى :

ــ ما أشبه القبة الحمراء من مال فلمضر ، وأما صاحب الخباء الأسود فله كل أسود ، وأما الدراهم والأرض فلأنمار .

وقفل بنو نزار بن معد راجعين إلى مكة ، وذهب مضر بالدنانير والإبل فسميت قبيلة مضر « مضر الحمراء » ، وأخذ ربيعة الفرس وما أشبه فسميت « ربيعة الفرس » ، وأخذ أنمار الغنم فسميت « أنمار الشاة » ، وأخذ أياد الغنم البرقاء والخيول البلق ، فسميت « أياد البرقاء » .

٦

ولد معد بن عدنان فى أرض النبط ، ولكن الله لم يشأ أن يعبد معد أصنام النبط ولا أوثان قيدار ، فلما قام بختنصر وعزم على أن يطأ أرض العرب بخيله ورجله ألقى الله فى قلب عدنان أن يبعث ولديه معد وعك إلى أهلهما بالحجاز ليكونا فى مأمن بجوار بيت الله .

كان البيت معظما وزواره مكرمين ، ولا غرو فهم ضيف الله . وكان اللائذ به فى أمن وسلام ، وكان الحجاج يغدون ويروحون مطمئنين لا يخشون خيانة ولا غدرا ، قلوبهم مؤمنة ونفوسهم راضية تنعم بالفيض الإلـٰهى ، بذلك النور الذى يبدد ظلمات الجوانح والصدور .

جلبت التجارة إلى مكة الذهب والفضة فأراد الجراهمة أن يهدوا رب البيت هدية تتفق مع ما أصبحوا فيه من غنى ، فوضعوا غزالتين من الذهب فى جوف الكعبة .

وسرى إيمان معد بن عدنان بالله الواحد القهار فى ضميره سريان الدم فى شرايينه ، فإن كان قد تزوج فى جرهم فقد ضاق بولاية جرهم للبيت ، فقد بقيت فيهم أكثر من سبعمائة سنة ، وقد أشاح الحارث بن مضاض بن عمرو ابن الحرث الجرهمى بوجهه عن البيت يغدو ويروح بين الحجون والصفا ، والتف به أصحاب السوء فراح يمضى لياليه فى سمر ومجون بعد أن كان ولاة البيت يذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار .

كان معد على دين آبائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان أعبد من جاء من نسل

نابت فإن كان أبناء نابت وقيدار أول من غير دين الأباء ، فقد كان معد أكثر أبناء نابت بن إسماعيل غيرة على دين الله . وقد خلف فى مكة نزارا التقى ليعيد بنى إسماعيل إلى سنن الآباء .

ومات معد وأصبح نزار شيخ العدنانيين ، وغلفت عين الحارث عن بيت الله وعن ضيف الله ، وفشت المظالم ووقعت على من دخل مكة من غير أهلها ، واضطرب ميزان العدل وفشا الغش فى الأسواق ، وضاق نزار بن معد بذلك البغى فأوصى بنيه وهو يجود بأنفاسه :

ـــ أخرجوا جرهم من البيت وليتول ولاية البيت أياد .

واجتمع أياد ومضر وربيعة وأنمار يتشاورون فى وصية أبيهم ، لقد أوصاهم بإخراج جرهم الذين بغوا فى البيت فحق قتالهم ، فإن كان الجرهميون كثيرين فما أكثر بنى إسماعيل وما أعزهم .

وقبل أن يمتشق أياد ومضر وربيعة وأنمار سيوفهم ، وقبل أن ينادوا فى أهليهم حى على القتال ، اكفهرت السماء وبرق البرق ورعد الرعد ثم انهمرت الأمطار على جبال مكة فجرت سيولا إلى الوادى تجرف الدور وتقتلع الخيام وتنزل الهلع فى قلوب القوم الذين استخفوا بحرمة البيت المحرم ، فحل بهم غضب الله .

ودخل السيل البيت فانهدم ، فكادت قلوب الناس تنخلع من صدورهم ، غضب الله عليهم كما غضب على قوم نوح ، إلا أن الأرض بلعت ماءها وأقلعت السماء وغاض الماء وقضى الأمر وقيل بعدا للقوم الظالمين .

ومشى أياد ومضر وربيعة وأنمار وأشراف بنـى إسماعيـل إلى جرهـم وحدثوهم عن بغيهم فى الحرم ، فأظهروا التوبة وأعادوا بناء البيت على بناء إبراهيم الخليل ، وقام خطيب جرهم يحذر قومه مغبة الفسق فى الأرض

الطاهرة ويحذرهم أن يعودوا ويستخفوا بأمر البيت الحرام ، فقال :

— يا قوم احذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله ، قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم فلم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا ، فسلطكم الله عليهم فأخرجتموهم فتفرقوا فى البلاد ، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة البيت بيت الله ، ولا تظلموا من دخله أو جاء معظما لحرمته ، أو جاء بائعا لسلعته ومرتغبا فى جواركم ، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منه خروج ذل وصغار ، حتى لا يقدر منكم أحد أن يصل إلى الحرم ، ولا على زيارة البيت الذى هو لكم حرم وأمن ، والطير تأمن فيه .

وقام رجل منهم وقال :

— من الذى يخرجنا منه ؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم رجالا وأموالا وسلاحا !

فقال مضر :

— إن جاء الأمر بطل ما تقولون .

ومرت الأيام ونسى الجرهميون نذير السماء ، فعادوا إلى بغيهم فاستخفوا بحق الحرم وظلموا من دخله أو جاءه معظما لحرمته ، وطففوا فى الموازين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو زنوهم يخسرون ، وأفزعوا من جاءوا ملتمسين الأمن فى جوار بيت الله .

ورأى أشرار جرهم الناس وهم يلقون الحلى والمتاع فى خزانة الحرم ، فلعبت الأهواء بأفئدتهم وزين الشيطان لهم سرقة مال الله ، ذلك المال الذى كان للفقراء والمساكين ولسقاية زوار بيت الله ورفادتهم .

وسرقوا أموال الحرم استخفافا بالله وبيته ، ونسوا أن الله قادر على أن يذيقهم العذاب الأليم ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك

بظلام للعبيد .

واجتمع البغاة يتسامرون عند البيت ، فلم يعد البيت أكثر من ناد يجتمعون فيه بعد أن نزع من قلوبهم توقيره وتعظيمه،وبينما هم سمار يتضاحكون يأتون فى ناديهم المنكر إذا بجحافل النمل تنحدر من سفوح الجبال إلى الوادى المقدس ، فبدا كأن الأرض غطيت بغلالة سوداء أخذت تنداح حتى حجبت أديم مكة .

وأتى النمل على الأخضر واليابس ، وراح يكسو الإبل والأنعام يملأ أعينها وخياشيمها وكل أجوف فيها لا يغادرها إلا عظاما ، ثم يستمر كأنما يعرف غايته .

وأحيط الحرم بأم النمل بعد أن محقت كل ما اعترض طريقها ، وصارت مكة عروشها خاوية كأن لم تغن بالأمس ، وحانت التفاتة من أحد السمار فارتسم الهلع فى وجهه وندت من بين شفتيه صيحة مرعوبة كأنما شهد الموت :

ـــ النمل ! النمل !

وتجاوبت صيحات الهلع فى جنبات الوادى ، وبلغت القلوب الحناجر وتقطعت الأنفاس من الرعب ، وماج الناس بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب قد ذهل كل بنفسه عمن حوله ، يجرى هنا وهناك لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ينعق بما لا يسمع ، ولكن أين المفر ؟ والنمل يزحف من كل جانب ليطبق على من استخفوا بحرمة الله .

وحاول الناس فى يأس أن يشقوا طريقهم بين جيوش النمل التى غطت كل ما تقع عليه العين . فمشى النمل على نعالهم وراح يزحف على سيقانهم وإن هى إلا لحظات حتى غطى أجسامهم واتخذ طريقه إلى أنوفهم وآذانهم ، فسقطوا

يتخبطون يسبحون فى بحار النمل وقد ذاقوا مس العذاب الأليم .

وانطلق صراخ الفزع من الحناجر ، وتجاوبت جنبات مكة بالعويل واشتد النحيب ، وفح الناس فحيح الأفاعي وهم يتلوون كأنما قد ألقوا فى الجحيم ، ونشبت معارك يائسة بين المتشبثين بالحياة وذلك النمل الذى كان يتوافد توافد الموج يهاجم فريسته فى عناد وإصرار .

وشلت الأيدى وخرست الألسن وهمدت الأجسام فقد زهقت الأرواح ، وساد الحرم سكون الرموس بعد أن بطش الله البطشة الكبرى ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

وتقضت أيام رهيبة على من استخفوا بحرمة بيت الله ، ذاقوا العذاب ألوانا قبل أن صاروا كأمس الدابر ، ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما .

وانقشع النمل عن الوادى بعد أن تجرع غصص الموت كثير من جرهم وجلا عنها بعضهم يجرجرون أذيال الذنوب ، ومشى أياد ومضر وأنمار وربيعة بعضهم إلى بعض يتلاومون ، فأبوهم نزار بن معد أوصاهم بأن يخرجوا جرهم من البيت بعد أن فجروا فيه ، ولكنهم تقاعسوا عن تنفيذ وصية أبيهم فبعث الله جنوده لينتقم من الظالمين .

كاد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لأنهم سكتوا عن الفاسقين، وقد أرسل الله جيوش النمل نذيرا لهم ليخرجوا من بقى من جرهم من الحرم ومن جواره ، ذلك بأنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام إنهم قوم فاسقون .

وحمل أياد ومضر وربيعة وأنمار وكل من كان من بنى إسماعيل فى مكة السلاح ابتغاء إجلاء من لم يعظموا حرمات الله ، وإن كانوا أخوالهم وإن تزوجوا فيهم .

ودارت الحرب بين الحق والباطل ، بين جنود الله وحزب الشيطان ، وراح الرجال يمشون إلى الرجال يلعبون بالسيوف ويسددون السهام ، وكانت قلوب العدنانيين عامرة بالإيمان بينما كانت قلوب جرهم هواء .

وسالت الدماء ، وحمى وطيس القتال على سفوح الجبال وفى الوادى المقدس وحول الكعبة ، وانكسرت جرهم فراحوا يتأهبون ليولوا الأدبار ، وأحس الحارث شيخ جرهم وملكهم أن الدائرة ستدور على قومه فانطلق إلى جوف الكعبة وأخرج الغزالين وكانا من الذهب ، وانتزع حجر الركن وقد عزم على أن يفر بما حمل .

والتفت الحارث حوله فرأى العدنانيين ظهروا على قومه ، فإن انطلق بالغزالين وحجر الركن فما أسرع أن يلحقوا به ويستولوا على ما معه ، ووقعت عيناه على بئر زمزم وفى مثل لمح البصر قفزت إلى رأسه فكرة فخف لتنفيذها .

راح يدفن الغزالين وحجر الركن فى البئر وأهال عليها التراب ، ثم امتطى راحلته وأرخى لها العنان ، وأحس الرجال فرار قائدهم فولوا الأدبار وفروا مخلفين وراءهم مكة .

وانحدر الحارث ومن بقى معه من فلول جرهم إلى اليمن ، وما غاب البيت عن عينيه حتى هاجه الشوق فراح ينشد فى صوت أقرب للنحيب :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
صروف الليالى والجدود العواثر

وكنــا ولاة البــيت مــن بعــد نــابت
نطــوف بــذاك البــيت والخير ظاهــــر
ملكنــــا فعززنــــا فأعظـــم بملكنـــــا
فلـــــيس لحى غيرنــــــا ثم فاخــــــر
وكنــــا لإسماعيــــل صهــــرا وجيرة
فأبنــــاؤه منـــــا ونحن الأصاهـــــر
فأخرجنـــــا منها الملــــيك بقــــدرة
كـــــذلك بالنـــــاس تجرى المقـــــادر
أقــــــول إذا نــــــام الخلى ولم أنم
إذا العــرش لا يبعــد سهيـــل وعامـــر
وصرنـــا أحـــاديث وكنـــا بغبطـــة
كـــذلك عضتنـــا السنـــون الغوايـــر
فسحت دمـــوع الــعين تبكـــى لبلــــدة
بها حـــــرم أمـــــن وفيها المشاعــــــر
بـــواد أنـــيس لـــيس يـــؤذى حمامــه
ولا منفـــــر فيها وفيها العصافـــــــر
وفيها وحـــوش لا تـــرام أنـــيسة
إذا أخـــرجت منها فمـــا ان تغـــادر

٧

طوى الزمن أيام قورش وقمبيز ودارا ، وامتدت الإمبراطورية الفارسية بفضل النفحة الروحية التى نفحها زرادشت فى روح الشعب الفارسى من فارس إلى بلاد كوش جنوبى مصر ، وراح الفرس يحلمون بتحطيم منافسيهم الإغريق والاستيلاء على عاصمة ملكهم أثينا .

كان زرادشت قد أشعل نارا لتذكر المؤمنين بأهورا مزدا الإله الحكيم رب العالمين ، فطال على الناس الأمد وقست قلوبهم ونسوا أصل الدين القيم وحسبوا أن النار تعبد لذاتها ، فبنوا بيوت النيران وخروا لها ساجدين ، وذهب دين زرادشت فيما ذهب وجاء على أنقاضه دين المجوس .

كان أخشويرش واليا على بابل أثناء حكم أبيه دارا ، وقد استمرت هذه الولاية اثنى عشر عاما ، فلما هلك دارا تولى أخشويرش ملك فارس وصار ملك الملوك « شاهنشاه » .

وكان أول عمل قام به هو إخماد الثورة التى اندلعت فى مصر . وقد عذب وقتل وهدم المعابد وصب جام غضبه على الكهنة وقضت سيوفه على الحيوانات المقدسة .

وقامت ثورة أخرى فى بابل فدق حصون المدينة وهدم معابدها ونهب كل ما فيها من تماثيل ذهبية لمردوخ ونانا وعشتار ، ولم يتركها إلا خرائب تجرى الجرذان فى أكوامها وتنعق البوم على آثارها .

وتغلغل نفوذ اليهود فى دواوين كسرى ورأوا أنه كلما اتسعت رقعة فارس

امتدت سلسلة سلطانهم وازدهرت تجارتهم ووقعت دول وممالك فى قبضتهم الاقتصادية ، فراحوا يزينون لأخشويرش غزو بلاد اليونان للقضاء على منافسة الإغريق ، وأغروه أن يسير فى البر لا فى البحر ليتمكنوا من ترك حلقات اليهود فى مدن القوافل التجارية ، فما كان البحر يصلح لتحقيق مأربهم .

وسار أخشويرش على رأس جيشه واليهود معه ينثرون جماعات منهم فى بقاع الأرض ليتحقق لهم حلم السيطرة العالمية على تجارة الدنيا وسياستها بأيد ترتدى قفازات حريرية .

وفى سبعة أيام أقام الفينيقيون جسرا على البسفور عبره أخشويرش وجنوده ، وانطلقوا يصيخون أسماعهم لأهازيج النصر حتى وطئوا بأقدامهم أرض أثينا قلب إمبراطورية الإغريق النابض ، وقبل أن يتمكن أخشويرش من أن يطعن الإغريق الطعنة القاتلة جاءت الأنباء أن الأسطول اليونانى حطم الأسطول الفارسى فى معركة سلاميس البحرية .

وعرف قلب أخشويرش الخوف واستولت عليه فكرة أنه إن لم ينسحب بجنوده سريعا فسيلتف حوله اليونانيون ويقضون عليه وعلى من معه من خيرة جنود فارس ، وقد يكون فى ذلك ضياع الإمبراطورية .

وانسحب الشاهنشاه إلى أرض فارس وراح يفكر فى أمره ، إن سلطانه يمتد إلى شعوب لم يمتد إليها سلطان ملك قبله ، فولاية الهند تدفع إلى خزائنه ما يقرب من خمسة آلاف وزنة من الفضة كل سنة ، وتدفع بابل وآشور ألف وزنة ، أما مصر فقد كانت تدفع سبعمائة وزنة وكميات من القمح تكفى لإطعام مائة وعشرين ألف نسمة ، وكانت سورية وفلسطين تدفعان ثلاثمائة وستين وزنة ، وكانت بلاد الميديين تبعث مائة ألف رأس من الغنم ، وكانت

بلاد أرمينيا ترسل ثلاثين ألف طير إلى الملك الذى يتربع على عرشه .

فكر أخشويرش فرأى أن وزنات هائلة من الذهب والفضة ترد إليه ، وكانت الوزنة قرابة نصف الكيلو ، وأن العملة التى تحمل صورته تتداول فى كل الأرض ، وأن البريد منتظم بين عاصمة ملكه وجميع ولاياته ، وأن الضرائب تجبى لتصب فى خزائنه ، فماله والحروب ، لماذا لا يتمتع بحياته ويبنى القصور ويعيش فى ترف ويغرق فى اللذات ؟!

وغص القصر بالنساء والمغنيات وأدوات الطرب والشراب ، وبدأت المادية الطاغية تنخر فى البنيان الأشم الذى أقامته نفحة زرادشت الروحية ، تلك النفحة التى حملت الرعاة الحفاة الذين كانوا يعيشون حياة الضنك فى فارس إلى أقصى الأرض .

ورأى اليهود أن الفرصة الذهبية سنحت ، فما دام ملك الملوك قد استكان للترف فما أيسر أن يستولوا عليه وأن يجعلوه ألعوبة فى يد غانية يهودية ، وما أكثر الغانيات الفاتنات فى بنى إسرائيل .

وقف مردخاى وكان من اليهود الذين يقفون لحراسة قصر ملك الملوك فى ثياب مزركشة ، وقف منتصبا كتمثال ولكن الأفكار كانت تنثال على رأسه ، فرأى نفسه وهو يباع فى أسواق الرقيق إلى رجل فقير لم يكن صاحب ضياع أو قصور بل صاحب عمل اشتراه ليعاونه فى عمله ، ورأى نفسه وهو يعمل لذلك الرجل حتى كسب ثقته ، ثم كاتبه على أن يهب له حريته لقاء مبلغ كبير ، ولما كان يهوديا فقد كان قادرا على كسب الأموال من كل السبل ، فراح يعمل حتى ادخر ما يفك به رقه ويعيد إليه حريته ..

* * *

ودخل مردخاى غرفته فى القصر الكبير فألفى إستر ابنة أخيه تتطلع إلى

صورتها فى المرآة وقد لاح فى وجهها الرضا ، كانت رائعة الحسن شديدة الأسر عيناها تلمعان ببريق يخطف القلوب ، وشعرها الأسود الجميل المسترسل خلفها يزيدها روعة وحسنا ، كانت فى السابعة عشرة يزينها تاج الشباب ويتدفق فيها الدم الفوار .

ورمقها بنظرة طويلة وقال :

ـــ ما خلق الله هذا الجمال عبثا ، لا بد يا إستر أن يبذل لمصلحة بنى إسرائيل .

وشرد قليلا ثم قال :

ـــ لا بد أن نستولى على هذا القصر ، أنا بدهائى وأنت بجمالك ، فما جئت إلى هنا إلا لأتسلط على القصر ومن فيه وأحرك رجاله ليعملوا على ما فيه مصلحتنا نحن اليهود .

ـــ حلم لذيذ وما أحسب أن ذلك ميسور .

ـــ ما أيسر ذلك على من ينفق الأموال ويقدم مثل جمالك الفاتن البديع ، أتعرفين مموكان حكيم المملكة الذى لا يقطع الملك أمرا إلا إذا استشاره ؟ إنه طوع بنانى أغرقته بهداياى . إنه ليس وحده الذى استملته إلينا فهناك الخصيان السبعة الذين لا يغادرون الملك فى الليل أو فى النهار .

ـــ أتحسب أننا ننجح فى استمالة كل الرجال بالمال ؟

ـــ من لم يأسره المال يأسره الجمال .

وتأهب القصر للوليمة الكبرى التى أعدها الملك أخشويرش للأمراء وأشراف قومه ورؤساء مملكته ، كان الملك يريد أن يظهر للناس عظمته ليزداد فى أعينهم رفعة ، فأنفق على الوليمة بسخاء .

وتوافد الأمراء والأشراف إلى حديقة القصر ، وأقبل الملك يتألق

كجوهرة ، وجاء الخدم بكئوس الذهب والفضة يقدمون الخمر ، الليل والجميع فى حبور حتى إذا قام الملك انصرف الجميع ليعودوا إلى الوليمة فى اليوم التالى ، فقد كان مقررا أن تستمر وليمة الأمراء والأشراف مائة وثمانين يوما .

وأعدت الملكة وشتى وليمة للنساء ، فما كان الرجال والنساء يجتمعون فى مكان واحد ، واستمرت هذه الوليمة أياما وأسابيع وشهورا .

وأراد الملك أن يشرك عامة الشعب فى الإعجاب بعظمته فدعا الشعب إلى قصره ، ودعت الملكة النساء إلى جناحها .

وراح الخدم يصبون الخمر حتى جرت أنهارا .

وانتشى الملك ولعبت الخمر برأسه فقال للملأ :

ـــ إن امرأتى أجمل امرأة فى هذه البلاد ، ألا تصدقون ؟ سترونها الآن وستحكمون أنها أجمل امرأة فى الوجود .

ونادى الملك خصيانه :

ـــ برتا .. حربونا . اذهبا وقولا لها إنى أطلبها هنا ليرى الناس جمالها البديع .

كان مردخاى حاضرا فلمعت فى ذهنه فكرة ، فاقترب من الخصى كركس وهمس فى أذنه :

ـــ ليت الملكة ترفض الحضور . كيف تحضر جلالتها إلى هؤلاء السكارى ، لو كان لى من الأمر كثير أو قليل لذهبت إليها أشير عليها بعدم المجىء .

وانسل إلى مموكان الحكيم حتى إذا ما عاد الخصيان التقم أذنه وهمس :

ـــ يخيل إلىّ أن الملكة رفضت المجىء ، فلو أنها رفضت لكان فى ذلك إهانة

للملك وللشعب جميعا .

وتقدم الخصيان إلى شاهنشاه وقالوا :

ــ لا تقبل جلالتها أن تجيء تعرض نفسها على سكارى يترنحون .

فصاح الملك فى غضب :

ــ أين مموكان ليرى رأيه فى هذه التى عصت أوامرنا ؟

وجاء مموكان يقول ما أوحى به إليه مردخاى :

ــ إن الملكة وشتى تستحق أن تجرد من لقبها وأن تطرد من القصر جزاء وفاقا على غرورها وعدم خضوعها لما أمر به جلالتك .

ــ على بالكتاب ليكتبوا إلى أقطار مملكتى أن الملك أخشويرش شاهنشاه فارس طلق الملكة وشتى لعصيانها أوامره ، فما كان لامرأة أن تعصى زوجها لأنه وحده الحاكم فى بيته .

ودخل مردخاى على إستر وهو يتهلل بالفرح وقال لها :

ــ إستر ! آن لهذا الجمال أن يسود ، طلق الملك الملكة وطردها من قصره . إنه بعد أن طلقها سيحس وحشة وسينشد السلوى ، سيبحث عن العذارى الفاتنات فى مملكته، وليس فيها من هى أفتن منك يا إستر ، سأقدمك إليه لتسلبيه لبه وتقوديه حيث تقودينه ، ولن تقوديه إلا إلى ما فيه مصلحة بنى إسرائيل .

ــ أتقدمنى يا عمى حُظية للملك ؟

ــ أجل حظية للملك ، حظية الملك التى تقدم جسدها صيانة لمصالح شعبها . يا لها من تضحية كريمة خليقة بنا يا إستر .

وبعث الملك رسله إلى أنحاء مملكته يلتمسون الفتيات الأبكار الجميلات ، وتوافد إلى القصر فتيات رائعات الحسن ممشوقات القد ، غاية فى الفتنة

والجمال ، ودفع بهن إلى هيجاى حارس النساء ليطيبهن بالعطور والبخور والأدهان .

وفى ذات يوم همس مردخاى فى أذن هيجاى أنه عثر على تحفة من تحف الجمال ، والتمس منه أن يأتى معه ليراها فإنه على ثقة من أنها ستبهر الخصى الخبير فى النساء .

وانطلق مردخاى وهيجاى إلى حيث كانت إستر ، وأبرمت بين مردخاى والخصى أخطر معاهدة أبرمها اليهود !

كان هيجاى يدفع إلى الملك بعذراء كل ليلة ، فما تنقضى الليلة ويلوح نور الصباح حتى يدفع بالمرأة إلى حارس السرارى لتنضم إلى قطيع النساء المترقبات إشارة من الملك لتسرى عنه ليلة .

وجاءت الليلة المرتقبة ليلة دخول إستر على الملك ، فأخذ هيجاى يتفنن فى تزيينها ويوصيها بما تفعل لتفتن الملك وتستولى منه على السمع والبصر والفؤاد . وانقضت الليلة وجاءت الليلة التالية ، وجاء إليها هيجاى يزف إليها البشرى الغالية ، إن الملك يطلبها ليلة ثانية .

وتصرمت الليالى والملك يطلب إستر كل ليلة فقد شغف بها حبا . وفى ذات ليلة لعبت الخمر برأسه وأسرته أفانين بنت اليهود فنادى بإستر ملكة على البلاد .

وراح مردخاى يتقرب من أخشويرش ، إنه يريد أن يصبح المحرك للملك من وراء ستار ، وراح يسترق السمع لكل حديث ويحصى حركات رجال القصر ، ولما كان الملك قد ألقى بنفسه فى أحضان المجون وأسلس قياده لليهود فقد أحنق ذلك كل من حوله .

كان بغثان وترشى خصيا الملك حارسا الباب يدبران مؤامرة اغتيال .

الملك ، ويسمع مردخاى بثهما ونجواهما فيرفع الأمر إلى إستر ، ويقبض على الغلامين ويحكم عليهما بالقتل والصلب ، ويفكر فى مكافأة مردخاى فيبعث إلى هامان وزيره ويقول :

ـــ أنقذ مردخاى حياتى وإنى أفكر فى أن أدنيه منى .

ـــ أرى يا مولاى أن تمنحه جائزة وأن تدعه حيث هو .

ـــ لماذا يا هامان ؟

ـــ لأنه يهودى واليهودى لا يخلص إلا لنفسه .

ودخلت إستر على الملك وقالت :

ـــ ماذا فعلت لمردخاى يا مولاى ؟

ـــ أعطيته جائزة .

ـــ إن ما فعله مردخاى يستحق أن يسجل يا مولاى .

ـــ هذا حق .

وأمر أخشويرش أن يدون ما فعله مردخاى فى التوراة ، فى سفر أخبار الأيام ، فقد صارت التوراة سجلا لتاريخ اليهود . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وفى ذات يوم دخل هامان على الملك وقال له :

ـــ إن اليهود الذين وفدوا إلى بلادنا سبيا من أورشليم قد عظم نفوذهم فى البلاد ، أثروا واغتنوا وأصبحوا أسياد المال المتحكمين فى الأسواق والأقوات والأرزاق ، إنهم يتلاعبون بالأسعار ويمتصون دم شعبك يا مولاى .

لو كان نفوذهم قد قصر على دنيا المال ، لهان الخطب ، ولكن نفوذهم تغلغل فى كل مكان ؛ علموا الرؤساء الرشوة وبذروا فى قلوبهم الطمع

وغرسوا فى النفوس الأحقاد ليشغل الشعب بأحقاده عنهم ، إنهم لو قدروا على أن يقوضوا عرشكم تحكم لقوضوه .

— ماذا ترى أن نفعل فيهم ؟

— نستأصلهم ، نقتل أطفالهم وغلمانهم وشبابهم ونساءهم ورجالهم وشيوخهم ، فنستريح من شرورهم .

— هذا هو الرأى يا هامان . خذ خاتمى وأصدر إلى الولاة أمرا بقتل كل يهودى فى ولاياتهم .

وعلم مردخاى بالأمر الملكى القاضى بإبادة اليهود فى فارس والهند والبلاد الممتدة إلى كوش جنوبى مصر ، فشق ثيابه وانطلق إلى ميدان القصر يصرخ وينوح ، وراح يحثو التراب على رأسه . وبلغ إستر ما يفعل فبعثت إليه من يسأله عن الخبر فأرسل لها مع الرسول :

— إن هامان استصدر أمرا بقتل جميع اليهود فى الثالث عشر من شهر آذار .

نزلت المحنة بشعب إسرائيل فوجب عليها أن تمد يد العون إلى شعبها .

وأولمت إستر للملك وهامان وليمة وجلسوا ، ولما دارت الكئوس قال الملك لإستر :

— ماذا تطلبين يا إستر ؟ لك أن تسأليني نصف مملكتى .

— كل ما أطلبه هو رضى مولاى .

ودخلت إستر مخدعها فإذا بالملك يدعوها إليه ، فذهبت وهى تحمل سفر أخبار الأيام ، ولما أغلق الباب عليهما راحت تقرأ والملك يصغى ، حتى إذا بلغت قصة مردخاى وتلك المؤامرة التى كانت تدبر لاغتيال أخشويرش قالت :

ــ هذا رجل أسدى إلى الدولة أجل خدمة ، ماذا فعلت له يا مولاى ؟

ــ كل ما أذكره أننا منحناه بعض المال .

وطوقت الملك بذراعيها وقالت وهى تقبله :

ــ ليت الذين حولك يا مولاى مثل هذا الرجل الذى أفعم قلبه بالإخلاص .

ــ غدا سنفكر أنا وهامان فى تكريم هذا الرجل .

ــ لى رجاء يا مولاى ، إذا أردت أن يكون رأى من تستشيره خالصا فلا تذكر له اسم من تريد تكريمه . سله عما يشير بفعله لرجل يسر الملك أن يكرمه .

واجتمع الملك وهامان وإستر ، وقال الملك لهامان :

ــ بماذا تشير علينا يا هامان فى رجل يسرنا أن نكرمه ؟

ــ أرى يا مولاى أن يكلف أحد الأشراف بإلباس ذلك الرجل اللباس السلطانى ، وأن يقدم له فرس الملك ليركبه فى ساحة المدينة ، وأن ينطلق الشريف أمامه يهتف : « هذا جزاء من يرضى الملك عنه ويأمر بتكريمه » .

وقال الملك لهامان :

ــ خذ اللباس والفرس يا هامان واذهب إلى مردخاى ، ذلك اليهودى الجالس ببابى وافعل به كل ما قلته فإنه يسرنا أن نكرمه .

وذهب هامان إلى مردخاى وفى صدره أتون نار يكاد يموت كمدا وألبسه لباس الملك وأركبه فرسه !

وفى الليل راح أخشويرش يمرر يده على عنق إستر ويقول :

ــ ما أروع هذا العنق البديع !

ــ هذا العنق البديع يا مولاى ستعمل فيه السكاكين .

ـــ من ذا الذى يجرؤ أن يمسه ؟!

ـــ من أساء استغلال عطفكم ورعايتكم .

ـــ من يكون ؟

ـــ هامان يا مولاى . هامان الذى حرضكم على اليهود ، على الذين أخلصوا لكم ، والذين لا ذنب لهم إلا أنهم أحبوكم .

ـــ وما علاقتك أنت بهامان وبأمره بقتل اليهود ؟

ـــ إنى يهودية يا مولاى ، فإذا نفذت أمر القتل فيهم قطعت رأسى معهم ، بحق حبى يا مولاى أستوهبك حياتى وحياة شعبى .

ودخل هامان على إستر وقال لها :

ـــ ليتنى أعرف ذلك الذى مشى بالبهتان بينى وبين مولاى .

فهبت إستر كنمرة وقالت فى قسوة :

ـــ أنا يا هامان ، أنا إستر اليهودية التى وسوست للملك أن يبيدها ويبيد شعبها .

ـــ ما كنت أعرف يا مولاتى أنك يهودية .

ـــ آه لو كنت تعرف لفرشت طريق اليهود بالورود !.

ـــ لا . ما كنت أفعل إلا ما فيه مصلحة مولاى ومصلحة بلادى . كنت أشير عليه أن يبيدهم لأن فى إبادتهم حياته وحياة شعبه .

وصاحت إستر :

ـــ ابتعد يا أبغض من وقعت عليه عيناى .. ابتعد .. اخرج ..

وفتح الباب ودخل الملك وصوت إستر يرن فى أذنيه . فثارت ثائرته ورأى هامان بالقرب ممن شغف بها حبا فتحركت غيرته فصاح:

ـــ يا لِلئيم الذى أكرمته فكفر بنعمتى ودخل على أهلى فى غفله منى !

وقتل هامان فخلا الجو لإستر ، وأصبح أخشويرش أطوع لها من بنانها تحركه كيف تشاء ، فكانت تنفذ أهدافها بين رشف الكئوس ورشف الثغور ، فمكنت لمردخاى فى القصر وأقنعت الملك أن يبعث إلى الولاة أن الملك العادل أخشويرش قد عفا عن اليهود وأكرمهم وخصهم برعايته .

وتحركت فى إستر روح الشر ، فراحت تحرض اليهود على التنكيل بأهل البلاد لتنزل الرعب بقلوبهم فتمكن لأهلها فى الأرض ، فقام فى مملكة أخشويرش عهد من الإرهاب ، فى ظل إستر ومردخاى ، وفى غفلة من الملك اللاهى عن شعبه بالجسد الذى يحوى بين جنبيه روحا تتعطش إلى سفك الدماء .

وراح مردخاى يقدم إلى الملك أسرابا من العذارى ليشغله باللذة عن إنصاف المظلومين وما أكثرهم فى ملكه !

وصارت المملكة الفارسية الهائلة الممتدة من الهند وفارس إلى كوش مرتعا خصبا لليهود ؛ يعيشون فيها فسادا ؛ ورضى اليهود عن إستر وقدسوها ، ودونوا قصتها فى التوراة وخلعوا عليها هذا اللقب « إستر القديسة » وصارت عند كل يهودى ملء العين والفؤاد .

٨

قامت العداوة بين الشرق والغرب ، بين الفرس واليونان ، وكانت عداوة شديدة الضراوة حتى إن أخشويرش خرج بجيوشه ليحتل أثينا ، ولكنه انسحب منها ليرعى فى أحضان اللذة واليهود .

ونخرت اللذة والدعة والفساد فى عظام الإمبراطورية الفارسية ، وراح مردخاى يسوم الفارسيين العذاب ، يقتل كل من يرفع صوته بالإصلاح ويردى أعداء اليهود فى التهلكة وينكل بالمتبرمين من سلطانه وسلطان إستر ، الساخطين من تغلغل اليهود فى اقتصاد البلاد واستيلائهم على منابع الثروات .

وراحت دولة اليونان الفتية تتأهب لتلعب دورها فى المنطقة بعد أن رأت الفساد يستشرى فى فارس ، والأغنياء يقلدون الشاهنشاه فى ترفه واستسلامه لليهود ، لقد دب الضعف والانحلال فى كيان أعدائها وإن بدا للناس شامخا مهيبا .

وبينا استشعرت اليونان راحة لذلك السوس الذى بدأ ينخر فى عظام الإمبراطورية الفارسية ، أحست ممالك النبط وقيدار وقبائل بنى إسماعيل الأخرى قلقا ، فقد تحالفوا مع الفرس وعاونوا قمبيز على فتح مصر ومدوا يد العون إلى دارا من بعده وباركوا فكرة إحياء توصيل البحر الأحمر بالبحر الأبيض عن طريق النيل ، فقام دارا بحفر قناة توصل بين شرق الدلتا والبحيرات والبحر الأحمر ؟

إنه ذلك المشروع القديم الذى بدأه ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وقد

حاول نكاو الثانى فى الأسرة السادسة والعشرين أن ينفذه ، وبعد أن قطع فيه شوطا وتحمل فى سبيله تضحيات كثيرة توقف عن المضى فيه نزولا على وحى من هيكل مدينة « بوتو » يعلن فى وضوح أن هذا العمل ضار بمصر ، ولن يستفيد منه إلا أعداؤها ؟

كانت العلاقة بين الفرس والعرب لا تزال طيبة ، فقد أوصى زرادشت أتباعه أن يتبعوا تعاليمه إلى أن يجيئهم صاحب الجمل الأحمر الذى سيبعث فى العرب ليملأ الدنيا عدلا ونورا ، وكان ملوك قيدار والنبط وشيوخ الإسماعيليين سعداء بهذه الصلة الطيبة ، كانوا تجارا ، وكانت أطماعهم عريضة ، وأن العلاقات الطيبة بينهم وبين فارس العظيمة تمكن لهم من تحقيق آمالهم ، إذا تيسر لهم حمل اللبان والمر والطيب والحرير والذهب والفضة إلى الهند وإلى كوش جنوبى مصر ، وقد عاونت القناة التى حفرها دارا على ازدهار تجارتهم .

كان ملوك النبط وقيدار وشيوخ الإسماعيليين مطمئنين ما دامت فارس حليفتهم قوية مرهوبة الجانب . فلما ظهرت بوادر الضعف فى حلفائهم فى قصر أخشويرش أوجسوا خيفة ، فلو قضت مؤامرات النساء التى تنسج فى جنبات القصر على إمبراطورية أحفاد قورش ، فإن ساعد اليونان سيشتد وتصبح مصر وسورية وممالك النبط وقيدار وبنى إسماعيل الممتدة بين مصر وبابل ميدانا للقتال بين الإمبراطورية الفارسية الغاربة وإمبراطورية اليونان التى بدأت ترتفع ليشرق نورها على العالمين .

وراح النبط يحصنون عاصمتهم البتراء ويبنون الحصون فى الجبال حتى صارت كالصخرة يصعب اختراقها ، وراح بنو قيدار يقوون قلاع دومة الجندل ويتأهبون جميعا للدفاع عن حريتهم إذا جاء الإغريق يوما ليطئوا

بلادهم التى لم تسترق أبدا لدولة من الدول أو إمبراطورية من الإمبراطوريات العظيمة التى تعاقبت على المنطقة ، مذ خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض .

وفى ذات ليلة بينما كان أخشويرش يسير فى ردهات القصر يترنح من خمر إستر إذ طعنه أحد الحجاب طعنة قاتله ، فدبت الفوضى فى البلاد ، وأعمل الطامعون فى العرش سيوفهم فى رقاب منافسيهم فجرت الدماء أنهارا ، وأخيرا تمكن أرتخشستا الأول ابن أخشويرش من أن يتولى الملك بمعاونة اليهود ، وأن يصبح شاهنشاه فارس .

وحنقت الممالك التى أرادت أن تتحرر من سيطرة فارس من الهند إلى كوش على اليهود الذين عاونوا على عودة الحكم إلى ابن أخشويرش ، وازدادت كراهيتهم لهم . ولكن ماذا يهم اليهود من تلك الكراهية ما دام ملوك فارس قد أصبحوا ألعوبة فى أيديهم ويوجهونهم حيث يشاءون !

كان قورش قد سمح لليهود الذين خلصهم من ذل الأسر ببابل أن يعودوا إلى فلسطين وأن يعيدوا بناء هيكلهم الذى خربه بختنصر ، وأمر قورش الجماعات التى كان اليهود يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجون إليه فى رحلتهم الطويلة إلى فلسطين ، ولم يتحمس شباب اليهود لذلك التحرير لأن كثيرا منهم تأقلموا فى التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة فى المدينة المقدسة !

ومرت سنتان على نداء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التى دامت ثلاثة أشهر إلى الأرض التى خرج منها آباؤهم قبل ذلك بمائة عام .

وأذن دارا الأول لليهود أن يعيدوا بناء الهيكل فأتموا بناءه بعد اثنتى عشرة سنة ، ودبت الحياة مرة أخرى فى أورشليم ، وكان أشعيا قد ألقى نظرة عليها منذ مائة سنة بعد أن دمرها بختنصر وقال :

ــ أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال :

ــ كم لبثت ؟

قال :

ــ لبثت يوما أو بعض يوم .

قال :

ــ بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما .

فلما تبين له قال :

ــ أعلم أن الله على كل شيء قدير .

وقام أشعيا يستأنف دعوته ، ودعاه كتاب التوراة أشعيا الثانى !.

وأراد اليهود الذين استولوا بدهائهم ونسائهم على ملوك فارس أن تكون لهم الكلمة العليا فى أورشليم ، فراحوا يزينون لأرتخششتا أن يسمح بعودة العزير فى ألف وخمسمائة يهودى ممن شبوا فى أرض السبى إلى أورشليم ، ليمكنوا لسلطان فارس فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وعاد العزير والذين معه إلى بيت المقدس ، وكان العزير يحمل التوراة التى أعيدت كتابتها فى بابل بعد أن حرق بختنصر كل نسخ التوراة يوم أن غزا أورشليم واليهودية .

تأثرت التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى أرض السبى بأساطير البابليين ، فقد كان للبابليين أيام حرم ؛ أيام صوم ودعاء يحرمون العمل فيها وكانوا يطلقون على تلك الأيام شبتو ، فحرم اليهود العمل فى يوم السبت ، وما جاء بذلك الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

ونسى اليهود فى أرض السبى الحياة الأخرى واعتنقوا ما كان يعتنقه البابليون من أن الإنسان يذهب بعد الموت إلى الأرض التى لا رجعة منها ، إلى أرض الظلام وأطلقوا عليها شيول ، ثم قالوا إن الإنسان يثاب على أفعاله ويعاقب عليها فى الحياة الدنيا .

وراحت التوراة الجديدة تروى تاريخ اليهود فرفعت إستر إلى مرتبة القداسة ، ولما كان اليهود فى ذلك الوقت أذلة ملطخين بالعار فقد ألصقوا بالرسل والأنبياء كل نقيصة ، وجعلوهم يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ويضطجعون مع بناتهم ولا يتورعون عن الكذب والزنا وإتيان الفسوق !

كان اليهود فى فلسطين فى شوق إلى التوراة ، فلما جاءهم العزير بما كتب فى أرض السبى فتنوا به حتى إنهم قالوا : العزير ابن الله .

و لم تعرف أرض فلسطين الاستقرار طويلا ، فسرعان ما شب النزاع بين اليهود الذين عادوا مع العزير واليهود الذين كانوا فى فلسطين قبل عودة من كانوا فى أرض السبى ، ونشبت مناقشات حامية بين يهود أورشليم ويهود السامرة ، قال السامريون إن كانت التوراة قد نزلت على موسى فعلى من نزلت الأحداث التى تروى تاريخ اليهود بعد موسى ؟ ومن ذا الذى روى الآيات الواردة فى التوراة الجديدة بعد الإصحاحات الخمسة الأولى ؟ ومن ذا جعل إستر قديسة ؟

واشتد الجدل بين العزير وقومه وبين السامريين الذين لم يعترفوا

إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى ، ورأى العزير أن يستنجد بأرتخششتا بعد أن بلغ النزاع بين اليهود الوافدين من فارس وبين السامريين حدا ينذر بنشوب الحرب بينهم ، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وراح اليهود الذين استولوا على عقول ملوك فارس يزينون للملك نصر اليهود الذين خرجوا مع العزير بحجة تمكين سلطان الفرس فى فلسطين ، فبعث أرتخششتا ساقيه نحميا وكان يهوديا ليحكم بين الذين اختلفوا فى التوراة . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين .

وانطلق نحميا إلى فلسطين يحاول أن يلم شمل اليهود المختلفين وأن يعيد بناء ما تهدم من أماكنهم المقدسة ، وانتهى به الأمر أن جعل الشاهنشاه يعترف بالحاخام الأكبر ملكا على أورشليم وأرض يهوذا .. وعلى الرغم من ذلك ظل الخلاف ناشبا بين اليهود والسامريين . وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

طال على اليهود الأمد فقست قلوبهم ونسوا رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ورب موسى وهارون ، رب العالمين ، فراحوا يكتبون فى توراتهم الجديدة أن موسى صنع أفعى نحاسية ، وأن اليهود عبدوها فى الهيكل إلى أيام حزقيا ، وقدسوا الأفعى لأنها رمز الذكورة المخصبة ولأنها تمثل الحكمة والدهاء والخلود .

واتخذوا يهوه إلٰها وصاغوه فى الصورة التى كانوا عليها فجعلوه إلٰها صارما ذا نزعة حربية صعب المراس ولم يجعلوه عالما بكل شىء ، قالوا فى توراتهم الجديدة إن إلٰههم طلب منهم أن يميزوا بيوتهم لما تأهبوا للخروج من

مصر بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة لئلا يهُلك أبناءهم على غير علم منه مع من يهلك من أبناء المصريين !

وراح الكهنة يؤكدون فى توراتهم الجديدة أن لا أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين التى يتقبلها الإلٰه ، أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية ، فأصبح كهنة الهيكل الثانى فى بيت المقدس أقوى من الملوك أنفسهم .

و لم يجعلوا يهوه إلٰها واحدا لا شريك له بل جعلوه يقر بوجود آلهة أخرى ، وكان كل ما يبغيه أن يكون فوق مقام سائر الأرباب ، وقد قالوا على لسان موسى : « من مثلك بين الآلهة يا رب ؟ » وقالوا على لسان سليمان : « إلٰهنا أعظم من جميع الآلهة » .

« إنما إلٰهكم الله الذى لا إلٰه إلا هو وسع كل شيء علما »

وفسد دين إبراهيم بين بنى إسرائيل كما فسد بين بنى إسماعيل الذين خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض ، واستقروا فى شمال الجزيرة العربية على حدود بابل ودمشق ومصر ، ولم يبق دين إبراهيم على نقاوته إلا حول البيت الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل ، أول بيت وضع للناس ، ذلك البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

وراح مضر ورجال قافلته يطوفون بالبيت طواف الوداع قبل أن ينطلقوا إلى البتراء عاصمة النبط ، فقد ظلت العلاقات الطيبة بين العدنانيين وملوك النبط فلم ينس العدنانيون يوما أنهم منهم وأن معد بن عدنان قد نشر القلم النبطى فى ربوع مكة .

وانطلق مضر بتجارته يجوب الآفاق ، وبينما كان فى طريق عودته إلى الحرم وقد نال الإبل التعب والكلال وحنت إلى الراحة ، إذا به يسقط عن بعيره فوثبت يده ، فراح يمشى خلف الإبل ويقول :

— وايداه ! وايداه !

وكان مضر من أحسن الناس صوتا ، فلما سمعت الإبل ترنمه بذلك دب فيها النشاط وذهب عنها كلالها ، وفطن من فى القافلة إلى أن الابل قد أعنقت وعادت إليها حيويتها لما داعب آذانها ترنم مضر ، وعرف القوم أن الحداء يذهب كلال الإبل ، فكان مضر أول من سن الحداء فى العرب .

٩

كان ررادشت قد علم قومه أن لا إلـٰه إلا أهورا مزدا إلـٰه النور ، الإلـٰه الحكيم ، وأن ليس معه إلا صفاته ؛ الروح الطاهرة والعدل والنية الطيبة والعمل الصالح والصدق والتقوى والخلود . وحذرهم من قوى الشر المتمثلة فى « أهريما » الشيطان الرجيم ، وأنذرهم بيوم لا بيع فيه ولا شراء ؛ يوم الدينونة والحساب وخلود أرواح المتقين الأبرار فى عالم النعيم ، أما أرواح الأشرار فلها الويل والثبور .

وفرض زرادشت على أتباعه الصلوات الخمس وحرم عليهم الضحايا والقرابين ، وكان الكهنة « المجوس » يقدمونها لآلهتهم الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريح ، وحرم الخمر وكان أهل فارس يشربون « الهوما » المسكر وكان المجوس يقدمونه فى الطقوس الدينية ويؤكدون أنه دم الإلـٰه يجرى فى شرايين المؤمنين !

ونفخ ررادشت فى أرواح الفارسيين نفخة روحية عطيمة حملتهم من هضبتهم القاسية إلى أقصى الأرض : إلى القوقاز وأفغانستان وبلوخستان والهند وإلى أواسط آسيا الصغرى .إلى بلاد الرافدين وسورية وفينيقيا وفلسطين ومصر والمدن اليونانية فى السواحل العربية للأناضول ، إن الأرض يرثها عبادى الصالحون .

وازدهرت فارس وحملت إليها خيرات العالمين ، ورحرت عاصمتها اصطخر بفنون الشعوب التى سبقتها فى الإيمان والحضارة ؛ بابل وسورية

وفلسطين ومصر ، فما قامت حضارة إلا بعد انتفاضة روحية ملأت جوانب المؤمنين بالنور . فاصبر إن العاقبة للمتقين .

واخترعت النقود وقامت دور السك فى فارس وفى اليونان وفى أرض النبط بضرب العملة ورسم صور الملوك عليها . وقد يسر ذلك الاختراع التجارة فنشطت القوافل ، وراح البريد يجرى فى جسم الإمبراطورية الفارسية جريان الدم فى الشرايين .

واتخذت فارس اللغة الآرامية لغة التجارة ، فانتشر الخط الآرامى إلى جوار الخط المسمارى الفارسى . وكان عرب النبط يكتبون بالآرامية ولا غرو فقد كانوا يمشون بالتجارة بين الهند وفارس وبابل ودمشق وغزة ومصر ويثرب ومكة واليمن ، فازدهرت تجارتهم وقوى نفوذهم فى المنطقة .

وكان النبط يجدون كل عون من عرب الفرس ، أولئك العرب الذين أسكنهم بختنصر الحيرة يوم أن وثب على العرب وقاتلهم وأسر منهم من أسر . ومما ساعد النبط على مد نفوذهم التجارى فى فارس أن العرب الذين نزلوا بالحيرة والأنبار كانوا من بنى إسماعيل ، كان الأصل واحدا والمصلحة واحدة .

ولم تنقطع الصلة بين العدنانيين وبين النبط وعرب الحيرة والأنبار ، فقد كانت تجارة نزار تنطلق من مكة إلى يثرب إلى البتراء ومنها إلى أسواق فارس أو أسواق الشام ومصر ، وكان مضر يغدو ويروح بين الأمصار بتجارة مكة ، فإن كان بنو معد بن عدنان قد استقروا إلى جوار الكعبة فإنهم لم ينسوا يوما أنهم من النبط أمهر تجار العرب الذين تحصنوا فى صخرتهم المنيعة البتراء التى نحتت فى صخور الجبال ، وانداحت مملكتهم حتى أشرفت على حدود بابل ومصر ، واشرأبت بعنقها لتنشر ظلها على دمشق ودلتا النيل .

مضى على أسرة قورش قرنان من الزمان وقد مكنها إيمانها بالله الواحد القهار أهورا مزدا إلـٰه النور الإلـٰه الحكيم أن تبسط سلطانها على ممالك الأرض ، وأن تكون فى أقصر مدة أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ القديم . ولكن طال على الناس الأمد فقست قلوبهم وراحت أساطير الأولين تتسرب إلى ضمائرهم ، فامتزجت ديانة التوحيد بالوثنية القديمة ونفذ المجوس من خلال دعوة زرادشت إلى قلوب الناس ، وراحوا يشركون مع أهورا مزدا إلـٰه الشمس « مثرا » وقالوا : إنه إلـٰه العدل والإخلاص .

وبدأ فساد ديانة التوحيد فى فارس كما فسدت من قبل بعد نوح فى بابل ، وبعد إبراهيم فى أرض النبط وممالك قيدار وأبناء إسماعيل الذين هاجروا إلى شمال الجزيرة العربية وفى أرض السبى وفى فلسطين ، فقد جعل الكهنة صفات الله الواحد الأحد آلهة . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم .

وعبدت الإلـٰهة « أناهيتا » إلـٰهة الماء والحطب والنساء فى فارس و لم تكن من آلهة الفارسيين فى العصور الخالية ، فهى صورة جديدة لعشتار البابلية .

وقد يسر اتصال الشعوب بعضها ببعض انتقال الآلهة كما تنتقل السلع والتوابل والبخور ، فعبد أزريس فى بلاد الإغريق وصار أدونيس ، وعبدت إيزيس فى أرض النبط وصارت العزى ، وعبدت فى اليونان وصارت أفروديت ، وعبد عرب الحيرة اللات والعزى وسند ، ومن يدرى فقد يكون سند هذا هو ست إله الهكسوس أو أى إلـٰه آخر من آلهة الفراعين .

أسن الدين فى فارس فنام ملوكها فى أحضان اللذة وأسلسوا للنساء القياد ، فراح الحسان ينسجن المؤامرات لتنفيذ مآربهن الشخصية والسياسية ، وقد

نجحت إستر فى أن تجعل أخشويرش ألعوبة فى يدها لينفذ ما يمليه عليه اليهود ليمكنوا سلطانهم فى الأرض ، فصار البلاط الفارسى ميدانا لدسائس تحاك فى الظلام ومن وراء ستار !

وذهب أخشويرش ولكن نفوذ اليهود والنساء ازداد تغلغلا فى شئون الملك ، وانتهز المجوس كهنة آلهة الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريح ذلك الضعف فراحوا يشجعون الملوك والندماء والنساء ورجال السياسة من القوادين والمستغلين على شرب « الهوما » دم الإلٰه ليخدروا حواسهم ، ويشغلوهم باللذات عن استغلالهم للشعب وعن امتلاء خزائنهم بالأموال .

وشاعت الفاحشة فى قصور الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة ، وانتشر الفساد فى دور العبادة ، وراح اليهود ينخرون كالسوس فى عظام الدولة ، ولم يثر الشعب بل استكان للظلم وجارى ملوكه فى الفساد ، ودب فى صفوف الجيش الوهن بعد أن اعتمد ملوك فارس الضعاف على مرتزقة الإغريق الذين جاءوا من الآفاق يبحثون عن مال وخمر وجسد .

كان كل شىء فى فارس ينذر باقتراب هبوب العواصف ونزول الكوارث ، إن الملك لله يؤتيه من يشاء بحقه ، وحق الملك إقامة العدل والإحسان ، فإن انحرف الملك عن الجادة فعلى الشعب أن يقومه وأن يعيده إلى الصراط المستقيم ، فإن استمر فى بغيه وعدوانه فعلى الشعب أن يخلع طاعته ، فإن لم يفعل حق على الملك والشعب العذاب . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا .

كان أهل فارس ظالمى أنفسهم يكاد أن يصيبهم سيئات ما عملوا ، وفى ذلك الوقت الذى شاعت فيه الفاحشة فى فارس كان فى بلاد الإغريق شاب

يدعى أرسطوطاليس برع فى الرياضة وفاز مرتين فى الألعاب الكورنتية ، وسماه معلمه الأول الذى كان يعلمه الألعاب الرياضية أفلاطون لاتساع منكبيه ، وقد كانت روح أفلاطون دقيقة حساسة فقادته إلى مجالس سقراط ، فكان يلقى إليه سمعه مبهورا معجبا بجدله وقوة حجته وفلسفته .

وشغف أفلاطون بالحكمة وبمعلمه حتى إنه قال : أشكر الله أنى ولدت يونانيا لا بربريا ، حرا لا عبدا ، رجلا لا امرأة ، وفوق كل ذلك أشكره لأنى ولدت فى عهد سقراط .

ومات معلمه وهو فى الثامنة والعشرين ، وكان موته صدمة مروعة للشاب الرقيق الحس ، فراح يتأمل الحياة والناس فامتلأت نفسه باحتقار الديمقراطية ومقت الرعاع ، وما كان ذلك يستغرب منه فقد نشأ فى الرفاهية والرخاء بل وفى مهد الثروة ، وآمن بوجوب القضاء على الديمقراطية واستبدالها بحكم الأحكم والأفضل محلها ، وأضحى أكبر همه فى الحياة أن يبتدع طريقة يستطيع أن يكشف بها عن أحكم الناس وأفضلهم ثم يقنعهم أن يقتلدوا زمام الحكم .

وأصبح أفلاطون موضع ريب الديمقراطيين فأشار عليه أصحابه بأن أثينا لم تعد دار أمان له . وأن العناية الإلـٰهية هيأت له فرصة ليرى العالم ويسير فى الأرض ليكون له قلب يعقل به ، لعله يهتدى إلى ما يريد .

وشد الرحال إلى مصر وأصغى إلى الكهان ولكنه سمع منهم ما يكره ، إذ قالوا له : إن اليونان لا تزال دولة فى المهد ليس لها تقاليد ، وأنها خلو من الثقافة . وصدمه القول ولكنه فتح عينيه وجعله يتلفت ويتأمل .

ومن مصر انطلق إلى صقلية فإيطاليا ، وهناك اتصل بالمدرسة التى أنشأها فيثاغورس ، فتأثر بسيرة طائفة من الرحال لا شأن لهم إلا العكوف على

البحث والحكم ، إنهم تربعوا على العروش وتقلدوا مناصب الحكم ولكنهم كانوا يعيشون عيشة السذاجة الطبيعية ، فراح ينهل من المدرسة التى وافقت مزاجه .

وراح أفلاطون يجوب الآفاق وهو يقول مع معلمه سقراط : اعرف نفسك . وراح يدوى بين جنبيه سؤال : ما الإنسان وما مصيره ؟

كان أفلاطون على الرغم من تعدد الآلهة فى أوليمب يؤمن بإلٰه واحد ، وكان يأمل ألا يفنى فى التراب متى شرب كأس الردى . فراح يسعى للحصول على الحكمة سعى من يحبها .

وعادت أسئلة كثيرة تلح على ذهنه : ما العدالة ؟ ما الشرف ؟ ما الفضيلة ؟ ما الأدب ؟ ما الوطنية ؟ فلما عاد إلى أثينا راح يكتب محاوراته ليصور الفردوس الأرضى الذى يتصوره . وما انتهى منها حتى وضع أمام أعين العالم جمهوريته الفاضلة .

كانت جمهوريته تدور حول الدولة برجالها والأمة بآحادها . وعنده أن الفرد دولة مصغرة والدولة جسم كبير ، وأن ما يسعد الدولة يسعد الفرد وأن الرجل الكامل والمثل الأعلى هو الذى تحكم عقله فى شهوته ، وانقادت حماسته إلى حكمته ، وعاش ومات فى خدمة المجتمع .

وأثر أفلاطون فى حكم أثينا فنفخ فيهم روحا وثابة تتطلع إلى العدل وتحقيق الحكومة العادلة ، فإذا بآمالهم تتسع ليضموا العالم فى دولة واحدة .

وانتهى ملك فارس إلى دارا الثالث وكانت خزائنه تفيض بالذهب والفضة ، وكانت قصوره آية من آيات الفنون ، وكان الترف يطل برأسه فى المدن الفارسية ، وكانت كئوس الهوما مترعة والحسان يخطرن فى القصور والدور أحرارا وإماء يقدمن أنفسهن لطلاب اللذة ، ويبعن ضمائرهن

لأصحاب الفتن والمؤامرات .

وأمست فارس جسدا بلا روح ، جسدا نهما إلى الفسوق طار من قلبه الإيمان ، وكثر فيها المترفون من قلوبهم هواء وعقولهم خواء . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون .

كان دارا الثالث يرتمى فى أحضان الحسان فى فارس بينما كان فيليب المقدونى يتغذى بأفكار فلاسفة عصره ويتلقى فى سعادة آراء أفلاطون ، ويحلم بإقامة جمهوريته ، فراح يفكر فى غزو فارس ، وفى أن ينقض إمبراطوريتها من أطرافها .

ومات فيليب قبل أن يحقق حلمه وأحلام الفلاسفة ، وقام ابنه الإسكندر من بعده وقد امتلأ وجدانه بحلم الحكومة العالمية والمدينة الفاضلة ، ولما كان الإسكندر شابا طموحا لا حدود لآماله ، فقد راح يعد العدة لغزو العالم ليضمه فى حكومة واحدة تخضع لسلطانه ، يمارس فيها من ضروب العدل والإحسان ما يحقق جمهورية أفلاطون الفاضلة .

بدأت العداوة بين الشرق والغرب مذ قامت الحروب بين فارس واليونان ، فقد مشى ملوك الفرس حتى وطئوا بخيلهم ورجلهم أرض أثينا ، وكان ذلك أيام أن كانت الشعلة المقدسة متأججة فى قلوب المؤمنين من الفرس . أما وقد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وخبت الشعلة الدينية وأسلموا قيادهم لمترفيهم ، فقد حق عليهم العذاب والهوان والاستسلام لأقوام سرت فيهم نفحة روحية جديدة .

سرت فى اليونانيين نفحة الروح ، ولكنها نفحة كالبصيص من أثر الفلاسفة ، نفحة ستدفعهم دفعة لن تطول ؛ إن الأرض لله يورثها من يشاء

من عباده ، والعاقبة للمتقين .

من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .

١٠

كانت ولاية البيت فى بنى إياد بن نزار فكانت لهم السيادة الدينية على مكة ، وانطلقت قوافلهم التجارية تجوب الآفاق تحمل الذهب والفضة والحرير والتوابل والبخور إلى الأمصار ، وتعود بخيرات مصر وسورية والعراق وفارس إلى البلدة التى حرمها الله .

وكان بنو قضاعة بن معد يحسدون بنى إياد أن ذهبوا بالسيادة والشرف والغنى ، وراحوا يتطلعون إلى ولاية البيت ويرصدون الأحداث لعل الإياديين يبغون ظلما فى الأرض فيخرجونهم من البيت ، ويصبح لهم شرف ولايته .

وكانت قوافل بنى قضاعة تخرج إلى مملكة النبط التى ازدهرت واتسعت رقعتها ، حتى ضمت كل قبائل بنى إسماعيل فى قيدار وعربيى وفى شبه جزيرة سيناء وأصبحت دولة مرهوبة الجانب ، يخطب ودها الفرس والإغريق على السواء ، ويهابها فراعنة مصر خشية الوثوب على دلتا النيل ، وشاهنشاهات فارس خوفا من أن يضعوا أيديهم على دمشق بعد أن أستولوا على غزة ورفح وهددوا أورشليم .

كان بنو قضاعة ينظرون فى إعجاب إلى أبناء نابت بن إسماعيل الذين صارت لهم مملكة قوية تناوىء الفرس والإغريق ، لا تخضع لأى القوتين العظيمتين اللتين تتصارعان للاستيلاء على العالم : قوة الفرس وقوة اليونان بل ظلت حرة طليقة بلا قيود . ونسى بنو قضاعه فى موجة حماستهم للأنباط وإعجابهم بهم أن أبناء نابت بن إسماعيل قد تخلوا عن وظيفتهم الدينية الأساسية

ليقوموا بدور سياسى ودور تجارى فى المنطقة ، وأنهم قد تحولوا من الولاء الروحى لحكم القانون الإلـٰهى إلى تملك أسباب السيطرة على الطبيعـة ، فخمدت فيهم الاستنارة الروحية التى كانت كفيلة بأن تبسط سلطانهم على العالمين .

كانت دعوة إبراهيم دعوة عالمية ، وكانت ملة إبراهيم تدعو إلى أخوة عالمية ، وقد خرج أبناء نابت وأبناء قيدار وأسباط إسماعيل حكومة عالمية تخضع لقانون الله وتقيم الفردوس الأرضى المنشود ، ولكن أغلال الحضارات كبلت الدعوة الدينية ، فأصاب النفوس — التى كانت مؤمنة برسالتها — تحلل روحى جعلها تطلق لذواتها العنان ، موقنة بأنها تعيش وفقا للطبيعة بإطلاق الحبل لشهواتها على الغارب ؛ فأخفق الفيلق الذى عقدت عليه الآمال فى أن يؤدى رسالته .

وكان بنو قضاعة يسيرون بقوافلهم إلى الحيرة على سيف البادية غير بعيد من نهر الفرات ، وكانوا يقولون : يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة ، فهى منزل برىء صحيح من الأدواء والأسقام ، وكانوا مفتونين بهؤلاء العرب الذين أنزلهم بختنصر بها ، فسرعان ما نشطوا واتحدوا وأخذوا بأسبـاب الحضارة وقووا صفوفهم ، حتى أوشكوا أن يكونوا قوة عربية أخرى يعمل حسابها إلى جانب قوة النبط فى ميزان القوى الدولية .

وتشتتت أحلام بنى قضاعة إذ كانوا يحلمون بالهجرة إلى العراق والانضمام إلى عرب الحيرة.. عرب الفرس ، فكل البشائر تؤكد أن المستقبل لهم ، ولكن كثرة الأحلام والأمانى بعثرت جهود بنى قضاعة .

وراح بنو مضر يتكاثرون فى سرعة ، وفى سنين قليلة صاروا قبيلة قوية لها قوافل تغدو وتروح بين عواصم الدنيا ولها آمال تبغى تحقيقها ، ولما كانت أغلى

أمنية لقبيلة تعيش فى كنف بيت الله أن يكون لها شرف ولايته وسقاية حجيجه ، فقد ملأت هذه الأمنية صدور أشراف مضر وساداتها .

كانت ملة إبراهيم لا تزال ناصعة فى مكة لم يعرف أبناؤها بعد عبادة الأوثان والأصنام ، وقد أثمرت الاستنارة الروحية فاكهة حلوة تجلت فى إلياس بن مضر ، فقد كان شابا متدينا زاهدا فى الدنيا ينفق عن سعة ، وقد آتاه الله الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

رأى النزاريون والقضاعيون والإياديون والمضريون وكل من جاءوا من معد بن عدنان ممن كانوا يخرجون فى القوافل الضاربة فى الشمال وفى الجنوب والشرق والغرب ، رأوا معابد ود ومناف فى أرض ثمود ، وأطالوا النظر إلى ود وتفرسوا فى مناف . كان رجلا لا لحية له ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعى ، وحول جفنيه وحدقتيه خطان ناعمان ، يزين جيده قلادة ، وعلى صدره طيات ردائه ينعطف طيلسانه الإلـٰهى من كتفه اليسرى ليتصل بكتفه اليمنى . إنه إلـٰه يرمز إلى الآلهة الشمسية ، فقد ارتد القوم عن دين الله وعادوا إلى عبادة الكواكب والشمس والقمر . إلى ما كانوا يعبدون قبل أن يدعوهم إلى الإسلام خليل الرحمن .

وسخر بنو معد بن عدنان من دين ثمود ، وما دار بخلدهم أنه سيأتى يوم يوضع فيه ود ومناف فى جوف الكعبة !

ورأوا معابد الإلـٰه « ذى الشرى » فى أرض النبط وكان إلـٰههم الأكبر أقاموا له معبدا فخما فى البتراء نحتوه فى الجبال ، وراح الناس يحجون إليه ويتقربون إليه بشرب الخمر ، ولا غرو فقد كان حفدة نابت بن إسماعيل يعيشون فى مأساة الانحلال الروحى إذ رأوا المجوس فى فارس يتقربون إلى آلهتهم بشرب الهوما دم الإلـٰه ، فراحوا يحاكونهم فى التقرب إلى رب البيت بشرب

الخمر .

ورأوا معابد اللات أو الشمس أم الآلهة جميعا ، ومعابد العزى ومناة ، وما دار بخلدهم أنه سيأتى يوم توضع فيه اللات والعزى ومناة فى جوف الكعبة .

كانت الآلهة فى تلك الأيام تنتقل من شعب إلى شعب كما تنتقل السلع ، فانتقلت عبادة إيزيس من أرض مصر إلى أرض النبط وصارت العزيزة ثم العزى ، وانتقلت إليها عبادة أزريس وصار « ذا الشرى » . كما انتقل إلى أرض اليونان وصار أدونيس ، وكما انتقلت إيزيس إليها وصارت إفروديت !

وكان ذو الشرى حجرا أسود غير مصقول يبلغ ارتفاعه أربع أقدام وعرضه قدمين ، يستند إلى قاعدة مكسوة بالذهب عليها تصاوير جميلة تمثل تقديم القرابين إليه .

ورأى بنو معد فى مصر المسلات رمزا لإلٰه الشمس ، ورأوا تماثيل رع إلٰه الشمس ، وآمون إلٰه الشمس تارة وإلٰه الهواء تارة أخرى ، وصور قرص الشمس المجنح ، وسمعوا أن نجم الكلب إن هو إلا روح إيزيس وأن النجم الشعرى إن هو إلا روح أزريس ، فكان بنو معد أينما ذهبوا يجدون أن عبادة الكواكب والنجوم قد عادت كما كانت قبل بعثة جدهم الخليل ، فكانوا يسخرون من عبادة ود وبعل فى الشام سخريتهم من عبادة « شيع القوم » الذى لا يشرب خمرا فى الحيرة ، إلا أنهم كانوا يلقون السمع إلى أساطير الشعوب .

ولم يستعر النزاريون ولا القضاعيون ولا الإياديون ولا المضريون ولا غيرهم من بنى معد بن عدنان آلهة ثمود ولا النبط ولا الشام ولا الحيرة ولا بابل ولا فارس ولا مصر ، فقد كانوا على دين إبراهيم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولكن إلقاء سمعهم إلى الكهنة والأساطير جعلهم يعبدون الله على حرف ،

وبدأت الأباطيل تتسلل إلى سنة الآباء .

وقام إلياس بن مضر فى مكة كما قام أفلاطون فى أثينا ينصح الناس ، ولكن إلياس لم يكن فى حيرة من أمره ، لم يسأل ما العدالة وما الشرف وما الفضيلة وما الأدب وما الوطنية ؟ و لم يتحدث عن العالم الآخر حديثا يطابق ما تصوره حياله ، فلم يقل بأن الأرواح تنتهى إلى موضع سرى فيه فجوتان فى الأرض تقابلهما طاقتان فى السماء ، وأن القضاة يجلسون بين الفجوتين للحكم ، وأن الأبرار بعد صدور الحكم لهم يسيرون إلى اليمين فى طريق السماء ، وأن الفجار ينطلقون فى الطريق المنحدر إلى اليسار وبينات شرورهم من خلفهم ، و لم يقل كما قال أفلاطون بأن السيئة بعشر أمثالها وأن الحسنة كذلك ، و لم يتصور مدينة فاضلة تسودها نظم خيالية ليس لها مكان إلا فى أخيلة الفلاسفة ، بل كان إلياس يحدث قومه عن شريعة الله وعن العدل الإلٰهى وعن قانون الأخلاق السماوى ، وعن أن الحسنة بعشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون .

وراح إلياس يحدث قومه بأن الله جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، وكان يصف لهم فردوسا أرضيا قام فى الأرض أيام آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، فردوسا مارس الناس فيه كل ألوان العدل والشرف والفضيلة وذاقوا فيه حلاوة الرضا والاستقرار ، و لم يحدثهم عن فردوس أرضى لم يجد له مكانا إلا فى الخيال !

راح إلياس بن مضر يقاوم البدع فى مكة وينكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن الآباء ، وما كان إلياس فظا ولا غليظ القلب بل لان لهم جانبه ، وكان يدعوهم بالتى هى أحسن فالتفوا حوله يلقون إليه سمعهم وقد اتخذوه

قدوة وعظموه تعظيم أهل الحكمة ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم .

وجلس إلياس فى الدار يسبح الله ويقدس له ، وقد شفت روحه وهامت فى الملكوت لتتصل بروح الوجود وتتلقى فيض النور الذى يشرق فى جنبات الأبرار ،وعلى حين فجأة مست أذنيه ضحكات بريئة أخرجته من وجده وهيامه ، فالتفت فرأى ابنيه عامر وعمرو يدخلان وهما يتضاحكان فقال لهما :

ــ ما الذى أضحككما ، أضحك الله سنكما ؟

فقال عمرو ، وكان لا يزال صبيا وإن كان أكبر من أخيه :

ــ كنا فى إبل نرعاها فاقتنصنا صيدا فقعدنا عليه نطبخه ، وعدت عادية على الإبل فقلت لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ . فلحقت بالإبل وجئت بها .

فقال إلياس لعامر وهو يرمقه فى حب :

ــ أنت مدركة .

وقال لعامر وهو يضمه إلى صدره :

ــ وأنت طابخة .

وسمعت أمهم ليلى بنت عمران بن إلحاف بن قضاعة مناجاة زوجها لولديه ، فجاءت مسرعة تخندف فقال لها :

ــ تخندفين ؟

فعرف عامر بمدركة وعرف عمرو بطابخة وعرف الابن الثالث بقمعة وعرفت أمهم بخندف .

وجاء أوان الحج فاشترى إلياس بعض الإبل ووهبها للنحر فى الحج ، وأراد أن يشعر الناس أنها هدى فشق أحد جنبى سنام البدن ليسيل منه الدم ليكون

ذلك علامة على أنها هدى للبيت ، فكان إلياس أول من أهدى البدن إلى البيت وأول من سن الإشعار .

وبان فضل إلياس ورضوا به رضا لم يرضوا مثله لأحد من ولد إسماعيل ، فطمع بنو مضر فى أن تكون ولاية البيت فيهم ولكن إلياس كان زاهدا أعرض عن الدنيا وزينتها وطمع فيما عند الله ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

ومات إلياس فتولت خِندف وعيناها تفيضان بالدمع حزنا على زوجها الكريم ، فلم تطق الصبر فى الدار التى شهدت أسعد أيام حياتها مع إلياس الحكيم ، فتركت بنيها الصغار وهامت على وجهها تسيح فى الأرض تبكيه ، تركت فلذات كبدها شغلا بحزنها على أبيهم وكانوا صغارا رحمهم الناس فقالوا :

ــ هؤلاء أولاد خندف التى تركتهم وهم صغار أيتام.

ونسب أولادها إليها : إلى المرأة التى هامت على وجهها حزنا على زوجها حتى لحقت به فى دار اليقين . مات إلياس وماتت خندف من بعده و لم يمت أمل بنى مضر فى ولاية البيت ، فإن كان إلياس قد زهد فيها فقد يستطيع مدركة أو طابخة أو قمعة أبناء خندف أن يصبح واليا على أول بيت وضع للناس، وفى ذلك شرف لمضر وسلطان مبين .

١١

كان فيليب المقدونى معجبا بأفلاطون ، وكان يرى أن أفلاطون هو الفلسفة والفلسفة هى أفلاطون . وكان إعجابه بذلك المعلم العظيم أنه يعنى بالصفات الحقيقية الخالدة ، فلما أراد أن يتخذ معلما لابنه الإسكندر ، اتخذ أرسطوطاليس تلميذ أفلاطون العظيم لينهض بتثقيف من سيتولى عرش مقدونيا يوما .

وراح الإسكندر يصغى إلى أستاذه أرسطو ويتشرب آراءه فى الحكمة والفلسفة وما وراء الطبيعة ، ويا طالما مشى إلى جواره وهو يحدثه عن الدورة المشئومة فى الحكم : ملكية فأرستقراطية فحركة رجعية فديمقراطية ففوضى ثورية فدكتاتورية ، فقد كان أرسطو يتحدث وهو يمشى ويمشى حوله مريدوه ، لذلك أطلق عليهم المشاؤون .

وحدث أرسطو تلميذه عن جمهورية أفلاطون ، فراح يعلمه فوائد الثروة ويلقنه العدالة وما تقدم العدالة ، وحقيقة الصديق ، وأنه لا خير فى مضرة الآخرين ، وأن الصالحين نافعون دائما ، وأن الشرائع مرآة من يسنها ، وأن الحكام غير معصومين ، وأن خطأ الفنان ليس خطأ الفن ، وأن الطبيب هو شافى المريض لا جامع المال ، وأن الحاكم راع ورعيته الشعب .

وألقى الإسكندر سمعه إلى أستاذه وهو يشرح له أركان المدينة الفاضلة ، فتعلم أن العدالة تطلب لذاتها ، وأن الأبرار فى نعيم فى العالم الآخر وأن الفجار يغوصون فى أوحال المستنقعات وقد كتب عليهم أن ينقلوا الماء فى الغربال معابا

فى تعذيبهم .

وسمع الإسكندر حديثا طويلا عن الله ولقن أن الله صالح . وأنه ينبغى وصفه بالصلاح والحق ، وأن لا شىء ضارا يخرج من الصالح ، وأن من ليس بضار لا يصنع ضررا ، وأن من لا يضر لا يصنع شرا وهو علة الخير وهو برىء من ابتداع الشر ، وأن علينا أن نفتش عن علة الشرور فى غير الله ، وأن الله هو أصل خير البشرية وسعادتها .

وتعلم دستور المدينة الفاضلة القائم على الشجاعة والقضاء على مخاوف الموت وعلى بشاعة تصوير الحياة فى الآخرة ، وأن رأس العظمة حرية النفس ، وأن احترام النفس ركن الرجولة . وأن لا خير فى الكذابين فإن جاز الكذب لأحد فللحكام فى مخادعة الأعداء أو إقناع الشعب بما فيه خير الدولة ، ولا يباح لأحد سواهم أن يشترك معهم فى هذا الامتياز .

ووعى الإسكندر أن من أفظع أعمال الرعاة وأدعاها إلى الخزى فى الرعية ، أن كلابهم التى ربوها لحراسة القطيع تهجم على الغنم إما بسبب جوعها أو نهمها فتمزقها بأنيابها فتصبح ذئابا لا كلابا حارسة، وأنه ينبغى أن يهذب الرعاة تهذيبا صحيحا إذا أريد أن يستخرج أفضل ما فى كنوز أفئدتهم من لطف وحنان ومحبة لرفاقهم الذين وضعوا تحت أيديهم .

وكان صوت أرسطو يرن فى أعماق ضمير الإسكندر بقول أفلاطون : ينبت الحكام المستبدون من مغالاة الناس فى التحلل من القيود تحللا يسميه الناس حرية ، وأن هذه الحرية تهوى آخر الأمر بالأمة إلى درك الاستعباد . إن كل شىء يزيد على حده ينقلب إلى ضده ، وذلك لأن العامة التى ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها فى العادة زعيما يقودها ، وهو إنسان جرىء لا ضمير له يسعى لنيل رضاء الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم ، ولما كان هذا

الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فردا كغيره من الأفراد ، فإنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام ويجددون له هذه الحماية على الدوام .

ومات فيليب المقدونى واستولى الإسكندر من بعده على عرش أثينا ، وأصبحت السلطة فى يد أول مواطن فى جمهورية أفلاطون يستطيع بنفوذه أن ينشر آراء معلمه وأستاذ معلمه . وكان الإسكندر خير من ينهض بهذه الرسالة فقد كان شابا يتقد حماسة ، وقد آمن بكل الأفكار التى نفخها أرسطو فى روحه .

وسع أرسطو آفاق آمال تلميذه ، ملأ رأسه بأفكار كبيرة وأهداف اجتماعية عظيمة ، وشحنه بنفحة روحية جعلته يمتشق الحسام عندما صار إليه الأمر ليخضع العالم لسلطانه ويجعل منه دولة واحدة تدين بثقافة واحدة ، يسرى فى أرجائها العدل والحرية والأخلاق الفاضلة ، إنه حلم عظيم لرجل عظيم .

كان الإسكندر قائدا ممتازا فراح يغزو الممالك من حوله ، وسرعان ما ركعت الدول تحت قدميه مما أطمعه فى غزو فارس الإمبراطورية التى شاخت ونخر فيها الفساد واليهود ومؤامرات نساء القصر الفاتنات .

كانت فارس تسيطر على أحد طرفى الطريق التجارى العظيم الذى يربط غرب آسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وكانت بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثانى ، فكانت الحرب بين الدولتين واقعة لا ريب فيها لتستولى إحداهما على الطريق كله ، وكانت اليونان تترقب أن يقوم سيد منهم يضم شتاتهم ويؤلف بين قلوبهم ويخوض بهم غمار المعركة المنتظرة ، فلما وحد الإسكندر مدن اليونان فى دولة واحدة وكون جيشا منظما أحسن تدريبه وزوده برماح طويلة ، خرج بفيالقه المتراصة ليسدد طعنة قاتلة إلى قلب فارس سيدة العالم ،

ليخلو له وجه الدنيا .

واجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ومعه قوة من رجاله خالها الآسيويون ضئيلة ، إذ كانت مؤلفة من ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة الآف من الفرسان، وكان كل من فى آسية مقتنعا بأن اليونان لقلتهم لن يجرؤوا على الاشتباك فى حرب مع الفرس لكثرتهم .

وجاء جيش فارس قوامه أربعون ألف مقاتل ليصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ، فخسر الفرس فى هذه الواقعة عشرين ألف مقاتل ولم يخسر الجيش اليونانى إلا مائة وخمسة عشر رجلا ، فقد كان الجيش الفارسى مسلحا بالسهام فكان هدفا صالحا لرماح المقدونيين الطويلة ، وزاد الأمر سوءا أن قواد الفرس جاءوا معهم بسراريهم ولم يكن منهم من هو راغب فى القتال .

واتجه الإسكندر جنوبا وشرقا يخضع بعض المدن ويستسلم له بعضها الآخر ، ومر عام تمكن فيه دارا الثالث من جمع خليط من ستمائة ألف رجل بين جندى ومغامر ، وعبروا نهر الفرات على جسر من القوارب طيلة خمسة أيام ، وحملت أموال الملك على ستمائة بغل وثلاثمائة جمل ، وعند أسوس التقى الجيشان .

كان الإسكندر يؤمن بفكرة ويحارب لتحقيق هدف ، بينما كان دارا الثالث شاهنشاه إيران قد غرق فى اللذة حتى الآذان وهد الترف بناءه وروع فؤاده ، ونزع من قلوب جنوده ذلك الإيمان الذى غرسه زرادشت فى أفئدة فلاحى فارس فحملهم إلى أطراف الأرض وجعلهم أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ فى ذلك الزمان .

كان الإيمان بفكرة فلسفية يقاتل جنودا قلوبهم هواء ، غايتهم كأس خمر وجسد ترب وتفاهات الحياة ، لم يكن مع الإسكندر إلا ثلاثون ألفا من رجاله

وكان مع دارا الثالث جنود لا قبل للإسكندر بها ، ولكنه كان غبيا غباء لا يحد فاختار ميدانا للقتال لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه ليقاتل اليونان ، على حين يبقى سائره معطلا .

ووقعت المجزرة بين اليونان وفارس ، ولم يخسر فيها الإسكندر إلا أربعمائة وخمسين رجلا ، بينما خسر دارا ألفا ومائة رجل قتل معظمهم وهم يولون الأدبار مفزوعين مرعوبين .

وراح الإسكندر يطارد الجيوش المهزومة وعبر فى مطاردته مجرى مائيا على جسر من جثث الفرس ، وفر دارا من الميدان فرار الأنذال تاركا فيه أمه وزوجة من أزواجه وابنتين له وعربة وخيمة مترفة ، ووقعت السيدات فى الأسر ولكن الإسكندر أكرمهن وأظهر شهامة فائقة فى معاملتهن .

وخرج سكان بابل للترحيب به وقدموا له مدينتهم وما فيها من ذهب ، فتقبل منهم ما عرضوه فى لطف وبشاشة ، وسرهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم المقدسة التى هدمها ملوك الفرس .

وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصلح ، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر عشرة آلاف وزنة من الذهب إذا رد إليه أمه وزوجته وابنتيه ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة غرب الفرات ، وأنه لا يطلب لقاء ذلك إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتخذه صديقا له .

واجتمع الإسكندر بقواده وعرض عليهم شروط الصلح ، فقال بارمنيو القائد الثانى لجيوش اليونان :

ـــ لو كنت الإسكندر لقبلت هذه العروض الطيبة مسرورا ، فأنجو بشرفى من شر هزيمة قد تكون ساحقة .

ـــ لو كنت بارمنيو لقبلت هذه الشروط ، أما وأنا الإسكندر فإنى

أرفضها .

ورد الإسكندر على دارا : « إن عروضك لا معنى لها ، فإنى أملك بالفعل ما تعرضه على من بلاد آسية ، وفى وسعى أن أتزوج ابنتك متى أشاء » .

وعلم دارا أن لا أمل فى عقد صلح مع ذلك الشاب الذى يطمع فى أن يبسط سلطانه على الدنيا ، فراح يجمع وهو كاره جيشا آخر أكبر من جيشه الأول ليقف به فى وجه ذلك المارد الذى يحلم بأن يضم العالم فى دولة واحدة ، ثقافتها واحدة ويحكمها رجل واحد .

ورأى الإسكندر أن يغزو سورية ومصر حتى يقطع عن فارس كل إمدادات محتملة ، فانطلق إلى سورية فقوبل بالترحيب وفتحت له المدن أبوابها وهتفت للمنقذ والقائد المظفر . حتى إذا ما بلغ مدينة صور حصن العرب المنيع إذا بالقلاع شحنت بالجنود وأطلت العداوة من العيون .

وبعث الإسكندر إنذارا إلى حاكم المدينة ، وأبت صور أن تسلم أو أن تسمح لأية حامية يونانية بالنزول فيها ، فأمر الإسكندر بالهجوم على المدينة وهو يمضغ غضبه .

ولم تكن هذه أول مرة ترفض فيها صور التسليم فقد أبت أيام شلمنصر أن تفتح أبوابها للملك الأشورى وأبت أن تستسلم لبختنصر ، وإنها لتقف فى شجاعة نادرة أمام جيوش الإسكندر التى خرت جيوش فارس ساجدة عند أقدامها .

وضيق الإسكندر على المدينة الحصار فاضطر الأحرار من أهلها أن يفروا منها ليلحقوا بإخوانهم فى قرطاجنة . تلك المدينة التى أسسها فى إفريقية أحرار فروا من صور من قبل ، أيام حصار شلمنصر وحصار بختنصر ، فقد رفض أحرار العرب فى كل مكان الخضوع لجبابرة الأرض ، أنفة من أن يكونوا

أرقاء .

وكان هؤلاء العرب الأحرار حملة ثقافة وعلم ، فقد نشروا الحروف الهجائية الفينيقية وهم يمشون بتجارتهم بين آسية وإفريقية ، وقد أثرت ثقافتهم فى الحضارة اليونانية قبل أن يأتى ذلك الملك المقدونى ليذل بلادهم .

وسقطت صور بعد أن قاومت مقاومة الأبطال وبعد أن فر منها أحرارها إلى قرطاجنة ، ولقد كانت قرطاجنة تزدهر وتعظم كلما أخذت صور وصيدا فى الضمور والاضمحلال .

وغزا الإسكندر مصر وبنى الإسكندرية ، ثم انطلق إلى واحة سيوة إلى وحى الإلٰه آمون الذى ذاع صيته فى بلاد الإغريق بعد هلاك جيش قمبيز فى الصحراء ، وقد رضى آمون عن الإسكندر وأرضاه حين جعله ابنا له وألبسه تاجه .

وعاد الإسكندر إلى بابل ، وبعد مسيرة عشرين يوما منها وصل جيشه إلى السوس واستولى عليها دون أن يلقى مقاومة ، ثم تقدم إلى برسبوليس بسرعة لم تمكن دارا من حمل ما فيها من أموال ، فأخذ ثمانية آلاف وزنة من الذهب وأطلق ساقيه للريح ، وسرعان ما دخل الإسكندر القصر واستولى على مائة وثمانين ألف وزنة ، كانت ما بقى من خراج الهند وبابل وآشور وسورية وفلسطين ومصر وأرمينيا وبلاد الأناضول .

كان دارا قد جمع من الولايات الفارسية وخاصة من ولاياته الشرقية جيشا جديد عدته ألف ألف مقاتل، يتألف من فرس وميديين وبابليين وسوريين وأرمن وساكى وهنود ، ولم يسلحهم بالقسى والسهام بل جهزهم بالحراب والرماح والدروع ، وأركبهم الخيل والفيلة والعربات ذات الدواليب التى ركبت فيها المناجل لكى يحصد بها أعداءه حصد الحنطة فى الحقول .

حشدت آسية العجوز هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن نفسها أوروبا الناهضة الفتية ، ووقف الشرق أمام الغرب وجها لوجه ، التقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان وأربعون ألفا من المشاة بذلك الخليط المختل النظام ، وعند كواكميلا صار الفرس حصيد سيوف الإسكندر وجنوده ، وتبدد شمل الجيش الفارسى فى يوم واحد ، واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان فنادى الإسكندر أن يؤسر دارا أسرا ولا يقتل ، بيد أن رجلين من حرس دارا طعناه من خلفه وقد أرادا بطعنهما إياه الحظوة عند الإسكندر .

وبلغ الإسكندر ما أصاب دارا فسار حتى وقف عنده ، فرآه يجود بأنفاسه ، فنزل عن دابته حتى جلس عند رأسه وقال :

— لم أهم قط بقتلك وإن الذى أصابك لم يكن عن رأيى .

ونظر إلى الشاهنشاه المسجى على الأرض فأحس رأفة تسرى فى كيانه فقال :

— سلنى ما بدا لك فأسعفك فيه .

فقال له دارا وهو يلفظ النفس الأخير :

— لى إليك حاجتان : إحداهما أن تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكا بى ، والأخرى أن تتزوج ابنتى روشنك وأن ترعى لها حقها وتعظم قدرها .

وأتاه الرجلان اللذان وثبا على دارا يطلبان الجزاء فالتفت إلى من عنده وقال :

— اضربوا رقبتهما واصلبوهما .

ولاحت الدهشة فى وجه الرجلين واستولى عليهما رعب شديد ، فقال لهما الإسكندر :

ـــ هذا جزاء من غش أهل بلده .

وأرسل الإسكندر جثة دارا مكرمة إلى برسبوليس فى موكب حافل وأمر أن تدفن كما تدفن أجسام الملوك الأخمينيين ، وكان دارا الثالث آخر ملوك هذه الأسرة .

وتزوج الإسكندر روشنك ابنة دارا ، وشجع قواده أن يحذوا حذوه ليزيل الفوارق بين الشعوب ويجعل من ملكه الكبير أمة واحدة مؤمنة بثقافة واحدة ، ولا غرو فقد كانت فكرة إقامة جمهورية أفلاطون فى الأرض تستولى على كل تفكيره .

وانضوى الشعب الفارسى تحت راية الإسكندر إعجابا منه بكرم أخلاقه ونضرة شبابه ، ونظم شئون فارس وجعل من الفرس شركاء له فى الحكم ، ثم ترك فى فارس حامية قوية لحراستها وواصل زحفه إلى الهند .

وامتد ملك الإسكندر شرقا وغربا فعزم على أن يتخذ بابل عاصمة إمبراطوريته ، فراح يصلح ما درس منها ليعيد إليها مجدها ، واستقر بقصرها فخفت شعوب الأرض إلى بابل بالهدايا تخطب ود رجل العصر وإمبراطور الدنيا غير منازع ، وتقدم له الولاء والخضوع . ولكن العرب فى شمال الجزيرة العربية وفى جنوبها أنفوا من ذلك فلم يبعثوا إليه بالهدايا و لم يرسلوا إليه الرسل ، بل لاذوا بالصمت العميق .

واستشاط الإسكندر غضبا وورمت أنفه فراح يتوعد كل سكان جزيرة العرب بالويل والثبور ، وأقسم أن يطأ بلادهم بخيله ورجله وأن يسوق من يسجون من حصيد سيفه أذلة صاغرين .

وقبل أن ينفذ وعيده ويغزو جزيرة العرب مات فى بابل ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين ، فحزنت عليه أم دارا الثالث حزنا جعلها تقضى على حياتها

بامتناعها عن الطعام حين علمت بموت الرجل الكريم الذى أظهر شهامة نادرة يوم أن وقعوا أسرى فى يده .

وبموت الإسكندر ماتت أحلامه وتحطمت آماله ، فقد كان يؤمن بفكرة فلسفية وما كان كل قواده يؤمنون بها ، فلو كان الإسكندر يحمل دعوة دينية لها مؤمنون لقام خلفاء الإسكندر بنشر ذلك الدين ، أما وأن الإسكندر كان يحمل آراء معلمه وآراء أفلاطون المعلم العظيم ويعمل على نشر آراء أستاذيه ويعمل على إقامة جمهورية أفلاطون فى الأرض ، تلك الإمبراطورية التى تقوم على أحلام فيلسوف ، فسرعان ما ذابت إمبراطورية الشاب الكبير وقسمت بين قواده ، وكان منهم من لا يفهم أفلاطون ولا فلسفته ، بل كان فيهم من يرتاب فى الفلسفة ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق وكل التراث القديم .

وماتت جمهورية أفلاطون ، تلك الجمهورية التى لم يكن لها مقام فى مكان ما ولم تعش إلا فى خيال الفلاسفة ؛ لفظت أنفاسها يوم أن لفظ الإسكندر الأكبر فى بابل النفس الأخير ، بل لفظت أنفاسها قبل أن يذوق الإسكندر الموت أيام أن بسط سلطانه على الأرض ولم يستطع أن يحقق حلم أفلاطون الجميل .

وصار الإسكندر فى لعابرين وبقيت جزيرة العرب لم يلحقها معرة غزو الإسكندر ، ليبعث منها النور يوما ويشرق على العالمين . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

١٢

ماتت أحلام الإسكندر بموته ، فما كان قواده الذين قسم إمبراطوريته بينهم يتمتعون بفضائل العنصر الحاكم . تلك الفضائل التي اتصف بها الإسكندر . ولم يكونوا مؤمنين بالفكرة الفلسفية الجميلة التي اعتنقها الإسكندر ، فما كان يخطر على بال أحدهم إمكان تحقيق حلم أفلاطون ، فعادت جمهورية أفلاطون كما كانت مجرد فكرة فلسفية جميلة لم يقدر لها أن تجد لها مكانا فى الأرض ، بعد أن هلك فى بابل أول مواطن آمن بالمدينة الفاضلة له نفوذ وسلطان ، واتسعت رقعة ملكه حتى كادت تغطى وجه الدنيا .

وتشتت الجيش المقدونى بعد موت قائده وانفصمت وحدته ، فراحت بعض فيالقه تعمل تحت إمرة خليفة الإسكندر فى بابل ، وراحت فيالق أخرى تأتمر بأمر خليفته فى سورية ، وسيطر خليفته فى مصر على جنود الإغريق الذين كانوا فيها ، ولما كانت اليونان قد أصيبت بداء الحرب الطبقية فقد فضل كثير من جنود الإسكندر أن يكونوا جنودا مرتزقة على أن يعودوا إلى بلادهم التى يتطاحن فيها زعماء البروليتاريا والرجعيين ، وقد أغراهم على ذلك أن رواتب الجنود المرتزقة كانت تدفع بسبائك الذهب والفضة .

وزاد حجم النقود المتداولة زيادة مفاجئة فى البلاد التى انتشر فيها مرتزقة اليونان ، فأدى تضخم الأموال المتداولة إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا ، فشاع الدمار بين الفلاحين والصناع الذين كانوا مستقرين قبل أن يقوم الإسكندر بمغامرته العسكرية ، فانتشر السخط فى البلاد التى قاست ويلات

التضخم ، وقد كان ذلك السخط هو السلاح الذى ستنتحر به ممالك خلفاء الإسكندر التى تبدو فتية .

كان الإسكندر قد توعد سكان جزيرة العرب بالغزو وقد مات قبل أن ينفذ وعيده ، ترى أيقوم خلفاؤه بتأديب هؤلاء العرب الذين أبوا أن يحملوا الهدايا إلى القائد المظفر وأن يخروا ساجدين تحت أقدامه .

مات الإسكندر فى بابل فتلاشت كل آماله وأمانيه ، ومات إلياس بن مضر فى مكة وبقيت تلك النهضة الدينية التى بثها فى المجتمع الذى تكون حول بيت الله ، إنه لم يأت بفلسفة جديدة ولا بدين جديد ، كل ما فعله أن أزال ركام الأساطير عن ضمائر المؤمنين وغسل رءوسهم من الشك والأباطيل وأعاد الروح إلى دين إبراهيم وإسماعيل . وأزاح الغشاوات عن أبصار المسلمين وبصائرهم فجعلهم ينعمون بنور الله ونور الوجدان ، نور على نور . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

آمن العرب الذين استقروا حول الكعبة منذ أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، أن لهذا الكون ربا له ما فى السماوات وما فى الأرض بيده الملك وهو العزيز الحكيم ، فأسلموا له وجوههم واستخفوا بكل جبار عنيد ، ولم ترتعد فرائصهم لما علموا أن الإسكندر هددهم بالغزو والسبى ، ولم تذهب نفوسهم شعاعا بل راحوا يتأهبون للقتال والدفاع عن بيت الله وكانوا على ثقة من نصر الله إن الله يدافع عن الذين آمنوا .

وجاءهم نبأ هلاك الإسكندر فحمدوا الله وأثنوا عليه أن جعل لهم حرما آمنا بينما يتخطف الناس من حولهم .

نفخ إلياس بن مضر الرماد عن نار الإيمان فى الصدور فأجج الحماسة الدينية فى قلوب الإياديين والنزاريين والمضريين وكل من نزل إلى جوار البيت

المبارك ، وألف بين القلوب فنامت المطامع إلى حين .

كان المضريون يطمعون فى ولاية البيت ويتطلعون إلى انتزاعه من أيدى الإياديين ، وقد قوى أملهم يوم أن التف الناس حول إلياس ورضوا به رضا لم يرضوه لأحد من ولد إسماعيل ، ولكن إلياس كان من الزاهدين لم يطمع فى ولاية ولا ملك . كل ما كان يرجوه أن يهديه الله وأن يهدى قومه إلى الصراط المستقيم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى .

ومات إلياس فالتف أشراف مضر حول ابنه مدركة وراحوا يزينون له الوثوب على أبناء عمومتهم ، على أبناء إياد بن نزار لينتزعوا ولاية البيت منهم ، لينتقل لمضر الشرف والسيادة وعز الدنيا وزينتها .

كان مدركة زعيم قومه وكان صالحا من الأبرار يمقت البغى والعدوان ، فلم يلق سمعه إلى قومه فولاة البيت من الإياديين يعرفون للحرم حقه ، وقد استقاموا بعد أن أثرت حكم الياس فيهم وهدتهم سواء السبيل .

وكان يكره أن يستخدم الأسلحة الدينية فى جلب مغنم لعشيرته ، وكان يشفق على المضريين من أن يتردوا فيما تردى فيع اليهود من عبادة أنفسهم ، منذ ذلك اليوم الذى بلغ فيه غرورهم أن ادعوا أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الناس . كان يخاف على المضريين أن يعبدوا ذواتهم كما فعل اليهود من قبلهم ، وأن يعزلوا أنفسهم عن مجتمعهم ، فراح يخمد حركات التمرد التى كانت تحاول أن ترفع رأسها لتعارض سلطان الإياديين .

وانقضت أيام مدركة فى سلام وصارت زعامة مضر إلى خزيمة بن مدركة ، وكان خزيمة محبوبا فى قومه ذا رأى سديد من عباد الله المتقين قد عرف عنه الصلاح ، وكان أمر البيت إلى وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد فخاف وكيع منافسة خزيمة ، ورأى أن خير ما يفعله لدرء تلك المنافسة أن

يشتهر بين قومه بالصلاح ، فبنى بأسفل مكة صرحا وجعل فيه سلما وكان يرقاه ويقول إنه يناجي الله .

وشغلت مكة بالدين وبقوافل التجارة التى تغدو وتـروح بين الشام والعراق وفارس ومصر وكانت كلها تحت حكم خلفاء الإسكندر ، فكان رجال القوافل يعودون بالسلع والأموال وأنباء تلك البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويروون على العاكفين بالحرم أساطير فارس وبابل والآراميين والمصريين واليونان .

كانت مكة على صلة وثيقة بالأحداث العالمية إلا أنها كانت بعيدة عن مسارح القتال بين جيوش الشرق والغرب ، لم تصل إليها جيوش بابل وآشور والفرس واليونان ، وكان كل ما وصل إليها تهديدات بختنصر ووعيد الإسكندر . ولم يدر بخلد أحد من الطائفين حول الكعبة أنه سيأتى يوم تحمل فيه الجزيرة راية الشرق ، وأنها ستكون محور الصراع بين الشرق والغرب ووريثة العداوة التقليدية بينهما .

وراح وكيع بن سلمة يعتزل الناس ويتعبد فقال الناس عنه :

ـــ إنه صديق من الصديقين .

وراح يتكهن ويقول :

ـــ من فى الأرض عبيد لمن فى السماء ، هلكت جرهم وأزيلت إياد ، وكذلك الصلاح والفساد .

إنه يتكهن بانتهاء ولاية إياد للبيت كما انتهت أيام جرهم ، وأنها ستزول يوم يزول الصلاح منها وينتشر الفساد . ترى أرأى وكيع التراخى يسرى بين الإياديين وأن الفساد بدأ يستشرى فيهم وأنهم باتوا مجتمعا مشرفا على الموت ، أم أنه رآهم أصبحوا أعجز من أن يقضوا على كبرياء مضر وتطلعهم إلى شرف

ولاية البيت ؟

استولى وكيع على مشاعر بنى عدنان جميعا فكان يحدث الناس أحاديث تستقر فى سويداء أفئدتهم ، فأمتع الأحاديث ما يهز العواطف ويمس مكامن النفس ، كان يقول :

ـــ يقول ربكم : ليجزين بالخير صوابا ، وبالشر عقابا .

وحضرته الوفاة فجمع إيادا فقال :

ـــ اسمعو وصيتى : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجليها .

ومات وكيع فساد مكة وجوم وترقرق الدمع فى العيون ، ونعى فى الوادى المقدس ، ووقف أحد النعاة من إياد على رءوس الجبال يقول :

ونحن إيـــاد عبـــاد الإلٰـــه
ورهـــط مناجيـــه فى سُلَّـــم
ونحن ولاة حجـــاب العتيـــق
زمـــان النُخـــاع على جرهـــم

وقامت نائحة وكيع على جبل قيس فقالت :

ألا هـــلك الوكيـــع أخـــو إيـــاد
سلام المرسلين على وكيـــــع
مناجـــى الله مـــات فـــلا خلـــود
وكل شريـــف قـــوم فى وضيـــع

وحزنت إياد على وكيع حزن الثكلى على وحيدها ، ترى كيف يكون حال الإياديين بعده ؟

١٣

كان النبط يحلمون بسلام دائم يسود المنطقة ، وأن يقوم الوفاق الاجتماعى بين الشعوب المتناحرة عوضا عن تلك الحروب المدمرة التى تعوق نمو تجارتهم وازدهار حضارتهم ، ولكن العالم انقسم على نفسه إلى معسكرات وشيع يضرب بعضه بعضا ، فالطبقات تتصارع والدول تشن الحروب بعضها على بعض وتحاول كل منها ابتلاع حضارة غريمتها وهضمها .

اعتنق الإسكندر وهم الدولة العالمية الفاضلة فراح يبسط سلطانه على العالمين ليقيم المدينة الفاضلة ، حلم أفلاطون الفيلسوف . وجاد الإسكندر بأنفاسه قبل أن يحقق الوحدة العالمية السياسية المرتجاة بفرض إرادته المطلقة على بقية الدول ، وقسمت إمبراطوريته بين قواده وما كان أحد منهم يعتنق مبادئ قائدهم بل كان جلهم يعجبون بفلسفة أرستبوس الظريف !

كانت فلسفته بسيطة صريحة ، فقد كان يقول : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعا فى اللذة أو خوفا من الألم حتى لو أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا أو ضحينا بحياتنا من أجل قوادنا ، وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هى الخير الذى لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة .

وعلمنا بالأشياء مشكوك فيه ، وكل ما نعرفه معرفة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون فى السعى وراء الحقيقة المجردة بل فى اللذات الحسية ، وليست أعظم اللذات هى اللذات العقلية أو الخلقية بل هى اللذات الجسمية .

ولهذا فإن العاقل من سعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شيء آخر ، ومن الذى لا يضحى بخير عاجل فى سبيل خير آجل غير مؤكد ؟

والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه فى ذلك ، وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهى عابرة ، والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه فى الساعة التى نحن فيها .

وليست فائدة الفلسفة فى أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها فى أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها ، وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذى يستمتع بها دون أن يكون عبدا لها ، والذى يستطيع بفعله أن يفرق بين اللذائذ التى تعرضه للخطر والتى لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذى يظهر الاحترام المقرون بالفطنة للرأى العام وللشرائع ، ولكنه يعمل على قدر ما يستطيع على ألا يكون سيدا لإنسان ما أو عبدا له .

كان أرسطو يلقن تلميذه الإسكندر أن الله روح العالم فهو المحرك الأول الذى لا يتحرك ، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين الأزلية ، وأنه حقيقة العالم الفعلية ، فقام الإسكندر الشاب بفضل تلك النفحة الروحية يغزو العالم.أما قواده فقد اعتنقوا فلسفة اللذة ، فلسفة أرستبوس الظريف ، فسرعان ما راح السوس ينخر عظام الإمبراطورية الفتية .

وقد توعد الإسكندر النبط والعرب بالغزو وبقتل الرجال وسبى النساء ، ولكن الإسكندر مات قبل أن يتحرك وينفذ وعيده ، وصارت سورية تحت حكم قائده أنطيغونس ، ترى أيسير أنطيغونس بجنوده لتأديب هؤلاء العرب الذين بلغت بهم الغطرسة ألا يبعثوا بالهدايا والسفراء إلى بابل لتهنئة الإسكندر ملك الملوك الذى دانت له بالولاء الأرض جميعا ؟!

كان ملوك النبط قد ضربوا النقود أسوة باليونان وروما ومصر والفرس . وقد يسر ذلك الاختراع القيم التجارة ، ولكن بعض التجار كانوا لا يزالون مستمسكين بالأساليب العتيقة يفضلون الماشية على العملات الفضية والنحاسية ويجدونها أعظم منها قيمة .

وتأهب الرجال فى البتراء للخروج إلى أسواق المدن المجاورة فوضعوا النساء والأطفال والشيوخ والعجزة فى « صخرة » حصن البتراء ، وتركوا بعض رجال لحراستها وما كانت مسورة ، وإن كانت مخازنها تفيض بخيرات ممالك دنيا من قمح وحرير وتوابل وبخور وفضة .

وانطلق الخارجون إلى معابد ذى الشرى واللات ومنوتن والعزى ورب البيت يطوفون بأصنامها وأوثانها طواف العرب بالبيت العتيق ، ويتمسحون بها ويلتمسون منها البركة ، فقد كان فى النبط بعض سنن الآباء إبراهيم وإسماعيل ونابت . كانوا يعبدون الله إلا أنهم أشركوا معه آلهة أخرى فجعلوا اللات والعزى زوجه وأم الآلهة ورمزوا إليها بالشمس ، وجعلوا العزى ومنوتن والإلهات الأخر بنات الله يشفعن إليه .

وخرجت قوافل التجارة من البتراء فى ركاب بعضهم النقود الجديدة الفضية والنحاسية ، بينا راح البعض الآخر يسوقون الماشية أمامهم فقد كانوا لا يزالون يعتقدون أن الماشية هى أفضل وسيلة للتبادل لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولسهولة نقلها من مكان إلى آخر .

وشغلت أذهان الرجال بالتجارة والبيع والربا ، فقد عرف الربا فى أرض بابل وفى أرض مصر وفى كل سوق من أسواق الشام والعرب قبل أن يتحدث فلاسفة اليونان عن الفوائد المشروعة وغير المشروعة .

كان النبط مطمئنين لا يخشون غدرا؛ فقد مات الإسكندر الذى هددهم

بالقتل والسبى وكانت علاقتهم بأنطيغونس خليفته على سورية طيبة فى ظاهرها ، فكان الهدوء يسود مملكتهم التى امتدت إلى حدود دمشق بعد أن استولوا على غزة وخان يونس وسيناء . وما دار بخلدهم أن أنطيغونس أوجس منهم خيفة ؛ إن هى إلا وثبة واحدة وتصبح دمشق فى قبضة يدهم ، فماذا يبقى للإغريق بعدها فى سورية ؟

وكان أنطيغونس يطمع فى محالفتهم وكان يمنى النفس بأن يأتوا إليه يوما يقدمون له ولاءهم ، ولكنهم لم يحفلوا به . وكيف يحفلون به وقد أنفوا أن يرسلوا الهدايا إلى الإسكندر بعد أن صار إلـٰها ؟ إنهم لن يخضعوا له عن رضى من أنفسهم بل يجب أن يرغمهم على ذلك إرغاما .

كان ملك أنطيغونس قد استفحل وعظم سلطانه واستقر فى أنطاكية ، وقد نفخ ذلك النجاح فى غروره فراح يحلم بأن يعبد فى إسرائيل والسامرة وأرض النبط وفى كل أرض يستطيع أن يبسط عليها سلطانه من الممالك التى حوله

وراح الصناع يعملون ليل نهار ليصنعوا أصناما على صورته ، وبعث بالتماثيل إلى إسرائيل لتوضع بالهيكل فأبى اليهود أن يقبلوها ، فسار أنطيغونس إليهم وأثخن فيهم بالقتل والسبى ، وفر بعضهم إلى الجبال والبرارى فرجع واستخلف على بيت المقدس قائده .

قاوم اليهود وضع تماثيله فى الهيكل ، أفيقبل النبط أن يضعوها فى ذى الشرى واللات والعزى ورب البيت دون قتال ؟ واستدعى أنطيغونس صديقه أثينيوس وزوده بأربعة آلاف جندى من المشاة وستمائة فارس ، وأمره أن يسير إلى النبط ويدهمهم بليل على حين غرة ليجبرهم على التحالف معه وعبادته وتأييد مصالحه فى المنطقة .

وخرج أثينيوس من مقاطعة أدوم فى هجعة الليل وسار فى حذر شديد إلى البتراء وهاجم « الصخرة » فارتفعت أصوات تشق السكون ، وفى مثل لمح البصر أسكتت تلك الأصوات إلى الأبد . باغت أثينيوس الأطفال والنساء والعجزة والشيوخ بهجومه المفاجئ وراح يقتل كل من يقاومه ، ويسوق ما فى الصخرة من ماشية ويحمل الحبوب والتوابل والحرير وكل ما فى المخازن من طيب وفضة .

وأمر أثينيوس جنوده بالانسحاب سريعا قبل أن يفضحهم النهار ، فانسحبوا وقد ملأت الغبطة صدورهم وكانت الغنائم عظيمة أعظم مما كانوا يحلمون .

وانساب حملة أثينيوس فى الصحراء مزهوة بنصرها ، وانقضى يومان فأنهك التعب الرجال فنزلوا ليستريحوا فى معسكر أقاموه وقد سكروا بخمر النصر العظيم .

وجاء الليل وما كاد الرجال يستسلمون للذيذ الرقاد حتى أحاط النبط بالمعسكر إحاطة السور بالمعصم ، فقد فر أحد حراس « الصخرة » ليلة أن فاجأها أثينيوس وجنوده وانطلق إلى الأسواق ينبئ رجال النبط بما لحق بأهلهم ، فخرجوا يطيرون فى مسالك الصحراء السرية كأنهم النسور يطلبون أنطيغونس والذين معه .

وراح النبط يُعملون السيوف فى النيام ، غدر بغدر ، فسالت الدماء ودب الذعر فى العسكر ، وخف رجال أنطيغونس إلى خيولهم يريدون النجاة ولكن أين المفر ؟ وسيوف النبط تحصدهم حصدا .

وتمكن أثينيوس وخمسون من رجاله أن يلوذوا بالفرار ، ليقصوا على أنطيغونس كيف روت دماء جنوده الصحراء وتركت أجسادهم لجوارح

الطير وقيظ البيداء .

كان النبط تجارا فكانوا أهل دهاء ، فلما قضوا على جنود أثينيوس كانوا على ثقة من أنه ما تحرك إلا بأمر أنطيغونس ، ولكن السياسة الرشيدة أملت عليهم أن يشكوا إلى أنطيغونس ما فعله بهم صديقه كأن الأمر لم يكن بأمره ومن تدبيره .

وخرج رسل النبط من البتراء يحملون رسالة من ملكهم إلى أنطيغونس كتبت بالأبجدية السريانية ، أبجدية التجارة والمكاتبات بين ملوك المنطقة ، لاموا فيها غدر أثينيوس بهم واعتذروا فيها عما بدر منهم ، وقد حمَّلوا صاحبه وزر صنعه .

وفى قصر الملك فى أنطاكية قابل أنطيغونس رسل النبط وأكرم وفادتهم وقال :

ــ إن ما حدث لم يكن بعلمى ورضاى ، عمل أثينيوس برأيه فخالف أمرى وإنى أحمله وزر ما فعل ، وأرجو أن ننسى ما حدث وأن تسود بيننا العلاقات الطيبة .

ولم يكن أنطيغونس صادقا فى التعبير عن حقيقة مشاعره فقد كان يمقت أن تتاخم حدود مملكته دولة قوية لها مطامع وأحلام ، وكان يريد أن يحذرهم إلى حين حتى يرى أمره .

وحان الحين الذى رأى أنطيغونس أنه أنسب وقت لتسديد طعنة نجلاء إلى قلب النبط ، فاستدعى ابنه ديمتريوس وأمده بقوة قوامها أربعة آلاف مسلح من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وأمره أن ينطلق ليجهز على النبط ويريحه من هؤلاء العرب الذين يزاحمون النفوذ الإغريقى فى المنطقة .

وسمع النبط بخروج حملة ديمتريوس فوضعوا أموالهم فى حصون يصعب

الوصول إليها ووضعوا عليها حراسة كافية ، وسلكوا دروبا تفضى بهم إلى الصحراء إلى حيث آبارهم السرية حيث يشربون ولا يشرب من يقتفى أثرهم .

وبلغ ديمتريوس « الصخرة » فصدم بأن النبط خرجوا وحملوا معهم كل غال ونفيس وأغلقوا الحصون على ما لم يحملوه معهم ، فاشتد حنقه وشن هجوما قاسيا على « الصخرة » لينفس عن الغضب الذى يوغر صدره ، ولكن هجماته تكسرت تكسر الموج على الشاطئ قبل أن تجد لها منفذا فى صفوف العرب البواسل الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم دفاع الليوث الكواسر .

وغضب ديمتريوس غضب الخيل على اللجم ، فراح يصرخ فى جنوده ويأمرهم بتشديد الهجوم ، ولكن جنود الإغريق عجزوا عن فتح ثغرة فى صفوف الذين يقاتلون صفا كأنهم بنيان مرصوص .

وأخيرا رأى المدافعون أن يبعثوا لديمتريوس ببعض الهدايا إرضاء لغروره حتى يرجع عن ذلك الإصرار العنيد فى قتاله ففعلوا ، وتقبل ديمتريوس الهدايا ورفع الحصار عن « الصخرة » وهو يكاد ينفجر من الغيظ ، بعد أن امتنعت عليه المدينة وعاد إلى أبيه أنطيغونس يجر أذيال الخيبة .

١٤

نشبت العداوة بين خلفاء الإسكندر وبين العرب ، فإن بعث أنطيغونس خليفة الإسكندر على سورية بحملة إلى « الصخرة » ليقضى على نفوذ النبط الذى كان خطرا على ملكه ، فقد ضاق البطالسة خلفاء الإسكندر على مصر بنفوذ العرب التجارى فى البر والبحر .

وأخذت قبائل العدنانيين تنتشر من تهامة على ساحل البحر الأحمر إلى بادية الشام وبادية العراق ، وراحت تمد ممالك بنى إسماعيل بدم فتى جديد ، فقد خرج أبناء معد من نزاريين وقضاعيين وإياديين ومضريين من مكة ليلحقوا بالنبط فى البتراء وطور سيناء ودومة الجندل والحيرة ، وليتفسحوا على الخليج الفارسى فى عمان والبحرين والأحساء .

كانت أساطيل النبط تجوب البحر الأحمر تنقل التوابل والبخور من بلاد بونت إلى مصر وإلى ميناء النبط ومنه إلى البتراء . ولقد كانت البتراء ملتقى أهم الطرق البرية فى المنطقة ، إليها يصل طريق اليمن والعربية الجنوبية الموازى للبحر الأحمر . ومنها يتفرع الطريق إلى مصر والشام وغزة والمدن الفينيقية على البحر المتوسط ، ويخرج منها طريق آخر إلى الخليج الفارسى ، فكانت فى يد النبط تجارة الهند وما وراء الهند وحاصلات إيران والعربية الشرقية ، بل وتجارة الشام ومصر .

أنشأ البشر تلك الطريق لنقل خيرات شعوب إلى شعوب أخرى لرفاهية الإنسانية ، ولكن تلك الطرق يسرت نقل الجيوش فاستغلها الطامعون فى

بسط سلطانهم على جيرانهم وسلب ما من الله عليهم من خيرات . فراحت جيوش الآشوريين والبابليين والمصريين والإغريق والعرب تنطلق فى تلك الدروب بحثا عن الصيد البشرى ومجد الملوك ونهب ما فى خزائن الدول !

وكان اليمنيون بحارة مهرة شاركوا النبط فى نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، فعرف ذلك البحر فى تلك الحقبة ببحر العرب وخليج العرب . ولا غرو فقد كانت سفن عرب الشمال وعرب الجنوب فى غدو ورواح بين موانيه تنقل السلع وحضارات الشعوب المسيطرة على مصائر المنطقة .

وورثت البتراء ما فى صحف إبراهيم من حكمة وما فى حضارة الفراعين من ثقافة وعلوم البابليين وفلسفة أفلاطون وأرسطو ، فأخذت اللغة العربية تتطور وتزدهر وترتقى لتليق بأن تصبح لغه القرآن .

وكان النبط قد جمعوا من التجارة ثروة عظيمة جعلت ملوك الإغريق فى الشام ومصر وفارس من سلوقيين وبطالسة وأشكانيين يطمعون فى بلادهم ، فاضطروا إلى تكوين جيش قوى لحماية القوافل التى كانت تسرى كالشرايين فى ممالك الشرق الأوسط التى كانت تحت حكم خلفاء الإسكندر .

وبدأت سفن البطالسة تزاحم سفن النبط فى بحر العرب لما قرر بطليموس الثانى أن تحمل تجارة مصر على سفن مصرية ، وكان جل من يعمل بها من اليونانيين الذين جاءوا إلى مصر فى أثر الغزو الإفريقى ، واشتدت المنافسة بين أساطيل البطالسة وأساطيل العرب من نبط ويمن . وأدت المنافسة إلى الاحتكاك بين الطرفين ، ومن ثم إلى هجوم من العرب على سفن البطالسة التى جاءت تنتزع منهم مناطق نفوذهم .

واضطر بطليموس الثانى إلى إنشاء قوة بحرية لحماية سفنه التجارية ، وقد نشبت معارك بين تلك القوة وقوات العرب البحرية للسيطرة على تجارة

المناطق الحارة والتوابل والبخور . وقد شارك العدنانيون من نزاريين وقضاعيين وإياديين ومضريين إخوانهم النبط فى تلك المعارك ، وكانت قلوبهم وعواطفهم معهم فقد كانوا على يقين من أن الكساد سيسود جزيرة العرب شمالها وجنوبها وشرقها وغربها لو نجح البطالسة فى السيطرة على تجارة بحر العرب .

ودارت معارك قاسية بين سفن العرب والسفن الإغريقية. وظهرت القوة البحرية الإغريقية التى كانت تحرس سفن مصر التجارية وأنزلت بسفن العرب خسائر فادحة، فانكمش العرب يرصدون الأحداث ويرقبون فرصتهم.

وانشغل بطليموس الثانى بمحاربة سلوقيى سورية ، فقد كان يطمع فى أن يوحد مصر وسورية تحت رايته ، فانتهز العرب هذه السانحة ووثب بحارتهم على سفن البطالسة مرة أخرى ولكنهم عجزوا عن أن يقضوا عليها ، فقد نجح البطالسة فى تطوير سفنهم وفى حمايتها بأساطيل حربية ، فصارت لهم السيادة فى البحر الأحمر .

وابتنى بطليموس فيلادلفوس مدينة برنيس على خليج العقبة لحماية التجارة والسفن ، وراح البطالسة يضعون الحاميات اليونانية فى جزيرة العرب على طول ساحل البحر الأحمر ، ليسيطر اليونان على البحر والطريق البرى .

وأصيبت التجارة العربية بضربة قاصمة بعد أن نافس البطالسة العرب فى تجارة مصر والشام وإفريقية والهند ، وشاركوا تجارة الجزيرة العربية فى الأرباح الطائلة التى كانت تحمل إلى البتراء ويثرب ومكة ومأرب ومدن القوافل فى العربية السعيدة وفى اليمن .

كان تجار العرب وحدهم فى الميدان قبل أن يذوقوا مرارة منافسة البطالسة ، فكانوا يفرضون ما يشاءون من أسعار ويحصلون على ما يريدون ،

ما دام لم يكن لهم منافس فى الأسواق التى كانوا يحتكرون تجارتها ، أما وقد قام البطالسة فى منافستهم فى تلك الأسواق فقد انهارت الأسعار وانكمشت الأرباح ، لما حدد سلوقيو الشام وبطالسة مصر أسعار السلع التى يجلبها العرب وفرضوا عليها ضرائب باهظة لمصلحة خزائنهم ، وبذلك تحكموا فى أسعار التجارة العالمية وحرموا تجار الجزيرة العربية وسادتها من ملوك تجار وأسر أرستقراطية ربحا كان عظيما ، وقطعوا سبيل تدفق الذهب والفضة إلى الخزائن التى كانت عامرة بالعملات اليونانية والمصرية والفارسية والهندية .

ونزل الضيق بالناس ففزعوا إلى آلهتهم يتضرعون إليها أن ترفع عنهم تلك الغمة ، فانطلق أهل البتراء إلى معبد ذى الشرى يسوقون الذبائح ويبتهلون إليه فى حرارة ويسألونه فى رجاء أن يبدل عسرهم يسرا ، وراحوا يطوفون على معابد العزى ورب البيت واللات ومنوتن والآلهة الأخرى يذبحون الذبائح ويحرقون البخور ويستغرقون فى الصلوات والابتهالات لعل الأرباب ترضى .

وراح الرجال والنساء فى ثمود يقدمون الولاء والخضوع لهبل العظيم ومناف واللات ولبنات الإلٰه ويلتمسون منهن الشفاعة ويذبحون الذبائح ويعفرون الجباه بالسجود ، فقد كانوا يطمعون فيما عند الآلهة من خيرات وفى أن يعود إليهم ما كانوا فيه من نعيم .

وغصت معابد البتراء ومدائن صالح ويثرب ونجران ومأرب وصنعاء بالطائفين بأصنام الآلهة ، وشقت الدعوات أجواز الفضاء ، وارتفع البخور يعرج إلى السماء تقربا وزلفى لعل الآلهة ترضى فتمتع عبادها متاعا حسنا ، ويعود تدفق الذهب والفضة إلى الخزائن التى أوشكت أن تنضب من الأموال .

وطاف أهل مكة بالبيت العتيق وكان جوهر الدين الخالد الذى جاء به

إبراهيم لايزال نقيا ، فراحوا يدعون الله دون أن يشركوا به أحدا ، ووقفوا أمام باب الكعبة يسألونه أن يرزقهم من السماء ومن الأرض وأن يكشف ما بهم من ضر وأن يهديهم سواء السبيل .

كان أهل مكة يجدون فى رحاب بيت الله الأمن والملاذ من عاصفة الفراغ السياسى ، وكانوا يرون مولد الحضارات من حولهم وفناءها دون أن يخشوا أن يأتى يوم يرون فيه خسوف حضارتهم ، فقد كانوا فى قرارة نفوسهم مؤمنين بأن حضارتهم خالدة ما داموا يعتقدون فى خلود الروح والحياة الأخرى .

قال نساك مضر وصالحو إياد إن النبط والثموديين واليمنيين باءوا بغضب من الله لأنهم جعلوا لله شركاء ، إن الله برىء من المشركين .

١٥

. نقل اليونانيون إلى أثينا آلهة الشعوب التى تعيش إلى جوارها لتصبح آلهة إغريقية فى جبل الأوليمب . فاستوردوا من مصر أزريس ليصبح الإلـٰه للإغريقى ديونيسيس ، وإيزيس لتصبح أفروديت ، وجلبوا من سورية الإلـٰهة عنت لتصير أنارجانيس ، ومزجوا بين أهورا مزدا إلـٰه الفرس وآمون إلـٰه الهواء والباطن وجعلوهما زيوس ، وأخذوا عشتار البابلية إلـٰهة الشهوة والزواج والحب وجعلوها فينوس .

واعتقد اليونانيون أن آلهتهم على هيئتهم البشرية فراحوا ينحتون تماثيل للآلهة فى صور رجال ونساء ، وأقاموا بين هؤلاء الآلهة وبين القدر حروبا يشيب من هولها الوليد ، وامتزج الدين بالفن ، وسخر الفن كما سخر فى مصر الفرعونية لخدمة الآلهة .

وجاء عصر الفلاسفة اليونانيين فنشب الصراع بين الفلسفة والدين ، وعلى الرغم من أن بلاد اليونان كانت تبدو فى قمة مجدها فقد كان ذلك الصراع هو الخنجر الذى انتحرت به من قبل أن تتحرك روما لغزوها وضمها إلى ممتلكاتها .

وفى ذلك الوقت الى اشتدت فيه الحرب بين الدين والفلسفة فى اليونان كانت تتكون فى إيطاليا دولة رومانية متدينة تعيش بالدين وللدين ؛ فقد كان الطفل الرومانى يشب فى عالم تخفق فى جنباته الروح ، فهو يلقن منذ نعومة أظفاره أن نار الموقد التى لا تخمد ليست إلا رمز الإلـٰهة فستا ومادتها ،

وأنها هى الشعلة المقدسة التى ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها . وأن الإلٰه يانوس يحوم حول وصيد الباب وإن كانت الأعين لا تراه ، وهو ذو وجهين يرقب الداخلين من كل باب والخارجين منه ، وأن الأب رب والأم رب من الأرباب .

وإذا ما شب الطفل الرومانى تعلم أن « كوبا » تحرسه وهو نائم و « إيبونا » تهديه سواء السبيل ، و « فيبلينا » تعلمه الكلام ؛ وأن الأرض إلٰهة وأن للبساتين إلٰها وللماشية إلٰها وللزرع إلٰها ، وكان الكهنة يخرجون فى شهر مايو من كل عام فى موكب غنائى إلى المزارع يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحى ، ويبتهلون إلى الأرض ويدعونها أن تخرج الفاكهة الموفورة .

كان الرومانيون يعيشون فى دنيا تموج بالآلهة و لم يعرفوا الله الواحد القهار ، وكان الشرك بالله طابع ذلك العصر ، ففى أرض النبط فى بلاد أحفاد إسماعيل ورثة التوحيد أشركوا بالله آلهة استوردوها من مصر وثمود وبابل وسورية ، فعبد ذو الشرى واللات وهبل ومنوتن والعزى ورب البيت مع الله الأحد .

وفسد الدين اليهودى فى أورشليم ، فقد أشرك بنو إسرائيل بالله وعبدوا بعلا والعجل وآلهة الوثنيين ، وفسد دين زرادشت فى فارس فقد فعل الفرس بالأوستا كتاب زرادشت المقدس ما فعله اليهود بتوراة الله ، فأصبح هناك اختلاف بيّن بين الأوستا القديمة والأوستا الجديدة ، فقد عادت آلهة الفرس الشعبية لتظهر مرة أخرى فى دين التوحيد لتشوب نصاعته ، ولترتد به إلى الشرك البغيض .

وشارك ميثرا إلٰه الفرس القديم أهورا مزدا الإلٰه الحكيم فى العبادة ،

ووضعت أدعية لميثرا رب الميثاق ورب النور ، وظهرت مرة أخرى أتاهيتا إلـٰهة الماء والخصب ، وتعددت الآلهة فصار للفرس آلهة للنصر وآلهة للنار ، وآلهة لحماية الملوك .

وانتشر الشرك بالله فى روما وأثينا ومنف وأورشليم والبتراء ودمشق وبابل ونينوى واصطخر ، وأما فى مكة فقد ظل جوهر الدين نقيا وبقيت عبادة الله وحده منذ أن بذر إبراهيم الخليل بذرة التوحيد فى المجتمع الذى تكون حول بئر زمزم ، وبقيت الحفنة المؤمنة من بنى إسماعيل التى لاذت بالبيت على دين الآباء لم تشرك بالله . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

كل ما كان فى مكة من نزاع كان حول ولاية بيت الله وقد قامت المنافسة حول هذا الشرف العظيم بين بنى إياد وبنى مضر ، فإن كان إلياس بن مضر قد زهد فى زخرف الدنيا وأعرض عن إغراء المنصب وأسلم وجهه لله وأخذ يحجز الإياديين والمضريين عن أن يمتشقوا الحسام فى سبيل ذلك الشرف ، ويؤلف بين قلوب الإياديين والقضاعيين والمضريين ، وإن كان مدركة بن إلياس قد سار فى نفس السبيل الذى اختاره أبوه وأسلس القياد لوكيع ، وإن كانت أيام خزيمة قد انقضت فى سلام ، فإن أسد بن خزيمة بن مدركة طمع فى ولاية البيت ، ولم يجد غضاضة فى امتشاق الحسام لانتزاع ذلك الشرف للمضريين .

كان كنانة بن خزيمة وإخوته أسد بن خزيمة وأسدة بن خزيمة والهون بن خزيمة أشراف مضر وساداتها ، وقد كثرت مضر حتى صارت شعبا تملأ مواشيه بطاح مكة وتجوب قوافله الآفاق ثم تعود إلى الحرم تحمل الغنى والأرزاق .

وكان خزيمة يخرج على رأس قوافل مضر ، وكانت الصلة بينه وبين النبط وثيقة ، فما نسى أبناء عدنان يوما أنهم من النبط بل من أشرافهم وساداتهم ، وبقيت وشائج القربى متصلة بين أبناء عدنان وملوك البتراء . وكانت القوافل فى غدو ورواح بين مكة والبتراء تحمل البخور والتوابل ، وتخرج قوافل مكة مع قوافل النبط إلى بصرى ودمشق وتدمر وبابل وبلاد الفرس ووادى النيل ، وقد استخدم المكيون العملة التى ضربها ملوك النبط وكانت كعملة اليونان والرومان والفراعنة وملوك بابل والفرس سواء بسواء .

ومات خزيمة ونهض كنانة بن خزيمة بتجارة المضريين ، فكان يخرج على رأس القوافل ويرى معابد الشرك فى البتراء وفى بصرى ودمشق وأورشليم ، فكان يحمد الله أن ظل جوهر دين إبراهيم نقيا . فقد تألق الإسلام حول البيت المحرم بينا تداعى فى أرض النبط أرض يهوذا وإسرائيل ودمشق ، فقد كان الإسلام ملة إبراهيم بعيدا عن أهواء النظم السياسية التى تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافى مبادئها .

وكان بقاء جوهر دين إبراهيم نقيا فى مكة انتصارا روحيا للعقيدة السمحة ، فقد حلت الكوارث بديانات الأقوام التى سعت إلى تحقيق غايات سياسية على حساب الدين من نبط ويهود وآراميين وفرس .

واستقر أسد بن خزيمة فى مكة يرقب أحداثها ويعبئ المضريين للحدث الكبير ، فقد كان يرى الوهن يدب فى الإياديين وقد تفشت المظالم فيهم ، فراح يناوشهم ويزلزل حكمهم ويرصد الفرصة المواتية ليقضى على سلطانهم . وسرعان ما واتته فرصة ، فقد خرج رجل من إياد ورجل من مضر يصيدان فمرت بهما أرنب ، فاكتنفا بها يرميانها ، فرماها الإيادى فزل سهمه فنظم قلب المضرى فقتله .

وبلغ الخبر المضريين فخرجوا إلى الإياديين ثائرين يطلبون دم صاحبهم ، قال الإياديون :

ــ وإنما أخطأه .

وارتفعت أصوات الاستنكار وأبى المضريون أن يصدقوا أنه أخطأ صاحبهم وهموا بقتله ، فهب الإياديون للدفاع عن صاحبهم . وتناوش القوم وسرعان ما انقلب الأمر إلى مجالدة بين المضريين والإياديين. واشتد القتال فظهر المضريون على أبناء عمومتهم ، وقال المضريون :

ــ اخرجوا من الحرم .

ــ أجِّلُونا ثلاثا فلن نغصبكم أرضكم .

وبعد ثلاثة أيام خرج رجال إياد ونساؤها من الحرم وانطلقوا ليلحقوا ببنى إسماعيل فى أرض النبط وفى العراق ، فقد كانت الحيرة ترحب بالعرب الوافدين إليها لتشد بهم أزرها وتوطد أركان ملكها .

وصار أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس خازن الكعبة وسيد أشراف مكة ، وصار أخوه كنانة بن خزيمة أمين قوافل مضر التى تجوب مشارق الأرض ومغاربها . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

قل اللهم مالك المُلك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

١٦

كانت المدينة البيضاء تموج بالناس وبالقوافل التى تغدو وتروح بينها وبين البتراء ، فقد كانت المدينة البيضاء ميناء النبط ، فكانت السفن الراسية عند شواطئها المطلة على البحر الأحمر تفرغ بضائع مصر وتحمل التوابل والبخور الآتية من بلاد بونت وخيرات الشام والعراق وفارس والهند ، فقد كانت أهم الموانى التجارية على ساحل الحجاز .

كانت القوافل صاعدة هابطة بين البتراء وميناء المدينة البيضاء ، وكانت كثيفة كأنها قطع من الجيوش تقوم بنقل السلع والأموال . وكانت السفن تمخر عباب البحر الأحمر ثم تنساب فى القناة المحفورة بين البحر ونهر النيل لتتخذ طريقها إلى موانى البحر الأبيض ، بينما كانت القوافل تمخر عباب الصحراء ثم تنطلق إلى البتراء لتتدفق منها السلع إلى ما حولها من أسواق تدفق الدم من القلب إلى الشرايين .

وكان هرثمة الأول ملك النبط يستقبل وفود الدول المجاورة فى قصره ، وكان قصرا فخما نحت فى الجبال يطل على وادى العربة وجبل هارون ، وكانت غاية آمال هرثمة أن يعيش شعبه فى سلام ، فهم قوم يمارسون التجارةواستتباب الأمور فى المنطقة يحقق لهم الاستقرار الذى تزدهر فيه تجارتهم ، أما الاضطرابات والمناوشات والحروب فتعود عليهم بالخسران والشر الطويل .

ولم يتحقق حلم هرثمة الأول ، فما عرفت المنطقة الهدوء مذ ناصب البطالمة فى مصر وخلفاء الإسكندر فى سورية النبط العداء . وقد أثر ذلك العداء على العرب جميعا عرب الشمال وعرب الجنوب على السواء ، ضاق به ملوك النبط وولاة البيت بمكة وملوك اليمن وشيوخ العرب المنتشرون فى الجزيرة فى كل مكان ، فقد كان كساد البتراء ينعكس على يثرب ومكة

ومأرب وصرواح وصنعاء وكل مدن القوافل ، وكان ازدهار التجارة فيها يجعل مدن الجزيرة جميعا تزدهر ازدهار الصحراء بالنوار .

وراح هرثمة الأول يتلفت حوله ويزن الدول بعقليته التجارية الحاسبة ، فوجد أن دولة فتية تتكون فى روما ، دولة ترى أن من الخطر أن تترك الحضارة تبتعد كثيرا عن الوحشية ، فكان رجالها يتبارون فى رمى القرص والحربة والقفز من فوق الأعمدة والسباق والمصارعة والملاكمة والمجالدة ورفع الأثقال والرقص ، دولة تهتم بجيشها وتقسمه إلى فرق المشاة الثقيلة وتسلح كل جندى فيها بحربتين وخنجر وسيف وتلبسه خوذة من البرونز ودرعا من الزرد ، وإلى فرسان مزودين بالرماح والسيوف . وإن دولة حربية هذا شأنها لن تقنع بأن تقبع داخل حدودها .

كانت الإمبراطورية الرومانية آخذة فى النمو ، فقد انتصرت أخيرا على هانيبال القائد العربى الذى خرج من قرطاجنة ليستولى على إيطاليا ، وهزمت ذلك الجبار الذى اجتاز جبال الألب ، وانطلق يخضع المدن الإيطالية ، ولكن لا تمنح الآلهة كل مواهبها لرجل واحد ، فقد كان هانيبال يعرف كيف ينال النصر ولا يعرف كيف ينتفع به .

فطن هرثمة الأول إلى أن الرومان الذين استعادوا أسبانيا من القرطاجنيين العرب هم الشمس التى ستشرق على العالم ، وأن شمس الإغريق أوشكت على الزوال ، فأسرع بالتحالف مع روما وقد شجعه على ذلك أن حكام الإغريق من بطالسة وسلوقيين أظهروا العداء للعرب نبطيين ويمنيين على السواء .

وكانت علاقة النبط بالمكابيين اليهود فى فلسطين طيبة ، بل كانت علاقتهم باليهود منذ أن فروا من اضطهاد بختنصر إلى جزيرة العرب علاقة حسنة ، وقد تأثر هؤلاء اليهود بعادات العرب وتقاليدهم حتى بدوا كأنهم كانوا بطنا من

بطونهم .

وكان بنو إسرائيل منذ أن أعادهم قورش من أرض السبى إلى فلسطين فى شقاق شديد ، فقد قام النزاع بين العائدين من أرض السبى وفى جعبتهم أساطير البابليين وثقافتهم وبين من ظلوا فى فلسطين لم يبرحوا الأرض المقدسة ،وتجدد ذلك النزاع يوم أن عاد العزير إلى أورشليم فى ألف وخمسمائة ممن كانوا فى المنفىّ وفى يمينه التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى أرض السبى .

لم تعرف فلسطين الاستقرار يوما منذ أن أعاد قورش أسرى بنى إسرائيل إلى أورشليم ، فقد تجدد النزاع القديم بين إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب ، ونشب نزاع بين الوافدين بتوراة جديدة كتبت فى المنفى وبين من استقروا إلى جوار أطلال الهيكل يذرفون الدموع على المجد القديم .

وكان المكابيون قد انقسموا إلى ثلاث فرق : فرقة الفقهاء وأهل القياس وهم الربانيون وكانوا يسمون الفريسيين ، وفرقة الظاهرية المتعلقين بظواهر الألفاظ من التوراة وهم القراءون وكانوا يسمون الصدوقيين ، وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة والتسبيح والزهاد وكانوا يسمون الحيسديم .

واشتد الجدل بين أحبار اليهود وكهانهم يوم أن اختار بطليموس الثانى سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم واستضافهم فى مصر ووكل إليهم ترجمة كتب اليهود الأربعة والعشرين سفرا فى من العبرية إلى اليونانية ، فنشأت التوراة السبعينية ، وازداد اليهود فرقة على فرقة وبدا أن إسرائيل كانت تنتحر بيدها قبل أن يقضى عليها وافد خارجى .

عاد الأحبار السبعون من مصر إلى أورشليم يحملون مائدة من الذهب نقشت عليها صورة أرض مصر والنيل وقد رسمها بطليموس بالجواهر والفصوص لتوضع فى الهيكل ، وبعث معهم من كان بمصر من سبى اليهود

وكانوا نحو من مائة ألف ، فقام نزاع بين الوافدين من أرض مصر وسكان بيت المقدس ، ودب الشقاق بين الشباب والشباب ، وبين الفقهاء وأهل القياس وفرق الظاهرية وبين الأحبار السبعين الذين قاموا بترجمة توراة اليهود إلى اليونانية . بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وقام فى يهوذا نزاع على منصب الكاهن الأعظم بين ياسون وأخيه أونياس . وعلى الرغم من أن اليهود كانوا يعتقدون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم لا يرتقون إلى درجة بنى إسرائيل ، فقد كانوا يلوذون بالنبط ويلتمسون عونهم .

كان ياسون من المعجبين بالثقافة اليونانية والمتأثرين بها ، فكان لذلك يعارض التحالف مع روما الدولة الفتية التى تطمع فى أن تبسط سلطانها على الأرض وتنزع من اليونان مجدها ، وكان يعلم أن الحارث الأول يمقت الإغريق واليونان فقد حاولوا مرارا أن يسترقوا بلاده وأن يسبوا نساء شعبه وأطفالهم وأنه من أنصار التحالف مع الرومان . وعلى الرغم من ذلك فر ياسون إلى البتراء لما انتصر عليه أخوه أونياس .

ولم يرحب هرثمة الأول بياسون ولم يدعه يستقر بأرضة بل طرده شر طردة ، فراح يفر من مدينة إلى مدينة والجميع ينبذونه ويبغضونه بغض من ارتد عن الشريعة ويمقتونه مقت من خان أهله ، واستمر فى فراره حتى ارتد إلى مصر مذموما مدحورا .

وانتقل أمر اليهود إلى يهوذا المكابى ، ولم يكن من المعجبين باليونان فثار عليها وأيده هرثمة الأول فى ثورته ، فقد كان أمل هرثمة أن يتقلص ظل اليونان عن بلاد العرب بعد أن انتشرت الجاليات اليونانية هنا وهناك على شاطئ البحر

الأحمر وفى فلسطين وسورية ، وقد كانت تلك الجاليات تنافس النبط منافسة شديدة فى التجارة وتزاحمهم السلطان فى المنطقة .

ودخل يهوذا القدس فهدم كل ما بناه أنطيغونس من المذابح وأزال ما نصبه من الأصنام وطهر الهيكل وبنى مذبحا جديدا للقربان ، واتخذ اليهود ذلك عيدا سموه عيد العساكر .

وعاد أنطيغونس الثانى يتطلع إلى إخضاع فلسطين فبعث جيشا لتأديب يهوذا المكابى والاستيلاء على إسرائيل ، فخرج يهوذا للقتال وقد خلف وراءه مبغضيه فما اتحدت كلمة اليهود يوما ، وانتهز شملاوش عدو يهوذا اللدود الفرصة فسار إلى أنطيغونس وراح يكشف له مواضع الضعف فى جيش اليهود .

ودار قتال مرير بين أنصار يهوذا المكابى وبين اليونانيين الذين أسسوا ملكهم فى أنطاكية . ولما كان لشملاوش أنصار فى أرض يهوذا فقد خذل هؤلاء الأنصار يهوذا المكابى ، وظهر جيش اليونان على عدوهم فقتل كثير من اليهود ، ولاذ يهوذا المكابى ويوناثان أخوه بأذيال الفرار وعبرا نهر الأردن وسارا ثلاثة أيام فى الصحراء حتى التقيا بالنبط فقابلوهما بالترحاب ، وراح يهوذا ويوناثان يقصان على النبط ما أصاب اليهود فى أرض جلعاد من أهوال .

كان النبط فى وئام مع المكابيين فى حين لم يكن إخوانهم العرب فى كل مكان على وفاق معهم ، فما كانوا يأمنون جانبهم بل كانوا يخشون غدرهم ، فكانوا يحاربون يهوذا المكابى والذين معه ليستأصلوا شوكتهم قبل أن يغدروا بهم .

وكان العرب يعجبون من غفلة هرثمة الأول ملك إخوانهم النبط

ويتساءلون فى دهش : كيف يبدى الود للمكابيين ويركن إليهم ، بينما كان كل من له عينان فى المنطقة يرى أن المكابيين يطمعون فى دولته ويرصدون الأحداث ليثبوا وثبتهم إذا ما أسلست الأمور لهم قيادها .

وفى ذلك الوقت الذى كثرت فيه الفتن وشبت المنازعـات وسادت الفوضى سورية وفلسطين وأسالت الأطماع لعاب الشعوب ليأكل بعضها بعضا ، خرجت الفيالق الرومانية من حدود بلادها لتنتشر فى الأرض وليرفرف النسر الرومانى على الشرق والغرب .

١٧

انقسمت إسرائيل بعد موت سليمان إلى إسرائيل واليهودية ونشبت العداوة بين الشمال والجنوب منذ ذلك الوقت ، ثم عادت وانقسمت إلى فريسيين وصدوقيين وحيسيديم وتفرقت أحزابا وشيعا وقام التنافس بين الإخوة على منصب الكاهن الأعظم ، فشبت المعارك بين اليهود واليهود . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .

وراحت إسرائيل تنتحر بأيدى أبنائها ، فالشقاق بين الأحزاب قد أنهك قواها وأدمى فؤادها ، إنها لا تواجه الموت على يد قاتل فما تحرك أحد بعد من خارج حدودها ليكتم أنفاسها ، بل كانت تقضى على حياتها بأيديها .

وقتلت قبيلة عربية يوحنا المكابى ، فقد كان العرب يخشون غدر اليهود ويعجبون لسذاجة ملوك النبط الذين كانوا يعاونون المكابيين على توطيد سلطانهم فى فلسطين ، وقد تولى أمر اليهود من بعده أخوه يوناثان فبعث إلى هرثمة الثانى ملك النبط ليطلب منه الحماية والتأييد .

وهلك يوناثان أخو يهوذا المكابى فقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون ، فاجتمع إليه اليهود من كل ناحية وعظمت عساكره وتأهب ليصد هجوم الرومان الذين استولوا على أنطاكية إذا ما فكروا فى الزحف إلى الجنوب ليضعوا أيديهم على بيت المقدس ، ولكن الطعنة لم تأت من الخارج بل جاءت من الداخل .

وثب عليه صهره زوج أخته فقتله وقضى على بنيه وامرأته ، وهرب ابنه

الأكبر هركانوس بن شمعون إلى غزة فامتنع بها ، وجاء إليه المكابيون ونادوا به ملكا على إسرائيل ، وسار هركانوس بن شمعون على رأس جيشه حتى دخل أورشليم .

وبعث هركانوس رسله إلى روما فاجتمعوا بمجلس شيوخها وأبرموا معاهدة صداقة بين إسرائيل والرومان المتطلعين إلى السيطرة على العالم ، وقد أنعمت روما على هركانوس بلقب ملك اليهود بعد أن كان من سلف قبله من آبائه يسمى بالكوهن .

كان هركانوس وآباؤه من الفريسيين الربانيين أهل القياس ، فجمع قومه ذات يوم وقال لهم :

ــ أريد منكم النصيحة .

فطمع بعض الربانيين فيه وقال :

ــ إن النصيحة أن تنزل عن الكهنونة وتقتصر على الملك ، وقد فاتك شرطها لأن أمك كانت سبية من أيام أنطيغونس .

فغضب لذلك وقال للربانيين :

ــ قد حكمتكم فى صاحبكم .

كان ينتظر منهم أن يقتلوه بعد أن أهان جلالته على الملأ وطعن فى صلاحيته فى أن يكون الكاهن الأعظم لليهود ، ولكنهم أخذوا فى تأديبه بالضرب فحقد على الربانيين وتنمر لهم وأراد أن يباعد بينه وبينهم ،ففارق مذهبهم إلى مذهب القرائين .

ونشأت الفتنة بين هاتين الطائفتين من اليهود واتصلت بينهم الحرب ، وقتل هركانوس من الربانيين خلقا كثيرا انتقاما لكرامته التى أهدرها فريسى على أعين الناس .

دب الانحلال فى نفوس حكام اليهود فراحوا يثيرون الفتن بين الطوائف اليهودية ، وقلدوا اليونانيين فى حياتهم وتشبهوا بهم وسموا أبناءهم بأسماء قواد الإغريق .

وهلك هركانوس وملك من بعده ابنه أرستوبولوس ، وكان له أخوان هما أنطيغونس والإسكندر ، وكان أرستوبولوس يحب أخاه أنطيغونس ويبغض الإسكندر ، فقبض على الإسكندر وأمه واستخلص أنطيغونس وقدمه على العساكر واكتفى به فى الحروب .

وترفع أرستوبولوس عن تاج الكهنونة ولبس تاج الملك ، ونفست البطانة مكانة أنطيغونس عند أخيه فكثرت السعاية فيه، فلما قدم أنطيغونس من غزوة كان يغزوها وكان ذلك فى عيد المظال، وكان أخوه ملتزما بيته لمرض طرقه، فذهب إلى الهيكل للتبرك .

فجاء السعاة إلى الملك يهمسون :

ـــ إنه ما عدل عن بيتك إلى الهيكل إلا لاستمالة الكهنوتية والعامة وأنه يروم قتلك ، وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه .

ونادى أرستوبولوس خدمه وحشمه وغلمان قصره وقال لهم :

ـــ إن جاء أنطيغونس متسلحا فاقتلوه .

وجاء أنطيغونس فى سلاحه بعد أن تبرك بالهيكل ليزور أخاه ، فانقض عليه غلمان الملك وقتلوه . وبعد أن قال السيف كلمته علم أرستوبولوس أنه قد خدع فى أخيه فندم واغتم ولطم صدره حتى قذف الدم من فيه ، وأقام عليلا بعده حولا كاملا ثم هلك .

وجاء الشعب إلى حيث حبس الإسكندر وأخرجوه من محبسه ، بايعوا له بالملك ، فصار إسكندر جنيوس المكابى ملك اليهود ، وتلفت حوله فرأى أن

هرثمة الثانى ملك النبط قد هلك وتولى مكانه عبادة الأول ، وأن البطرا بن كليوباطرا ملكة مصر قد شق عصا الطاعة وثار على أمه واجتاز البحر بأعوانه ونزل قبرص . ولما كان الإسكندر جنيوس ذا أطماع واسعة فقد فكر فى أن يستغل الاضطراب السائد فى المنطقة لمصلحته .

وخرج الإسكندر بجيوشه ليغدر بالنبط حلفاء الأمس ، فلاقاه عبادة الأول وهزمه ، واضطر الإسكندر أن يفر إلى القدس . ولم يقف عبادة الأول بل راح يجد فى أثر من قلبوا ظهر المجن لحلفائهم .

وساد الاضطراب صفوف اليهود ولم يجدوا بدًا من أن يستدعوا أحد السلوقيين السوريين لحكمهم والوقوف فى وجه الجيش النبطى ، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من حدود بيت المقدس .

وحاصر النبط المدينة ونقبوا أسوارها وكادوا أن يستولوا عليها ، فلم يجد الحاكم السلوقى الذى استعان به اليهود بدا من مصالحتهم ، وقد صالحهم على أن يتنازل لهم عن مؤاب وجلعاد ، ولم تعرف القدس الاستقرار حتى بعد أن رفع النبط عنها الحصار ، فقد جاء عيد المظال واجتمع الناس بالمسجد وحضر الإسكندر معهم ، فتلاعبوا بين يديه مراماة بما عندهم من مشموم ومأكول ، وأصاب الإسكندر رمية من الطعام رماها أحد الفريسيين ، فغضب لها وشتم الصدوقيون الفريسيين وشُتم الإسكندر ، ونشب القتال بين الربانيين والقرائين وسالت الدماء أنهارا .

وأمر الإسكندر بأن يبنى حائط يفصل المذبح والكهنة عن الناس ، واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين قتل فيها من الربانيين نحو من خمسين ألفا والإسكندر يعين القرائين عليهم .

ومات عبادة الأول ملك النبط وتولى الملك من بعده هرثمة الثالث ، فوجد

أن السوس قد نخر فى ملك السلوقيين ، وأنه إذا وثب على دمشق فسيطعنهم طعنة فى الصميم ويرث سلطانهم .

وخرج هرثمة الثالث فى جيوشه وقابل جيوش السلوقيين وهزمهم ، ثم اتخذ طريقه إلى دمشق وما لبثت العاصمة أن وقعت فى أيدى النبط أحفاد نابت ابن إسماعيل ، وبذلك أصبحت هذه الدولة العربية محيطة بالأرض التى كان يسكنها المكابيون اليهود من جميع الجهات .

وأحس الإسكندر جنيوس أنه أصبح فى قبضة النبط فخرج بجيوشه للقائهم ، وعند الحدثية على مقربة من اللد التقى جيش النبط بجيش اليهود ودارت معركة انتهت بانتصار هرثمة الثالث والقضاء على جيش اليهود .

وأصيب الإسكندر إصابة قاتلة فاستدعى امرأته الإسكندرة وأوصاها بكتمان موته وأن تسير بشلوه إلى القدس فتدفنه فيه ، وتصانع الربانيين على ولدها فتملكه ، لأن العامة إليهم أميل .

ودفنت الإسكندرة زوجها فى القدس واستدعت من كان نافرا من الربانيين وجمعتهم وقدمتهم للشورى واستبدت بالملك .

وكان لها ابنان من الإسكندر اسم الأكبر منهما هركانوس والآخر ألاستوبولوس ، وكانا صغيرين عند موت أبيهما فلما كبرا عينت هركانوس للكهنونة وقدمت أرستوبولوس على العساكر والحروب وضمت إليه الربانيين ، وقد سألها الربانيون فى الأخذ بثأرهم من القرائين فيمن قتله الإسكندر منهم برأيهم فأذنت لهم فى ذلك ، فقتلوا من القرائين خلقا كثيرا ، وجاء القراءون إلى ابنها الكهنوت ينكرون ذلك وقالوا لهركانوس :

— إن أخاك أرستوبولوس أطلق يد الربانيين فينا وقد كنا شيعا لأبيه ، وإنه بفعله ذلك قد وسع هوة الخلاف بيننا وبين الربانيين ، فالتمس لنا من

الإسكندرة إذنها فى الخروج من القدس والبعد عن الربانيين .

فأذنت لهم الإسكندرة رغبة فى انقطاع الفتنة ، وخرج مع الصدوقين وجوه العسكر ، وسرعان ما لفظت الإسكندرة أنفاسها .

وكان أنتيباطر أبو هيرود صديقا لهركانوس ، وكان من عظماء بنى إسرائيل من الذين عادوا مع العزير من بابل ، وكان ذا شجاعة وبأس وله يسار يقتنى الضياع والمواشى ، وقد تزوج من النبط فكان له من زوجته النبطية أربعة من الأبناء وهم فزائيل وهيرود وفرواوس ويوسف وبنت اسمها سالومى .

ولما شعر أرستوبولوس قائد العسكر بموت أمه الإسكندرة فكر فى أن يقتل أنتيباطر ليتخلص من مكره وليهيض جناح أخيه ولكن أنتيباطر أحس بالخطر فراغ من الشرك الذى نصبه له أرستوبولوس .

وضرب أرستوبولوس البوق إعلانا للحرب ، وزحف لحرب أخيه هركانوس والربانيين . والتقوا بالأردن وانهزم هركانوس والربانيون ودخلوا بيت المقدس فحاصرهم أرستوبولوس وعزم على هدم الحصن ، فخرج إليه أعيان اليهود والكهنوتية ساعين فى الصلح بينهما ، وأجاب أرستوبولوس على أن يكون ملكا ويبقى هركانوس على الكهنوتية ، فتم ذلك واستقر عليه الأمر غير أن أنتيباطر لم يرض عن ذلك ، فأخذ فى التدبير على أرستوبولوس وراح يبغض الناس فيه ويذكر لهم أن هركانوس أحق بالملك منه .

وراح يحذر هركانوس من أخيه ويوسوس له أنه يريد قتله ، ثم أشار عليه بالخروج إلى هرثمة ملك النبط من هزم السلوقيين ووضع يده على دمشق ، يستنصره على أخيه .

وانطلق هركانوس وأنتيباطر إلى البتراء وراحا يزينان لملك النبط حرب

أرستوبولوس ، فأخذ يراوغهما وأرادا أن يغرياه بالسير لقتال ملك اليهود فوعداه بالتنازل للنبط عن بعض الأرضين وعن المدن الاثنتى عشرة التى كان الإسكندر الأكبر قد استولى عليها يوم أن دخل فلسطين دخول الفاتحين .

وتزاحف النبط واليهود وفزع الكثير من عسكر أرستوبولوس إلى هركانوس ، فرجع أرستوبولوس هاربا إلى القدس فانطلق هرثمة فى أثره .

اتصلت الحرب وطال الحصار ثم سقطت القدس فى يد هرثمة ، وما كاد يستقر بها حتى كان بومبيوس القائد الرومانى قد جاء بنفسه إلى سورية للإشراف على إخضاع جميع أجزائها .

وهرع الأخوان هركانوس وأرستوبولوس إلى بمبيوس وحمل كل منهما إليه هدايا أسالت لعابه وجعلته يفكر فى أن يبعث بجيوشه إلى فلسطين ليضع يده على كنوزها . راح هركانوس يسب أخاه ويكيل له التهم ثم أخذ أرستوبولوس يسب أخاه أشنع سباب وبمبيوس يصغى إلى ضعتهما مرة ويطلق لخياله العنان يفكر فى الاستيلاء على بيت المقدس مرات .

وأرسل بمبيوس جيشا رومانيا بقيادة سكورس ليغزو فلسطين فاستولى على بعض أجزائها ، وقبل أن يجتاز حدود أرض يهوذا أرسل إلى هرثمة ملك النبط يخيره بين البقاء فى القدس والدفاع عنها وعداوة الرومان وبين تركها وترك الدفاع عنها ومصادقة القائد ، فرأى هرثمة الارتحال عنها ومصادقة الرومان .

واحتل الرومان القدس وأرض يهوذا وسائر فلسطين ، وأمر بمبيوس بإلحاقها بالمقاطعة الرومانية السورية ونصب عليها سكورس حاكما ، وانتزع من يهوذا مدنا وقرى ألحقها بهذه المقاطعة ، وأصبحت مملكة يهوذا الصغيرة فى حماية الإمبراطورية الرومانية بعد أن أخذ أرستوبولوس وأكثر أفراد أسرته أسرى وبعث بهم إلى رومة ليسيروا فى موكب الأسرى الذين جىء بهم من

الشرق يوم الاحتفال الكبير بانتصار بومبيوس العظيم .

وسار سكورس ليستولى على مملكة النبط فهب هرثمة للدفاع عن بلاده ، وقاوم مقاومة عنيفة جعلت سكورس يعقد مع هرثمة اتفاقية وافق بموجبها ملك النبط على المحافظة على الأمن وعلى التعاون مع الرومان ، وقد ضرب هرثمة وسكورس نقدا بهذه المناسبة عليه صورة رمزية تشير إلى هذا الاتفاق .

وراح العلم الرومانى ينتشر فى الأرض وراحت التجارة تسير فى أثر العلم الرومانى ، فأخذ التجار يشترون الأرقاء ويشترون الأرض وينشئون فى الأقاليم ضياعا أوسع رقعة من إيطاليا ، ولم يعد من المستطاع على سورى أو فلسطينى أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ، ولا ينتقل درهم واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان .

كان اليهود تجارا ذوى خبرة بشئون المال ، وكان النبط تجارا يعيشون على التجارة وإقراض الناس ، وقد جاء الرومان إلى المنطقة بعقليتهم التجارية المستغلة التى جعلت بعض الآباء يبيعون أطفالهم فى أسواق الرقيق سدادا لديونهم وفوائدها . وقد قضوا على اليهود قضاء مبرما وأمنوا منافستهم ، ترى أيتركون دولة النبط تزاحمهم فى سورية وفلسطين ؟ كان ملوك النبط ذوى أطماع عريضة وكان قواد الرومان ومجلس شيوخ روما يبغون السيطرة على الأرض ، وكان لا بد أن يقع صراع رهيب بين ذوى الأطماع التى لا تحد ، والتى أخذت تتزايد على مدى الأيام .

١٨

كان إيطالس ملك الصقليين قد احتل أتنتريا وهى مكان الإصبع الكبرى فى الحذاء الإيطالى ، ومعنى أتنتريا أرض النبيذ لكثرة ما كان فيها من كروم ، فلما أصبح إيطالس ملك أتنتريا بدل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أتنتوريين بل تسموا إيطاليين ، وكما أن الرومان أطلقوا على الهلينيين جميعا اسم الأغارقة وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا إلى نابولى ، فكذلك توسع الإغريق فى معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر إلبو إلى أقصى طرفها الجنوبى .

وقد ظلت روما جمهورية الكلمة العليا فيها لمجلس شيوخها حتى عاد بمبيوس من الشرق يحمل الغنائم ويسوق الأسرى، وجاء يوليوس قيصر من أسبانيا مزهوا بنصره يطمع فى يكون قنصلا على روما ، بل حاكما مستبدا اتتقلص أمامه سلطة شيوخ روما ، فتكونت الحكومة الثلاثية من قيصر وكراسس وبمبيوس .

ولد قيصر فى بيت متواضع فى حى سابورة وكان الحى من أحياء روما القديمة تكثر فيه الحوانيت والحانات والمواخير ، فلما شب عن الطوق أظهر استعدادا عظيما للخطابة وبدأ فى شبابه يكتب ويؤلف ، وكان على الرغم من نشأته البسيطة يزهو بأصله ويرجع نسبه إلى فينوس الزهرة ربة الحسن والجمال . فهو من نسل الآلهة .

وعين ياورا حربيا فى آسية فلما عاد إلى رومة تزوج كوسوتيا استجابة

لرغبة أبيه ، وقد طلقها بعد أن توفى والده بزمن يسير وتزوج كورنليا ابنة سنًّا الذى تولى قيادة الثورة بعد ماريوس .

وتولى صلا زمام السلطة فى روما فأمر قيصر أن يطلق كورنليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر أملاكه التى ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه فى المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة ، ولكنه رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهى فيها فعاد وغادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة فى الطريق واقتادوه إلى كمين لهم فى قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون تالنتا ، فلما سمع ذلك لامهم على أنهم لم يقدروه حق قدره وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتا وأرسل خدمه ليأتوه بالمال . وأخذ فى تلك الأوقات يسلى نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على آسريه ، فلما أظهروا عدم إعجابهم بقصائده سماهم برابرة همجا وأنذرهم بأنه سيشنقهم فى أول فرصة تتاح له .

وعاد خدمه بالفداء وما كان مبلغا يستهان به ، وما كاد يتنسم نسيم الحرية حتى أعد السفن والملاحين وراح يطارد القراصنة حتى قبض عليهم واستعاد منهم الفداء ثم قطع رقابهم قبل أن يصلبهم .

وعاد إلى رومة ووزع جهوده بين السياسة والحب ، وكان وسيم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه فى تلك السن المبكرة أخذ يشغل باله ، وماتت كورنليا زوجه فتزوج بمبيا حفيدة صلا ، وقد كان ذلك الزواج سياسيا محضا لذلك لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة ، وما كان ذلك أمرا مستهجنا فى ذلك الوقت .

كان ازدياد الثراء فى رومة من أكبر عوامل فساد الأخلاق وانفصام رابطة

الزواج المقدس ، وازدهرت الدعارة وكثر عدد الباحثات عن الذهب لما تدفق الذهب والفضة من ممتلكات رومة فى آسية وأوروبا . وربا عدد المواخير والحانات التى تؤوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون فى الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير ، وصار الزنى أمرا مألوفا. لم يعد يثير انتباه الناس إلا إذا استخدم لأغراض سياسية !

و لم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ، و لم يكن اللوم فى ذلك واقعا على النساء فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعا للمال وللسياسة .

أراد صلا أيام كان صاحب السلطة فى روما أن يضم بومبيوس إلى جانبه ، فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيبته وكانت وقتئذ متزوجة وحاملا . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت فى أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بمبى .

وأرسل قيصر إلى أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سيرت لتأديب القبائل الوطنية وعاد منها وهو يحمل من الغنائم ما يملأ خزائن الدولة بالمال . وكان بمبى قد عاد قبله من الشرق يحمل ثروة عظيمة من الضرائب والخراج والبضائع التى غنمها فى حروبه فاستطاع أن يعمر خزائن الدولة وأن يضمن لها إيرادا سنويا قدره ثلاثمائة وخمسون مليون سترس ، وأن يوزع على جنوده ثلاثمائة وأربعة وثمانين مليونا ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيصبح أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وطلب بمبى من مجلس الشيوخ توزيع الأرض على جنوده فأبى المجلس ذلك ، فرأى قيصر أن ينتهز هذه الفرصة السانحة فألف من نفسه ومن بمبى ومن كراسس الحكومة الثلاثية الأولى وتعهدوا جميعا أن يقاوموا كل تشريع

لا يرضى عنه أى واحد منهم ، واتفق بمبى أن يساعد قيصر فى أن ينتخب قنصلا ، كما تعهد قيصر إذا ما اختير لهذا المنصب أن ينفذ الاقتراحات التى عرضها بمبى ورفضها مجلس الشيوخ .

وزوج قيصر ابنته يوليا إلى بمبى ليضمن بذلك وفاءه له ، وأغضبت هذه الحال كاتو زعيم المحافظين فقال : « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلا لإدارة شئون الزواج » .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين ، ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين نسى مبادئه ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل .

ولم يتحقق الغرض النبيل الذى كان يقصده كاتو فقد اختار العامة قيصر واختار الأشراف آخر ، وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه حتى عرض على مجلس الشيوخ المطالب التى تقدم بها بمبى ، وهى توزيع الأرض على عشرين ألفا من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبى والتصديق على الاتفاقات التى عقدها بمبى فى بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التى تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسية بمقدار الثلث .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل عرضها على الجمعية مباشرة ، فوافقت الجمعية عليها ، وقد تجاهل قيصر المجلس فى نفس العام فعرض على الجمعية مباشرة مشروعه الثانى الخاص بتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة فى كمبانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ، فوافقت عليه الجمعية ، وكان ذلك بداية اهتزاز الجمهورية الرومانية وظهور عصر الحاكم المستبد فى الدولة التى يقضى دستورها بأن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ، وكل من يحاول أن يتولى

منصبا من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام .

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر فى أن يعين واليا على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة فى الخمس السنين التى تلى سنة توليه القنصلية . ولكى يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة عمل على أن ينتخب اثنان من أنصاره قنصلين لروما . وقد طلق زوجته الثالثة بمبيا بسبب ارتيابه فى استقامتها وتزوج كلبيرنيا ابنة أحد الصديقين اللذين رشحهما للقنصلية .

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما ، ولم يكتم كاتو زعيم المحافظين رأيه فى تلك « القوانين اليوليوسية » وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية ، وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة لهذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية .

وتوغل قيصر فى بلاد الغاليين وتواترت أنباء ما كان يلاقيه فيها من الأخطار الكثيرة ، فأخذ الأمل يداعب المحافظين وقال شيشرون خطيب روما ومن كان لسان الحكومة الثلاثية قبل ذلك الوقت بقليل : « من لم يمت بالسيف مات بغيره » . وتلون شيشرون بلون الزمان فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

كانت القبائل الألمانية تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من نهر الراين إلى المحيط الأطلنطى وكان قيصر يحتال لإنقاذ روما ، بينما كانت روما نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وانتصر قيصر على الألمان وحرر غالة من أعدائها واعتقد أن تحريرها هذا لا يفترق فى شيء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان روما ، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة

لحمايتها من الألمان ، ودعا بمبى وكراسس أن يقابلاه ليضعوا معا خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم أمام الحركة الرجعية التى يقوم بها المحافظون .

واختير بمبى وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين أن السلام أحلى من الحرية .

وراح قيصر يحارب الألمان ويزحف بجيوشه حتى يغزو بريطانيا ويقضى على الفتن فى غالة ويحمى روما من أعدائها ، حتى إن شيشرون بعد أن تقلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية أخذ يتغنى بمدح قيصر : « ليست معاقل الألب المنيعة ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات الغاليين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لا ستطعنا أن نحتفظ بيلادنا حصينة منيعة بفضل ما ناله قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة ،ألا ما أعظم فضائله علينا! » .

انحطت السياسة الرومانية فى خلال السنين الخمس الثانية من ولاية قيصر على غالة ، فقد راح القنصلان بمبى وكراسس يسيران فى حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين وإرهاب المحلفين والالتجاء إلى القتل فى بعض الأحيان .

وانقضت مدة ولايتهما فجند كراسس جيشا كبيرا وأبحر به إلى سورية ، ثم عبر نهر الفرات والتقى بالفرس ، فدارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الفرس وقتل ولده فى المعركة .

وبينما كان كراسس يرتد بقواته بنظام ، دعاه قائد الفرس إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن قائد الجيوش الفارسية غدر به وقتله وأرسل رأسه إلى البلاط الفارسى ، وأصبح بذلك قيصر وبمبى فى الميدان وحدهما .

كان كل منهما يطمع فى أن يكون سيد روما ، وقد حدث أن انفصمت العروة الوثقى بينهما لما ماتت يوليا ابنة قيصر وزوجة بمبى فى أثناء الوضع ، وقد حاول قيصر أن يستميل بمبى إليه فعرض عليه أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته فى ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو ابنة بمبى ولكن بمبى رفض كلا العرضين .

وعقد بمبى حلفا صريحا مع المحافظين و لم يبق أمامه من عقبة للاستيلاء على السلطة إلا مطامع قيصر وجيشه الجرار . ولما كان يعرف أن قيادة قيصر للجيش ستنتهى قريبا فقد أصدر مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى ما بعد انتهاء قيادة حليف الأمس وغريم اليوم ، ليخلو له وجه الجيش .

وقامت اضطرابات فى روما وراح الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم فى الجمعية ، واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات فى أيطاليا فهرعت إلى روما وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، حتى إن من ليس حق الاقتراع كان يقترع . وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة .

وقامت عصابات بقتل كلوديس وكان من أعظم الخبراء الممتازين فى المهزلة البرلمانية ، وكان ينظم عصابات من أحط الطبقات ليصل بها إلى أغراضه السياسية ، فرفعه صعاليك المدينة إلى مرتبة الشهداء واحتفلوا بجنازته احتفالا عظيما وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ وحرقوا البناء فوقها .

وجاء بمبى وفرق الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس بناء على نصيحة كاتو أن يعينه « قنصلا عاما بلا زميل » ، وقد قال له كاتو إن هذه العبارة أخف على السمع من لفظ دكتاتور .

واستسلمت عناصر الثروة والنظام جميعا فى عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمبى ، أما الطبقات الفقيرة فظلت تتلهف على عودة قيصر .

لم يختلف قيصر مع بمبى فى أن الجمهورية قد ماتت وأنها أصبحت اسما على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة ، ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع الأمور فى أيد قيادية تعمل لتقدمها ورقيها .

كان قيصر فى الرابعة والخمسين أوهنته حروبه الطويلة فى غالة ، ولم يكن يحب أن يتورط فى محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التى تحاك له والفخاخ التى تنصب لاقتناصه ، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هى الجزاء الذى يجزى به من أنجى إيطاليا من الدمار والخراب .

وطلب بعض أنصار بمبى من مجلس الشيوخ عزل قيصر قبل أن تنتهى مدة قيادته للجيش الرومانى فى غالة . ومعنى ذلك أن يحاكم أو يبقى خارج البلاد ، وأبى المجلس ذلك ، ولم يدخر قيصر جهدا فى إزالة أسباب الخلاف بينه وبين بمبى دون جدوى ، فطلب قيصر على لسان مؤيديه فى مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذى كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن روما ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده .

وعرض قيصر على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبى منصبيهما ، وبدا هذا العرض معقولا فى نظر الشعب حتى إنه كلل جبين رسوله بالأزهار . ووافق المجلس على هذا الرأى إلا أن بمبى أبى أن يخضع لهذا القرار، وأعلن أن قيصر عدو الشعب إذا لم يتخل عن القيادة .

وانقسم المجلس على نفسه : كان مارك أنطونيو صديق قيصر يؤيد قيصر

فى مطالبه وكان كاتو يعارض تلك المطالب ، وانتهى الأمر بأن نجح كاتو فى أن يجعل المجلس يوافق على دكتاتورية بمبى وحكمة العسكرى .

ونشبت الحرب الأهلية بين بمبى وقيصر ، واضطر بمبى إلى الفرار من روما ودخلها قيصر ، وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها وراح يقتفى أثر بمبى فى أسبانيا ، وبعث بالحبوب إلى الخائفين من الجوع فى روما ، فلم يمانع مجلس الشيوخ فى أن يعينه دكتاتورا على إيطاليا ، وصار يوليوس قيصر من سيصبح حكام الرومان قياصرة تيمنا باسمه ، الحاكم المطلق وسيد روما .

واستأنف القتال بين بمبى وقيصر على كره من قيصر ، فقد كان يمقت أن يقتل الرومانى رومانيا ، ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فرسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق . م وكانت معركة طاحنة ، وكان عدد قليل من أنبل رجال روما يشاهدون المعركة عن كثب ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ، لقد اشتبكت زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها فى صراع عنيف ، فما أحط ما فى الطبيعة البشرية من مشاعر إذا ما أثيرت شهواتها .

وفر بمبى إلى الإسكندرية ، وفر بروتس من الميدان وكان قيصر يحبه حبا جما وإن انضم إلى أعدائه ، وقد بعث بروتس برسالة إلى قيصر ، فاغتبط قيصر أشد الاغتباط لما علم أن بروتس حى يرزق وعفا عنه من فوره .

وقابل بمبى زوجه فى الإسكندرية ، وما كادت قدماه تطآن أرض مصر حتى طعنه خدم بوتينيس خصى الشاب بطليموس الثانى عشر طعنة قاتلة ، بينما كانت زوجته تنظر إليه فى هلع وهى على ظهر السفينة .

وقتل بمبى فى أرض مصر ، وكان على عرشها بطليموس الثانى عشر وأخته كليوباطرة ، وكانت كليوباطرة شقراء ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها

الرشيق المعتدل وخفة روحها وتنوع ثقافتها وحسن صوتها ومقامها الملكى جعلتها فتنة تسلب الألباب .

كانت من أصل يونانى مقدونى ، فكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، وقد جمعت بين فتنة العقل المتوقد وفتنة الغانية المتحللة من كل قيد ، وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شراك الحب .

ونجح يوتيس خصى أخيها ووزيره أن ينفيها عن البلاد ، وبلغ ذلك قيصر فاستاء ، فذهب إلى الإسكندرية وأرسل إليها سرا أن توافيه ، فأخفت نفسها فى فراش حمله تابعها أبولو دورس إلى مسكن قيصر بالإسكندرية .

وذهل القائد الرومانى حين رآها وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها وهو الذى لم يدع انتصاراته فى ميدان القتال تربى على انتصاراته فى ميادين الحب ، ونجح فى أن يوفق بينها وبين أخيها وأجلسهما على عرش مصر كما كانا .

وعرف قيصر أن يوثينيس والقائد المصرى أخلاس كانا يأتمران به ليقتلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التى جاءت معه إلى مصر ، فدبر فى الخفاء اغتيال يوثينيس وفر أخلاس واتصل بالجيش المصرى وحرضه على الثورة ، وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، وراح أخلاس يحرض ضباط الحامية الرومانية التى وضعها مجلس الشيوخ فى تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر فى وجه هذا الدخيل الخائن الذى سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالمة ، وأن يعمل على أن يولد له من صلبه من يرث هذا العرش فى المستقبل .

وعمل قيصر فى هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحال القصر الملكى والملهى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله ،

ثم أرسل يطلب المدد من آسية الصغرى وسورية ورودس ، ولما أدرك أن أسطوله الضعيف الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع فى يد أعدائه أمر به فأحرق ، والتهمت النار جزءا من مكتبة الإسكندرية .

وانطلق رسل قيصر إلى البلاد القريبة لنجدته ، واعتذر أغلب الحكام بأن الرجال القادرين على حمل السلاح قد بيعوا فى سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة ، وقوبل رسول قيصر فى البتراء بحفاوة بالغة .

كان ملك النبط مالك الأول بن عبادة الأول ، فما إن طلب منه رسول قيصر النجدة حتى سير الأساطيل إلى الإسكندرية ، وانطلق البحارة العرب لإنقاذ حليفهم يوليوس قيصر من المأزق الحرج الذى وضع نفسه فيه .

ورأى قيصر أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه عن طريقه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس واستولى عليها ، ثم جلا عنها ثم عاد فاستولى عليها .

وفى إحدى هذه المعارك صوب إليه المصريون عاصفة من السهام ، ونجحوا فى أن يقذفوا به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيدا عن الحاجز الذى يصل الجزيرة بأرض المدينة ، وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار حالفهم النصر فخرج من القصر وانضم إليهم ، ولكن كليوباطرة لم تتخل عنه أبدا ، وراح قيصر يسبح لينجو من الموت وقد استطاع أن يصل إلى الشاطئ .

وجاء الأسطول النبطى وانضم إليه قيصر ومن بقى على قيد الحياة من جنوده ، ودارت الدائرة على المصريين وحامية مجلس الشيوخ الرومانى وانهزموا فى معركة النيل ، وكافأ كليوباطرة على إخلاصها له بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكا معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة

البلاد الحقيقية .

وعاد الأسطول النبطى إلى بلاده وقد توطدت الصداقة بين النبط والرومان . وقد كانت كليوباطرة تمقت الأنباط إذ كانت تطمع أن تكون ملكة العربية ، إلا أن الأنباط لم يتيحوا لها تحقيق ذلك الحلم فراحت تنتظر الأيام لتثأر منهم بعد أن عجزت عن تحقيق حلمها .

١٩

وقعت العداوة بين قيصر وبمبى ، فأطلق قيصر أرستوبولوس ملك اليهود من محبسه فى روما وأطلق معه قائدين فى اثنى عشر ألف مقاتل وسرحهم إلى سورية وإسرائيل ليردوا الناس عن طاعة بمبى .

وكتب بمبى إلى أنتيباطر ببيت المقدس أن يكفيه أمر أرستوبولوس، فبعث قوما من اليهود لقوه فى سورية ودسوا له سما فى بعض شرابه كان فيه حتفه .

وقتل بمبى فى مصر وأصبح الأمر فى يد قيصر وحده ، فخف إليه أنطيغونس بن أرستوبلوس وأنتيباطر وهركانوس ، فشكا أنطيغونس بأن هركانوس وأنتيباطر قد قتلا أباه حين بعثه أهل روما لحرب بمبى ، فقال أنتيباطر مدافعا عن نفسه :

ـــ إنما فعلت ذلك لخدمة من ملك علينا من الرومان ، وإنما كنت ناصحا لقائدهم بمبى بالأمس وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب .

فحسن موقع كلامه من قيصر وقدمه على عساكره لحرب الفرس ، فلما عاد هركانوس وأنتيباطر من حرب الفرس أعاد قيصر هركانوس إلى ملك بيت المقدس وأنتيباطر مدير المملكة فى ظل الاحتلال الرومانى . وكان هركانوس ضعيفا عن لقاء الحروب فتغلب عليه أنتيباطر وعين ابنه هيرود عاملا على الخليل ، وكان قد بلغ الحلم .

واحتازوا الملك من أطرافه ، وامتلأ أهل الدولة منهم حسدا وكثرت السعاية فيهم ، فدب الشقاق بين هركانوس وأنتيباطر .

وراح قيصر يفكر فى أن يبعث حملة عظيمة لإخضاع الفرس ، وأن يزحف حول البحر الأسود وأن يرتاد نهر الدانوب ويفتح ألمانيا ، ثم يعود إلى روما ليهنأ العالم بالسلم بعد ذلك .

وتسربت هذه الأحلام إلى روما فرحب بها العامة وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب ، وفزعوا من المطالب التى ستنهال عليهم ؛ أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ، لذلك عقدوا النية على قتله .

وروعهم وجود كليوباطرة وابنها قيصرون فى روما ، وراجت الإشاعات فى روما أن قيصر يريد أن ينصب نفسه ملكا وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق .

وأقبل كيوس كاسيوس وكان قائدا من قواد بمبى على بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وقد اشتهر بروتس بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكا بالفضيلة ، وكانت أمه أختا غير شقيقة لكاتو عدو قيصر اللدود ، وكانت زوجته ابنة كاتو ، وكان الناس يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق أمه فى الوقت الذى ولد فيه ، وكان قيصر يعتقد أن بروتس ولده بل وكان بروتس نفسه يعتقد هذا الاعتقاد ، فكان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة فى أفواه الرومان .

وذهب قيصر إلى المجلس وما كاد يدخل حتى هجم عليه « دعاة الحرية » وطعنه بروتس ، فقال له :

ــ وأنت أيضا يا ولدى .

ثم استسلم للطعنات وسقط عند قدمى تمثال بمبى الذى أبى قيصر إلا أن يقام فى أروع ميدان .

وشب القتال بين كاسيوس وبروتس وجنود المحافظين ، وبين مارك أنطونيو صديق قيصر وأكتافيوس متبنى قيصر والجنود الثائرين لمقتل قائدهم ، وفر بروتس وكاسيوس والجيوش الجمهورية إلى الولايات الشرقية للإمبراطورية ، وطلبا منها ضرائب عشر سنين مقدما ، وحصلا بالفعل على تلك الضرائب . ولما عارض أهل رودس هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم وأمر الأهلين جميعهم بتسليم ثروتهم وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه أموالا طائلة لا تعد . وفى فينيقية أنزل جنوده فى بيوت طرسوس و لم يبارحوها حتى أدت إليه ما فرض عليهم من مال . و لم يستطع السكان أداء هذا المال حتى باعوا بالمزاد جميع أراضى البلدية وصهروا جميع آنية الهيكل وحليها وباعوا الأحرار عبيدا ، فباعوا البنين والبنات ، ثم النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشباب ، وقد انتحر الكثيرون من الأهلين حين علموا أنهم بيعوا بيع العبيد .

وانطلق كاسيوس إلى القدس وطالب اليهود بسبعين بدرة من الذهب ، فجمع له أنتيباطر وبنوه ما طلب ، ثم عاد كاسيوس إلى مقدونية بعد أن ترك قائدا رومانيا فى القدس .

وجاء أعداء أنتيباطر إلى ذلك القائد وراحوا يزينون له قتل ذلك الثعلب ، فأذن لهم :

وجاء الخبر إلى ابنه هيرود فى الخليل فثار ورأى أن يثأر لأبيه من قاتليه ، بل من هركانوس نفسه . وراح يفكر فاهتدى إلى أن أمه من النبط وأنه إذا استعان بمالك ملك النبط فسيعينه ، فقد كانت صلات أنتيباطر بالنبط طيبة على الدوام .

وانطلق هيرود يريد البتراء ليلتمس العون والمساعدة والمال على سبيل الهبة

أو الدين »، وبينما هو فى الطريق وصلت إليه رسل الملك تخبره أن الملك لن يستطيع مقابلته .

وكان ذلك بناء على رجاء تقدم به الفرس إلى مالك الأول ، فكتمها هيرود فى نفسه ثم جمع من استطاع جمعهم وذهب إلى القدس مجمعا قتل هركانوس ، فكفه أخوه فزائيل عن ذلك .

وجاء كاسيوس من مقدونية إلى صور ، ففزع إليه هركانوس وهيرود وبعض أنصارهما وشكوا إليه ما فعله قائده من تواطئه مع أعداء أنتيباطر من تواطئه مع اليهود ودس السم له ، فأذن لهم فى قتله فقتلوه .

وانتصر أكتافيوس وأنطونيو على كاسيوس ، وأصبح أكتافيوس أوغسطس قيصر . فأرسل إليه هركانوس ملك اليهود بهدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالجواهر ، وسأل تجديد العهد لهم . وأن يطلق السبى الذى سبى منهم أيام كاسيوس وأن يرد اليهود إلى بلاد اليونان وأثينة ، فأجابه إلى ذلك .

صارت إسرائيل ولاية رومانية بينما ظلت مملكة النبط تنعم باستقلالها ، وقد أرسلت كليوباطرة إلى مالك ملك النبط أن يؤدى لها الجزية فأبى ، وأرسل إليه الرومان أن يؤدى لهم الجزية فكان جوابه الرفض . وكرهت كليوباطرة مالكا كما كرهت هرثمة من قبله ، فقد كانا صخرة صلدة فى سبيل تحقيق أمنيتها أن تكون ملكة مصر والعرب ، وراح الرومان يتحينون الفرصة لإذلال العرب وتمريغ أنوفهم الشامخة فى التراب .

وانطلق أنطونيو إلى الشرق وكان قد استسلم للشهوات الجنسية استسلاما أفقده احترام رعاياه ، إذ أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات والمهرجين ، واتخذ له زوجات ومحظيات .

ووصل إلى طرسوس فأرسل إلى كليوباطرة يدعوها للمثول بين يديه لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود . وجاءت كليوباطرة ، فبينما كان أنطونيو جالسا على عرش فى السوق العامة ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقضى لها أو عليها ، إذا بها جاءت فى نهر سندس فى قارب ذى أشرعة أرجوانية وسكان مذهب ومجاديف من فضة ، تضرب الماء على أنغام الناى والمزمار والقيثار ، وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب ، وقد ارتدين زى حور البحار وربات الجمال . أما هى فقد تزينت بزى فينوس ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على الشاطئ زمرا ، وتركوا أنطونيو وحده جالسا على عرشه . ودعته كليوباطرة إلى العشاء معها فى قاربها فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة ، فأولمت لهم وليمة فاخرة وقدمت لهم أشهى الطعام والشراب ، وأفسدت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات .

وبدأ حديثه معها بلومها على ما فعلت . واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية وسوريا الوسطى وقبرص وأجزاء من بلاد قليقية وبلاد العرب واليهود .

وخف هركانوس إلى أنطونيو يقدم له ولاءه وولاء اليهود ، وجاء جماعة من اليهود يشكون هيرود وأخاه فزائيل وتظلموا منهما ، ولكن هركانوس انبرى للدفاع عنهما فأمر أنطونيو بالقبض على الشاكين .

واختلت كليوباطرة بهيرود وراحت تزين له محاربة مالك ملك النبط ، وقد كانت تريد بذلك أن توهن هيرود وملك النبط لتتمكن من إسرائيل وأرض النبط وتصبح سيدة العربية .

وعاد هركانوس إلى القدس ، ورجع هيرود وأخوه كما كانا : هيرود حاكم الخليل وفزائيل ناظر القدس، وفى خلال زيارة أكابر اليهود لأنطونيو لحق أنطيغونس وجماعة من اليهود بالفرس ، وما لبثوا أن عادوا بجيوش فارسية وهاجموا القدس وأسروا هركانوس ملك اليهود وكاهنهم وفزائيل ، ثم قفلوا عائدين إلى فارس . وفى الطريق مات فزائيل ، ولما وصل قائد الفرس بأسيره إلى البلاط الفارسى أمر ملك الفرس بإطلاق سراح هركانوس .

وانطلق هيرود إلى مصر يريد أنطونيو ، فلما بلغها كان أنطونيو قد عاد إلى روما فأكرمته كليوباطرة لا حبا فيه فقد كانت تمقته من كل قلبها ، بل طمعا فى أن يشن الحرب على العرب الذين نالوا من كبريائها وأبوا أن يحملوا الجزية لها .

وأركبته كليوباطرة السفن إلى روما ، فهرع إلى أنطونيو يخبره خبر الفرس وما حاق بالقدس ، فدخل به أنطونيو على أوغسطس قيصر ولم يخرج من عنده إلا وقد ألبسه أغسطس قيصر التاج وأركبه فى روما فى زى الملك ، وراح هاتف يهتف بين يديه بأن أوغسطس قد ملكه على اليهود .

وخرج أنطونيو لقتال الفرس وخرج هيرود معه ، حتى إذا ما بلغت جيوش الرومان أنطاكية فارقها هيرود وركب البحر إلى القدس ، وكان أول ما فعله أن بعث يستدعى هركانوس من فارس ليعينه كهنوتا على اليهود كما كان ، فصدق هركانوس ذلك وقفل عائدا إلى القدس وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، فقابله هيرود بالترحيب وراح يخاطبه بأبى فى الجمع والخلوة .

وكانت ابنة أخى هركانوس تحت هيرود وقد علمت بما يبيته له هيرود من غدر ، فأرسلت إلى هركانوس رسالة تقول له فيها : الحق بملك العرب ليكون فى جوارك .

وكتب هركانوس رسالة إلى مالك يلتمس منه أن يبعث إليه من رجالاته من يخرج به إلى البتراء ، وأعطى الرسالة لمن يحملها إلى ملك النبط ، ومن سوء حظه كان حامل الرسالة ممن يبغضون هركانوس لأنه قتل أخاه وسلب ماله ، فأخذ الكتاب ووضعه فى يد هيرود ، فلما قرأه رده إليه وقال :

ــ أبلغه إلى ملك العرب وارجع إلى بالجواب .

وانطلق الرسول إلى البتراء وعاد برد الرسالة ووضعها فى يد هيرود ، فلما قرأها غضب ، فقد قال ملك العرب لهركانوس إنه أسعفه وبعث الرجال وحدد المكان وطلب منه أن يلقاهم به وأن يأتى إليه .

فبعث هيرود جنوده إلى ذلك المكان وقبض على رجال النبط وجىء بهم إليه ، ثم أحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيخا وأحضر هركانوس وقرأ عليه الكتاب بخطه فلم يحر جوابا وقامت عليه الحجة ، فقتله هيرود لوقته وأصبح ملك اليهود غير منازع .

وأعاد هيرود بناء هيكل سليمان وشيد مسرحا وحلقة للألعاب الرياضية فى المدينة المقدسة ، فثار المتدينون على ذلك ثورة عارمة واعتبروه خروجا على الدين ، و لم يأبه هيرود بتلك الثورة بل راح يدعو قومه إلى أن يتعلموا من الحضارة الهلينية كل ما يثبت أن تحصيله أمر ضرورى لليهود .

وراحت كليوباطرة تثير حفيظة هيرود على العرب ، وما كان هيرود فى حاجة لمن يؤجج نار عداوته ، إنه لا ينسى أن ملك العرب قد رده ردا غير كريم يوم ذهب إلى البتراء يطلب عونا للثأر من قتلة أبيه ، وهو لا ينسى مكاتبة هركانوس له وإسراعه فى الوقوف إلى جوار هركانوس ، فسار بجيوشه لقتال العرب ، وعند اللد نشبت معركة سقطت فيها ضحايا كثيرة من الجانبين ، ثم وقعت سلسلة حروب كلفت اليهود والعرب خسائر فادحة ، وبدا أن

الصحوة التى سرت فى أرض اليهود فى أيام هيرود هى صحوة الموت .

وعاد أنطونيو من حرب فارس وتزوج كليوباطرة ، وثبتها هى وقيصرون حاكمين معا على مصر وقبرص ، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوباطرة ، وراحت كليوباطرة تشجعه على أن يغامر آخر مغامرة فى سبيل أن يصبح سيد روما وحده ، وراحت تساعده على حشد جيش وأسطول وتقسم أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى ذات يوم الحكم من الكابيتول .

والتقى أكتافيوس وأنطونيو فى معركة بحرية فاصلة عند أكتيوم ، فلما رأى أنطونيو أن الدائرة قد دارت عليه أخذ كليوباطرة وعاد إلى الإسكندرية ، وأرسل رسله إلى أوكتافيوس يلتمس الصلح ، إلا أن أوكتافيوس أعرض عنه وانطلق ليقضى عليه .

وانتحر أنطونيو وانتحرت كليوباطرة ، وجلس أغسطس قيصر الرجل العليل على عرش البطالمة ، وغلب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وانتصر الغرب على الشرق ودب الذعر فى قلب هيرود ، فقد انضم إلى أنطونيو فى حربه لأغسطس قيصر ، ترى ماذا سيفعل به من فاز فى صراع الجبابرة ؟

٢٠

بعث هيرود بزوجه وابنته إلى حصن الإسكندرونة وانطلق إلى روما ليقابل أوغسطس قيصر ويواجه مصيره ، فإن قتله قيصر لانضمامه إلى أنطونيو كان أهله فى أمان ، وإن عفا عنه عاد إلى مُلكه وأعاد إليه أهله .

ودخل هيرود على أوغسطس قيصر فرأى الغضب فى وجهه ، وإن هى إلا لحظات حتى كان أوغسطس يرغى ويزبد ويعنفه وهو يدور حوله ، ثم أزاح التاج عن رأسه وهم بأن يصدر عليه حكما بعقابه فتلطف هيرود فى الاعتذار ، ثم قال فى خضوع :

ــ إن موالاتى لأنطونيو يا مولاى إنما كانت لما أولانى أنطونيو من الجميل فى السعاية عند مولاى ، وهى أعظم أياديه عندى ، ولم تكن موالاتى له فى عداوتك وحربك ، ولو كان ذلك وأهلكت نفسى دونه كنت غير ملوم فإن الوفاء شأن الكرام ، فإن أزلت عنى التاج فما أزلت عقلى ولا نظرى ، وإن أبقيتنى فأنا محل الصنيعة والشكر .

وعاد هيرود إلى بيت المقدس ليعيش عيشة الرومان وقد اقتفى كثير من اليهود أثره ، بينا بقى بعض المحافظين متمسكين بأهداب الدين . وقد كانت الناصرة تتحدث عن الأنبياء والأيام الطيبة الخالية ، فقد كانت أسراتها تنحدر من أصلاب الأنبياء وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء . فقد احترف فرع داود التجارة ، واحترف فرع هارون تجارة الأخشاب يجلبونها من التلال ، و حترفت الفروع الأخرى

صناعة النعال أو تجفيف التين .

وكان عمران من فرع داود وكان يعمل بالتجارة ، ولكن آماله تعلقت بخدمة الهيكل العظيم بأورشليم ، وشجعه على ذلك أن زكريا زوج إليصابات أخت زوجته حَنّة هناك فى معبد الرب يقوم بخدمته ويكرس حياته للعبادة والاستغفار .

وذات يوم خرج عمران وحنة قاصدين بيت المقدس ليهبا نفسيهما لله ، حتى إذا ما أشرفا على السامرة أخذا يتقدمان فى حذر ، فالسامريون يبغضون اليهود فهم يعتقدون أنهم ، أى السامريين ، أبناء إسرائيل الحقيقيون ، ولا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة دون باقى التوراة ، ويحتفظون بنسخة من هذه الكتب دونت على جلد الماعز ، ويقولون : إن هارون كتبها بخط يده .

وعكف عمران وحَنّة على العبادة فى هيكل سليمان ، وحملت حنة فهزها الفرح لأن أعظم ما تفعله فتاة فى إسرائيل أن تنجب لزوجها أولادا ، وشغلت بما فى بطنها فراحت تفكر فيه وتتمنى أن يكون كجده داود .

ومرض عمران وراح زكريا وزوجه إليصابات يعودانه ، واشتدت عليه وطأة المرض فشغلت به حنة عما فى بطنها ولم ينفعه حب زوجه فذهب إلى ربه ، وحزنت حنة أن انقطع بموت عمران شرف خدمة المعبد ، فشخصت ببصرها إلى السماء وقالت :

— رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم .

ورجعت إلى الناصرة وعادت إلى بيتها تنتظر تمام شهورها ، ثم جاءها المخاض ووضعت ما فى بطنها فإذا به فتاة ، فنظرت إلى السماء وقالت :

— رب إنى وضعتها أنثى .

والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وفكرت فى اسم لها وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فلماذا لا تسمى ابنتها باسمها تيمنا ؟ فشخصت إلى السماء ثانية وقالت :

— وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

وكان مالك ملك النبط على صلة طيبة بالرومان ، فلما مات مالك وتولى من بعده عبادة الثانى ظلت الصلات الطيبة بين الجانبين . وقد كان عبادة ملكا مسالما ذا شخصية متهافتة ، بينما كان وزيره صالح شابا قويا آماله عريضة لا تحد .

كان صالح قادرا وكفئا على الرغم من صغر سنه ، وكان هو المتصرف فى أمور الدولة والمدبر لشئون المملكة ورجل الدولة الحقيقى ، وكان صديقا لهيرود يزوره وينزل عليه وكاد أن يتزوج أخته لولا اختلاف الدينين ، ورفض صالح الدخول فى الديانة اليهودية ليتم ذلك الزواج .

وجعل أغسطس قيصر مصر تابعة لحكم قياصرة روما ، وعين أوليوس غالوس حاكما عليها وأمره بأن يصلح الطرق ويطهر القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وأن يطهر ذلك البحر من القراصنة الذين كانوا يهددون الأساطيل المصرية . .

وجاء إلى أغسطس قيصر من يغريه بغزو أرض العرب للاستيلاء على ثروتها العظيمة التى تكدست لديها من الاتجار بالمر واللبان والبخور ، وللقضاء على القراصنة الذين كانوا يحتمون بسواحل الحجاز واليمن .

وبعث أغسطس قيصر إلى أوليوس غالوس الوالى الرومانى على مصر أن سر إلى بلاد العرب للبحث عن شعوبها ، وعن حدود بلاد الحبشة والأرض

المقابلة لبلاد العرب والأقسام المجاورة لها يفصلها عنها مضيق ضيق ، لعقد معاهدات معها أو احتلالها !

كانت الأساطير التى تروى عن بلاد العرب وعن غناها تسيل لعاب الرومان ، إنها تقايض التوابل والبخور بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وهى غنية حتى إنها فى غنى عن أن تستورد أشياء من خارج حدودها ، فأراد أغسطس أن يكون له حلفاء أغنياء أو أعداء أغنياء فى قبضة يده وتحت سلطانه .

كان الإسكندر يحلم بتحقيق مثل هذا المشروع الخطير ولكنه مات قبل أن يحققه ، وحتى لو أطال الله فى عمره فما كان تحقيقه ميسورا . كان أغسطس قيصر يعرف هذه الحقيقة ويرى أنه أسعد حالا من الإسكندر ، لأن النبط وهم أقوى شعوب العرب حلفاؤه ، ولأن ملكهم عبادة الثانى وعده خيرا وتعهد بتقديم الرجال والمؤن وأن يضع وزيره صالحا الخطير تحت تصرف قواده ليكون لهم مستشارا ودليلا .

وخرج أوليوس غالوس من مصر على رأس الحملة الرومانية وكان قوام الحملة عشرة آلاف جندى جمعوا من مصر من المصريين والرومان وحلفائهم ، وألف نبطى ، وخمسمائة يهودى بعث بهم هيرود إلى القائد الرومانى الذى ما كان يعرف عن البلاد التى خرج لفتحها إلا أنها بلاد غنية !

أراد أوليوس غالوس أن يقود حملته برا ولكن حليفه صالح ومستشاره الذى يعرف دروب الصحراء أقنعه بعدم وجود عدد كاف من الجمال لحمل الجيوش والمؤن ، وعدم وجود طرق برية تيسر زحف الجيش ، ونصحه بأن يحمل قواته فى البحر إلى ميناء النبط على ساحل البحر الأحمر ميناء « لويكة كومة » .

واستمع أوليوس غالوس إلى نصيحة مستشاره وحمل قواته على السفن الرومانية والمصرية ، وانطلقت الأساطيل قاصدة ساحل الحجـاز ، وإذا بقرصان البحر من العرب واليمن يهاجم تلك الأساطيل ويتلف بعض السفن وينجح فى أن يغرق سفنا بكل رجالها وما تحمل من عتاد ومؤن . وبعد خمسة عشر يوما من المخاطر والأهوال وصلت السفن إلى ميناء النبط العظيم .

كان الرومان قد هيمنوا على هذا الميناء ووضعوا فيه حامية رومانية لحماية السفن من قراصنة البحر ولحماية الطرق البرية من قطاع السفن والتجار ، وكانوا يجبون المكوس على البضائع التى ترد إلى الميناء وكان مقدارها ٢٥٪ من ثمن تلك السلع .

ونزلت القوات الرومانية والمصرية إلى البر ، وبعد أن استراحت طويلا من أهوال البحر وانضم إليها رجال هيرود اليهود ورجال النبط انطلقت الحملة لتتوغل فى قلب الجزيرة العربية، وقد كانت كلمة صالح وزير عبادة الثانى هى الكلمة المسموعة فى الجيش كله .

ودخل أوليوس غالوس أرض قبيلة الحارث بن كعب وكان شيخها من ذوى قرابة عبادة ملك النبط ، فاستقبلت القبيلة الرومان استقبالا حسنا فظن الرجال أن الأمر نزهة فى الصحراء ، وإن هى إلا أيام حتى تخر بلاد العرب ساجدة للنسر الرومانى .

واستأنفت الحملة زحفها فى أرض وعرة قليلة الزرع والماء ، وبدأ الجنود يحسون التعب والعطش ، وكانوا كلما توغلوا فى الصحراء يقاسون لذع الشمس ونقص المؤن وشدة العطش ، وراح القواد يتطلعون إلى صالح فيؤكد لهم أن هذه طبيعة الصحراء .

وانقضت ثلاثون يوما ولا شىء إلا بحر الرمال وقرص الشمس فى السماء

نهارا ، والقمر والنجوم ليلا ، والريح الصرصر الغاتيه التى تكاد تزهق الأرواح فى كل وقت وحين ، كانوا يتوغلون فى قلب نجد قاصدين اليمن وسط هذه المخاطر القاتلة .

وتصرمت الأيام وبعد خمسين يوما من التعب والعطش والجوع والمرض وصلوا إلى نجران ، وكانت منطقة خصبة ، وقاتل الرومان أهل المدينة قتال المستميتين فقد كانوا يتشوقون إلى ماء المدينة وأن يتفيئوا ظلال الأشجار ، وسقطت نجران وفر ملكها ودخل الرومان المدينة يلتقطون أنفاسهم وينعمون ببعض الراحة بعد طول ما تحملوا من مشاق .

وراحت نظرات الريبة توجه إلى صالح فقد بذرت بذور الشك فى نواياه ، إنه يبغى تضليل الحملة بل هلاك الجيش فى البيداء ، وكان صالح ثابت الجنان يؤكد لأوليوس غالوس أن ما قاساه رجال الحملة إن هو إلا طبيعة الزحف فى الصحراء .

وأستأنفت الحملة زحفها إلى المجهول ، وبعد مسيرة ستة أيام دارت معركة بين الزاحفين والعرب عند نهر غيل الخارد ، ولما كانت أسلحة الرومان متفوقة فقد خسر المدافعون عشرة آلاف رجل ، ورأوا أن خير ما يفعلونه ألا يستأنفوا هجومهم وأن يدعوا القادمين من روما ومنف وأورشليم للطبيعة القاسية تثأر منهم لتجاسرهم على هتك حرمتها .

ومكثوا فى الجوف يستريحون ، ولكنّ أنى هى الراحة وقد دب اليأس فى نفوسهم وتسربت الأسقام إلى أبدانهم وباتوا يتلفتون مذعورين ؟ وبعد أيام استأنفوا سيرهم فراحوا يتوغلون فى اليمن وأمسوا على بعد يومين من أرض التوابل ، ولكن خارت قواهم وأصبح غاية آمالهم أن يعودوا سالمين إلى مصر .

انقضت ستة أشهر منذ خرج الجيش من « لويكة كومة » إلى آخر موضع بلغه الرومان فى الجنوب ، كانت كلها عطشا ونصبا وعذابا وأسقاما ، تضعضعت فيها روح الرجال وتحركت فيها أحقادهم على صالح دليلهم ومستشارهم ، ولكن لم يستطيعوا أن يبدوا له العداوة فقد كانوا يرجون أن يقفل بهم عائدين إلى بر السلامة .

لم يعثر الجيش الرومانى على ذهب ولا فضة وتقوضت الأحلام ، وسار بهم صالح فى طريق العودة وقد بلغ نجران فى تسعة أيام . ودارت هناك معركة بين العرب والرومان ، معركة كان الرومان كارهين لها فقد تيقنوا أن حملتهم باءت بالإخفاق وأنهم يحاربون لإنقاذ جلودهم ، وانتهز أوليوس غالوس أول فرصة ليستأنف عودته.

وبعد مسيرة أحد عشر يوما بلغوا «العيون السبع». ومن ذلك الموقع انطلقوا إلى خولان ومنه إلى تبالة، ومن تبالة دخلوا ينبع وقد أنهكهم المرض والتعب.

وانقلب الشك إلى يقين لما عاد بهم صالح إلى ينبع فى مدة أقصر كثيرا من تلك المدة التى قطعوها فى ذهابهم ، فاتهموا صالحا بالخيانة وسوء المشورة ، وبتعمده تضليل الحملة واستخدامها فى ضرب المدن التى يريد ضربها وإضعاف القبائل التى يخشى بأسها وتوهين قوى الرومان ، ليصبح سيد الموقف فى بلاد العرب .

وأمضى الرومان الذين عادوا من المغامرة الصيف والشتاء فى ميناء ينبع يعالجون من الأمراض التى فتكت بهم ، فقد ابتلوا بنقص فى الطعام والشراب وضربات الشمس الحامية ، ثم ركبوا السفن التى جاءت تحملهم بعد إخفاق الحملة وانطلقوا إلى قفط ومنها إلى الإسكندرية وقد وضعوا وزر ما حاق بهم على صالح وزير عبادة الثانى ملك النبط .

٢١

تقبل الله مريم بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وكبرت مريم فصار على حَنة أمها أن تفى بنذرها ، فانطلقت إلى أورشليم لتسلمها إلى العباد المقيمين فى المعبد، فتنازع العباد فى أيهم يكفلها ، وأراد زكريا أن يستبد بها دونهم فإليصابات خالتها فأبوا وقالوا :

ــ نقترع فمن خرجت قرعته كان له حق كفالتها .

وجاء كل منهم بقلم معروف به وحملوا الأقلام ووضعوها فى موضع أمروا غلاما لم يبلغ الحِنث أن يخرج قلما منها ، فأخرج واحدا فكان قلم زكريا ، فقال الرجال :

ــ لا نقترع مرة أخرى ، نلقى أقلامنا فى النهر .

وذهبوا إلى النهر وألقوا أقلامهم ، فسارت جميع الأقلام مع التيار إلا قلم زكريا فقد جرى خلاف جريه فى الماء ، فكفلها زكريا ، وراحت مريم تقضى نهارها فى العبادة والاستغفار وتمضى ليلها فى مناجاة ربها . وفى ذات ليلة بينما كانت غارقة فى ابتهالاتها أحست كأن شخصا فى محرابها فتلفتت فلم تجد أحدا ، فمشى الخوف فى أوصالها ومس أذنيها حفيف صوت فقالت :

ــ من هناك ؟

وإذا بصوت عذب يقول :

ــ أنا رسول ربك إليك يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على

نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين .

ودخل عليها زكريا المحراب وكان قد نال منه الكبر ، فوجد عندها فاكهة فى غير أوانها فتعجب وقال لها :

— يا مريم أنى لك هذا ؟

— هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وعاد زكريا إلى محرابه ، إنه قارب الثمانين و لم يرزق ولدا . وحز فى نفسه أن يبقى فردا وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع فى ذلك وإليصابات عاقر ، ولكن ما رآه فى محراب مريم أحيا الأمل فى نفسه فراح يدعو الله :

— رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا و لم أكن بدعائك رب شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا .

فرأى ملكا كريما يقول :

— يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .

قال زكريا :

— رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا .

قال الملك :

— كذلك قال ربك : هو علىّ هين ، وقد خلقتك من قبل و لم تك شيئا .

— رب اجعل لى آية .

— آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا إلى قومه ورمز إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى .

وقنتت مريم لربها وسجدت وركعت ، وبينما هي فى محرابها هبت نسائم رقيقة وعبق الجو بروائح زكية وغرق المكان فى نور سماوى ، وإذا بالملائكة أمامها .

قالت الملائكة :

— يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين .

— رب أنّى يكون لى ولد و لم يمسسني بشر ؟ إيليا قد قام.

— كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

وانتبذت مريم من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسل الله إليها رسوله فتمثل لها بشرا سويا . قالت :

— إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

قال :

— إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .

قالت :

— أنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر و لم أك بغيا ؟

قال :

— كذلك قال ربك هو علىّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت إلى محرابها تفكر فغشيها هم وقلق ، فهل يصدقها الناس إذا قالت لهم إنها حملت بالمسيح المنتظر ؟

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت :

ــ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا .

فأتت به قومها تحمله قالوا :

ــ يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا .

فأشارت إليه قالوا :

ــ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

قال :

ــ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

وشغل الناس عن مريم وابنها بالثورة التى اندلعت فى أرجاء فلسطين ، فقد مات هيرود الكبير ذلك الطاغية الذى رفع النسر الرومانى فوق هيكل سليمان ، وأمرت روما بإحصاء اليهود ورأى اليهود أن ذلك الإحصاء إن هو إلا مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا ، وتقييدهم عبيدا لقيصر تفرض عليهم عبادته وافتتاح الصلوات باسمه .

ضاق اليهود بالضرائب جميعا فقد كانوا يؤدون ضريبة للهيكل وضريبة للدولة ، وضاقوا بقسوة سيطرة الرومان ، فلما دعا يهوذا الجليلى إلى حرب روما خف إليه الثوار وانطلقوا إلى أورشليم واحتلوها ، وحوصر الفيلق الرومانى الذى يحميها ودمر قصر هيرود وأشعل فيه النار .

وغضب أغسطس فى روما فأمر حاكم سورية أن يؤدب العصاة ، فخرجت الجنود العربية والفرسان الرومان ودخلوا فلسطين يقتلون الرجال ويتركون المدن طعمة للنيران ، ففر منهم الثوار إلى التلال فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع .

وسيطر الرومان على أورشليم ورفع الحصار عن حاميتها ، ونزل الكرب بالمدن اليهودية فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود وبعثوا سفراء إلى أغسطس يلتمسون منه أن ينصب عليهم ملكا يعيد الهدوء والسلام .

كانت العداوة قد شبت بين هيرود الكبير وبين صالح ، ولقد ذهب صالح إلى روما وقابل أغسطس قيصر وحاول أن يقضى على هيرود دون جدوى ، فقد كان هيرود عبدا مخلصا لروما غذى أبناءه بحبها ، فلما جاء وفد اليهود إلى روما يلتمس صيانة الأرواح ، قسم فلسطين إلى ولايات ونصب أبناء هيرود الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فكان أنتيباس هيرود الثانى على الجليل ، وكان إخوته على الولايات الأخرى ، أما أورشليم ، القلب المقدس ، فقد جعلها أغسطس ولاية رومانية يحكمها حاكم رومانى يتلقى الأوامر من قصر قيصر.

ومرت الأيام وشب يحيى[1] فى أورشليم ونما عيسى فى الجليل ، ونشأ يحيى منذورا للبتولة وكان عليما بالكتب الدينية يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته . وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، وكان يعيش بالقرب من نهر الأردن ليتطهر على الدوام فقد كان من المتطهرين ، وكان يرتدى ثوبا خشنا من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل .

---

(١) يحيى هو يوحنا المعمدان .

وأوحى إليه وهى صبى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، فكان لا يتقى حرجا فى كلامه عن ذى خطيئة أو دنس ، لا يخشى فى الله لومة لائم . فلما رأى قصور حكام الأقاليم مراتع للهو ، وأن أنتيباس هيرود غارق فى الدنس تساق إلى قصوره أجمل الفتيات راقصات عاريات ، وكئوس الخمر تدور على الأصفياء ، وأن الفساد دب فى مجلس السنهدرين مجلس رجال الدين ، راح يشن أعنف حملة على دولة الأغنياء ورجال الدين ، وسمع الناس به فذهبوا إلى نهر الأردن وألقوا إليه سمعهم قال :

ــ إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمل بهن وآمركم أن تعلموا بهن. وأولادهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا، فإن مَثل ذلك مَثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا .

وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وأمركم بالصيام فإن مُثل ذلك كمَثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون

من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

وراح يحيى يقول للوفود التى توافدت عليه :

ـــ توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وذاع فى البلاد أن نبيا خشنا قام فى البرية يدعو إلى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء . ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد قالوا إن إيليا قد قام .

وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فج مهطعين إلى الأردن ، وأقبل الفريسيون فى كبريائهم الغرور يملؤهم فهم يعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يغادرون نضد التوراة يقرءون فيها ويقرءون ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة حتى حفظوا النصوص وتزمتوا فى تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لا يؤبه له .

نظروا إلى ذلك الرجل الناحل العارى إلا من مدرعة من شعر ، وأعاروه سمعهم وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، ثم دنوا منه وقالوا له :

ـــ من أنت حتى نخبر من أرسلونا . آلمسيح أنت ؟

ـــ لا .

ـــ آلنبى أنت ؟

لا . أنا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبى .

فنظروا إليه فى زراية وقالوا :

ـــ فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى ؟

كانوا ينتظرون مجىء المسيح وقيام إيليا ومبعث النبى الآمى « الذين آتيناهم

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

قال يحيى لمن كانوا يحسبون غرورا أنهم الناس ومن عداهم أمم ، وأن الجنة لهم دون الناس جميعا لأنهم أبناء إبراهيم :

— يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم ، والآن وضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثمارا جيدا تقطع وتلقى فى النار .

٢٢

الناصرة غارقة فى الصمت تطوف بها الأحلام ، راح الناس فى نوم عميق وهجعت نجوم السماء وكانت ليلة لم يزغ فيها نجم ، وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى لله ، فابنها خرج إلى يحيى بن زكريا الذى بعثه الله بشيرا بملكوت السماء ، وتقضت أيام وليالى وأسابيع ولم يرجع عيسى إليها ، كان اليقين يملؤها أن أوان بعث ابنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقتها ، إنها لم تفارقه مذ وضعته ، وإنها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التى فقدته فيها وهو جالس فى الهيكل بين العلماء وإنها لترجو أوبته ليعود إليها الاطمئنان .

كانت العيون غافلة إلا عينى مريم فى بيتها الراقد فى تواضع عند أقدام التلال ، وعينى عيسى وهو فوق الجبل قد تعلقتا بالرجاء .

وتوافدت إلى رأس عيسى الأفكار ، إلى أين يذهب بعد أن بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ؟ أيذهب إلى الناصرة تلك القرية المغمورة فى الجليل وينطلق يدعو الناس إلى عبادة الله ؟ أيقوم بين الناس داعيا إلى الهدى وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت فى جوفه رهبة ولكن ما كان له بعد أن أيده الله بروح القدس أن يخاف .

وقفزت إلى رأسه صورة يحيى وهو فى مدرعة الشعر ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ قومه لا يهاب أحدا ولا يخشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المال ؛ فأمدته تلك المشاهد بقوة وعزم ، فاتضح الطريق أمام عينيه . سيجوب المدن اليهودية داعيا إلى الرشاد موطدا النفس على

احتمال الأذى والعذاب ، فما أحلى الاضطهاد فى سبيل الله .

وسار فى ذلك الفضاء العريض يحس كأنما ملىء علما وحكمة ، فالصحراء والحجارة والسماء تمده بألوان جديدة من التفكير . وذلك الانطلاق فى الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعا بل صار مؤانسة ، فما كان فى تلك المفاوز وحده بل كان فيها مع الله . .

وفى الطريق لاحت له أرباض مدينة فيمم شطرها ودخلها ليدعو أهلها إلى الصلاح ، وألفى الناس فى السوق غادين رائحين فاعتلى مكانا عاليا وراح يقول :

— يا بنى إسرائيل ، يا بنى إسرائيل .

فاجتمع الناس إليه يصغون فقال :

— يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار .

فارتفعت أصوات تسأله :

— من أنت ؟

— إنى رسول الله إليكم .

— وما أدرانا أنك رسول ؟

— جئتكم بآية من ربكم .

— وما هى ؟

— أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله .

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ، ثم نفخ فى الطين فدبت الروح فيه ، وطار فى الجو وعيون الناس معلقة به . وعقد الدهش

ألسنتهم ولاحت الحيرة فى وجوههم وظلوا فى ذهول حتى سرى همس :

ــ هذا سحر .

وأفاقوا من دهشتهم فقالوا فى توكيد :

ــ إن هذا إلا سحر مبين .

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، وابتعد عنهم رويدا رويدا وهو حزين ، إنه يدعوهم إلى النجاة فيعرضون عنه ولو أنه دعاهم إلى الضلال لأقبلوا إليه يتسابقون .

وأطرق يفكر فيما كان ؛ إنه دعا الناس فجاءوا يصغون إليه وتركوه يبلغ رسالات ربه ، فإذا كانوا لم يؤمنوا بما دعا إليه ولم يصدقوه فسيأتى يوم يسارعون إليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فرأى أن يعتصم بالصبر فالصبر من عزم الأمور .

وغابت الشمس وراحت تختفى وراء تلال الناصرة، فبدت أشجار التين والزيتون نابتة فى الشفق كأنما لصقت على لوحة فى لون العقيق ، فخفق قلبه وأغذ السير فقد أحس شوقا إلى أمه فى أن يفضى إليها باصطفاء الله إياه وبعثه رسولا إلى بنى إسرائيل .

وانساب فى طرقات الناصرة وقد سيطر السكون ونشر الليل ألويته ، ودلف إلى فلما رأته مريم هرعت إليه تضمه إلى صدرها فى حنان ، وجلسا فى جوف الليل يتناجيان وقال لها فيما قال :

ــ وفيما أنا فى صلاتى وابتهالى فوق الجبل سقط من السماء نور باهر ، وإذا بجبريل الأمين يخبرنى أن الله بعثنى رسولا إلى بنى إسرائيل .

وغادر الناصرة وسار صوب الجليل ، واخترق الوادى الزاهر ومس أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة ، ومس الجمال المكان بيده الساحرة فبدت

الحقول زاهية ناضرة ، وقامت أشجار سامقة شامخة ، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور وبدت البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية .

ولاحت على شاطئ البحيرة الغربى الجبال الخضر ، وامتدت على الشاطئ الشرقى الصحراء القاحلة الماحلة ، ومد بصره أمامه فرأى الجبال العالية تتوجها الثلوج الناصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها فبدت كمرمر مصفى .

وشيدت على الشاطئ الغربى مدن وقرى . مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك ، فهى محاط للقوافل الذاهبة إلى الأردن ومصر وسورية ، وكانت فى هذه المنطقة طبرية العاصمة التى شيدها أنتيباس وسماها بذلك الاسم متملقا الإمبراطور الرومانى طيباروس ، فلا غرو والتملق ديدنه أن يطلق على المدينة التى يبنيها اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان ، فقد سمى من قبل مدينته قيصرية إرضاء لإمبراطوره السابق أغسطس قيصر .

ووقف على الشاطئ البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعابث الماء فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب ، وأقبلت مراكب الصيادين تتهادى ووضحت أصوات المجاديف ، وراحت الشمس تبعث إلى الأرض آخر أنفاسها وتصبغ الشفق بالذهب إيذانا بانتهاء يوم العمل .

وازدحم الشاطئ بالناس فقام عيسى يعظهم ويدعوهم إلى الله ، وإن دعوته تمتاز بالحرارة والإيمان ، كان فى نبراته قوة وفى صوته صدق وكلماته تتدفق من القلب لتصب فى القلب ، فأحسوا نحوه انجذابا وإعجابا، ولكن ذلك الإعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة .

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان ، كان للكلام وقع السحر فى

أنفسهما ، خيل إليهما أنه يدعوهما وحدهما ، فتفتحت له قلوبهما وتعلقت به أبصارهما وأريق فى جوفهما نور ، فقد أوحى الله إليهما أن آمنا بى وبرسولى فآمنا به وصدقاه .

وانفض الناس من حوله وسار ، وسار فى أثره أندراوس ويوحنا ، وسمع وقع أقدامهما فالتفت إليهما وقال فى رقة :

ـــ ماذا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن أرتج عليهما فقالا :

ـــ أين تسكن ؟

لم يكن له دار ، جاء يدعو إلى الله وينام فى الفضاء فى حراسة الله فقال لهما :

ـــ تعاليا وانظرا .

وجلسا يصغيان إليه وهو يدعوهما إلى الله فأحسا سعادة ، فكل كلمة ينطقها تمس شغاف الفؤاد ، وظلوا فى مناجاة حتى تصرم الليل فانصرف أندراوس ويوحنا بعد أن شهدا أن عيسى رسول الله .

وذهب أندراوس ينقب عن أخيه سمعان ليبشره بظهور نبى بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ، وترقب يوحنا عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى هو الأمل المرتقب الذى ينتظره اليهود .

وأقبل سمعان وقد شرح الله قلبه للإيمان ، فما تحدث إليه عيسى حتى آمن بالله وبرسوله .

ووفد نثنائيل إلى الجليل وكان رجلا صالحا ، فذهب إلى شجرة التين وراح يصلى وعيسى يرصده من بعيد . قرأ « الكريشما » وهى خدمة الصلاة اليومية فى خشوع وابتهل إلى الله من قلبه ، فشعر بروحه تتفتح وبالدنيا حوله

تزهو كأنما رد إليها شبابها وسرى فيها روح مقدس .

وذهب عيسى إلى البحيرة وصادف شابا صيادا فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له فى رقة :

— اتبعنى .

فترك فيلبس شباكه ومركبه وتبع عيسى كظله ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله إليه الإيمان به والتصديق برسالته .

« واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه وراح يصلى لله ويناجيه فتشف روحه ويتمكن من قلبه إيمان عميق ، وانطلق فيلبس يبحث عن صديقه نثنائيل فلما قابله قال له فى حماسة :

— إن الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه .

— عمن تتحدث ؟

— عن النبى الجديد .

— أين وجدته ؟

— هنا فى الجليل .

— ومن هو ؟

— عيسى بن مريم من الناصرة .

فقال نثنائيل فى استخفاف :

— من أين ؟

— من الناصرة .

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة هازئة :

— أيخرج من الناصرة شىء صالح ؟!

كانت الناصرة حقيرة فى الجليل أهلها فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها

إلا نجارون وقرويون بسطاء يتعلمون ولا يعلمون ، فمن أين جاء هـذا الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبس ؟

أصغى نثنائيل إلى فيلبس فى عجب فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيلبس لاح فى عينى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدفقا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ، ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفتيه وما قال له : تعال وانظر حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ .

وجاءا إلى عيسى فرنا إلى نثنائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال :

ــ ها هو ذا إسرائيلى لا غش فيه .

فعجب نثنائيل وقال له :

ــ من أين تعرفنى ؟

ــ رأيتك وأنت تحت التينة قبل أن يدعوك فيلبس .

وأصغى نثنائيل إليه منشرح الصدر ، فأحس كأنما بلسم مس روحه وكأن صوتا آتيا من السماء يدعوه إلى الإيمان والتصديق ، فقال فى انفعال :

ــ أشهد أنك رسول الله .

وهجر الصيادون شباكهم ووهبوا أنفسهم لله ، وذهبوا مـع عـيسى ليعاونوه فى أداء رسالته ، ويلقوا شباك الإيمان على قلوب من أراد الله لهم الهدى والرشاد « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » .

٢٣

انطلق هيرود أنتيباس إلى عاصمته الجديدة طبرية ، فهو حاكم الجليل وقد كان أمله أن يرفع عاصمته ليجعلها قطعة من روما ، فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهى وبث فيها الحدائق ، وراح يشاهد مصارعة الرجال للأسود ، فهو يقتفى آثار أبيه هيرود الكبير فى التقرب من روما وفى خضوعه لنزواته وشهواته . ولما كان معجبا بأبيه فقد راح يستمد منه وحيه ويحاكيه .

وكان يظهر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين ، فإذا ما جاءت الأيام المقدسة ذهب خاشعا إلى الهيكل بأورشليم يقدم أنفس الضحايا والقرابين ، فإذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ترك قصره وذهب إلى قلعة ماكيروس القائمة على تل عال يطل على صحراء البتراء عاصمة النبط المنيعة ، وهناك يتحرر من قيوده ويعيش لشهواته ونزواته وهو آمن أن يطلع عليه أحد من اليهود ، فهذه القلعة قائمة فى أرض سيدون وكانت مدينة عامرة دمرها الله بخطيئة أهلها ، وما كان اليهود يدخلون أرضا حلت عليها لعنة السماء .

كان يتظاهر لليهود بتقواه وإن كان فى قرارة نفسه يشتهى أن يكون فى هيئة رومانى أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ويرتدى ثياب الأسياد ويقوم مثلهم بالحفلات ويتخذ لنفسه بلاطا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه النبطية تفضحه وتصر له أنه رجل شرقى نابت فى لفحة الصحراء .

وتأهب للخروج إلى روما لمقابلة طيباروس إمبراطور الرومان يقدم له فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء إليه رسل السنهدرين الذين بعثهم إلى الأردن ليروا ذلك الصوت المنبعث فى البرية يبشر الناس بقرب ملكوت السماء وقالوا له :

— إن ذلك الرجل يفتن الناس ودعواه تهدد الأمن العام ، فهو يبشرهم بنبى جديد يستل الملوك من عروشهم ويحضهم على الثورة على المال والسلطان .

وفكر هيرود أنتيباس فى ذلك الثائر الجديد فهاجت وساوسه وخشى إن سافر وهو طليق أن يقلب القوم عليه ، فإذا عاد وجده قد أفسد الناس ، فأمر جنوده أن يقبضوا عليه وأن يسجنوه فى قلعة ماكيروس .

وانطلق جنود هيرود أنتيباس إلى الأردن وألقوا القبض على يحيى الذى يبشر بملكوت الله ، وانفض الناس من حوله ليجتمعوا فى جبال السامرة معلنين سخطهم على ما حاق ببيهم الدى أحبوه وآمنوا به ووجدوا فيه المبشر بالخلاص .

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان بين أنتيباس وبيلاطس جفوة ، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ أخوه بزيارته بعد أن عين حاكما على ولا يته فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنا من أخيه ، ولم تقع الزيارة المرتقبة فتغيرت النفوس وحل الجفاء .

بعث بيلاطس جنوده إلى الثائرين اللائذين بالجبال وقتل بعضهم وفرق شملهم ، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة فأرسل إلى أنتيباس ليرى رأيه فى ذلك الرجل الذى سجنه والذى تعلقت به قلوب المؤمنين المتعصبين .

وشغل أنتيباس هيرود بذلك السجين الذى لا يملك من دنياه إلا مدرعة من

وبر الجمل ومنطقة من جلد وبيانا يزلزل به عروش الطغاة ، فلو أطلق سراحه لجمع قلوب المتعصبين حوله وهدد ملكه بالزوال ، وإذا أبقاه فى سجنه أوغر صدور الناس ، فرأى ألا يشتط وأن يدع للصدور الفائرة بالحماسة منفذا ، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه وأن يبعث إلى الشعب من سجنه بما يشاء .

وأقبل يوم السفر إلى روما فجاءت زوجته ابنة هرثمة الرابع ملك النبط تودعه فودعها فى فتور ، ثم انطلق للقاء سيده تداعبه آمال عراض . كان عبادة الثانى قد هلك وولى أمر النبط من بعده هرثمة الرابع ، وقد تزوج أنتيباس هيرود ابنته ليقوى مركزه بهذه المصاهرة .

ونزل هيرود الصغير على الإمبراطور طيباروس ضيفا عزيزا ، وفكر وهو فى روما أن يزور أخاه فيلبس الذى حرمه هيرود الكبير من الميراث فعاش فى روما عيشة الرومان . دخل هيرود الصغير على أخيه فيليبس فأعجبته هيروديا زوج أخيه ، كانت رائعة الحسن أندى من الندى وأنضر من أزهار الربيع ، وكانت هيروديا مغامرة تهفو إلى أن يزين تاج الملك جبينها ، فراحت تلاقى هيرود فى غفلة من العيون ، وملك حبه لها حواسه فزين لها فى نجوى الهرب معه فقالت :

— وزجتك ؟

— أطلقها .

ما أيسرها من كلمة فى بيت هيرود ، فهيرود الكبير طلق وتزوج مرات ومرات حتى إن رجال الدين ضاقوا بذلك ورفعوا إليه أنهم يخشون ثورة الناس، وكان هيرود أنتيباس سر أبيه لا يجد فى طلاق زوجه أى إثم ما دام ذلك الطلاق يمكنه من إرضاء نزواته وإطفاء شهواته .

وفى غفلة من فيليبس الأخ المخدوع والمضيف الكريم فر هيرود وهيروديا

وابنتها سالومى الصغيرة الجميلة ونزلت هيروديا القصر الرائع فى طبرية . و لم تحتمل الزوجة العربية ابنة هرثمة الرابع ملك النبط العار الذى لحق بها من جراء فعلة هيرود الطائشة ، فالتمست من زوجها الاعتكاف فى قلعة ما كيروس حتى تهدأ غيرتها ، فسمح لها ليخلو له وجه هيروديا الساحرة .

امتلأت ابنة هرثمة الرابع حقدا ، فما بلغت قلعة ماكيروس وأشرفت على البتراء عاصمة ملك أبيها حتى فاض غضبها وتلوت من الطعنة المسمومة التى سددها لكبريائها ، ورأت أن لن تنطفئ تلك الوقدة التى أججها فى أحشائها قبل أن تشعل ملكه نارا ، ففرت إلى البتراء لتضرم نار العداوة فى قلب أبيها هرثمة الذى ثار للإهانة التى ألحقها أنتيباس بابنته التى يحبها ، ستكلف هذه الإهانة اليهود غالبا .

وتزوج أنتيباس هيرود من هيروديا زوج أخيه فيليبس ، وفيليبس حى فى روما لم يطلق زوجه ، وغضب الشعب لذلك الزواج ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين والوافدين من روما ليزينوا بلاط هيروديا .

وضاق هيرود الصغير بالحفلات والرسميات ، وأحس رغبة فى أن يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية ، فالوحش القابع فى أغواره يلح عليه أن يبدو فى صورته الحقيقية، فدعا هيروديا إلى قصره بقلعة ماكيروس بعيدا عن أعين الفريسيين المتزمتين ، وإن كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم وأنه مثلهم متمسك بحرفية الشريعة الموسوية !.

وبلغا القلعة وأطلت هيروديا منها ، إنها شاهقة تطل على الصحراء المترامية ، كانت كحارس ساهر على حدود الجليل الفاصلة بين هيرود الصغير وصهره هرثمة الرابع ملك النبط وقد وقعت العداوة بينهما ، فما ينبغى لذلك

الحارس أن ينام .

وراحت هيروديا تجوس خلال القلعة فصك أذنيها صوت يحيى : « توبوا فقد اقترب ملكوت السماء » ، فعادت إلى هيرود والتمست منه أن تصغى إلى ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الأبواب .

وتمدد هيرود فى فراشه الوثير ووقفت هيروديا خلف الستارة وجاء الحراس بيحيى ، فلم تبهره الطنافس الرائعة ولا الستائر الفاخرة ولا الحرير الذى يغوص فيه الملك ، وقال فى قوة :

ــ اهجر هذه المرأة .

ــ لماذا ؟

ــ إنها لا تحل لك .

ولم يجد هيرود ما يقوله فأشار للجنود أن يأخذوه وأطرق مهموما ، وخرجت هيروديا من وراء الستائر وذهبت إليه يتطاير شرر الغضب من عينيها وهتفت :

ــ كيف سمحت له أن ينطق بما نطق به ؟ مرهم أن يقتلوه .

ولكن هيرود الصغير لم يفعل شيئا . كان فى أعماقه يهابه ويخاف أن يمد إليه يد السوء ، إذا قتله ثار الناس عليه وحلت عليه لعنة السماء .

وعاد يحيى إلى سجنه وبذرت بذور الحقد والكراهية والمقت فى صدر هيروديا . ومرت الأيام ورأى أنتيباس هيرود أن يحتفل بعيد ميلاده فى قلعة ماكيروس ومحاكيا ساداته من الأباطرة الرومانيين ، فدب النشاط فى القلعة ووفد أصدقاؤه من الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين الذين كانوا ضالعين معه فى خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى والصلاح .

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطلاق ، يختلس فيها هيرود اللذة بعيدا عن رقابة شعبه الذى لا حديث له إلا الحرام والحلال . وكانت سجنا رهيبا للثوار الخارجين على السلطان وللأنبياء ، كانت كامرأة ذات وجه بسام وقلب مظلم رهيب لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف الشفقة إليه سبيلا .

وذهب هيرود وهيروديا وبطانتهما إلى القلعة يستقبلون الزوار . وأتى المساء وأضيئت المشاعل فى القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام . وبدت فى الشرفة الصحراء المترامية فى سكونها والسماء المزينة بمصابيحها والبحر الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة ، ومدت الموائد وتكدست فوقها صحاف الفضة وأوانى الذهب ملئت بالمآكل والفواكه والشراب .

ووفد المدعوون : الرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون فى ركاب السلطان ، وتحلقوا حول الموائد وامتلأت البطون ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة .

وكانت هيروديا إلى جوار هيرود تعابث ابنتها سالومى وكانت رائعة الحسن كزنبقة نبتت فى الصحراء . ونظر هيرود إليها وقفزت إلى رأسه فكرة : لماذا لا ترقص سالومى فى عيد ميلاده وقد ذاعت شهرتها كراقصة مبدعة حتى قرعت أبواب القياصرة فى روما ؟

فمال هيرود على سالومى وقال :

— ارقصى لى يا سالومى .

— لا أشعر برغبة فى الرقص .

— إذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

ـــ حقا ؟

ـــ أقسم لك يا سالومى ما سألتنى شيئا إلا أعطيتك .

وقامت سالومى ورقصت فى خفة الطيف وتثنت كأفعى وهيروديا ترقبها وقد نبتت فى رأسها أفكار شريرة ، وحبست الأنفاس فسالومى ترقص فى حرارة كأنما تتدفق فى عروقها النيران تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت إلى هيرود وحنت رأسها أمامه فقال لها فى انشراح :

ـــ انهضى لأمنحك ما تطلبين .

ونهضت والتفتت إلى أمها فهمست أمها فى أذنها : « أطلبى رأس يحيى » . فذهبت إلى هيرود فقال لها :

ـــ هيه ، ماذا تطلبين ؟

ـــ هدية فى طست من فضة .

ـــ هدية فى طست من فضة ؟ وما هذه ؟

ـــ رأس يحيى .

فاربد وجه هيرود وطارت الخمر من رأسه فصحا من سكره وقال فى فزع :

ـــ لا .. لا .. غير هذا يا سالومى .

ـــ أريد رأس يحيى .

ـــ لا .. لا .. إنه رجل صالح ، غير هذا يا سالومى .. اسألى نصف مملكتى ..

فقالت هيروديا فى إصرار :

ـــ لقد أقسمت .

وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان الوالغون فى الإثم والعدوان .

ــ أقسمت قسما عظيما فبر بقسمك .

وثارت فيه بربريته فلم يشأ أن يحنث أمام مدعويه فى قسمه ولو كان الحنث أشرف من سفك دم برىء ، فقال فى صوت خافت :

ــ أعطوها ما طلبت .

وهبط الجنود إلى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم ، وانقشعت النشوة وحل قلق ورهبة ، وإذا بالجنود يعودون يحملون طستا من فضة فوقه رأس يحيى ، وتناولت سالومى الطست وعيون الفزع ترمقها ، وذهبت إلى أمها تقدم لها رأس من سبها ومرغها فى العار .

ذبح يحيى ، ذبح من قال عيسى عنه لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف إثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل العفيف ، ولو كانت دعوى الفداء حقا وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم الموروثة ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء لكان ذلك الدم الطاهر الذى أهدر بلا جريرة أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة آدم . ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء ، فقد قرر فى التوراة أن النفس التى تخطئ تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون . وقرر أن الآباء لا يقتلون عن الأبناء ولا يقتل الأبناء عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل .

إن الله عادل. من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى. وقد كتب الله على نفسه الرحمة، فإذا كان آدم أخطأ فقد نال جزاء خطيئته، طرد من الجنة وهبط إلى دنيا الشقاء وراح يستغفر الله ويذرف دموع الندم، ولما كان الله يغفر الذنوب جميعا فقد عفا عن زلة عبده. «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»..

٣٤

راح الفريسيون المتزمتون ينطلقون فى طرقات أورشليم يتجسسون على الناس ليتحققوا أن كل شيء نظيف وطاهر كما تقضى الشريعة الموسوية ، ومع ذلك لم تزكم أنوفهم رائحة روث الثيران والغنم التى تكدست فى هيكل سليمان ، فتجار الثيران والأغنام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأغنياء تثير ثائرة الفريسيين ، حتى هليل وشماى وكبار رجال الدين لم يجدوا فى قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله !

وفى طرقات أورشليم تدفق الحجاج : المصريون فى ثيابهم الفرعونية والسوريون فى أرديتهم الوطنية والأغنياء فى ثيابهم الغالية والفقراء فى أسمالهم البالية ، والجنود الرومان فى غدو ورواح ينظرون إلى البحر المتلاطم من الأجناس المتباينة جاءوا يقدمون خشوعهم ليهوه إلـه إسرائيل .

ووفد حجاج الجليل : النساء محجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات ، والصبيان يلعبون فى مرح ، وبين تلك النسوة كانت مريم . إنها فى كل فصح تذهب إلى الهيكل المقدس ، الإيمان العميق يسكن قلبها . أما فى هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها فى جوفها يخفق كجناح حمامة ، الرهبة تكتنفها والقلق يسرى فيها ، فقد كانت تعلم أن ابنها قادم إلى أورشليم ليعرض نفسه على الناس ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

ودلف عيسى إلى الهيكل فإذا بالتجار يحتلون رواق الأمم ، وإذا الثيران

والغنم تملأ المكان ، فراح يطرد الثيران والغنم ثم ذهب إلى تجار الحمام وقال لهم بصوت آمر :

ـــ ارفعوا هذا من هنا .

فأذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا فقد كانوا فى أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون فما كان الحرم مكان بيع وشراء . وذهب إلى موائد الصيارفه وقلبها و لم يحتج الصيارفة على ذلك الذى لم يدروا بأى سلطان يطردهم فقد كانوا مشغولين بجمع أموالهم .

ودخل عيسى إلى الهيكل يصلى واندفع الناس خلفه ، فلما أتم صلاته دنا منه رجل وقال له :

ـــ إن الشعب يحب أن يسمعك .

وراح عيسى يعظ الناس ، واشتد على الشعب لأنهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لجشعهم ، ووبخ الكتبة الذين تركوا التعاليم الصحيحة وراحوا يعلمون الناس تعاليم باطلة زائفة .

وأثرت موعظته فى الناس فجرت دموعهم على خدودهم وانهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة وأحسوا الله فى أنفسهم فقد كانت موعظته قوية تمس أوتار القلوب ، أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتلأوا غيظا وتحركت بغضاؤهم فقد نال منهم على ملأ من الحجاج ، بيد أنهم كتموا ما فى قلوبهم خشية من ثورة الناس إذا مسوه بسوء . وكان أعضاء السنهدرين حاضرين يسمعون فحقدوا عليه إلا نيقوديموس فقد كان لكلامه وقع جميل فى نفسه .

كان نيقوديموس غنيا حكيما وثالث عضو فى السنهدرين ، المجمع المقدس ، فقد أثرت فيه دعوة عيسى فأحس رغبة فى أن يصغى إليه ، ولما كان

عالما جليلا خشى أن يجلس إلى جليلى فقير أمام الناس يتلقى منه علما وحكمة .

وتريث حتى إذا أقبل الليل خرج متسترا بالظلام ، وجاء إلى عيسى فألفاه يبشر بملكوت الله كما كان يحيى يبشر به ويقول : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وما قام ثالث رجل فى السنهدرين من عنده إلا وقد شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن عيسى عبده ورسوله .

ورأى عيسى أن يغادر أورشليم معقل الكتبة والفريسيين المرائين وأن يذهب إلى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، فإذا كثر تابعوه ومؤيدوه جاء إليهم عزيز الجانب يناوئهم فى معقلهم تظاهره قوة تعاونه على إظهار الحق المبين .

وهبط من التلال العالية التى شيدت فوقها أورشليم يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس وصديقه برتولوماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، وانطلقوا مع الطريق حتى خرجوا من اليهودية ووقفوا على حدود السامرة ، وأراد الحواريون أن يدوروا حولها فما كان اليهود يدخلونها فهم يحتقرون السامريين ويضعونهم فى مصاف الوثنيين لأنهم يعتنقون مذهب غاريزيم ، ذلك المذهب الذى لا يعترف إلا بالإصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، أما ما بعد موسى من مزامير وأناشيد وقصص إستر ومردخاى فلا يعترفون به ، فالتوراة نزلت على موسى وكل ما بعد موسى إن هو إلا تاريخ بنى إسرائيل واليهود .

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم ويجدون وزرا فى محادثتهم ، حتى إذا سقط ظل سامرى على واحد منهم أوجب ذلك التطهر من النجس الذى حل به وقالوا : « إن قطعة الخبز التى تأكلها من سامرى هى قطعة من لحم

الخنزير » .

و لم يلتفت عيسى لتلك الأوهام فقد كان يدعو إلى الإسلام الذى دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وسليمان ، ذلك الدين الذى لا يفرق بين بنى إسرائيل وسائر الأمم ، ولا بين اليهود والسامريين ، فقد كان عيسى يعلم أن الناس جميعا لآدم وآدم من تراب ، فراح يخترق السامرة والحواريون معه حتى إذا ما بلغ شكيم (نابلس) راح يبحث عن مكان يستريح فيه ، فألفى بئر يعقوب تظللها أشجار التين فانطلق إليها بينما ذهب الحواريون إلى المدينة يشترون طعاما .

ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم . ففى ذلك المكان سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لله رب العالمين ، وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها فقال لها :

ـــ اسقنى .

عجبت السامرية لذلك الطلب وترجمت عن عجبها بقولها :

ـــ كيف تطلب منى أن أسقيك وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ؟

فقال لها فى هدوء :

ـــ لو كنت تعلمين عطية الله ومن هذا الذى يقول لك اسقنى ، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا .

فنظرت المرأة إلى البئر وقالت فى استخفاف :

ـــ يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحى ؟ لعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه ؟

فأراد عيسى أن يرفعها من الماديات إلى المعنويات فقال لها :

ـــ كل من يشرب من هذا الماء يعطش ، ولكن من يشرب من الماء الذى

أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد .

ودار حوار بين عيسى والمرأة ، حوار ألقى ضوءا على جوانب حياتها فقالت له :

ــ أنت نبى .

ووقعت عيناها على الهيكل الذى أقامه السامريون فى شكيم فقالت :

ــ آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه .

ــ يا امرأة صدقينى ، إنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون لله ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون أما نحن فنسجد لما نعلم .

وسواء صدقته أم لم تصدقه فقد صدقه الزمان ، وجاء الدين الذى جعل الأرض كلها مسجدا ، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .

فقالت المرأة وقد تأثرت بما قال :

ــ أعلم أن المسيح يأتى فإذا جاء أخبرنا بكل شىء .

ــ أنا هو الذى أكلمك .

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير المربى الصادق يخالف ما يقول به الربيون ، فقد كان محرما أن يتكلم الربى علانية مع امرأة حتى ولو كانت زوجته . ولاح الدهش فى وجوههم فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يتحدث مع سامرية فاجرة .

وذهبوا إليه وقد كتموا دهشتهم ، وفرت المرأة مخلفة جرتها وانطلقت إلى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبى الذى كشف لها عن أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له :

ــ كل .

ـــ أنا لى طعام لستم تعرفونه .

فالتفت الحواريون بعضهم إلى البعض وقالوا :

ـــ لعل أحداأتاه بشىء يأكله .

فقال لهم عيسى مؤكدا رسالته :

ـــ طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله .

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون ، وغص بهم المكان فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السماوات ، فتفتحت قلوبهم له ودعوه أن ينزل عندهم يومين . فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيليبس وبرثولوماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آبهين لذلك المثل الذى يقول : « إن قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحم الخنزير » .

٢٥

انطلق عيسى وحواريوه إلى كفر ناحوم وهى مدينة لصيد الأسماك ومرفأ لتصدير فائض الجليل من القمح والزيت والصوف والفواكه ، فكان محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم ، يزنون كل ما يخرج إلى المراكب ويقدرون عليه الرسوم ، وما كانوا تابعين لسلطة واحدة بل كانوا فريقين : فريقا يجبى الضرائب للرومان وفريقا يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته .

وراح عيسى يقول :

ــ يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

واجتمع الناس يصيخون أسماعهم لذلك النبى الذى يعظهم ويقول لهم :

ــ توبوا لأنه اقترب ملكوت السماوات .

وتعطل العمل فى المرفأ ولكن سرعان ما جاء أصحاب الأعمال وصاحوا بالصيادين والحمالين :

ــ إن الوعظ ليس فى المرفأ بل هناك فى المجمع .

انصرف الناس إلى أعمالهم إلا اثنين أحدهما كاتب يعرف التوراة ويعلم الناس فى المجامع ، والآخر محصل ضرائب باع نفسه للرومان ، وتقدم الكاتب إلى عيسى عارضا نفسه :

ــ أتبعك أينما تمضى .

وفى نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذى فيه غرور الكتبة فلم يفرح به ولم يقبله تلميذا من تلاميذه ، بل قال له :

ـــ للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الإنسان فلا يدرى أين يضع رأسه .

إنه فى كفر ناحوم يمضى ليله فى بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث فى مكان واحد طويلا ، إنه فى رحلة دائمة : يوم فى أورشليم ويوم فى كفر ناحوم ويوم فى الناصرة ويوم فى غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك الكاتب بقادر على أن يعيش هذه الحياة أو يحتمل ذلك التقشف الذى لا يحتمله إلا رجل عميق الإيمان .

وانصرف الكاتب ونظر عيسى فوجد متى يتطلع إليه وفى عينيه صفاء نفسه . وفى لحظة فحص عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذى فى ثياب عشار انشرح صدره للإيمان ، أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى فأشار له وقال :

ـــ اتبعنى .

وخرج عيسى وتلاميذه إلى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم يبشر الناس ويقول لهم :

ـــ توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء .

وصعد عيسى الجبل وألقى موعظة الجبل :

ـــ طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش للبر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين

من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات .

ودار حوار طويل بينه وبين الكتبة والفريسيين ، ثم هبط من الجبل وانطلق وحده بعيدا عن ضوضاء الناس يستريح ، وما لبث أن جاء إليه حواريوه يصلون لله :

أبانا الذى فى السماوات ،
ليتقدس اسمك ،
ليأت ملكوتك ،
لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ،
خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم ؛
اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا ،
ولا تدخلنا فى تجربة ،
ولكن نجنا من الشرير ،
لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد ،
آمين .

ولم يدع مع الله إلـٰها آخر فى صلاته فقد كان يدعو إلى الإسلام دعوة الرسل من قبله ، ولما كان بشيرا باقتراب ملكوت الله فقد راح يردد فى صلاته « فليأت ملكوتك » وراح أتباعه يرددونها مع الأيام .

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات وأجيالا . « فليأت ملكوتك » هى الإنجيل الذى جاء به إلى الأتباع والأنصار ، هى البشارة بالسعادة الحقيقية ، ترى متى يأتى ذلك الملكوت ؟

كان الحواريون لا يدرون متى يأتى ذلك الملكوت ، كان بعضهم يظن أنه سيأتى الساعة وأنه حاضر على الأبواب . وأن من الأحياء السامعين من

لا يذوق الموت حتى يرى ابن الإنسان آتيا فى ملكوته . وكان آخرون يرون أن المدى بعيد وأن الصابرين إلى المنتهى ينجون وينادى بشارة الملكوت هذه فى أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم .

إن قول عيسى يرن فى آذانهم : « أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية[1] ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره » .

الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، وقد رفض بنو إسرائيل أن يعترفوا بأن إسماعيل وإسحاق سواء ، قالوا لتحقير إسماعيل إنه ابن الجارية وادعوا أن سارة قالت : ابن الجارية لا يرث مع ابنى . ولم يكن ذلك فى شرع السماء ، لذلك سينزع ملكوت الله من بنى إسرائيل ويعطيه لحفيد ذلك الذى رفضه بنو إسرائيل ، لحفيد إسماعيل صادق الوعد الأمين .

وملكوت السماء لن يكون شهادة لبنى إسرائيل ، إنه شهادة للأمم ، فالله سيبعث فى الأميين رسولا ، يعطيه ملكوت السماوات .

وراح عيسى يضرب الأمثال للناس ولحوارييه قال :

— خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سقط بعض البذور فأكلته

---

(١) قال محمد ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت ها هنا لبنة فيتم البناء ؟. قال ﷺ : فأنا اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » .

رواه أبو هريرة وأبو سعيد وجابر بألفاظ مختلفة . راجع كتاب الفضائل جـ ٤ صحيح مسلم . طبعة الحلبى .

طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر ، فلما نبتت جفت لأنها لم تسق بالماء ، وسقطت بذور وسط الشوك فنبت معها الشوك وخنقها ، وسقطت بذور فى الأرض الصالحة فلما نبتت أخرجت مائة ضعف .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ من له أذنان ليسمع فليسمع .

واستمر عيسى يضرب الأمثال للناس وحواريوه ينظرون إليه فاغرى الأفواه لا يفهمون كل ما يقول ، كانوا صيادى أسماك أغفالا لم يتعلموا علما إلا فى مدرسته ، لذلك كانوا إذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله ، فلما تفرقت الجموع وبقى عيسى وحواريوه وحدهم قالوا له :

ـــ ماذا تقصد بمثل الزرع والزارع ؟

ـــ لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله(١) .

فأصاخوا سمعهم فسيفضى إليهم بأسرار ملكوت الله ذلك الملكوت الذى بشر به يحيى من قبل وجعله عيسى ابتهالا فى الصلاة ، قال :

ـــ الزرع هو كلام الله ، والذين على الطريق هم الذين يسمعون ، ثم يأتى أبليس وينزع الكلمة من قلوبهم ، والذين على الصخر هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح . وهو ليس لهم أصل فيؤمنون إلى حين وفى وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون ، أما البذور التى سقطت فى الأرض الطيبة فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها فى قلب مؤمن حتى تثمر بالصبر .

هذا هو سر ملكوت الله الذى بشر به يحيى ويُبشر به ويدعو الله فى

---

(١) لوقا (٨ : ١٥ ـــ ٦٥) .

صلاته أن يرسله للناس ، ذلك الملكوت الذى شريعته البيضاء « كلام الله » .

وعرفوا أسرار الملكوت ، إنه سينزع من بنى إسرائيل ويعطى لأمة تعمل ثماره وهو للناس كافة ، فهو شهادة لجميع الأمم . ولن يأتى ذلك الملكوت إلا إذا نزل إلى الأرض كلام الله وسارت شريعته ونبتت تعاليمه فى الأرض الطيبة ، ولن ينال ذلك إلا بالصبر والصبر الطويل .

إنه السراج المنير الذى قال لهم عنه : ليس لأحد يوقد سراجا ويغطيه أو يضعه تحت السرير ، بل يضعه على منارة ليهتدى الداخلون بالنور .

إن بذرة ملكوت الله ستبذر فى أرض طيبة ، فى أمة مؤمنة صالحة . « كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

٢٦

راح عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويقول لحوارييه :

ـــ إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة . وفيما أنتم ذاهبون عظوا قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السماوات .

كان يبشرهم بهدف رسالته فهو رسول إلى بنى إسرائيل ومبشرا باقتراب ملكوت الله . واختتم وصيته لهم قائلا :

ـــ من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ، من يقبل نبيا باسم نبى فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار فأجر بار يأخذ .

وكانت أورشليم غارقة فى المنازعات الدينية فكانت المناظرات لا تنقطع بين أتباع هلليل وأتباع شماى ، وكانت العداوة ناشبة بين الصدوقيين الشعبيين وبين الفريسيين الطائفين ، وكان بنو إسرائيل يرسفون فى أغلال هؤلاء الكهنة راضين فقد ثبتوا فى أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس .

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحرمات ويقسمونها إلى أقسام ودرجات ، شماى فى تزمته يمنع فى يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيه الدفاع عن النفس وقتال الأعداء وإن جاءوا للبلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شىء فيه وإن كان إبرة أو كان قطعة من قماش زينت ثوب امرأة و لم تثبت فيه ، حتى الأسنان الصناعية كانت حملا لا ينبغى حمله فى السبت المقدس .

أظهروا التقشف رياء للناس وتظاهروا بالتقوى وحماية الشريعة ، حتى إن فريق « الجباه الدامية » من الفريسيين ينطلقون فى الطرقات مغمضى العيون لكيلا تقع عيونهم على النساء فيتخبطون فى سيرهم ويرتطمون بالجدران فتسيل دماؤهم على جباههم إرضاء للناموس !

وراح عيسى يحارب ذلك الرياء فساء رجال الدين أن يقوم ذلك النبى الجديد بفتح أعين بنى إسرائيل فيزعزع سلطانهم ويقوض صرحهم الذى أقاموه على الخداع ، ويفضح تعاليمهم ويسد منافذ الخير فى وجوههم . فلو قر فى أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة ودون وساطة الكهان لبارت تجارتهم وذابت قدسيتهم وجف نهر الأموال المتدفق عليهم ، لذلك بعثوا إليه فريسيين متعصبين يتجسسون عليه حتى إذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه واستراحوا من خطره الذى أرقهم وأطار النوم من أعينهم .

وأرسل أعضاء السنهدرين جواسيس يتربصون به ، وبعث إليه هيرود أنتيباس يدعوه أن يأتيه إلى قصره لا ليستمع إلى تعاليمه فما كان مهتما إلى تلك التعاليم ، ولكن لأن شبح يحيى الذى يطارده فى اليقظة وفى المنام أفزعه وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثأر لدمه، فأراد أن يرى ذلك النبى ليستريح من هواجسه التى تضنيه ، ولكن عيسى لم يستجب لدعوته .

وانطلق عيسى يوم السبت إلى المجمع وكان الصدوقيون والفريسيون فى الصفوف الأولى ، وما تقدم عيسى خطوات حتى أسرع إليه بناء به حادث وتوسل إليه أن يشفيه ، فقال له :

ـــ اذهب وقم فى وسط المجمع .

فذهب الرجل والفريسيون والكهنة يرمقون عيسى فى اهتمام يترقبون أن يشفى الرجل فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت ، فالتفت عيسى إلى

الفريسيين الشامخين غرورا وقال لهم :

ـــ أيحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخليص نفس أم قتلها؟

لم ينبسوا بكلمة بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه بل جاءوا يترقبون خطأه ليقبضوا عليه ويحملوه إلى السنهدرين ، فرماهم بنظرة حادة وقال لهم :

ـــ إذا كان لأحدكم خروف وسقط فى حفرة فى يوم السبت هل ينتشله ؟

أغرقوا فى الصمت وبقيت أعينهم مثبتة به ، وكظم غيظه وقال :

ـــ إنقاذ إنسان أفضل من إنقاذ خروف ؛ إذا يحل فعل الخير فى السبوت .

قال للبناء فى رفق :

ـــ مد يديك .

فمد الرجل يده فإذا اليد اليابسة تتحرك وعادت سيرتها الأولى ، واتفق أعداؤه على قتله وهموا به فألفوه اختفى عن أعينهم .

وقال حواريوه : إنك لأنت المسيح ، فقال لهم : لا تذكروا ذلك لأحد حتى لا يزيد فى عداوة السنهدرين والصدوقيين والفريسيين . وجاء العيد وانطلق الناس إلى أورشليم وهم يرجون أن يلقوا ذلك النبى ، ومرت أيام العيد دون أن يظهر ففرح أعداؤه ، ولكن سرعان ما انقلب سرورهم غما لما رأوه فى رواق من أروقة الهيكل يقول :

ـــ تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه أما الذى يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق . ...

أعطاكم موسى الختان ، والختان ليس من موسى بل من الآباء ، فى السبت تختنون الأولاد فإذا كان الإنسان يقبل الختان فى السبت لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لآنى شفيت إنسانا فى السبت ؟ لا تحكموا بالظواهر

احكموا حكما عادلا .

لم آت من نفسى بل أرسلنى الحق الذى لا تعرفونه .

وثار رجال الدين وثار اليهود فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة بالله ، وها هو ذاك القادم من الناصرة يتهمهم بأنهم لا يعرفونه ، يتهمهم بالكفر به ونكرانه .

وهجموا عليه ليمسكوه ولكنه اختفى دون أن يروه . فقد كان قادرا على الإفلات من أيدى الأعداء ، فظهر على وجوههم ذهول فقالوا :

ـــ هذا سحر مبين .

واستمر يقرع رجال الدين ويسخر منهم ، حتى إذا ما هموا بالقبض عليه كان يجتاز فى وسطهم ويمضى دون أن يروه فكانوا يقولون :

ـــ إنه ساحر !

وذهب إلى بيت إليعازر ، إلى بيت من أحياه بأمر الله بعد أن مات ، واتكأ ليستريح . ورأته مريم المجدلية فأحضرت قارورة ناردين خالص وأكبت على رجليه وراحت تدهن قدميه بالطيب فعبق البيت بالروائح الزكية النفاذة. والتفت الحواريون إلى المجدلية وفى عيونهم شىء من الإنكار فما كان لامرأة أن تلمس رجلا غريبا ، ورأى يهوذا الأسخريوطى وكان خازن الجماعة أن فى إهراق ذلك الطيب النادر تبذيرا فقال :

ـــ لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار أنفقناها على الفقراء .

ولمح عيسى ما فى وجه المجدلية من انفعال فقال :

ـــ دعوها ، لماذا تتبعونها ؟ لقد أحسنت إلىّ ، الفقراء معكم فى كل حين أما أنا فلست معكم فى كل حين .

واستولى الغضب على يهوذا واستبد به ودارت فى رأسه أفكار قاتمة

شريرة . وفى طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة ناحل الجسم أسود العينين تغطى وجهه لحية سوداء صغيرة . من يراه يحسبه عيسى ولكنه لم يكن عيسى بل كان يهوذا الأسخريوطى ، وكان فى طريقه إلى بيت قيافا رئيس الكهنة .

واستأذن فى الدخول فأذنوا له فإذا به فى قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهوذا يتحدث وهم يصغون إليه فى دهش لا يدرون أيصدقون ما يسمعون أم يتلقونه فى حذر ؟ جاء يهوذا الأسخريوطى الحوارى الصديق يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه .

* * *

وقامت مشادات بين عيسى وبين الصدوقيين والفريسيين فى الهيكل حول البعث ، وكان الصدوقيون كافرين باليوم الآخر بينا كان الفريسيون يؤمنون به ، فلما قال عيسى بالبعث فرح قوم وغضب قوم آخرون ، ودنا فريسى منه وسأله :

ـــ ما أعظم وصية فى الناموس ؟

ـــ إن أولى الوصايا هى الرب إلٰهنا رب واحد . وحب الرب إلٰهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى . والوصية الثانية هى حب قريبك كنفسك . ليس هناك وصية أخرى أعظم من هاتين .

ـــ نطقت صدقا لأن الله واحد لا آخر سواه ومحبته من كل القلب ومن كل الفم ومن كل النفس وكل القدرة ، ومحبة غيرنا كما نحب نفوسنا هى أفضل من كل الذبائح والقرابين .

فنظر عيسى للفريسى فى عطف وقال له :

ــ لست بعيدا عن ملكوت الله .

وانطلق عيسى ومن حوله حواريوه وقد أطبق الصمت عليهم . كان عيسى حزينا لتلك العداوة وذلك العناد البادى من الفريسيين . حاربوه فى اليهودية وحاربوه فى الجليل حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه . كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدقوه لو أتاهم بآية من الله لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت فى السماء أبواب وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمون ، فقد كان كل ما يرمون إليه أن يشككوا الناس فيه .

وسار حواريوه ترن فى آذانهم كلماته فيأخذون فى التفكير ، فما حدث اليوم فى الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم ، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريعه للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج لهجموا عليه وقتلوه . راح يصرخ فيهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون » . « ويل لكم أيها القادة العميان » هتك رياءهم أمام الناس وتركهم فى الهيكل عظاما نخرة .

وخرجوا مطرقين ، والتفت أحد تلاميذه إلى الهيكل والشمس ترسل إليه أشعتها فتنعكس ذهبا وهاجا . كان منظرا يملأ النفس روعة فأراد أن يسرى عن نبيه فقال له :

ــ انظر ، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية !

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

ــ أترى هذه الأبنية العظيمة . ستنقض ولن يبقى حجر على حجر .

وعض يهوذا على نواجذه ، فما بال كلمات عيسى تقطر فى هذه الأيام مرارة ؟ أجاء إلى بنى إسرائيل بالأمل أم جاءهم بالنقمة والعذاب ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ إذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه

فقد ثار فى وجوههم وألقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والحيرة والقلق . وراحوا يرقون جبل الزيتون وعلى سفحه جلسوا : عيسى فى إطراقه الحزين وحواريوه يجرون وراء أفكارهم وهم يلهثون .

إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

واستقر عيسى فى بيت مريم وركن إلى الهدوء و لم يخرج إلى الهيكل يدعو الناس إلى ربه ، فتضايق يهوذا وتمنى لو يخرج عيسى إلى قومه وأن يأتى بآية كتلك الآيات التى أتى بها فى الجليل ليمحو طبقات الشك التى تراكمت فى جوفه حتى كادت تخنق ما فى فؤاده من إيمان وتصديق .

وقفزت إلى رأس يهوذا فكرة ، إذا كان عيسى قد ركن إلى الدعة أو إذا كان قد استسلم لليأس فسيضطره إلى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشدهم إلى مقره حتى يعود إلى الكفاح ، فالاحتكاك بالأعداء كفيل بإذكاء روح المقاومة فيه .

سيرشدهم إليه ليخرجه من عزلته ، فقد ينتصر عليهم فى العيد وتؤمن به الوفود فيكون ذلك قبس النور الذى يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق إلى ملك المسيح الدائم ما دامت الأرض والسماء .

لو آمن الناس به فى العيد لانقشعت غن عينى يهوذا الغشاوة وتبخر الشك والقلق الحائر الجوال فى نفسه ، فذلك الإيمان يحيى الأمل فى إمكان تأسيس مملكة المسيح التى جاءت بها البشارات .

وقام فى نفسه اعتراض : إنه يسلم سيده إلى اعدائه إذا أرشدهم إليه وما كان يحب أن يمسوه بسوء ، إنه شك فيه وانتابه القلق ولكن ذلك ما كان يدفعه

إلى تسليمه .

وكاد يعدل عن تلك الفكرة ولكن ذهنه أمده بما يؤيده فيما ذهب إليه . إنه لو أرشدهم إلى عيسى لجدد شباب الدعوة فلا خوف عليه منهم ، فياطالما حاولوا أن يمسكوه ولكنه كان يجتاز فى وسطهم كالطيف فلن يستطيعوا أن يمسوه بسوء .

كان يهوذا يتخبط لا يدرى حقيقة عواطفه . كان يشك فيقلق ويثور وكانت تهب عليه نسائم من الإيمان فيثور على ثورته ، فكان قلقا مضطربا كل ما يبغيه أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء .

وانسل يهوذا إلى حيث كان الكتبة والفريسيون مجتمعين وقعد بينهم يصغى إلى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج إلى دورهم ثم ينقضون عليه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم : إن خير ما يفعلونه أن يقبضوا عليه قبل العيد فى مكان خلاء بعيدا عن محبيه . وأعجبتهم الفكرة فوافقوا عليها ، وخرج يهوذا وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح الدائمة ، بداية النور الذى يفضح ظلام قلبه .

٢٧

غابت الشمس وراء جبل الزيتون وخرج عيسى وحواريوه إلى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بجنود الرومان ووفود الحجاج من مصر وسورية وفلسطين فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد ، كانوا يهرعون إليه إذا قام فى الهيكل يدعوهم إلى الله أما إذا سار بينهم فما كانوا يميزونه من آلاف الجليليين الغادين الرائحين فى المدينة .

ودلفوا إلى مكان الاجتماع فإذا موائد الفصح مدت ، وإذا الأرائك صفت ، فذهبوا يتكئون فحاول كل من حوارييه أن يجلس إلى جوار المسيح ، وارتفعت بينهم المشاورات كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله ، فزاد ذلك الشقاق فى حزنه فحواريوه لم يفهموه و لم تؤثر فيهم تعاليمه .

جاءته يوما سالومى أم يعقوب ويوحنا تلتمس منه أن يسمح لابنيها أن يجلسا معه فى ملكوته ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، كانت تحسب أن ملكوته عالم كائن فوق السحاب فأرادت لابنيها السلطان . وما جاءت من تلقاء نفسها بل دفعها إلى ذلك أحب حوارييه إليه . وها هم أولاء فى ساعاته الأخيرة يتنافسون كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان .

وراح عيسى يوصيهم :

ــ الحق الحق أقول لكم : إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله .

الحق الحق أقول لكم : الذى يقبل من أرسلنى يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل

الذى أرسلنى .

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

ـ أنتم الذين ثبتم معى فى تجاربى ستكونون معى فى ملكوت الله ، تأكلون وتشربون على مائدتى وتجلسون على كرسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

اطمأن يهوذا إلى أفكاره التى احتلت رأسه فها هو ذا المسيح يضمن له الجنة ويعده بكرسى يدين سبطا من أسباط بنى إسرائيل ، فلو كانت تلك الأفكار فاجرة شريرة لحرمه من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه فاستأذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجته ، فقال له عيسى :

ـ ما أنت فاعله افعله سريعا .

فخرج يهوذا وانطلق إلى الهيكل ليخبر أعداء المسيح عن مكانه ليخرجه من عزلته ، لينفث فيه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة . انطلق وهو يحس فى أعماقه أن المسيح يبارك خطواته .

وراح المسيح يحاور تلاميذه قال :

ـ لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا به، فى بيت الله منازل كثيرة، قلت لكم إنى ذاهب لأعد لكم مكانا فإذا مضيت وأعددت لكم مكانا آتى وآخذكم إلى، فحيث أكون تكونون وحيث أذهب تعلمون الطريق.

فقال له توما :

ـ يا سيد لا نعلم أين تذهب ، فكيف نعرف الطريق ؟

ـ أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأتى أحد إلى الله إلا بى ، لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله أيضا .

قال له فيليبس :

ـ يا سيد أرنا الله وكفانا.

ـ الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ولكن يوحيه الله إلى .

إنى أذهب إلى الله ، فإن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط)(١) آخر يمكث معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم .

الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل لله الذى أرسلنى ، بهذا كلمتكم وأنا معكم ، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذى سيرسله فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلت لكم .

قلت لكم أنا ذاهب ثم أعود إليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون لأنى ذاهب إلى الله ، والله أعظم منى .

فقال له سمعان بطرس :

ـ يا معلم إنى مستعد أن أمضى معك إلى الموت .

فنظر عيسى إليه فى إشفاق وقال له :

ـ أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

وحدث هرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الأخيرة يختلفون فقال لهم :

ـ قوموا ننطلق من ههنا .

---

(١) فراقليط : لفظة يونانية ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية (بالمعزى) وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) انظر التذييل .

وخرجوا إلى المدينة التى كانت تحتفل بالعيد ، وراح المسيح ينظر إلى الجموع فتمثل فى لحظة كل دعوته ، وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

لم يشهد قومه له و لم يعترفوا بدعوته ، فالتفت عيسى إلى حوارييه وقال :

— ومتى جاء (الفراقليط) الذى سيرسله الله روح الحق الذى من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء .

وبلغوا جبل الزيتون فقال عيسى :

— هو ذا تأتى ساعة وقد أتت ، الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوننى وحدى وأنا لست وحدى لأن الله معى ، قد كلمتكم بهذا ليكون سلام ، سيكون لكم ضيق فى العالم ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

ورفع عيسى عينيه إلى السماء وقال :

— يا رب قد أتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذه الكأس فلتكن مشيئتك .

يا رب هذه هى الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإلـٰه الحقيقى وحدك وعيسى المسيح الذى أرسلته .

الآن علموا أن كل ما أعطيتنى هو من عندك. لأن الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنى خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت الذى أرسلتنى. يا رب لم يعرفك العالم أما أنا فقد عرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتنى.

ولف الحزن جبل الزيتون فقام عيسى وسار نحو وادى قدرون وسار تلاميذه مطرقين صامتين .

ودخلوا ضيعة وذهب عيسى يصلى لربه ، وسرعان ما نام حواريوه فراح عيسى يبتهل إلى الله فى صلاته :

— إلٰهى كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

واستمر فى دعائه ، ثم جاء حوارييه فوجدهم نياما فأيقظهم فقالوا له :

— والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه .

فقال فى أسى :

— يذهب الراعى وتتفرق الغنم .

وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه حتى ثقلت جفونهم فناموا . وظل فى خشوعه فأرهفت حواسه ومس أذنيه صوت خافت أخذ يتضح ، إنه وقع أقدام تقترب ، فقام ينظر فإذا أضواء مصابيح ومشاعل ، غمر المكان الضوء فهب الحواريون من نومهم مرعوبين .

وتقدم الجنود الرومانيون يحملون سيوفهم وحولهم خدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم وقال لهم :

— من تطلبون ؟ .

— عيسى الناصرى .

ولم يكونوا يعرفونه ، أرسلوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم فقال لهم عيسى :

— إنى أنا هو .

فخفق قلب يهوذا فى جوفه ، ترى أيقبضون عليه وينقضى ملك المسيح ويظل هو فى شكه وقلقه ، أم يمر من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادى ويخرج من استسلامه ويأسه ويستأنف جهاده وكفاحه ، وفى ذلك تجديد شباب الدعوة التى لم تتفتح براعيمها ؟!

رجع الجنود إلى الوراء وسقطوا على الأرض ، فانشرح صدر يهوذا فهو يحس فى تلك اللحظة ذلك الظلام الذى تجمع فى صدره ينقشع ، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها .

ونظر عيسى إلى الجنود وهم ينهضون وقال لهم فى تحد :

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصرى .

— قلت لكم إنى أنا هو ، فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .

وشهر بطرس سيفا وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه ، ونظر عيسى فوجد أنصاره أهون من أن يحموه فقال لبطرس :

— اجعل سيفك فى غمدك .

فوضع بطرس سيفه فى قرابه ، واتسعت عيون الحواريين رعبا فقال لهم عيسى :

— اذهبوا .

فانطلقوا فرارا لا يلوون على شىء وتركوا رسولهم الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور يحيط به جنود رومانيون غلاظ مدججون بالسلاح ، وبقى يهوذا يترقب خافت القلب مرعوبا ، فلو أن الرومانيين ألقوا القبض على عيسى لقتل يهوذا الشك والقلق .

وتقدم عيسى خطوات فرجع الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض ، وانطلق عيسى بينهم دون أن يروه وذهب ليختفى ويتحقق قوله لتلاميذه : « بعد قليل لا تبصروننى ثم بعد قليل أيضا تروننى » .

وأحس يهوذا نورا ينسكب فى جوفه وهزته موجة من الفرح ، فقد عاد إلى الحوارى الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى إيمانه الكامل ، وغسلت

روحه وتخلصت من شوائب الشك كما يتخلص الثوب من أدرانه إذا غسل بالماء .

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين ونظروا فلم يجدوا إلا يهوذا واقفا فى الظلام وحده ، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه عيسى . وأراد يهوذا أن يقاوم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه ولكنهم انهالوا عليه بالسباب وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه فتيقن أن الله أنزل به البلاء ليجازيه على شكه الذى نبت فى جوفه بعد أن أوحى إليه الإيمان ، فلزم الصمت وعزم على ألا ينبس بكلمة ، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهر ويستحق أن يجلس مع المسيح فى مملكة الله ويدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر كما قال له المسيح .

إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

٢٨

دخل الجنود وهم يقودون يهوذا إلى الهيكل وساروا إلى بيت رئيس الكهنة ، وسمحت لهم المرأة الواقفة عند الباب بالدخول . وأقبل بطرس الذى كان على البعد يقتفى آثارهم وأراد أن يدخل فرمته المرأة بنظرة فاحصة ثم قالت :

ـــ ألست أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان؟

فاضطرب بطرس وقال :

ـــ لا . لست من تلاميذه .

وساق الجنود الرومانيون يهوذا إلى غرفة واسعة تضيئها المشاعل وقد جلس فى نصف دائرة فريسيون وكتبة . ورأس الاجتماع شيخ كبير أبيض الشعر هو حنان صهر رئيس الكهنة قيافا ، وساد الاجتماع قلق ؛ كانوا يخشون فى أعماقهم أن ينزل عليهم غضب من السماء وإن أخفوا ذلك وإن تظاهروا بالعبوس والتقطيب .

أرادوا أن ينتهوا من محاكمته سريعا وأن يصدروا حكمهم بموته ثم يفروا من ذلك القلق السارى فى المكان ، فقال له حنان :

ـــ من هم تلاميذك ، وما هى تعاليمك ؟

فصمت يهوذا و لم يحر جوابا ، فصاح به حنان :

ـــ تكلم .

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم أحد الخدم ولطم يهوذا لطمة قوية

وقال له :

— جاوب رئيس الكهنة .

وبقي يهوذا ساكنا لا ينبس بكلمة ، وراح حنان يلقى عليه أسئلته ويهوذا غارق فى الصمت .

ودخل بطرس إلى الردهة الطويلة ، كانت الليلة شديدة البرودة فأوقد الجنود الرومانيون نارا يصطلونها فاقترب بطرس من النار ووقف ينعم بالدفء ، إذ وقف هناك فى القاعة القريبة من يحسبه سيده يحاكم أمام أعدائه ويحاسب حسابا عسيرا .

ورنا أحد الجنود إلى بطرس مليا ، إنه هو ذلك التلميذ الذى رفع سيفه وقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه وقال له :

— ألست أنت أيضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا . لست من تلاميذه .

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة وقال له :

— ألم أرك معه فى البستان ؟

— لا . إنى لا أعرفه .

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التى كانوا يذكونها فانسل هاربا مغادرا الهيكل لينجو بنفسه .

و لم يتكلم يهوذا فضاق به حنان ذرعا وأمر أن يقودوه إلى قيافا رئيس الكهنوت ليرى رأيه فيه ، فانطلقوا به فى جوف الليل حتى إذا وقف أمام قيافا ظل فى صمته العميق .

كان قيافا رئيس كهنوت اليهود يرى أنه خير للأمة أن يموت واحد من أن

تقوم بسببه حرب أهلية بين بنى إسرائيل ، فكانت غايته أن يقتله ويستريح . فراح يسأله وهو مطرق مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا وأراد أن ينتهى منه فأرسل يستدعى — وهو رئيس الكهنوت — شهود زور يشهدون عليه فلم يجد ، وأخيرا أقبل شاهدان وقالا :

— هذا قال إنى أقدر أن أنقض هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه .

فقال له قيافا :

— أما تجيب بشىء ؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك ؟

كان عيسى يقول إنه عبد الله ورسوله وقد كان ذلك القول مألوفا بين اليهود ، فلو أنه قال إنه الله أو إنه ابن الله لكان من الميسور إدانته وقتله ، أما أنه رسول الله فما كان ذلك شيئا غريبا بين بنى إسرائيل .

ولو كان المقبوض عليه عيسى لقال إنه قال ما يتهمانه به ، فما كان لنبى أن يكفر بأقواله ، ولكن يهوذا لم يشأ أن يكذب فى لحظاته الأخيرة ، فظل ساكنا لا ينطق بكلمة ، فنفد صبر رئيس الكهنة فقال له :

— أستحلفك بالله أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟

— أنت تقول ذلك، من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة وآتيا على سحاب السماء .

فقال رئيس الكهنة :

— لقد كفر فما حاجتنا إلى شهود ، ها قد سمعتم كفره .

والتفت إلى الفريسيين والكتبة وقال لهم :

— ماذا ترون فيه ؟

— إنه مستوجب الموت .

حكموا على يهوذا بالقتل وهم يحسبون أنه المسيح .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . وابتسموا فى راحة ولكن : « الساكن فى السماء يضحك ، الرب يستهزئ بهم » .

وانقضى الليل وصاح الديك فتذكر بطرس قول عيسى له : إنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك ، فهام على وجهه يبكى وينتحب حتى كادت كبده تتصدع من البكاء .

وخرج يهوذا إلى الردهة بعد أن قرر المجتمعون استحقاقه للقتل ، فقام إليه الخدم والجنود يبصقون فى وجهه ويلطمونه ويصفعونه ويركلونه ويسددون اللكمات إلى وجهه ويضحكون مستهزئين ، ويهوذا يتحمل إهانتهم فى صبر عجيب .

وساقوه إلى غرفة يحبسونه حتى طلوع النهار ، وأرادوا أن يقطعوا الوقت فحجبوا عينيه وتقدم إليه واحد منهم ولطمه وقالوا له هازئين .

ــ تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

وانعقد السنهدرين من الفريسيين الذين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس الاجتماع قيافا رئيس الكهنة المتظاهر بالتقوى الضالع مع الهيروديين فى الفسق والفساد .

وجىء بيهوذا ومثل أمام أعضاء السنهدرين وقد غير الاضطهاد هيئته ، وقال له قيافا :

ــ إن كنت المسيحُ فقل لنا .

ماذا يقول يهوذا ؟ إذا قال لهم إنه المسيح كذب ، وإن قال لهم إنه يهوذا لم يصدقوه .

فقال لهم فى سخرية :

ــ إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله .

فصاح قيافا :

ــ ما حاجتنا إلى شهود . سمعنا اعترافه .

وقام رؤساء السنهدرين وانطلقوا إلى قصر بيلاطس وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشدود وثاقه وحوله الجنود الرومانيون ، ودلفوا إلى القصر العظيم واستأذن قيافا رئيس الكهنوت فى الدخول إلى الحاكم الرومانى ، فلما أذن له قال :

ــ جئنا بعيسى ذلك الذى أضل كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة من الجليل حتى أورشليم ، و لم يكتف بدعواه بل راح يفسد الأمة ويحرض الناس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر ، زاعما أنه المسيح ملك اليهود .

كان بيلاطس يحب عيسى فقد سمع بآياته وتعاليمه ، فمال إليه قلبه وإن كتم ذلك عمن حوله . فطلب أن يدخلوه ، فلما دخل يهوذا انفرد به وقال له :

ــ سلمك الكهنة وشيوخ الشعب إلى يدى فقل الحق لأقيم العدل ، لأنى قادر على أن أطلقك وقادر على الأمر بقتلك .

فقال يهوذا :

ــ إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا لأنك تقتل بريئا .

واستمر بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وقال :

ــ أية شكاية تقدمونها على هذا الإنسان ؟

ــ لو لم يكن خطيرا ما دفعنا به إليك .

وراحوا يكيلون له التهم ويهوذا صامت لا ينبس بكلمة ، حتى تعجب

بيلاطس فقد كانت اتهاماتهم تقطر عداوة وإن كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى الرومانى ما يستوجب القتل .

وفطن رجال السنهدرين ورؤساء الكهنة إن بيلاطس يفكر فى إطلاقه فقالوا له .

ـــ إذا تركت هذا الجليلى فلست محبا لقيصر . كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر .

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلى قفزت إلى رأسه فكرة ليخرج من ذلك الحرج :

ـــ هل الرجل جليلى ؟

ـــ نعم .

ـــ أرسلوه إلى هيرود فهو من رعاياه ليرى فيه رأيه .

وخرج الكهنة وشيوخ إسرائيل ويهوذا والجنود الرومانيون وانطلقوا إلى هيرود ، فقد كان فى أورشليم فى العيد .

ودخل قيافا ورؤساء الشعب على هيرود وقالوا :

ـــ جاء من الجليل من يزعم أنه نبى وراح يفسد الناس ويغريهم بعدم دفع الضرائب إلى قيصر ، وقد حاكمه السنهدرين وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم فقد أرسلنا الوالى إليكم .

وجىء بيهوذا مشدودا وثاقه فرماه هيرود بنظرة سريعة فاحصة . كان يخشى أن يكون يحيى قد قام من الأموات ، ولما لم تكن فى وجهه صرامة يحيى ، فملامحه لا توحى بما كانت توحى به ملامح النبى الخشن من رهبة ، فقد سكنت الطمأنينة قلبه .

وأصغى هيرود إلى الفريسيين والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تتدفق

من أفواههم تقطر عداوة ومقتا ، حتى إذا ما انتهوا من مفترياتهم التفت هيرود إلى يهوذا وقال له :

ــ ما تقول أنت ؟

و لم يحر جوابا فقال له هيرود :

ــ زعمت أنك رسول الله ، فإن أردت أن يصدقوك فأت بآية إنا منتظرون .

و لم يفتح يهوذا فمه ، وانقشعت مخاوف هيرود فعاد إلى طبعه الماجن وراح يسخر من يهوذا ، وبعث إلى رجال قصره ليشاركوه فى الزراية بالرجل والتهكم عليه فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيض . وأخيرا أمـر أعضاء السنهدرين أن يعودوا إلى بيلاطس وكتب له :

ــ أقم العدل فى بيت إسرائيل .

وعاد رجال السنهدرين إلى بيلاطس برسالة هيرود ، فالتفت بيلاطس إلى يهوذا فألفاه مكذودا فراح يحاوره ، ثم التفت إلى رجال السنهدرين وقال :

ــ قدمتم إلىّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم و لم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشكون به عليه، ولا هيرود أيضا لأنى أرسلتكم إليه، إنه لم يفعل ما يستحق عليه القتل فدعوه لى أؤدبه وأطلق سراحه.

فارتفعت أصوات الفريسيين والصدوقيين :

ــ اقتله . اقتله .

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذّون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

ــ نريد قتله .. نريد قتله .

ــ لم يفعل ما يستوجب القتل .

ـــ اقتله . اقتله .

وصمت بيلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التى حركها أعضاء السنهدرين ، واستجاب لها خدام الهيكل والجماهير التى تنتقل إليها عدوى الثورة أو عدوى الرضا دون أن تدرى لماذا ترضى ولماذا تثور ! بيد أن الثورة لم تخمد ، ارتفعت الأصوات تطلب صلبه .

وأخذ عسكر بيلاطس يهوذا ليعذبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه، فانهالت عليه الضربات وهو يئن كوحش جريح ، ثم ضفر الشعب الثائر إكليلا من الشوك وتوجوه به وهم يسخرون من ملك اليهود .

وسار ركب الموت فى طريقه إلى جلجثا ، كان قائد رومانى يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفنة من الرجال الرومانيين حولهم ، وجمع من الناس ينطلقون فى أثرهم ليشاهدوا الصلب تزجية للوقت فى العيد . كانوا ثلاثة يئنون تحت ثقل الصليب ، يهوذا ولصين حكم عليهما بالصلب معه ، وكان يهوذا أكثرهم ضعفا ، كان مجهدا محطما مزقته السياط والمحاكمات .

وبلغوا المكان وثبتت الصلبان فى الأرض ، وجىء بالرجال الثلاثة وخلعوا عنهم ثيابهم ، ثم رفع الرجال وفى وسط أكفهم دقت مسامير لتثبتهم فى خشب الصلبان .

وراح الوقت يمر وئيدا ويهوذا على الصليب يئن من العذاب ، وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى فراحوا يقولون :

ـــ خلص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه .

ـــ إن كان هو المسيح ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب لنرى ونؤمن

وضج يهوذا من آلامه ، وتذكر أن الله يعذبه للشك الذى خالط إيمانه ، فحقد على نفسه وصرخ :

— إيلى إيلى لم شبقتنى ؟! (إلٰهى إلٰهى لم تركتنى ؟!) .

ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حينا . كانت تجربة قاسية دفع ثمنها غاليا صابرا .

وصرخ يهوذا صرخة أعقبها صمت مطبق فقد أسلم الروح ، ومات الموتة الأولى و لم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ليحيا مع المسيح إلى الأبد .

واستحق يهوذا أن يكون مع المسيح وحوارييه يدين أسباط إسرائيل الاثنى عشر ، كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى إلى بنى إسرائيل يبشرون باسمه ويدعون الناس إلى ملكوت الله ، وكان من الذين أوحى الله إليهم أن آمنوا بى وبرسولى وكان من المبشرين بالجنة . مسه طائف من الشيطان فلما تذكر إذا هو مبصر فقدم نفسه راضيا عن سيده ليتطهر فتاب الله عليه ، فقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم .

وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنة من النساء الباكيات النائحات ، وأما حواريو المسيح فقد ولوا الأدبار مفزوعين ولو أنهم فهموه لما شكوا فيه ولتيقنوا أنه لم يصلب بل صلب غيره ، فقد قال لهم : « كلكم تشكون فى الليلة » ولو أصاخوا السمع لرن فى آذانهم قوله مؤكدا نصره على أعدائه من سنهدريين وصدوقيين وفريسيين :

— إنى قد غلبت العالم .

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما.

٢٩

كانت أسواق مملكة النبط غاصة بالبضائع الواردة من أثينا وروما وبابل ودمشق، وراح الناس يستخدمون عملة جديدة عليها صورة هرثمة الرابع محب شعبه وزوجته الثانية شقيلة، بعد أن كانت العملة القديمة عليها صورته وصورة زوجته الأولى خلد، أم زوجة أنتيباس هيرود التى ثارت لكرامتها عندما عاد زوجها أنتيباس هيرود من روما بعد أن أغرى زوجة أخيه هيروديا بأن تفر معه.

وكانت معابد الآلهة ذى الشرى ومنوتن واللات وهبل وقيس غاصة بالناس، وإن كانت قلوبهم خاوية من الإيمان بعد أن امتلات خزائنهم بالذهب والفضة، وراحوا يحاكون الرومان فى الأبهة والعظمة فبنوا الملاهى ونحتوا فى الصخر مسرحا عظيما لنحو أربعة آلاف متفرج، وقوس نصر.

وأطلقوا على رب الأرباب «الله» بعد أن كان يعرف منذ أيام إبراهيم الخليل بالإيل، وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل وصارت من الأسماء المعروفة فى أرض النبط سعد الله وتيم الله.

ولما بعدت الشقة بينهم وبين عدنان بن أدد ذلك الزعيم الجليل الذى وقف فى حصوراء فى وجه بختنصر، ونجح فى أن يصد هجومه وأن يمحو عن جبين العرب جميعا معرة خضوعهم لبختنصر، فقد ارتفع شأنه حتى كاد يقترب من الأرباب، فسمى النبط أبناءهم بعبد عدنان.

وكان صدر هرثمة الرابع ملك النبط يضيق بالحنق على أنتيباس هيرود، مذ ذلك اليوم الذى عادت إليه فيه ابنته غاضبة من زوجها الفاسق الذى جاء بزوجة أخيه إلى فراشها.

كانت قوارع يحيى التى يوجهها إلى أنتيباس هيرود تجد أطيب الآثر فى

نفس هرثمة ، وكان هرثمة يمنى النفس بثوره الجليليين على ملكهم الذى خرق الناموس وتزوج زوجة أخيه فيلبس وفيلبس حى لم يطلق زوجه، ولكن اليهود استكانوا للمهانة و لم يقد الفريسيون المراءون والصدوقيون المتنطعون ثورة على من داس مقدساتهم بالأقدام .

وفقد هرثمة الأمل فى ثورة الشعب اليهودى على أنتيباس هيرود الفاسق ، لما قدم هيرود رأس يحيى البار إلى سالومى ابنة هيروديا فى طست من الفضة مكافأة لها على استجابتها لرجائه ورقصها فى حفل عيد ميلاده ، و لم تشتعل الثورة لدم النبى الطاهر الذى سفح على مذبح الشهوات .

ووجد هرثمة أنه لا بد أن يثأر لكرامة ابنته بنفسه ، وأن لا أمل يرجى من ثورة اليهود على ملك الجليل بعد أن ظلم هيرود المسيح وبعث إلى الحاكم الرومانى يطلب قتله ، وقد تهلل الشعب اليهودى بالفرح لذلك الظلم المبين ، فانتهز فرصة خلاف على الحدود بينه وبين أنتيباس هيرود زوج ابنته الذى أهدر كرامتها ، وأعلن عليه الحرب وجيش الجيوش لقتال اليهود .

والتقى النبط باليهود فى جلعاد ، ودارت معركة انتصر فيها هرثمة على هيرود انتصارا كبيرا ،وتشتتت الجيوش اليهودية وخشى هيرود أن يقتفى هرثمة أثره ويضربه الضربة القاضية ففزع هيرود إلى سيده وحاميه قيصر روما .

لم ينجب أغسطس قيصر من زوجته الأولى ، فلما تزوج ليفيا كان يأمل أن تلد له ولدا ينشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن ذلك الزواج كان عقيما كسابقه وإن كانت ليفيا قد أنجبت لزوجها الأول طيباروس ودروسس .

وكان أغسطس قيصر يحب دروسس بينما كان يحترم طيباروس ولا يحبه .

ومات دروسس وهو فى شرخ الشباب فحزن أغسطس قيصر عليه ، وزاد فى حزنه أن طيباروس كان صلفا معتدا بنفسه ينزع إلى الكآبة والانطواء . ولما كان لا بد أن يربط بينه وبين من سيعتلى عرش روما من بعده فقد زوجه ابنته يوليا .

وكانت يوليا تمقت ذلك الزواج فأخذت تنتقل من عشيق إلى عشيق ، وانزوى طيباروس بينما كان أغسطس قيصر يعانى فى شيخوخته من عبث ابنته وتفكك أسرته ، مما اضطره إلى أن ينفى ابنته من البلاد .

* * *

وانتهت مأساة حياته بكلمات طالما انتهت بها الملهاة الرومانية :

ــ الآن وقد أتقنت تمثيل دورى فصفقوا ، وأخرجونى من المسرح بتصفيقكم .

ثم عانق زوجته وقال :

ــ تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا .

ومات أغسطس قيصر وتولى طيباروس رياسة الدولة الرومانية وقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره وكره المجتمع ، لم يعد يرى فى السلطان سعادة ، فعرض على مجلس الشيوخ أن يعيد الجمهورية ، ولكن أعضاء مجلس الشيوخ ما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة وهو يقول :

ــ إنها استرقاق مبهظ مذل .

وتولى طيباروس الحكم وهو يبغض الملكية لذلك سمى نفسه « زعيم الشيوخ » ، وكان يمقت الملق فلما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى شهرا باسمه كما فعل مع يوليوس قيصر وأغسطس قيصر ، رفض ذلك وقال فى سخرية :

ـــ وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصرا ؟

فلما فزع هيرود إلى سيده وزعيمه طيباروس والتمس منه أن ينجده من عدوه هرثمة الرابع ، نسى كل حكمته وبعث إلى عامله على سورية فيثلوس أن يسير على الفور بجيشه لمحاربة هرثمة ، والقبض عليه حيا أو ميتا وإرساله مكبلا بالسلاسل إلى روما أو إرسال رأسه إليه إن قتل .

وبلغ هرثمة أوامر طيباروس فغضب على الرومان وتأهب لقتال فيثلوس وهيرود ؛ الرومان واليهود الذين استكانوا لهم ، وكانت غضبته عارمة فأعد جيشا لم يخرج مثله من البتراء صخرة العرب .

وأعد فيثلوس العدة للقتال ، وخرجت جيوش الرومان من سورية لتأديب النبط على حربهم لحلفاء روما ، وبينما كان فيثلوس فى الطريق جاءت الأنباء بوفاة طيباروس ، فرأى فيثلوس أن يقفل راجعا بجيوشه دون أن يقاتل العرب .

ولم تطفئ وفاة طيباروس الثورة المتأججة فى صدر هرثمة بل شجعته على أن يسير إلى دمشق ، لتحريرها من الرومان ونزع النسر الرومانى من فوق دور الحكومة وأماكن العبادة .

وسارت الجيوش العربية إلى دمشق ، ودار القتال حولها بين فرسان العرب وفرسان الرومان واستبسل النبط فى القتال وكانت أسلحتهم كأسلحة الرومان ، ولكن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان بالنصر فما لبثوا أن ظهروا على أعدائهم ، واضطر الرومان إلى التقهقر وإغلاق أبواب دمشق فى وجه العرب الثائرين .

وطال الحصار وألقيت السهام والحجارة من فوق الأسوار ، وجاء النبط بالسلالم الخشبية الطويلة وبعد تضحيات جسيمة تمكنوا من أن يثبتوا السلالم على أسوار دمشق وصعد فيها الجنود العرب كالجرذان ، ودارت رحى معركة حامية فوق الأسوار انتصر فيها أحفاد نابت بن إسماعيل ، وسرعان ما فتحت أبواب دمشق للعرب الذين تدفقوا منها تطل من أسيافهم المنون .

وتقهقر الرومان مذعورين ثم داروا على أعقابهم مُدْبرين ، واستتب الأمر لهرثمة الرابع ملك النبط . وعادت دمشق مرة أخرى فى حوزة ملوك البتراء .

وساء موقف هيرود ، إنه إستنجد بالرومان فكان وبالا عليهم ، فقدوا دمشق بسببه وأصبح عدوه اللدود فى موقف يمكنه من أن يبطش به دون أن يخشى قياصرة روما . ترى أيعاود هيرود الالتجاء إلى روما بعد أن أصبح كاليجولا سيد الرومان ؟

كان طيباروس قد بعث قبل موته بصنم من ذهب على صورته ليسجد له اليهود ، فلما حمل بيلاطس الصنم إلى القدس ليوضع فى الهيكل ثار اليهود فى القدس وفى الجليل ، واضطر هيرود أنتيباس أن يعلن غضبه إرضاء للفريسيين والصدوقيين والشعب المتمسك بحرفية الناموس وإن أشرك بالله وعبد معه أرباب الوثنيين .

وبعث الرومان جيوشهم لإخماد تلك الثورة ، فانهزمت جيوش اليهود وقبض القائد الرومانى على أنتيباس هيرود وحمله مقيدا إلى روما ، ثم نفى إلى الأندلس ليموت هناك ، وخمدت تلك الجذوة اليهودية التى أشعلها هيرود الكبير فى ظل الحكم الرومانى ، وانقرضت دولة اليهود .

٣٠

مدينة طرسوس تطل على البحر الأبيض الذى طالما جرت فيه معارك بين الفرس واليونان والرومان وقراصنة البحار ، إنها تقوم على سهل تجرى فيه الأنهار فيهرع الناس إلى حذائقها لينعموا بالراحة والدعة بعد عناء وشقاء الأيام .

جاءت إليها كليوباطرة وقابلت أنطونيو ليعيشا فى قصة غرام ملتهب ، وجاء إليها يوليوس قيصر وأغسطس قيصر من بعده ، وراح يتدفق فيها فلاسفة اليونان والرومان وجنود القيصر ويهود لا هم لهم إلا جمع الذهب وإرساله إلى أورشليم إلى هيكل سليمان ، ووثنيون من أهل البلاد يتحدثون الآرامية ويعملون فى التجارة خضعوا ككل سكان سورية إلى سلطان روما ، تجبى منهم الضرائب لتحمل إلى إيطاليا عن يد وهم صاغرون .

وغص السهل المنبسط بالناس فقد كان اليوم عيد بعل إله المدينة بل زب الأرباب فى سورية كلها ، وراح الناس يشرئبون بأعناقهم ينظرون إلى حيث يخرج موكب الإله خافقة قلوبهم شاخصة أبصارهم يسرى فى صدورهم خوف من ربهم وطمع فيما عنده من رزق كريم .

وكان بين الجموع شاول اليهودي الصغير ، كان فى الثالثة عشرة من عمره أسود العينين غزير شعر الحاجبين مقوس الأنف مقوس الساقين ضئيل الجسم ، ولم يكن قد عرف بعد ببولص .

وظهر موكب الإلـٰه ، كان بعل على عربة قد ركب أسدا وزينت العربة بالزهور ، فارتفعت أصوات الناس بالابتهالات حتى غطت على صلوت الكهنة . وراح شاول يتلفت فى خوف ويقاوم تلك الرغبة الملحة التى تدعوه إلى أن يقف بين الناس يشاهد الموكب ، وسرعان ما رأى بعين خياله أباه الفريسى المتزمت وهو ينهاه عن مشاهدة أعياد الوثنيين ، ويهدده بعذاب يهوه إلـٰه اليهود الغيور الذى يأبى أن يعبد فى الأرض غيره ، ففزع وراح يعدو إلى البيت كأنما يجرى فى أثره شيطان .

كان بولص يتحاشى معابد الوثنيين وكان يختفى فى جوف الدار فى أعيادهم حتى لا تقع عيناه على أوثانهم وأصنام آلهتهم ، يصغى إلى نصائح أبيه وتمجيده للآباء ، فقد ماتت أمه وهو لايزال صغيرا ، وعلى الرغم من حرص بولص على مقاطعة أعياد الوثنيين فقد كان يسمع قصة بعل آناء الليل وأطراف النهار .

كان بعل يسير فى الأرض يدعو الناس إلى التقوى والصلاح قبل أن يبعث الله إبراهيم رسولا ، وقد كان له أعداء ككل مصلح فى الأرض فتربصوا به حتى قبضوا عليه وساقوه أسيرا إلى المحكمة . وبعد أن انتهت محاكمته وحكم عليه بالموت انهال عليه الجنود بالضرب ، ثم قادوه إلى الجبل بعد أن أطلقوا سراح مجرم حوكم معه وأخذوا معه مجرمين ، وما لبث أن تهدمت المدينة يوم نفذ فيه الحكم وأخذت ملابسه ، وقد راحت امرأة تبكى عند قبره وسرعان ما قام من الأموات وارتفع إلى السماء ليصبح إلـٰها يدين البشر .

غرست قصة بعل فى ضمير بولص كما غرست تعاليم أبيه الفريسى الذى كان يرددها على مسامعه صباح مساء : « اليهود هم الناس يا بنى ، أما ما عداهم أمم ، إنهم شعب الله . أرض فلسطين أرض الله . إنها أول أرض خلقها

ثم خلق سائر الأرض بعدها ، لقد أمطر الله بنفسه أرض فلسطين وبعث المياه إلى ما عداها من الأرضين . إن الذى يسكن فى فلسطين يسكن مع الله أما الذى يسكن خارج فلسطين فيعيش بلا إلـٰه » .

وراح أبوه يؤنبه إذا ما كسر السبت بحمل ورقة أو التقاط شىء من الأرض ، فشب بولص وهو يرتجف فرقا من أن يرتكب خطيئة مما نهى عنها الناموس اليهودى ، وكانت نفسه تهفو إلى أورشليم التى يغفر الله فيها الذنوب جميعا .

كان بولس يحترم بروحه قانون الله وكان جسمه يخضع على الرغم منه إلى قانون الخطيئة ، فكان إذا ارتكب أخطاء طفيفة يشعر بالذنب ويتألم ضميره ويؤنبه ، فعاش فى صراع دائم بين رغبات النفس ونواهى الناموس الذى زاد فى صرامته تنطع الفريسيين والصدوقيين والكتبة .

وبلغ السابعة عشرة وتحقق حلمه الذى كان يغذيه أبوه الفريسى الذى تجسدت آماله فى أورشليم وهيكل سليمان المقدس ، فانطلق بولص مع قافلة من القوافل الذاهبة إلى بيت المقدس ليكون مع يهوه ، فى كنفه وحمايته ، فقد لقنه أبوه أن الذى يعيش خارج فلسطين فهو يعيش بلا إلـٰه !

كان بولص يعتقد أنه من نسل بنيامين ، وكان الدين يسرى فى وجدانه مسرى الدم ، فهو منذ أن ميز بين ما يسمع كان يلقن التفرقة بين الحلال والحرام فى عرف الفريسيين المتزمتين ، والتفرقة بين اليهود وسائر الأمم ، والامتياز اليهودى على العالمين ، فشب وهو يعبد ذاته كأقرانه من اليهود ، يؤمن بيهوه وإن غرست فى قرارة نفسه أساطير الوثنيين السوريين .

وبلغ أورشليم وهو يحس إحساس الحاج الوافد إليها ليتطهر من ذنوبه

جميعا ، ونظر إليها وهي تتألق على قمة الجبل فغمرت عواطفه نشوة روحية هزت كيانه ، فلم يعد يحس إلا أنه فى مدينة الله وأنه يسرى فى الجنة التى أعدت للمتقين .

والتحق بالهيكل يتلقى العلم على أيدى كهنة اليهود ، و لم تتح له فرصة أن يلقى سمعه إلى المسيح وهو يعظ الناس فى الهيكل ، و لم يصعد إلى الجليل مع المسيح وحوارييه ليصغى إلى خطبة الجبل ، و لم يذهب إلى محكمة بيلاطس و لم تقع عيناه على الصليب والمصلوب ، فما أقل الناس الذين شاهدوا ذلك الحدث الذى تم بليل على مشاعل بعض الجنود .

وراح بولص يصغى إلى الكهنة وهم يقولون : لا حكم إلا لله وأن كل يهودى يخضع لحكم الرومان فهو عدو الله . وما كان الكهنة فى ذلك الوقت يهاجمون النصارى فهم قلة يقولون أن لا إلـه إلا الله وأن عيسى مسيح الله ورسوله ، فشب بولص وهو يمقت حكم الرومان ويعكف على قراءة التوراة حتى حفظها عن ظهر قلب .

وكان يهود أورشليم ينظرون إلى النصرانية على أنها فرقة من فرق اليهود وما أكثرها فى اليهودية فى ذلك الوقت ، فرقة لا تختلف فى كثير عن « الأسينيين » وهى طائفة متشددة فى رعايتها للأحلام الدينية ، طائفة تطهرت من أدران المطامع والشهوات ، المادة عندهم مصدر الشر كله والسرور بها سرور بالدنس والخيانة ، ويؤمنون بالبعث ورسالة المسيح المخلص ، يعتقدون أن الخلاص بعث روحى يهدى الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح .

فرقة لا تختلف عن المغتسلين أو المسحاء بالزيت أو النباتيين أو الزهاد الذين اعتزلوا العالم وشروره وعكفوا على عبادة الله والأنس به ، فرقة تؤمن أن

عيسى هو المسيح المنتظر بعثه الله رسولا إلى بنى إسرائيل ليعيدهم إلى الدين القيم ، إلى الشريعة السمحة .

كان بطرس ومتى والحواريون والمؤمنون الأوائل يعرفون « بالمسيحيين » ، وكانوا يدعون بما كان يدعو إليه المسيح ، العدل والرحمة والحق ، ويهاجمون الأغنياء الذين لا ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ويزهقون باطل الوثنية التى انتشرت بين بنى إسرائيل ، ويهاجمون نفاق الكهنة والكتبة ورجال الدين وتقديم القرابين ، فقد كان قول السيد المسيح : « جئت لأمحق القرابين »[1] يرن فى آذانهم ، وقد استقر فى وجدانهم كما استقرت تعاليمه البسيطة التى تدعو إلى عبادة الله وحده .

كان المسيح يدعو إلى أن الله لا ينال لحوم الأضاحى وأن التقوى أفضل من القرابين ، فلم يكن كالكهنة يمجد الأضاحى ، ولم يقل إنه جاء ليضحى بنفسه — وهو الذى جاء ليمحق القرابين — ليمحو خطيئة آدم ، فقد كان على علم بأن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه .

كان الكهنة والكتبة والفريسيون والصدوقيون يمقتون المسيح وأتباعه لأنهم كانوا لا يوقرون الهيكل توقير اليهود المتزمتين ، فقد كان المسيح والحواريون يهاجمون تقديس اليهود للهيكل وقسمهم بذهبه ، وكان ذلك يمينا شائعا بينهم ، وكان المسيح وأتباعه الأوائل يرون أن الأرض كلها معبد الله وأن الله مع الذين فى أورشليم والذين يعيشون خارج أورشليم ، فالله ملك الناس

---

(١) ذكرت فى إنجيل النصارى المكتوب بالآرامية كما جاء فى كتاب :

The Jew of Tarsus, By Hugh P. Schonfield.

رب العالمين ، وزاد فى حنق الكهنة ورجال الدين أن المسيح تنبأ بزوال الهيكل ، وأن حوارييه صرحوا برغبتهم فى حرق ذلك الهيكل الذى اتخذه رجال الدين وكرا لسلب الناس الأغنياء والفقراء على السواء ، وإجراء مراسيم للعبادة ما أنزل الله بها من سلطان .

ثار الكهنة لوظائفهم الكهنوتية ، وثار اليهود المتعصبون لفكرة أن الأعياد ستبطل فى الهيكل ، وثار الرومان لدعوة الفقراء إلى الثورة على دولة الأغنياء .

وكان اليهود يجتمعون خارج الهيكل فى المجامع وهى دور للعبادة وتلقى العلم ، وكانت المناقشات الدينية تحتدم فى تلك الدور بين سواد الشعب فقد كان اليهود مولعين بالمناظرة ، وقد كانت تقوم فى تلك المجامع مناظرات عاصفة تؤجج الخلافات بين طوائف اليهود من قرائين وربيين وكتبة وآسينيين ، وكان للمسيحيين الأوائل مجامع كتلك التى لليهود يتدارسون فيها أمر دينهم .

وكان بولص يمضى وقته بين العبادة فى الهيكل وإدارة المناقشات فى مجمع من تلك المجامع اليهودية المنتشرة فى أورشليم ، وقد حفظ بولص التوراة وراح يستشهد فى محاوراته بإصحاحاتها استشهاد خبير .

واضطهد بولص المسيحيين الأوائل اضطهادا قاسيا لا رحمة فيه كان سببه تعصبه المقيت ليهوديته ، وأنه كان يحلم بأن يكون هو المسيح الذى يترقبه اليهود ، وكان بولص صاحب شخصيتين : شخصية متزمتة متعصبة للجنس اليهودى ، وشخصية أنانية مزهوة بنفسها تحلم بالقوة والسيطرة الدينية على طوائف اليهود من صدوقيين وفريسيين وكتبة وملل ونحل ذهبت فى كل طريق .

لم يتورع بولص عن قتل بعض المؤمنين المسيحيين وعن الإمعان فى تعذيب آخرين . وقد بلغ به حقده على المسيحية والمسيحيين أن ذهب إلى رئيس الكهنة يلتمس منه أن يبعث معه رسائل إلى دمشق تحرض على قتل من اعتنق المسيحية ، وقد وعده أن يسوق المسيحيين الذين يلتقى بهم فى الطريق إلى أورشليم زمرا مكبلين فى القيود .

وذهب بولص إلى دمشق وعاد منها إلى أورشليم ومشى إلى الحواريين كالحمل البرىء ، ولكن الحواريين كانوا يهابونه لغلظ قلبه وقسوته على المؤمنين الأوائل ، وكانوا يتحاشون الدنو منه والإصغاء إلى دعواه العريضة .

وذات يوم ألقى برنابا إليه سمعه فراح بولص يقول :

ـــ لما اقتربت من دمشق أبرق نور من السماء حولى بغتة فسقطت على الأرض ، وسمعت صوتا يقول بالعبرية : « شاول .. شاول ! لماذا تضطهدنى ؟ » فقلت : « من أنت يا سيد ؟ » فقال : « أنا الرب . أنا يسوع الذى تضطهده » فقلت وأنا أرتعد من الخوف : « يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ » فقال لى الرب : « قم وادخل المدينة فيقال لك ما ينبغى أن تفعل » .

ووقف الرجال المسافرون معى صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحد ، فنهضت عن الأرض وكنت مفتوح العينين لا أبصر أحدا ، فاقتادونى وأدخلونى دمشق ، ومرت ثلاثة أيام لا أبصر فلم آكل و لم أشرب .

وكان فى دمشق تلميذ اسمه حنانيا ، فقال له الرب فى رؤيا : « يا حنانيا ! » فقال : « هأنذا يا رب » . فقال له الرب : « قم واذهب إلى الزقاق الذى يقال له المستقيم ، واطلب فى بيت يهوذا رجلا طرسوسيا اسمه شاول ، لأنه هو ذا يصلى . وقد رأى فى رؤيا رجلا اسمه حنانيا داخلا واضعا

يده عليه لكى يبصر » . فأجاب حنانيا : « يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك بأورشليم وههنا ، له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك ، فقال له الرب اذهب لأن لى إناء مختارا ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبنى إسرائيل ، لأنى سأريه كم ينبغى أن يتألم من أجل اسمى » .

فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع على يديه وقال :

« أيها الأخ شاول قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق الذى جئت فيه لكى تبصر وتمتلئ من الروح القدس » فوقع من عينى شىء كأنه قشور فأبصرت فى الحال .

وفرح برنابا بذلك الذى جاءه تائبا بعد أن كان عدو المسيحيين اللدود ، و لم يحاول أن يتحقق من صدق مزاعمه ، يكفيه أنه جاء يعلن إيمانه وما قال بعد قولا يخالف ما يقول به الحواريون ، فإن كان قد قال : « رأيت الرب » فقد كانت الرب تعنى عندهم المعلم وما كانت تعنى الله الواحد القهار العظيم المتعال ، سبحان الله عما يصفون .

وانطلق برنابا وبولص إلى حيث كان الحواريون ، كان برنابا يحسب أنه يحسن صنعا بجمع بولص ببطرس ومتى ومرقص وفيلبس وسائر الحواريين ، وكان بولص منشرح الصدر فقد كان يطمع فى أن يكون المسيح ، وها هو ذا قد صار رسوله إلى المؤمنين ، وإنها لمنزلة رفيعة تشبع أنانيته وحب السيطرة الذى يملأ جوانحه .

وساح برنابا وبولص فى الأرض يدعوان الناس معا إلى الله وكانا يختلفان فى النشأة والمشرب ، فبرنابا حوارى تلقن الدين من فم المسيح ، بينما لم يشهد

بولص المسيح و لم تنعم أذناه بحكمته و لم يفهم سر دعوته .

كان برنابا مؤمنا صادقا ، وكان بولص قد ملىء غرورا يطمع فى أن يملأ كرسى المسيح وحده وأن يكون الداعية الأول للدين الجديد ، لا حبا فى الدعوة وانتشارها بل حبا فى الاستئثار بالمجد والسلطان .

واختلف برنابا وبولص فقد كان بولص يحفظ التوراة وكان يستشهد بها لتفسير أحداث وقعت للسيد المسيح ، وكانت أكثر استشهاداته بالمزامير ، وما كان برنابا يستريح إلى تفسير بولص فكانت المناظرات تقوم بينهما وكثيرا ما كان برنابا يثور على تطرف بولص فى التفسير والتأويل .

وقال بولص فيما قال : إن المسيح جاء ليصلب ويضحى بنفسه ليمحو خطيئة آدم . وراح يتحدث عن الفداء وعن الخطيئة الموروثة ، وثار برنابا على قول بولص فقد كان برنابا على يقين من أن المسيح لم يصلب وأنه جاء ليمحق الفداء والقرابين ، وأن دعوة بولص إن هى إلا سخرية بالمسيح ، فقد جعل عدو الفداء والقرابين أعظم قربان فى العالم !

وقامت مشادات بينه وبين الحواريين ولم يأبه بأقوال من أوحى الله إليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، واستمر فى دعوته يستمد أقواله من أسطورة بعل التى حفرت فى ضميره ، فقال إن المسيح قام من الأموات كما قام بعل إلٰه الوثنيين قبله ، وأنه فى السماء يدين الناس ويحكم بينهم .

وأقبل الناس عليه يصغون إلى أسطورتهم تروى عليهم بأسلوب جديد ، فقد صار بعل المسيح وصار المجرم الذى أطلق سراحه بعد المحاكمة « باراباس » وصارت المرأة التى شاهدت قيام المسيح من الأموات مريم المجدلية ، لم يجد الناس فيما يقول بولص شيئا غريبا فقد ردت إليهم معتقداتهم

بعد أن كان المسيح وحواريوه يسفهون أحلامهم .

ولم يفهم بولص سماحة الإسلام الذى دعا إليه المسيح ، فقد جاء الرسل جميعا ليقولوا للناس : كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولكن بولص كان يهوديا متعصبا لجنسه فكان يقول فى فخر معيرا بنى إسماعيل : لسنا أولاد جارية . ولم يفهم أن من أراد أن يتفاخر فليتفاخر بالتراب ! فكلنا لآدم وآدم من تراب !!

كان هناك احتفال فى السنة الرومانية يحل فيه العبيد مكان ساداتهم لبضع ساعات ينعمون فيها بما ينعم به السادة ، ولكن لم يكن الحال كذلك مع السيد المسيح وبولص ، فإن بولص سلب كرسى المسيح إلى أن يأتى ذلك النبى الأمى الذى سيعيد إلى رسل الله وأنبيائه كرامتهم التى أهدرها من كتبوا الكتاب بأيديهم ، ثم قالوا : هذا من عند الله .

٣١

انتشر الحواريون فى إسرائيل والجليل واليهودية والسامرة يدعون بنى إسرائيل إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام وتقديس الهيكل ، ذلك التقديس الذى جعله غاية العبادات لا مكانا يذكر فيه اسم الله .

وكان اليهود يضيقون بدعوتهم وينكرون أن عيسى ابن مريم هو المسيح ، فقد كانت عقيدتهم فى المسيح أنه سيأتى بمملكة أرضية تعيد مجد بنى إسرائيل ، وقد زاد تلهفهم على تلك المملكة بعد أن دانوا للرومان وأرغموا على أن يدفعوا الجزية لقياصرتهم ، فلما جاء المسيح وقال إن مملكته ليست من هذا العالم أعرض اليهود عن دعوته ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ولم يلقوا السمع إلى حوارييه .

وكان الحواريون يلقون المواعظ فى مجامع اليهود ، وكانت المناظرات تقوم بين المسيحيين الأوائل وبين طوائف صاخبة عاصفة ، بيد أن اليهود لم يجدوا فيما يدعو إليه الحواريون ما يخدش ناموسهم ، فقد كانوا يستشهدون بالتوراة ويقتبسون منها ويقدسون أنبياء بنى إسرائيل ولم يدعوا مع الله إلـٰها آخر .

وذات يوم قال بطرس إن الله يقبل الأمم كما يقبل بنى إسرائيل ، وأن لا فضل لإسرائيلى على أممى إلا بالتقوى ، فأغضب ذلك القول اليهود لأنه سلب منهم الامتياز الذى كانوا يعيشون عليه واهمين ، فقد كانوا موقنين أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الذين سيناموون فى حضن إبراهيم ، وإذا بشيخ الحواريين

يجعلهم أمام الله كالأمم سواء بسواء .

غضب اليهود من دعوة بطرس الجديدة ولكنهم لم يجدوا فى أقواله ما يجعلهم يقيمون عليه الحد ، فلم يشرك مع الله إلـٰها آخر فقد عاشوا مع المسيح وسمعوا أقواله وعرفوا حقيقة رسالته ، إلا بولص فلم ير المسيح و لم يلق إليه سمعه ، وإن كان يحلم بأن يكون هو المسيح الذى ينتظره بنو إسرائيل .

كان بولص يشعر فى قرارة نفسه أنه دون الحواريين منزلة ، فراح يقص فى كل مناسبة قصة ظهور المسيح له وهو فى طريقه إلى دمشق ، ليؤكد لسامعيه أنه رسول المسيح إليهم ، وكان حديث بولص يختلف عن حديث الحواريين ، فقد نهل بولص من التوراة التى كتبت فى المنفى ومن فلسفة اليونان ، بينا نهل الحواريون من النبع الصافى نبع السيد المسيح .

وكان بولص لا يفهم بساطة الدعوة فقد تأثر بفلسفة أرسطوطاليس وتأثر بكل كلمة جاءت فى التوراة ، فكان يمزج بين الفلسفة والدين ، واستقرت فى وجدانه أساطير الأميين فلم يستطع أن يتخلص من قبضتها .

سمع بولص أن المسيح أحيا الموتى بإذن الله ، فقال إنه أحيا الموتى بقوة المسيح ، ولم يكتف بذلك بل راح يقول إنه أخرج الشياطين من أجساد الناس ، ويزعم أن المسيح جاء ليصلب ليفدى البشر ويطهرهم من خطيئة أبيهم آدم ، وراح يفلسف الصلب والفداء ويتحدث عن ابن الله الذى سيعود مرة أخرى إلى الأرض ليعيد إليها الإيمان والسلام .

وراح بولص يطوف بسوريا ويزور مدنها وذهب إلى أنطاكية وإلى الجليل وإلى السامرة يدعو إلى الدين الذى ابتدعه خياله . وقد غض اليهود عنه فى أول الأمر وأصغى إليه الرومان . كان اليهود يجدون فيما يقول بولص شركا بالله

بينما لم يندهش الرومان لما يدعو إليه ، فقد كان الرومان يؤلهون أبطالهم وقياصرتهم ، وقد كانوا يسجدون لتماثيل القياصرة وإنهم ليسجدون كل يوم لتمثال كاليجولا قيصرهم المجنون !

آمن الرومان بدعوته وقاومها اليهود ، وبدأ الحديث عن اللاهوت والناسوت ، وراح بولص يتحدث عن الصلب حديث من يؤمن به حتى إنه كان يتألم ألم من وضع على الصليب .

ولما كانت دعوة بولص تخالف كل دعوة جاءت قبله فقد هب اليهود لمقاومتها فى ضراوة وعنف ، فائتمروا به ليقتلوه ، فقد خرق ناموسهم وادعى أن المسيح ابن الله ، وأنه قام من الأموات كما قام بعل إلـه الوثنيين من الأموات من قبله ، وأنه سيعود وقد أطال الحديث عن الرجعة ، ولكنهم أخفقوا فى التخلص منه ، فجاءوا به إلى الحاكم الرومانى واتهموه بأنه يستحق القتل حسب شريعتهم ؛ لأنه جعل مع الله آلهة أخرى .

وتحدث اليهود وتحدث بولص فلم يجد الحاكم الرومانى فى قوله ما يستحق عليه العقاب ، فإن قال إن المسيح هو الله أو أنه ابن الله فما كان ذلك القول غريبا على مسمع الحاكم الرومانى الذى لقن منذ الصغر أن آلهة الرومان يجتمعون ويتحاورون ويتصارعون ، وما أكثر ما رأى العاهرات المقدسات جالسات على سلالم معبد إلـهه أبوللو لأنهن رأين فى أحلامهن أن الإلـه يشتهيهن !

وكان الحاكم الرومانى يؤمن بتعدد الآلهة ويؤمن بأن بعض آلهته يشتهون نساء البشر ، فلم يجد فى أقوال بولص مايستحق عليه القتل ، ولكنه رأى ألا يبت فى مسأله تخص شريعتهم فقال لبولص :

ـــ أتقبل حكمهم فيك أم أبعث بك إلى قيصر ؟

فقال بولص فى حماسة :

— ابعثنى إلى قيصر .

وبلغ بولص روما بعد رحلة من الأهوال على سفينة من سفن الإسكندرية أظهر فيها بعض معجزاته كما قال ، ووضع فى السجن إلى أن يحين موعد محاكمته ، وفى سجنه راح يبعث برسائله إلى أهل كورنثوس وإلى أهل غلاطية وأهل أفسس وإلى أهل فيلبى وإلى أهل تسالونيك وإلى تيتس القائد الرومانى فى فلسطين .

كانت رسالة المسيح فى الصدور لم يكتب منها حرفا ، ولما كان بولص يعرف قوة الكلمة المكتوبة فقد راح يستعين بالتوراة التى كتبت فى المنفى ليخلق آراء جديدة ليس بينها وبين الدعوات السماوية أية سبب .

قال فى رسالته إلى أهل غلاطية : « اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة ، إنا أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة » فكان يهوديا فى زهوه يدعو إلى التفرقة بين البشر ، وقد نسى أو تناسى قول السيد المسيح : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم » .

كان همه أن تسود آراؤه وإن تعارضت مع ما جاء به المسيح ، وقد كشف عن خبيئة نفسه لما كتب : « فإنى إذا كنت حرا من الجميع استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس ، لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما » .

وراح بولص يتفلسف بما لم يتفلسف به المسيح ، فكان يتحدث عن الجسد والنفس ويقول : ويحى أنا الإنسان الشقى ! من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟

واشتدت المناقشات الدينية فى روما بين بولص واليهود والرومان الذين آمنوا بما جاء به بولص والرومان الذين كفروا بما يدعو إليه . وقد راحت الأفكار الدينية تتدفق من أبناء سورية إلى أبناء إيطاليا حتى إن بعض الإيطاليين الذين هالهم تغلغل الحضارة السورية فى حضارة روما قالوا : « إن نهر العاصى أصبح يصب فى نهر التيبر ! » .

جاء المسيح ليقضى على القرابين وعلى تنطع الفريسيين والصدوقيين والكتبة ، وعلى تلك المراسيم التى ما أنزل الله بها من سلطان والتى كان الكهنة يقومون بها فى الهيكل ؛ ولكن بولص جعل المسيح قربانا وأكثر فى رسائله من التحدث عن الخروف المذبوح وعن القرابين التى تقدم فى المعابد ، وعن كيفية تحول خبز التقدمة إلى لحم المسيح والنبيذ إلى دمه ، وصار المؤمنون بتلك التعاليم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنهم لما يأكلون من القرابين ويشربون إنما يأكلون فى بطونهم لحم المسيح ويشربون دمه !

ومن أين جاءت بولص مثل هذه الأفكار ؟ إنها جاءته من أرض فارس فقد كان المجوس يقولون للمؤمنين الذين يشربون « الهوما » النبيذ المقدس إنهم إنما يشربون دم الإلـٰه ؛ واستعار بولص من الوثنيين معتقداتهم ، استعار من السوريين المؤمنين ببعل للصلب والقيام بعد الموت ، وتحول المسيح إلى إلـٰه يدين البشر من السماء ، واستعار من المجوس تحول القرابين إلى لحم الإلـٰه ودمه ! وقاوم اليهود تلك التعاليم مقاومة لا هوادة فيها ، ولكن بولص وجد

بين الرومان والوثنيين من يلقى إليه سمعه .

كان نيرون هو قيصر روما فى ذلك الوقت وقد أراد معلماه أن يمنعاه من التدخل فى شئون الدولة فتركاه ينهمك فى ملذاته الجنسية كما يهوى ، ولم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات فى الوقت الذى كانت فيه الرذيلة تستهوى الناس جميعا .

وشب نيرون وهو يزدرى جميع أنواع العبادات ، وكان نهما مفرطا فى الطعام غريب الأطوار والشهوات ، فكان يتخفى ويزور المواخير ويطوف الشوارع ويتردد على الحانات بالليل فى صحبة أمثاله من رفاق السوء ، يسطون على الحوانيت ويسيئون إلى النساء ويفسقون بالغلمان ويجردون من يقابلون مما معهم ، وما كانوا يتورعون عن قتلهم .

وعشق نيرون بوبيا وكان لها نصيب موفور من كل شىء إلا الشرف فراحت تغريه على أن يطلق زوجه ويتزوجها ، ولما وقفت أمه فى سبيل تلك الرغبة قتلها ، وشيد نيرون بيته الذهبى وأقام أمامه تمثالا ضخما ارتفاعه مائة وعشرون قدما فى أعلاه رأس شبيه برأسه به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو أبوللو نفسه .

كان نيرون فى الخامسة والعشرين إنسانا فاسدا منتفخ البطن رفيع الأطراف ضعيفها ، ضخم الوجه مجعد الجلد أصفر الشعر ملتويه عسلى العينين ، ولكن حكام الأقاليم كانوا يخرون له ساجدين ويزعمون أنه إلـه يعبد ، وفى ذلك الوقت اقتيد إليه بولص وقد اتهم بأنه يدعو إلى إلـه آخر غيره .

وألقى بولص فى جب تليان ليموت من الجوع وفتك الحشرات القارصة والقمل فى السراديب المظلمة ، وسط الأقذار التى تكدست أكواما .

وفى ذات يوم أخرج بولص من ذلك الجب ليصلب وذاق مرارة الكأس التى كان يتصورها ويحدث الناس عنها ، وذهب بولص إلى حيث يعلم حقيقة المسيح ، تلك الحقيقة التى قصر تصوره عن أن يدركها ، وقد صدق فيه قول السيد المسيح : « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم فى الداخل ذئاب خاطفة ، من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا ؟ هكذا كل شجرة جيدة تضع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الرديئة فتضع أثمارا رديئة ، لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا رديئة ، ولا شجرة رديئة أن تصنع أثمارا جيدة ، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار ، فإذا من ثمارهم تعرفونهم » .

ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات ، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السماوات . كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم : « يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟ فحينئذ أصرخ لهم : إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم » .

٣٢

كانت أرض النبط تنبض بالأحداث ، فقد دبت الحياة فى المنطقة كلها بعد أن جاء المسيح يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة الله وحده ونبذ تلك المراسيم التى تقام فى الهيكل ، وتقويض اعتقادهم القائل بأن من بات فى أورشليم فقد بات مع الله وأن من كان خارج أورشليم فهو بلا إلـٰه .

كان المسيح يجوب الجليل والسامرة واليهودية يدعو إلى أن الأرض كلها مسجد لله وأن مثلها مثل الهيكل ، فالله فى كل مكان ، حتى إن الفريسيين والصدوقيين والكتبة اتهموه بأنه يريد أن ينقض الهيكل من أساسه ، وقد زاد حنقهم عليه لما تنبأ بزوال هيكلهم المقدس .

كان ما يحدث فى الجليل يسمع فى أرض النبط فالحدود بينهما مشتركة ، وكان النبط فى تيقظ دائم بعد أن انتزعوا دمشق من الرومان ، كانوا واثقين من أن الرومان لن يسكتوا على ذلك الأمر .

وكان هرثمة الرابع ملك النبط فى قصره فى دمشق يرصد ما يجرى حوله ، وقد وصل إلى سمعه ولا شك دعوة الحواريين الناس إلى عبادة الله وما كان بينهم وبين اليهود من مناظرات عاصفة ومشاحنات دامية ، وما كان بينهم وبين حكام الرومان فى إسرائيل واليهودية .

كان ملك النبط يهتم بالتجارة فكانت رغبته أن يستتب السلام فى دولته لتغدو القوافل وتروح فى أمان ، وكان على علم بأن ازدهار تجارته يوغر

صدور الرومان عليه فهو ينافسهم فيما دفعهم إلى الانتشار فى الأرض ومحاولة إقامة حكومة عالمية ليسيطروا على خيرات العالم ويحملوا الأموال إلى روما ، فكان متأهبا لصد أى هجوم رومانى عليه وما كان ليسمح بأى انشقاق داخل مملكته يتيح للعدو فرصة التدخل فى بلاده .

وجاء بولص إلى دمشق بعد أن زعم أن المسيح ظهر له فى الطريق وعاتبه على اضطهاده أتباعه ثم بعثه رسولا إلى المؤمنين ، وأراد بولص أن يمارس رسالته فى دمشق وأن يدعو إلى ما لم يدع إليه المسيح فراح يجتمع باليهود والنبط وأهل دمشق يدير المناقشات ويبعث الفتن ، فرأى هرثمة أن ما يفعله بولص سيمزق وحدة أمته ويتيح للرومان فرصة التحرش به وببلاده ، فأصدر أوامره بأن يلقى القبض على بولص. وذهب جنود حفيد إسماعيل ليلقوا القبض على يهودى طرسوس حفيد إسحاق ، فأحس بولص الخطر فتدلى من طاقة فى السور فى زنبيل وفر هاربا .

كان بولص يذهب إلى أرض النبط وكان يروح ويجىء فى دمشق يقبض على من آمنوا بالمسيح ويسوقهم زمرا إلى أورشليم ليذوقوا عذاب الهون على أيدى كهنة اليهود ورجال الدين ، فلما هجر قسوته ورأى أن يفسد ما جاء به المسيح بادعاء أن المسيح بعثه رسولا إلى الناس أحس هرثمة خطر دعوته وأنه سيوقظ الفتنة فى أرضه ، فأراد أن يقضى عليه قبل أن يستفحل الأمر ، ولكنه ولى الأدبار ، وقد استراح هرثمة لفراره فقد خرج من بلاده ولن يجرؤ على أن يعود إليها ليوقع الشقاق بين الناس .

ومات هرثمة ودمشق فى أيدى النبط وقوافل التجارة تخرج من البتراء لتنطلق إلى سورية ومصر وبابل وبلاد الفرس ، وتولى الملك بعده ابنه مالك

الثانى وقد ضرب نقودا جديدة لا تقل فى روعتها عن النقود التى ضربها أبوه ، وقد كانت تحمل اسمه واسم أخته شقيلة .

وراحت السنون تمر والمنافسة التجارية شديدة بين الرومان والنبط والفرس ، والمنافسة الدينية تحتدم بين اليهود والمسيحيين الأوائل ، وقد كان اليهود يقبضون على زعماء المسيحيين ويشكونهم إلى الحكام الرومان فى إسرائيل أو يبعثون بهم إلى روما ، فما كان الحكام الرومان يجدون فى دعوة المسيحيين ما يستحقون عليه العقاب .

وصار نيرون قيصر الرومان بعد أن دست أمه أجربينا السم لأبيه كلوديوس لما أحست أنه يريد أن يوصى بالملك لابنها ، فشب نيرون وهو يسخر من الديانات ومن كل ما له صلة بالأخلاق ، وقد قال بعد أن أطعمت أمه أباه فطيرا ساما وبعد أن ألَّه مجلس الشيوخ أباه :

— إنى لا أشك فى أن الفطير هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد أكله إلـٰها يعبد .

كان نيرون يؤمن أن مبدأ القوة حق ، وكان يعيش وفق الطبيعة قد ألقى حبل نفسه على الغارب ، فانكفأت طبائعه إلى طباع الإنسان البدائى ، لم يحاول أن يضبط نفسه أبدا ولم يعرف الشعور بالخطيئة ، فما كان البابلى الذى يمارس الدعارة المقدسة وفلسفة النجوم ، بل كان يمارس الدعارة ولا شىء غيرها .

كانت روما غارقة فى الدنس ، ولكن قوادها خارج إيطاليا كانوا يعملون على توسيع رقعة الإمبراطورية ، وقد كان القائد الرومانى فى سورية يحس خطر النبط ويجد أن وجودهم فى دمشق شوكة فى جنبه ، فجمع الجيوش الرومانية

ليستولى على دمشق ويخضد تلك الشوكة .

ودارت معركة بين الرومان والعرب خارج أسوار دمشق ، وتحركت الفيالق الرومانية بأسلحتها الثقيلة تشق صفوف فرسان النبط ، واشتد القتال واستبسل العرب فى الدفاع وسقط الصناديد صرعى وتكسرت المقاومة أمام الموج الرومانى المتدفق فتقهقر العرب ليتحصنوا فى المدينة .

ووضعت السلالم على أسوار دمشق وصب الزيت المغلى على رءوس الرومان المهاجمين ، وتطايرت السهام ودارت المعارك فوق الأسوار ، وانتهى الأمر بأن فتحت أبواب دمشق وسقطت فى أيدى الرومان وصارت مرة أخرى فى حوزتهم .

كان ذلك فى العام الثانى والستين من مولد السيد المسيح ، وكان نيرون فى ذلك الوقت يعزف على أرغن مائى جديد فى قصره وأكابر الفنانين والشعراء والشيوخ يصغون إليه ويرقبون أن ينتهى من عزفه ليعقد المباراة بينه وبين الفنانين ، ويقارن بين صوره وصورهم ، ويستمع إلى أشعار الشعراء ويقرأ على الجميع شعره .

وحمل بولص إلى روما وذهب إليها بطرس ليدعو الرومان واليهود إلى الدين القويم ، ولما كان نيرون يسخر من كل دين فقد صلب بولص وبطرس ثم ذهب إلى ملهى بمبى العظيم فى روما يغنى ويضرب على العود وينشد قصائد من نظمه ، وقد اغتبط النظارة إذ شاهدوا الإمبراطور يعنى بتسليتهم ويركع على المسرح تحية لتصفيقهم .

وفى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ شبت النار فى مضمار السباق ثم انتشرت انتشارا سريعا ، وقد ظلت مشتعلة تسعة أيام حتى التهمت ثلثى

روما ، وقد كان نيرون غائبا عنها فلما وصله النبأ أسرع بالعودة إليها فبلغها بينما كانت قصوره القائمة على تل البلاتين طعمة للنيران ، و لم يحزن لما رأى فقد كان يحلم بأن يعيد بناء روما وأن يخططها تخطيطا علميا على نسق الإسكندرية ، وأن يسميها نيرو بوليس (مدينة نيرون) وقد واتته الفرصة .

هلك آلاف من السكان بين أنقاض المبانى المتهدمة فى الشوارع المزدحمة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم فى الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى وقد ذهب الرعب بعقولهم وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذى أمر بإشعال النار فى المدينة ،وبأنه ينشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة .

واتهم نيرون المسيحيين بأنهم هم الذين أشعلوا النيران فى روما فراح يعذبهم ويزدرى بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم فى الصلبان ودفن الكثير منهم أحياء ، ودهنت أجساد البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران لتكون مشاعل فى الليل .

و لم يكن إنجيل المسيح قد كتب بعد ، كان فى صدور المؤمنين ، وقد كان بولص أول من سجل آراءه فى رسائله التى بعث بها من سجنه وقد كانت أغلب آرائه فاسدة لا تتفق مع دعوة المسيح ، فلما انتشر القتل بين المسيحيين رأى بعض الغيورين من المؤمنين أن يسجلوا أقوال السيد المسيح ، فلم يجتمعوا ليجمعوا الإنجيل من الصدور بل راح كل منهم يكتب إنجيلا على هواه ، فكتب من شهد المسيح وألقى إليه سمعه ما وقر فى ذاكرته من أقوال الرسول الكريم ، ومن هؤلاء برنابا ، وكتب من لم يسمع المسيح و لم يره ما تناقله الناس من

سيرته ومن هؤلاء لوقا وقد كان طبيبا أنطاكيا لقن النصرانية على يد بولص .

و لم تنج أغلب الأناجيل التى كتبت فى ذلك الوقت — وقد بلغ عددها خمسة وسبعين إنجيلا أو يزيد — من مزاعم بولص ، بل لقد بولص الصلاة واقتبس من الديانات الوثنية ما يشاء ، فلم يكتف بأن أعاد أسطورة بعل وجعل المسيح مكان بعل بل راح يستعير من قدماء المصريين صلواتهم ، كانوا يقولون : « لما كان أزريس يحيا حقا فسوف أحيا . لما كان أزريس لن يموت فلن أموت». فابتدع بولص تلك البدعة فى المسيحية، فراح المسيحيون يقولون فى صلواتهم : « لما كان المسيح يحيا حقا فسوف أحيا ، لما كان المسيح لن يموت فلن أموت » .

وراحت القصص التى كانت تروى فى المعابد القديمة يعاد صياغتها بحيث يصبح المسيح هو بطل تلك القصص التى تفيض بالوثنية ، فصار المسيح مكان أزريس الفراعين وبعل البابليين والسوريين وبروميثيوس اليونانيين وآلهة الوثنيين ، وفسدت المسيحية ولما ينقض على ولادة المسيح قرن واحد وحار الناس بين القائلين بالتوحيد والتثليث . وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰها واحدا لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون .

وقد صدق فيهم قول السيد المسيح : « يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه ، وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا وباطلا يعبدوننى » .

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلـٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد » .

٣٣

وضع التاج فى البتراء على رأس « رب إيل » ولما كان صغيرا فقد راحت أمه شقيلة تصرف أمور المملكة يعاونها فى ذلك أخوها أنيس ، وقد كان للملك شقيقتان جميلة وهاجر ، فكان البلاط النبطى يدار على هوى نسوة الأسرة الحاكمة ، ولكن قوافل التجارة كانت تنتشر فى الأرض فكانت خيرات الدنيا تجلب إلى العاصمة التى أرادت أن تنافس روما .

كان الرومان قد انتزعوا دمشق من أيدى النبط ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على منافستهم التجارية ، وكان حكام البتراء يحسون خطر إحاطة الرومان بمملكتهم ووقوعهم فى طريق جيوش العدوين اللدودين : الرومان والفرس ، فكانوا متأهبين على الدوام للدفاع عن مملكتهم ، وقد أثر التسليح وربط الجيوش على ميزانية الدولة النبطية .

وقد كانت الحالة الدينية فى مملكة النبط لا تختلف فى كثير ولا قليل عن الحالة الدينية فى إمبراطورية الرومان ، كان رب إيل وأمه شقيلة وأختاه جميلة وهاجر وخاله أنيس ورجال المملكة قصى بن أذينة وهانئ وجولة يقيمون المراسم الدينية فى « ذو الشرى » ، كما كان نيرون ومن جاء بعده يقيمون المراسم الدينية فى الكابيتول ، إلا أن الدين رغم هذه المظاهر قد دب فيه دبيب الفناء، وقد زعزع إيمان الرومانيين تأليه مجلس الشيوخ للأباطرة وما كان ذلك دليلا على إجلال الطبقات العليا لحكامها على قدر ما كان شاهدا على قلة

إجلالها لآلهتها .

أخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين ، و لم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا فى أثينة والإسكندرية ورودس ما يزيد إيمانهم بالدين ، وراح الشعراء يسخرون من الآلهة وراح الناس يقولون إن الآلهة من نسج الخيال .

وكانت شواهد القبور تشهد بانغماس الناس فى الشهوات ، فقد كتب على واحد منها : « لم أكن ، لقد كنت ولست بكائن ولا أبالى » وكتب على شاهد آخر : « لم أكن قد وجدت ، لست موجودا ، لست أدرى » ، وكتب على شاهد ثالث : « لم يكن لى إلا ما أكلت وشربت ، لقد تمتعت بحياتى » وكتب على شاهد آخر « لا أومن بشىء وراء القبر » ويؤكد شاهد غيره : « العناصر التى تكونت منها تعود مرة أخرى إلى أصولها ، إن الحياة عارية تعار للإنسان وليس فى مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر ، وهو إذا مات يرد ما عليه من دَين إلى الطبيعة».

كان الشك يسود مملكة النبط وإمبراطورية الرومان على السواء ، وقد شب رب إيل وتزوج وأمر بضرب اسم زوجته جميلة مع اسمه على النقود، وقد عرف « بسوطر » واهتم بالتجارة فاشتدت منافسة النبط والعرب والفرس للرومان ، وكان لا بد أن يقضى طرف من الأطراف على منافسيه ليخلو له وجه الأرض .

كانت الأساطيل التجارية تجرى فى البحار والمحيطات ، وفى ذلك الوقت وقعت أروع المغامرات ، وقد كتب بحار من أهل الإسكندرية كتاب « الطواف بالبحر الأريترى » فكان دليل التجار الذين يتجرون بين ثغور

ساحل إفريقية الشرقى والهند . وكان غيره من الملاحين قد ساروا فى المحيط الأطلنطى إلى بلاد غالة وبريطانيا وألمانيا ، بل إنهم قد وصلوا إلى إسكندناوة وروسيا .

كان النبط والعرب والفرس يحتكرون تجارة نصف الكرة الشرقى ، وكان الرومان يحتكرون تجارة نصف الكرة الغربى ، ولم يرض ذلك مطامع الرومان فقد كان الأباطرة يحلمون بالاستيلاء على الدنيا وإقامة دولة عالمية عاصمتها روما .

كان الشك الدينى يسرى فى أوصال الدولة الرومانية ، ولكن الشك مهما يكن فيه من إخلاص لا يمكن أن يحل محل الإيمان ، ولم يجد المجتمع الرومانى بين ملذاته كلها سعادة ما بل سئم ما فيه من نعم واستنفد قواه فيما ساده من دعارة . وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للألم والحزن والموت ، ولم تستطع الفلسفة أن تهب الرجل العادى إيمانا يخفف عنه شعوره بفقره ويشجعه على تهذيب خلقه ويواسيه فى أحزانه ويبعث الأمل فى قلبه .

كان الناس يحتاجون إلى وحى يوحى إليهم ولكن الدين لم يهبهم إلا طقوسا ومراسم ، كانوا يطلبون خلودا وحياة بعد الموت ولكن دينهم جاء لهم بدل هذا بألعاب ، فكانوا فى الأعياد يشاهدون صراع الثيران والآدميين وإلقاء العبيد الآبقين إلى الأسود وحرق المقضى عليهم بالموت وهم أحياء .

وشعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيدا وأحرارا أنهم محرومون من عباداتهم القومية ، فجاءوا بآلهتهم وأقاموا لها هياكل خاصة بها ، فغرسوا فى قلب بلاد الغرب دين الشرق ، وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهزومين حرب لم تنفع فيها أسلحة الجحافل الرومانية ، وكانت حاجات القلوب هى

التى قررت لمن يكون الفوز .

ونافست إيزيس المصرية إلـٰهة الأمومة والإخصاب والتجارة الإلـٰهة روما والأم العظمى ، وأقيم لها هيكل فخم فى ميدان المريخ ، وراح كهنتها يحملون فى عيدها تمثال أتوبيس القرد إلـٰه المصريين .

وجاءت من هيربوليس الإلـٰهة أرجانس الإلـٰهة السورية ، وجاء منها عزيز وعرف « بزيوس دلوكى » كما عرف فى أرض العرب « بالعزى » ، وجاء من فارس عدوة روما اللدود عبادة مثرا إلـٰهة الشمس ، وكان عبادها يعتقدون أنهم جنود فى الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام وحرب الخير على الشر . وفى خضم ذلك الاضطراب الدينى جاءت المسيحية من الشرق تتسلل إلى المجتمع الرومانى المتعطش إلى الإيمان لتنشر سلطانها على الجميع .

وتولى السلطة فى روما تراجان ، ولما كان قد نشأ فى مهاد الحرب فقد كان استعماريا صريحا يفضل النظام على الحرية والقوة على السلم . و لم يكد يمضى على قدومه إلى روما عام واحد حتى خرج لفتح داشيا ، وكانت داشيا هى رومانيا الحالية وكان ضمها إلى امبراطوريته يمكنه من الاستيلاء على الطريق الذى يوصله إلى الشرق .

وحقق تراجان أمله ثم عاد إلى روما وأمضى ست سنوات يبنى القصور والحمامات ، ومل السلم فراح يفكر فى أن يضع للحرب بين الفرس والرومان حلا نهائيا بأن يجعل للدولة الرومانية حدودا أكثر مناعة وصلاحية من جهة الشرق ، ويسيطر على الطرق التجارية من أرمينية وآسيا الصغرى إلى أواسط آسيا والخليج الفارسى وبلاد الهند .

كان رب إيل ملك النبط قد قضى نحبه وكان مالك الثالث قد تربع على

عرش البلاد ، وما كاد ينتهى من احتفالات التتويج حتى بلغه أنباء خروج تراجان على رأس جيشه قاصدا الشرق .

وتأهب العرب للقتال فأخرجوا كل ما فى البتراء من سلاح ، وهب الشباب للدفاع عن البلاد وشحنت الصخرة بالمقاتلين والفرسان ، وجاءت الفيالق الرومانية بقضها وقضيضها ، ودارت الحرب بين النبط والرومان والتقى الفرسان ، واستبسل الأنباط فى القتال واشتد ضغط الرومان وراحت الرايات تتقدم والنسر الرومانى خفاق فوق الرءوس ، وسقط العرب صرعى وسالت الدماء أنهارا فراح جنود النبط يلتفتون مذعورين ثم ولوا الأدبار .

ودب الذعر فى البتراء صخرة العرب وهام الناس على وجوههم فارين وحملوا ما استطاعوا أن يحملوه من أموال وأصنام الآلهة وتفرقوا فى كل طريق ، ذهب بعضهم إلى دومة الجندل وانطلق آخرون إلى مكة ، إلى حرم الله إلى البيت العتيق حيث يأمن الناس والطير .

وتدفق الجيش الرومانى من بين الجبلين الشاهقين فى وادى موسى إلى السهل المنبسط الذى قامت فيه حضارة النبط وراحوا يصعدون إلى الجبل حيث أقيمت معابد الآلهة ، وسرعان ما استتب الأمر للرومان وفقدت مملكة النبط حريتها ، وأصبحت الكورة العربية يحكمها بالما قائد تراجان وقد ضمت إلى الولاية السورية .

وقضى على ملك بنى إسماعيل وتقلصت دولتهم حتى تركزت حول الحرم تنتظر بعث ذلك الرسول الذى سيعيد إلى العرب وحدتهم ويرد عن دولتهم المحتلين ويجعل رايتهم خفاقة على العالمين .

٣٤

كانت مكة واحة الإيمان فى صحراء الوثنيات التى غطت وجه الدنيا ، لم ترفض عقول أبنائها الإيمان بالله وحده ، فلم يعرضوا عن السماء ليحاولوا إقامة المدينة الفاضلة على الأرض ، بل أسلموا وجوههم لله ..فظلت شعلة الدين متألقة فى جنباتها وصارت مرفأ هادئا للخائفين واللائذين بحرمها يجدون الأمن والسلام ، بينا يتخطف الناس من حولهم .

بقي جوهر الدين فيها نقيا فحل الإيمان محل السلطان وعاش أهلها سعداء ما داموا فى كنف الله ، وإن تقوض كل ما تصوره الناس من مدن فاضلة فى الدول التى حولها لاستمرار الأقوياء فى استغلال الضعفاء والاستبداد بهم .

ونجح إلياس فى القضاء على البدع التى كانت قد بدأت تتسرب إلى الدين فجدد لملة إبراهيم شبابها واشتعلت النفحة الروحية فى صدور المؤمنين مرة أخرى . وعاش ابنه قمعة بن خندف فى ظل النهضة الدينية التى بعثها أبوه عيشة سعيدة راضية ، وشب لحى بن قمعة فى زمن ازدهرت فيه تجارة مكة وتكدست فى بيوت أشرافها الأموال من ذهب وفضة .

وجاء عمرو بن لحى بعد أن طال على الناس العهد وفترت حماستهم الدينية وأخذت أساطير الشعوب تفد إلى مكة مع التجار الذين كانوا يعبدون الله على حرف ، وألقى الناس أسماعهم إلى القصص التى كانت تروى عن آلهة الشعوب من نبط وآراميين ومصريين وبابليين وفرس ومسيحيين .

وتلفت عمرو بن لحى فألفى نفسه غنيا مسموع الكلمة فى قومه ، فلما جاء أوان الحج نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا الناس عشرة آلاف حلة ، ففتن الناس به وأقبلوا عليه يعظمونه ويقرون له بالسيادة عليهم .

وتملك عمرو الغرور فراح يبتدع لقومه البدع ، وكان لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، ولما كان يملك من النوق ما لا يعد ولا يحصى وكانت غنمه تغطى مراعى مكة فقد راح يشرع فى النوق والغنم !

قال : إن الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، وعرفت هذه الناقة بالسائبة .

ولما كان غنيا لا يدرى كيف يملأ فراغ حياته فلم يكتف بما شرع ، بل راح يفكر فى تشريع آخر ما دام قومه أطاعوه واتخذوه قدوة ، فقال : ما أنتجت السائبة بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها ، وعرفت هذه الناقة بالبحيرة بنت السائبة .

ورضى قومه بما ابتدع لهم من بدع فغالى فى التشريع فقال : الشاة إذا أتمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، فما تلد بعد ذلك فلذكور البنين دون البنات ، إلا أن يموت منها شىء فيشترك فى أكله البنون والبنات .

قال : إن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حُمى ظهره فلم يركب ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك وعرف ذلك الفحل بالحامى .

وراح يحرم ويحلل ويشرع فى الشاة التى تلد اثنين فى كل بطن فيجعل الإناث لله والذكور لصاحبها ، وعرف العرب لأول مرة السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى وآمنوا بأن ذلك من عند الله « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » . « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » . « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون» . « من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

وعجز عمرو بن لحى عن أن يجدد دين إبراهيم أو أن يدعو إلى مذهب فلسفى فراح يشرع فى الإبل والضأن والمعز والبقر ، وكانت مكة تعيش فى غيبوبة دينية فانقادت إليه دون تفكير .

وخرج عمرو فى القافلة المنطلقة إلى الشمال تحمل تجارة مكة وهو منتفخ الأوداج غرورا يحيط به خدمه وحشمه وبعض المعجبين بثرائه العريض ، وقد أطلق العنان لعقله السقيم فراحت تداعبه فكرة أن يعود من أرض النبط أو أرض ثمود أو من البلقاء ببدعة جديدة .

وبلغت القافلة أرض النبط وراحت تنساب فى البتراء عاصمة أول من أشركوا بالله من أبناء إسماعيل ، فألفى معابد « ذى الشرى » و « اللات »

و « العزى » و « رب البيت » و « منوتن » إلـٰهة المنايا والحظ غـاصة بالعابدين والطائفين والركع السجود ، فقال للقوم :

ــ ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟

ــ هذه أصنام نعبدها ، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا .

ــ أتعبدونها من دون الله ؟

ــ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

ــ وما اللات ؟

ــ زوجة الإلـٰه .

ــ وما العزى ؟

ــ ابنته .

ــ ومنوتن ؟

ــ ابنة أخرى . هن بنات الله وهن يشفعن إليه .

و لم يكن أمرا سهلا أن يشرك عمرو بن لحى بالله ، فراح يحاور القوم :

ــ أتنفعكم هذه الأصنام ؟

ــ ما عظمها آباؤنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر .

وغادرت القافلة أرض النبط وانطلقت فى الفضاء ، وراح الحادى يحدو بالغناء فدب النشاط فى الإبل بعد الكلال وأطلق عمرو بن لحى لخياله العنان يفكر فيما رأى فى معابد بنى إسماعيل بعد أن أضحوا كورة رومانية ويتردد فى مسامعه ما ألقى إليه من القوم : « اللات زوجة الإلـٰه .. العزى ابنته : إنها كوكب الصباح .. منوتن إلـٰهة الحظ والمنايا .. إنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » .

وراح عمرو بن لحى يقاوم ما يوسوس به شيطانه ، إنه يغريه بأن يحمل صنما من هذه الأصنام وأن يضعه فى جوف الكعبة ويأمر المكيين الذين اتخذوه ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة أن يعبدوا ما جاءهم به من الأصنام ، ولكنه كان يجاهد أن يصم أذنيه عن همزات الشيطان .

وانبهرت أنفاسه من الجهد وتصبب منه العرق فقد وضع أصابعه فى أذنيه ، ولكن الإغراء كان ينبعث من جوفه ويمتلىء به صدره ويغذيه غروره ، وما إن دخلت القافلة مؤاب حتى انهارت مقاومته وأسلس لشيطانه قياده .

ووقف عمرو بن لحى أمام صنم هبل طويلا وراح يحاور القوم ثم قال لهم وهو يحاورهم :

ــ أفلا تعطونى صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟

وعادت القافلة إلى مكة تحمل صنم هبل ووضعه عمرو بن لحى عند البئر فى جوف الكعبة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، فانقاد الناس إليه بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

وفتح عمرو بن لحى باب الشرك بالله فى الأرض المقدسة التى ظلت منارة التوحيد مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وأصبح استيراد الأصنام من الأراضى المجاورة بدعة محببة إلى نفوس القوم ، بل تنافسوا فيها تنافسهم فى التجارة فاستورد عمرو بن لحى اللات ونصب تمثالها بالطائف ، واستورد ظالم بن أسعد العزى وأقامه بوادى حراض بإزاء النمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق البستان بتسعة أميال ، ولم يكتف بذلك بل بنى فوقها بيتا .

وراح عمرو بن لحى يقول لقومه .

— إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة !

وجلب عمرو بن لحى صنم منوتن إلٰهة المنايا والحظ ، ولما لم يكن نطق اسمها ميسورا فقد أطلق عليها العرب « مناة » .

وعلى مر الأيام جاء صنم مناف من ثمود ، وكان على صورة رجل لا لحية له ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعى المرموز به إلى الآلهة الشمسية ، فقد عاد العرب جميعا إلى عبادة الكواكب والنجوم بعد أن عرفوا الله وحده ، وجاء التجار بأصنام آلهة المصريين والآراميين والبابليين ووضعوها فى جوف الكعبة ، حتى تكدس أول بيت وضع للناس بثلاثمائة وستين صنما !

وهبت عواصف الشرك بالله على واحة الإيمان فطمرتها ، وكان عمرو بن لحى أول من فتح أبواب الشرك لتتدفق أساطير الشعوب إلى مكة وتغمر الحقيقة الناصعة ، حقيقة أن لهذا الكون ربا واحدا لا شريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

خول الله عمرو بن لحى نعمة منه فلم يشكر الله على نعمته ، بل راح يملأ فراغ حياته بالتشريع فى الإبل والغنم والمعز والبقر ، يحلل ما يشاء ويحرم ما يشاء ، و لم يكتفَ بذلك بل جلب من أرض الشرك الأصنام لتعبد مع الله فى الوادى المقدس . وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار .

٣٥

ظل البيت مقدسا فى مكة يطوف به الرجال قبل أن ينطلقوا إلى أعمالهم فى الصباح ويطوفون به قبل أن يعودوا إلى دورهم فى المساء ، ولكن البيت الذى أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل منارة للتوحيد غص بالأصنام التى جلبت من مصر والشام والعراق ، والتى عاد بها النبط من بلادهم فرارا من وجه تراجان واضطهاد الرومان بعد أن صارت مملكة البنط — أحفاد نابت بن إسماعيل — كورة تحت حكم قياصرة روما .

وساد مكة تسامح دينى مكن لبدعة الوثنية أن تتسلل دون كفاح إلى معقل التوحيد ، وانعدم ظهور العباقرة المكافحين عن دين الآباء أو ابتداع فلسفة جديدة تغذى أرواح المريدين ، وزهد فى الحكم أولئك الذين يقتضى الأمر أن يحكموا وأن يكونوا للناس قدوة ، وصارت ولاية البيت وظيفة دينية لها بريقها وسحرها ولكنها فقدت سلطانها الدنيوى على المكيين .

وأسنت الحياة الدينية فى مكة وكثرت أوقات الفراغ عند العرب ، فاهتموا بالعيافة وهى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر حتى قيل إن بعضهم يفوق بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة والبكر والثيب ، واهتموا بقيافة البشر للاستدلال بهيئات أعضاء الشخصيين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب ، واهتموا بالفراسة للاستدلال بهيئة الإنسان وأشكالـه وألوانه على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وتعلموا الكهانة والعرافة فادعـى الكهان علم الغيب وراحوا يخبرون بما سيقع فى الأرض من أحداث ، وكثر

المتهمون بالزجر والعيافة وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم ، فإذا رأوا اندلاع لسان ذئب فهو لسان عزول همه سفك الدماء ، وإذا رأوا برقا ومطرا فهو دم سائل ، وإذا رأوا عقابا منقضا على عقاب فتشابكا وهويا إلى الأرض فهو قتال جمع وجمع ، وراحوا يزجرون الطير فما تيامن منها وأخذت ذات اليمين سموه سانحا وتفاءلوا به ، وما تياسر منها سموه بارحا وتشاءموا منه ، فساد مكة الوثنية والخرافات والموت فى الحياة ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وجىء بصنم رجل ووضع عند بئر زمزم المطمورة أمام باب الكعبة ، وجىء بصنم امرأة ووضع على بعد أمتار من الصنم الأول ، وكان لا بد أن يسمى هذان الصنمان ، فكان الرجل إساف وكانت المرأة نائلة .

ولما كانت الشعوب لا تكتفى بالأسماء بل لا بد من تاريخ يروى حول الأسماء التى قدر لها أن يكون لها نصيب فى الحياة العامة ، فقد نسج الناس أسطورة حول إساف ونائلة وراحوا يرددونها على مر العصور تقول إنهما كانا رجلا وامرأة من جرهم انتهزا خلوة فى البيت المحرم وفجرا فيه فمسخهما الله تعالى حجرين ، ولم يحطم الناس الحجرين اللذين كانا إنسانين أحدثا فى أطهر بقعة فى الأرض وإنما راحوا ينحرون عندهما القرابين التى يقدمونها لآلهتهم تكفيرا عن خطاياهم !

واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه،فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

واتخذ أهل مكة مع الكعبة طواغيت وهى بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، ويهدون لها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كطوافهم بها ، وينحرون عندها ، ولكنهم كانوا يعرفون فضل الكعبة عليها فهى بيت أبيهم إبراهيم الخليل ومسجده .

وظل أهل مكة يعرفون الله ولكنهم عبدوا معه ما جاءوا به من أصنام ليقربوهم إليه زلفى ، وكانوا يحجون على مر السنين ويقفون المواقف ، وقد غيروا فى التلبية لتلائم حالة الشك التى أمسوا فيها فكانوا يلبون :

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وكان الطواف يبدأ باستلام الحجر الأسود ، فلما جىء بإساف ونائلة أصبح الطواف يبدأ بأن يستلم الطائف إساف ثم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه !

وفسد الدين فى مكة ولكن الناس كانوا يجتمعون فى الحرم ويتناقشون فى أمر الدين ، فما كان المكيون بقادرين على أن يعيشوا بلا دين والبيت المحرم يربط بينهم وبين السماء . واشتدت الخلافات بينهم فمن قائل بأن خالقا خلق الأفلاك غير أنها تحركت أعظم حركة فثارت عليه وأحرقته لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها ، وأن الأشياء ليس لها أول ألبتة وإنما تخرج من القوة إلى الفعل ، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل كونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شىء آخر . ومن قائل بأن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله ، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى

فيه ، ومن ظل على دين إبراهيم يعرف الله ويعبده وهؤلاء هم الأتقياء الحنفاء .

كان الحنفاء يؤمنون بالبعث ، وكن فريق ممن جعل لله شركاء يؤمنون بالبعث أيضا ويعتقدون أن الناس يحشرون ركبانا،فكانوا يتركون ناقة الميت لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا وعطشا وقد عرفت بالبلية ، فإذا جاء يوم الدين بعثت ناقته معه فيركبها كما كان يفعل فى الدنيا .

ومات خزيمة بن مدركة ، فدخل ابنه الأكبر كنانة على نساء أبيه ، فطرح ثوبا على زوج أبيه برة بنت مر أخت تميم بن مر فصارت زوجه ، ليحافظ على خصائص دم الزعامة فى الأسرة كما كان يفعل الفراعنة بزواج الأخ من الأخت ليحافظوا على الدم الملكى ، ولكن العرب كانوا يكرهون ذلك الزواج ويطلقون عليه زواج المقت .

وذاع فى بلاد العرب اسم كنانة فقد اشتهر بحدبه على الناس وحكمته ، فراحوا يشدون الرحال إليه ليستشيروه فى أمر دينهم ، وكانوا يستريحون إلى قضائه وستره لأمورهم كستر الكنانة للسهام فاشتهر بينهم بكنانة ، ومن يدرى فلعل أباه قد سماه باسم أبيه وغلبت عليه شهرته كما هو الحال فى أغلب رجال العرب ونسائها .

وأنجبت برة بنت مر لكنانة النضر ومالك وملكان ، وأنجبت له هالة بنت سويد بن الغطريف عبد مناة ، ومرت السنون وتفرق أبناء عدنان فى البلاد فلحق بعضهم بالنبط الذين لاذوا بدومة الجندل ، وذهب بعضهم إلى اليمن ، وانطلق آخرون إلى الحيرة وإلى الكورة العربية وإلى سيناء .

ومات كنانة وأصبح النضر زعيم الكنانيين ، وقد عرف بالنضر لنضارة وجهه وحسنه ، فقد غلبت عليه صفته كما غلبت على من سبقوه .

وتلفت النضر فوجد شباب العدنانيين من نزاريين ومضريين وكنانيين قد هجروا البيت وتفسحوا فى البلاد ، وأن تجارة مكة تأثرت بتلك الهجرات ، فعزم على أن يعيدهم إلى مكة وأن يجمعهم فى الحرم ليجدد شباب أم القرى وليعيد لها مكانتها ، فأوفد النضر السفارات إلى الذين هجروا البيت يغريهم بالعودة إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وعادت الأسر التى غادرت مكة إلى الحرم ، ونجح النضر فى أن يجمع الشمل ، وأفعم السرور القلوب وتهللت الوجوه بالفرح لما تقرش (تجمع) العدنانيون مرة أخرى فى المسجد الحرام ، فالتفوا إلى النضر بن كنانة الذى كان له الفضل فى تقرشهم (تجمعهم) وقالوا : قريش .

التذييل

ذكرت فى مقدمة الجزء الأول أنى أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، وأن أطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رفاهيته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ؛ واننا لو سرنا عبر التاريخ مذ خلق الله آدم لوجدنا أن قمم الحضارة الشامخات قد كونتها نفحات روحية ، رفعت الإنسان فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز وما تهفو إليه النفـوس فأعادت إليه كرامته وسموه ، ودفعته فى مدارج الرقى لينال خيرى الدنيا والدين .

خلق الله آدم ليكون خليفته فى الأرض « إنى جاعل فى الأرض خليفة »(١) وقد كان آدم قبل أن يهبط إلى الأرض على علـم : « وعلـم آدم الأسماء كلها »(٢) . فلما هبط إلى الأرض كان يعيش مع الله وبالله وفى الله ، وراح يعلم أبناءه ما يعلم ، ويبنى أول مجمع بشرى على أسس سليمة ، ويلقن ذريته أن كل عمل يوزن فى ذاته كما يوزن من حيث صلته بخالق الكون والناس ، لأن كل إنسان سيسأل عما يفعل يوم القيامة .

وتعلم بنو آدم أن الملك لله ، وأن المال مال الله ، وأن الله جعل الناس مستخلفين فى ماله ، وغرست فى وجدانهم قيم خلقية أسمى من الواقع الأرضى

---

(١) البقرة ٣٠ .

(٢) البقرة ٣١ .

المستمر فى الجريان .

واستمر التطور التاريخى ، وطال على الناس العهد فبعدت الشقة بينهم وبين السماء فقست قلوبهم ، فجعلوا لله أندادا ، ولما كان الله قد كتب على نفسه الرحمة فإنه جل جلاله لم يعذب الناس بكفرهم ، بل بعث إليهم رسله ليعيدوهم إلى الصراط المستقيم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »(٢) .

وكان الرسل يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة : فإن آمن الناس كانوا ينالون عز الدنيا والآخرة ، وإن لجوا فى الكفر كان الله يذهبهم ويأتى بخلق جديد « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »(٣) . سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقد بعث الله إدريس فى مصر قبل عصر الأسرات يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويقول لهم إنهم مبعوثون ليوم عظيم ، فآمن المصريون بالله واليوم الآخر وبنوا حضارتهم على قيم روحية هذبت ضمائرهم وجعلتهم يعملون للدنيا والدين ، وقد أقاموا الأهرام وأضخم ما عرف التاريخ من مقابر استعدادا ليوم البعث ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وصارت مصر الفرعونية كما قال ول ديورنت فى قصة الحضارة تعيش بالدين وللدين : « لقد كان الدين فى مصر فوق كل شىء ومن أسفل كل شىء ، فنحن نراه فى كل مرحلة من مراحله وفى كل شكل من أشكاله : من

---

(١) الإسراء ١٥ .

(٢) فصلت ٤٦

(٣) إبراهيم ١٩ .

الطوطم (عبادة الأحجار التى لا شكل لها) إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره فى الفن وفى الأدب وفى كل شىء » .

وبنى إدريس الكعبة على قول الصابئة لتكون منارة للتوحيد ، « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة »(١) . ونزل الله على عبده الكتاب وعرف عند الصابئين « بكنزة »، وسار الناس على هدى كتاب الله يقطعون فى سبيل رقى البشرية أشواطا .

وطال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بالله ثم عبدوا ما ينحتون ، عبدوا فى أرض العراق وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، فأرسل الله إليهم نوحا : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »(٢) .

وراح نوح يدعو قومه ليلا ونهارا ، يدعوهم جهارا ويناجيهم ويمنيهم ويخوفهم ، فكان كلما دعاهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبوا استكبارا . وقنط من هداية قومه ، « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكفارين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »(٣) ، فاستجاب الله دعوة رسوله وأغرق قومه الذين أرادوا بظلمهم أن يعرقلوا سير موكب الحضارة : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة

---

(١) آل عمران ٢٦ .　　(٢) نوح ١ : ٤

(٣) نوح ٢٦ : ٢٧

وأنشأنا بعدها قوما آخرين »[١] ، « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[٢] .

وقامت فى بابل حضارة ترتكز على الدين وسواعد المؤمنين ، فازدهرت بابل وبنت أكثر من لبنة فى صرح التاريخ ، وطال على الناس الأمد وفسد الدين القيم وبقى منه قشور ، فقال الملوك إن الملكية نزلت من السماء واتخذوا لأنفسهم عروشا تشبها بعرش الله ، وقالوا إنهم من نسل الإلـٰه وأنهم يحكمون الناس بذلك الحق الإلـٰهى .

ونسجت الأساطير حول الله ، ثم اتخذ كل طامع فى الملك لنفسه إلـٰها راح يدعو إليه ويفضله على سائر الآلهة ويدعى أنه رب الأرباب ، وسمع الناس لأول مرة فى بابل عن مجمع الآلهة وعن الحروب التى تدار بين الأرباب فى السماء ونسوا يوم البعث فقالوا إن الإنسان إذا مات يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وعرفت عبادة الكواكب والنجوم، وما كانت الكواكب تعبد لذاتها بل كانت ترمز إلى الآلهة والأسرة المقدسة، وكان القمر فى أرض العرب: فى بابل وسورية وسيناء واليمن يرمز إلى رب الأرباب، وكانت الشمس زوجه وأم الآلهة، وكانت النجوم أبناء الإلـٰه وبناته، وظل الحال كذلك إلى أن استولت أسرة حمورابى على بابل فرفعت معبودها مردوخ وكان يرمز إليه بالمشترى إلى مرتبة رب الأرباب، وفى ذلك الوقت بعث الله إبراهيم الخليل رسولا إلى قومه لينتشل البشرية من التردى فى الشرك، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

---

(١) الأنبياء ١١ (٢) النحل ٣٣

وراح إبراهيم يدعو الناس إلى الله فى أرض العراق وفى سورية وفى مصر ، ثم أقام القواعد من البيت وإسماعيل فى مكة ليكون منارة للتوحيد فى الأرض . ولحق إبراهيم بالرفيق الأعلى وقد نفخ فى البشرية نفخة روحية دفعتها دفعا فى طريق تطورها التاريخى .

تكون حول بئر زمزم — بفضل إبراهيم وهاجر وإسماعيل — مجتمع جديد حمل لواء الإسلام الذى جاء به إبراهيم الخليل ، مجتمع لم يكن له تقاليد ولا أساطير ، لذلك ظل أكثر من ألف عام ليس له إلٰه إلا الله رب العالمين . وقد أمد هذا المجتمع الهكسوس فى سورية ومصر بمبادئ جعلتهم يتفوقون على الآراميين والفراعين ، وقام بنو إسرائيل حفدة إبراهيم الخليل فى فلسطين يدعون الناس إلى الإسلام ، دين جدهم العظيم ، فما كان الغرور قد تملكهم بعد واعتقدوا أنهم وحدهم الناس ، فوطئوا بدينهم من حولهم ثم جاءوا إلى مصر لما من الله على يوسف الصديق وجعله رئيس وزرائها .

وأثرت دعوة يوسف وإخوته الروحية فى سكان دلتا النيل ، وتسربت إلى طيبة معقل المصريين الأحرار الذين لم يخضعوا لحكم الهكسوس ، فتركت أثرها فى دين الفراعين فوحدوا آلهتهم فى إلٰه واحد قادر هو آمون .

وطال على الهكسوس العهد وتركوا دينهم بعد أن فتت المادية الطاغية فى عضدهم وانتشر الغنى والفسق فيهم ، فكانوا يعيشون فى مصر أمواتا قبل أن يهب المصريون لحربهم .

وقاد أحمس جنوده بعد أن شحنهم بشحنة إيمان عميقة بآمون ودارت الحرب بين الإيمان بآمون والضياع والفراغ والترف فانتصر الإيمان وطرد المصريون الهكسوس ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت

الأرض .

وأخضع المصريون سورية بفضل نفحة الإيمان التى ملأت جوانحهم وسرعان ما خبت تلك الجذوة وعاد الكهنة إلى بيع الأساطير للناس ، وفسد دين بنى إسرائيل الذين استقروا فى مصر بعد طرد الهكسوس فنسوا إسلامهم وعبدوا العجل وآلهة المصريين ، وازدهر الشرك الذى يزدهر فى ظله الغنى والظلم والفسوق ويبدأ به سوس الفساد ينخر فى صرح الحضارة ، وبدا أن الأرض فى حاجة إلى رسالة من السماء تجدد شبابها ، وتقرع الظالمين بقوارع من العذاب تعيد للمستضعفين إيمانهم بالله وتدفع ركب الحضارة دفعة إلى الأمام .

وجاء موسى عليه السلام ليدعو الناس إلى الإسلام ويخرج بنى إسرائيل من الذل المهين ، وخرج موسى ببنى إسرائيل من مصر وذهب لميقات ربه عند جبل الطور ، فلما عاد إلى قومه ألفاهم قد عادوا لعبادة العجل فغضب وثار واستغفر ربه ، ولكن الله حكم عليهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة .

وذهب موسى وبقيت توراة الله فى الأرض لتكون للمؤمنين هاديا ونبراسا ، وقاد يوشع بن نون جيوش بنى إسرائيل وانتصر على الكنعانيين واستولى على فلسطين .

وعلى الرغم من وجود التوراة فقد عبد بنو إسرائيل آلهة الوثنيين ، عبدوا بعلا والآلهة الأخرى فكان الله يبعث إليهم أنبياءه ليعودوا إلى الإيمان قبل أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد .

وقامت فى العراق دولة آشور ، دولة مؤمنة بإلهها آشور العطوف ، وكان ملوكها غلاظ الأكباد يحاربون أعداء آشور ويكومون جماجم أعدائهم أهراما

ويحرقون الدور ويسلخون جلود أعدائهم وهم أحياء إرضاء لإلـٰههم آشور العطوف . وقد سلطهم الله على بنى إسرائيل لكفرهم بعد أن جاءهم كتاب منير ، وعلى بنى إسماعيل الذين تركوا البيت المحرم وتفسحوا فى الأرض وعبدوا اللات والعزى ومنوتن وذا الشرى .

وانتهى دور آشور من التاريخ فما كانت لهم رسالة إلا تأديب من عادوا إلى الظلمات بعد أن أخرجهم الله إلى النور « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »(١) . وقامت فى بابل دولة بابل الجديدة بفضل النفحة الروحية التى سرت بين ضلوع عباد مردوخ فقضت على دولة آشور ، ثم سلطها الله على بنى إسرائيل فى أيام بختنصر لما استشرى الفساد فى الدولة التى زعمت أنها شعب الله المختار ، ففتح بختنصر أورشليم وأعمل القتل فى اليهود ، ثم حمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل . وفى أرض المنفى راح أحبار اليهود يعيدون كتابة التوراة بأيديهم وراح كل فريق يمجد أسلافه دون الاهتمام بالواقع التاريخى ، حتى إن الذين كتبوا سفر أشعيا لم يذكروا اسم موسى على لسان نبيهم الصالح لأن موسى كان من اللاويين ، وكان الذين خطوا سفر أشعيا بأيديهم من نسل يهوذا !

وجاء الذين يتشككون وينكرون أحداث التاريخ التى لم تنقش على حجر وقالوا إن موسى شخصية من نسج الخيال ، فلو كان حقيقة واقعة لجاء ذكره على لسان أشعيا نبى بنى إسرائيل الذى خلف وراءه لفائف مكتوبة !

وانتهى دور اليهود فى التاريخ الروحى بعد أن أصاب العقم أحبار اليهود

---

(١) الأعراف ٣٤

وإن بقى دورهم السياسى الخبيث ، وأضاء نور الروح فى هضبة إيران فقد قام زرادشت نبى الإيرانيين يدعو الناس إلى عبادة الله وحده أهورا مزدا إلـٰه النور ، وفرض على الناس خمس صلوات وبشر بالنبى العربى الذى سيبعثه الله فى جزيرة العرب، فقال لأتباعه : « استمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » .

وآمن قورش حاكم فارس بالدين الجديد ، وسرت النفحة الروحية فى صدور فلاحى إيران البسطاء فإذا بها تحيلهم إلى محاربين شجعان يجودون بأنفسهم فى سبيل دين الله وإعلاء كلمة آهورا مزدا .

واستطاع قورش بجيش المؤمنين أن يقضى على مملكة بابل ، وأن يفك أسْر اليهود وأن يعيدهم إلى أورشليم ليعيدوا بناء هيكلهم المقدس الذى أحرقه بختنصر وقوضه . وأعاد اليهود بناء الهيكل ولكن الروح لم تعد تخفق فى جنبات بيت المقدس فقد زهقت مذ ذلك الوقت المقيت الذى زعم فيه اليهود أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم وأنهم شعب الله المختار ، وعبدوا أنفسهم غرورا .

وحملت النفحة الروحية فلاحى إيران البسطاء إلى أقصى الأرض فاستولوا على العراق وسورية ومصر ، وجاهدوا ليبسطوا سلطان الله على العالمين .

وطال على الإيرانيين الأمد وقست قلوبهم فانتهز المجوس (الكهنة) فرصة انكباب الناس على الدنيا وإقبالهم على الشهوات ليعيدوا سلطانهم بإحياء أساطير الأولين ، فقالوا إن أم زرادشت حملت به حملا إلـٰهيا قدسيا ، فقد تسرب الملاك الذى يرعاه إلى نبات الهَوما وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرابين المقدسة وفى الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة

العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب متناسقة فى الشرف .

وتزوج الكاهن بالفتاة وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع فنشأ زرادشت من هذا المزيج ، فلما ولد قهقه عاليا من أول يوم ولد فيه ففرت من حوله الأرواح الخبيثة التى تجتمع حول كل كائن وهى مضطربة وجلة .

أحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وآثر أن يعيش فى برية جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن يغويه (وكما يقول المسيحيون لما ظهر الشيطان للسيد المسيح : أن يجربه) ولكنه أخفق وشق صدره بطعنة سيف ، وملئت أحشاؤه بالرصاص المنصهر فلم يشك أو يتململ بل ظل مستمسكا بإيمانه بأهورا مزدا الإلٰه الأعظم .

وتجلى له أهورا مزدا ووضع فى يديه (الأبستاق) كتاب العلم والحكمة ، وأمر أن يعظ الناس بما جاء فيه .

وفى غفلة من المؤمنين قال المجوس إن النار ابن أهورا مزدا إلٰه النور وأطلقوا عليه « آنار » . ولما كانت الشمس نار السماوات الخالدة فقد شرع المجوس عبادتها وقالوا إنها أقصى ما يتمثل فيها أهورا مزدا .

وكان لأهورا مزدا كما وصفه زرادشت سبع صفات هى النور والعقل الطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود . ولما كان المجوس قد اعتادوا عبادة أرباب مختلفين فقد فسروا هذه الصفات على أنها شخوص وبذلك انقلب دين الوحدانية الرائع إلى دين فيه شركاء لأهورا مزدا إله النور الواحد العظيم .

واستحال ما كان يتصف به أتباع زرادشت من تقشف وزهد إلى استمتاع طليق ، وأصبح أكثر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيذ المأكل

والمشرب . وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام فى اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتلأت مخازن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيرا ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملئوا بطونهم باللحوم السمينة النادرة ، وتفننوا فى ابتكار أنواع المشهيات والحلوى ، وامتلأ البلاط الفارسي بالغانيات من اليهود اللائى كن يقدمن أنفسهن على مذبح الشهوة لتمكين اليهود من تحريك ملوك الفرس فى اتجاه مصالحهم ومآربهم .

وبدأت الشعلة الروحية التى أوقدها زرادشت تخبو فى صدور الفرس ، وتفشى بين سواد الشعب الفساد ، وبدا أن فارس بدأت تنتحر من الداخل وأن الله سيذهب هؤلاء الأقوام ليأتى بأقوام آخرين يحملون الشعلة الروحية إلى حين ، ويدفعون ركب الحضارة خطوات على الطريق : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »(١) .

وقد يعجب بعض القراء من أنى تعاملت مع زرادشت على أنه رسول كريم ولهم عذرهم ، فقد كان بعض المشتغلين بالدين يعتقدون واهمين أن الله خص الشعوب السامية بالرسالة والنبوة ، وهذا الزعم يدحضه القرآن الكريم :

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »(١) ، « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم

---

(١) النحل ٣٦

بالقسط وهم لا يظلمون »[١] ، « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »[٢] وبناء على ما يقرره القرآن الكريم فليس هناك من سبب يحول بين أن يصطفى الله زرادشت لرسالته ، فالله يصطفى من يشاء من الملائكة ومن الناس لرسالته .

وعلى ذلك فالعبرة بجوهر الدعوة التى كان يدعو إليها زرادشت ، إنه كان يدعو إلى عبادة الله وحده خالق الكون والناس ورب الكون والناس رب العالمين ، وإنها دعوة كل الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده .

وفرض على المؤمنين شهادة أن لا إلـٰه إلا أهورا مزدا إلـٰه النور العظيم ، والصلوات الخمس ، والتقوى ، والصدقة ، وحرم الربا ، وقال إن الكفر رأس الخطايا كلها ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الهياكل ، ووعد المؤمنين بجنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وقال بالوعيد وإن جهنم مثوى للكافرين .

و لم يقل إن الله تجلى له بل قال كما قال الرسل والأنبياء إن الله كان يكلمه وحيا ، وأن « فاهومانا » أى كبير الملائكة هو الذى كان ينقل إليه أوامر الله كما قال الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده أن جبريل الأمين كان الرسول بين الله ورسله وأنبيائه .

إن دعوة زرادشت دعوة إلى الوحدانية الخالصة وإنها من نفس النبع الذى جاءت به كل الرسالات السماوية ، فإن كان « الأبستاق » كتابه الكريم قد غص بالرقى والتعاويذ والوثنيات فقد أضاف ذلك المجوس من بعده ، وقد اعتوره التبديل الذى قاست منه التوراة أيام أن أعاد أحبار اليهود كتابتها فى أيام

---

(١) يونس ٤٧ (٢) فاطر ٢٤

المنفى ، وقد فطن المؤمنون بالتوراة فى أيامنا هذه إلى ما فى التوراة مما يتنافى مع جلال الرسالات فطالبوا برفع نشيد الإنشاد الذى ينسب إلى سليمان الحكيم من الكتاب المقدس ، ويا حبذا لو قام المؤمنون برسالة زرادشت بتنقية « الأبستاق » مما فيه من الزيف عوضا عن عبادة النار والتراب والأرض والماء وتقديسها ، وعرض موتاهم فى « أبراج الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدنس العناصر المقدسة بدفنها فى الأرض أو حرقها فى الهواء .

خمدت الجذوة الروحية التى أشعلها زرادشت فى نفوس الفرس فراحت فارس الأخمينيين تترنح من الخمر والفسق والمجون تنتظر مصيرها المحتوم .

وقام فى اليونان فلاسفة يدعون إلى توحيد الله ونبذ الأرباب المختلفين وإلى مكارم الأخلاق وإقامه المدن الفاضلة ، وقد كان الإسكندر أول مؤمن من ذوى السلطان فى جمهورية أفلاطون فقام يغزو العالم ليحقق حلم الحكومة العالمية .

اجتاز الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، وحاول الجيش الفارسى أن يصد جيش الإسكندر عند نهر غرانيقوس ولكن تلك المحاولة انتهت بانكسار الجيش الذى نخر فيه سوس الفساد ، واتجه الإسكندر جنوبا وشرقا يخضع بعض البلدان وعاد والتقى جيش الإسكندر وجيش دارا الثالث عند إسوس ، وانتصر الجيش الذى كانت قلوب قواده عامرة بالإيمان ، انتصر الإسكندر على دارا انتصارا مؤزرا ففر دارا من الميدان فرار الأنذال .

وراح دارا يجمع فلول جيشه ويغرى الجنود المرتزقة بالمال أن تحارب معه ، والتقى الجمعان عند كواكميلا واستطاع الإسكندر أن يقضى على جيش دارا فى يوم واحد وأن يطعن دولة الأخمينيين الطعنة الأخيرة . « وما كان ربك

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[١] .

وانتشرت فتوح الإسكندر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولاح أن الدولة العالمية التى كان يحلم بها وشيكة التحقيق ، ولكن الإسكندر مات وهو فى طريق عودته من الهند إلى بابل ، ومات بموته حلم الفلاسفة فى إقامة جمهورية المدينة الفاضلة .

وقسمت دولة الإسكندَر بين قواده ، فقد كانت النفحة الروحية التى نفخها الفلاسفة فى أرواح المريدين أوهن من تلك النفحة الروحية التى يبعثها الدين فى نفوس معتنقيه . ولم تطل تلك النهضة الروحية أكثر من عمر الإسكندر ، وارتدت البشرية إلى جمود الكهان ومجوس الفرس ووثنية النبط وأرباب اليونان فى جبل أوليمب وآلهة المصريين من عجول وتيوس وقطط وثعابين . وراحت الحضارة تترقب قيام رسول كريم يخرجها من ظلمات المادية الطاغية إلى رحابة الروح .

وقامت فى روما دولة الرومان وقد ارتكزت فى نشأتها على دعامة الدين ، وانتشرت فى الأرض تقضى على اليونان واليهود والنبط والمصريين والفرس ، وعلى مر الأيام ساد الظلم فى الأرض واستعبد الإنسان ونشر الرومان الفسق واللواط فى البلاد التى خضعت لهم ، وغرقت الحضارة فى ظلمات المادة ، ومن خلال ذلك الليل السرمدى أشرق نور السيد المسيح .

كانت المادية طاغية فكانت رسالة السيد المسيح روحية خالصة ليحدث التعادل بين المادة والروح ، فالنفحة الروحية ملح البشرية لا تصلح إلا بها ،

---

(١) هود ١٧٧

وراح السيد المسيح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وإلى التوبة : « توبوا فقد اقترب الملكوت » وقال لهم إن الملكوت هو كلام الله على الأرض ، وراح يبشر برسول يأتى من بعده اسمه « البارقليط » .

وقد اختلف المسلمون والمسيحيون فى ترجمة « بارقليط » وقد ترجمت جمعية التوراة الأمريكية هذه الكلمة « بالمعزى » وترجمها علماء المسلمين منذ آماد بعيدة « بأحمد »، وقد جاء فى كتاب « محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء » للأستاذ محمد عبد القادر الهاشمى الأفغانستانى بارقليط = كنسلانتر فى اللاتينية ، وباركلتس فى الرومية ، وبارقليط وباركلى توسى وبيركلى توسى فى الرومية ، وفارقليط فى السريانية ، وبارقليطون فى اليونانية ، وبارقلوطون أصل اليونانية ، وخلص إلى أن اللفظ فى السريانية واليونانية بمعنى أحمد ومحمد ومحمود .

وقال أحد النقاد المسيحيين الأفاضل عندما كان ينقد كتابى « المسيح عيسى بن مريم » : إنه رجع إلى القاموس اليونانى وبحث عن معنى « براقليط » فوجد أنها تعنى من يدافع عن آخر يوم الدينونة ، ومن يشفع لآخر يوم الدينونة ، ولم يقل سيادته باختصار « الشفيع » .

« وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »(٢) .

ورفع السيد المسيح من الأرض بعد أن بذر فيها بذرة روحية قوية قادرة على أن تطور البشرية وتدفعها أشواطا فى طريق رقيها ، واستمر قياصرة روما

---

(١) هود ١١٧ (٢) الصف ٦

فى غزو سورية ومملكة النبط وإسرائيل وأرض اليهودية ، ونجح الرومان فى إزالة إسرائيل والقضاء على النبط بينا كان الدين الذى جاءهم من سورية يغزو قلوب الرومان .

واعتنق الرومان ذلك الدين الذى دعاهم إليه بولص ، وكان مزيجا من الدين والفلسفة وأساطير الأولين . وانقسم أتباع ذلك الدين إلى طوائف وشيع وانقلبت الوحدانية الرائعة التى جاء بها السيد المسيح — كما قال « ول ديورنت » فى كتابه قصة الحضارة — لدى عامة الشعب شركا ؛ وطال على الناس العهد فقست قلوبهم وعبدوا ما كان يعبد آباؤهم قبل أن يهتدوا إلى الدين القويم .

وانتعشت مرة أخرى ديانة زرادشت فى فارس فقامت على أكتافها دولة الساسانيين التى راحت تناوئ الرومان ، وقامت بين فارس وروما حروب ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وكانت مكة فى ذلك الوقت منارة التوحيد ، ظلت على دين إبراهيم الخليل ولكن المكيين قد جلبوا أصنام الشعوب التى كانوا يتاجرون معها ووضعوها فى جوف الكعبة وقالوا إنها بنات الله وإنهن يشفعن إليه ، وبذلك سادت الجاهلية فى الأرض .

وظهر الفساد فى البر والبحر ، وجثم الظلم على أنفاس الناس ، وبدا أن العالم فى حاجة إلى انتفاضة روحية وإلى أسوة حسنة تحتقر المادية التى أصبحت إلـه العالم ، فبعث الله رسوله محمدا ﷺ يدعو الناس كافة إلى الإسلام وأنزل عليه قرآنه ليكون نبراسا للناس إلى يوم الدين .

وانتصر الإسلام بفضل النفحة الروحية التى عمرت بها أفئدة المؤمنين على

الفرس والرومان . « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(١) « تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا »(٢) .

واستمر ركب التاريخ فى سيره ، تقوم الدول بانتفاضات روحية وتموت الدول بالإغراق فى المادة والترف والفسق والفجور . تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقبل أن أختتم هذا التذييل أحب أن أشير مرة أخرى إلى الصعوبة التى يعانيها كاتب تاريخ هذه الحقبات ، فى معرفة الأسماء العربية الصحيحة لملوك الدول التى تتصارع على مسرح الحياة لتكوين مادة قصة الحضارة ، وقد قاسيت كثيرا لمعرفة أسماء ملوك النبط ، فقد ذكر الدكتور جواد على فى كتابه « العرب قبل الإسلام — الجزء الثالث » أن زعيم العرب الذى ورد اسمه فى التوراة لما نشبت العداوة بين النبط والمكابيين هو ملك النبط « الحارث » أو « حارثة » الأول ، وقد سمى باسم الحارث الثانى والثالث والرابع . وقد وجدت أن ابن خلدون يدعوه « هرثمة » بينما يدعوه « يوسيفوس » هريمة ، وقد طاف بذهنى أن هريمة قد يكون فى الأصل خزيمة وكدت أركن إلى هذا الظن ولكنى رأيت أن آخذ بما قاله ابن خلدون فأطلقت اسم هرثمة على ملوك النبط الذين أطلق عليهم الدكتور جواد على « الحارث أو حارثة » الأول والثانى والثالث والرابع .

وقد اختلف الإخباريون العرب فى قريش فقال فريق منهم : قريش هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ، دون بنى كنانة ومن فوقه .

وقال فريق : إن قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر ، فكل من لم يلده فهو

ليس بقرشى .

وقد أخذت بالقول الأول لأنه أصح وأثبت ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا ولد النضر بن كنانة ، لا تقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا ».

وقيل إن التقريش هو الاكتساب، وتقرشوا تجمعوا ، وقد أخذت بالقول القائل إن النضر قد جمع العدنانيين فى الحرم بعد أن كانوا متفرقين فى الأرض ، ولعل ذلك حدث بعد أن هزم الرومان النبط وفر النبط من اضطهاد الذين استبدوا بهم وقيدوا حرياتهم .

ورأى أن تاريخ هذه الحقبة لن يتضح قبل أن يميط الباحثون اللثام عن وجه حضارة النبط ، وأن القليل الذى اكتشف فى البتراء قد كشف عن حقائق كانت مغمورة فى الأساطير ، فقد كان الإخباريون يقولون : كانت هناك صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف وكانت تسمى صخرة اللات (أى الذى يلت العجين) فلما مات هذا الرجل قال لهم عمرو بن لحى : إنه لم يمت ولكن دخل فى الصخرة ، وأمرهم بعبادتها وأن يبنو عليها بيتا يسمى اللات .

أما الآن فقد عرف أن اللات كانت الإيلات وكانت تعبد فى أرض النبط على أنها زوجة الإلـٰه « الإيل »، وقد نطقت الليلات ثم اللات ، وكان يرمز إليها بالشمس ، ويوم يكتشف تاريخ النبط ـــ وهم أصل القرشيين كما قال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط » سنعرف الكثير عن نشأة لغة القرآن وعن عادات القوم وآلهتهم عوضا عن الأساطير التى تفيض بها كتب الإخباريين والمؤرخين العرب .

القاهرة فى : ١٢ / ١٠ / ١٩٦٦

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

تاريخ الأمم والملوك — للطبرى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — للحافظ أبى الطيب الفاسى

مختصر دراسة للتاريخ — تأليف أرنولد توينبى — ترجمة فؤاد محمد شبل

قصة الحضارة — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران

تاريخ العرب قبل الإسلام — الدكتور جواد على

زرادشت الحكيم — حامد عبد القادر

محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء — تأليف محمد عبد الغفار الهاشمى

محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن — إبراهيم خليل أحمد

السيرة النبوية — لابن هشام

بلوغ الأرب — للألوسى البغدادى

عيون الأخبار — لابن قتيبة

حياة المسيح — لعباس محمود العقاد

The Jew of Tarsus. Hugh J. Schonfield.

The Jewish Background of the Christian Liturgy, Oesterley.

From Jesus to Paul, Klausner..

محمد رسول الله والذين معه

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٢١٩١
الترقيم الدولى × — ١١٧ — ٣١٦ — ٩٧٧